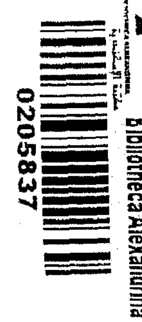
تـاريـخ المصـريـين ١٦١

السّيفُ وَالنارُ في السّــودان

تأليف

سلاطين باشا





الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٩

تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب



السيف والنار في السودان

تأليف

سلاطين باشا

وتعريب جريدة البلاغ

مكتبة الحرية

ام درمان ـ السودان



١٩٩٩

الاخراج الفنى

محمود الجزار

تقـــديـــم

يسرنى ان اقدم للقارىء العزيز هذا الكتاب المهم : « السيف والنار فى السودان » الذى كتبه سلاطين باشا ، وقامت بتعريبه جريدة البـــلاغ ، وطبعته مكتبة الحرية بأم درمان عام ١٩٣٠ ، وها هى الطبعة الثانية تصدر فى سلسلة « تاريخ المصريين » .

واهمية هذا الكتاب تنبع من انه وثيقة نادرة من اهم الوثائق التى نشرت عن الحوادث التاريخية التى جرت فى مصر والسودان فى فترة السيطرة المهدية على السودان ، وقد كتبه ضابط نمساوى هو سلاطين باشا الذى كان حاكما لدارفور عام ١٨٨٤ واعتقلته جيوش المهدى ، فادعى الاســـلام ، وفـــر الى الجيش المصرى واشترك معه فى استرداد دنقلة وأم درمان ، وظل موظفا فى خدمة حكومة السودان حتى عام ١٩١٤ حين نشبت الحرب العالمية الأولى ، فترك الخدمة وعاد الى النمسا ، وعندما عقدت الهـــدنة سنة ١٩١٨ انتدب عضوا فى بعثة مؤتمر الصلح فى باريس .

وقد تناول سلاطين باشا فى هذه المذكرات قصة الأحـــداث التى شاهدها بعينه وشارك فى صنعها منذ استدعـــاه الجنرال جوردون الى السودان للعمل فى خدمة الحكومة المصرية . فقـــد تحدث عن الثورة فى جنوبى دارفور و وحصار الأبيض وسقوطها فى يد جيش المهدى ، وحملة هيكس باشا الفاشلة على كوردوفان ، وسقوط دارفور ، وحصار الخرطوم وسقوطها ، ثم حكم الخليفة

عبد الله ، وحملة الأحباش بقيادة الملك حنا ، وحملة ابن النجومى على مصر ، وهزيمته فى واقعة توشكا سنة ١٨٨٩ .

ويختتم سلاطين باشا كتابه بفصل خاص عن فراره من الأسر الذى قضى فيه ١٢ عاما ، وتقييمه للحكم المهدى ، مع تحليل بديع له انتهى فيه الى ان الفظائع التى ارتكبها الخليفة عبد الله المهدى وأتباعه قضت على نحو ٧٥٪ من مجموع السكان فى السودان ، اما بالحرب ، واما بالجوع ، واما بالأمراض الوبائية ! أما الربع الباقى فلم يكن عند نهاية حكم المهدى أفضل حالا من الرقيق ! وهو ما جعل السودانيين يذكرون ليل نهار فضائل الحكم المصرى !

وأملى أن يجد القارىء العزيز فى هذا الكتاب ما ينشد من فائدة ومتعة .

والله الموفق

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

لما كان التاريخ لا يخفى وله الأهمية القصوى للأجيال القادمة لكى يهتدوا على ما كان عليه سلفهم آلينا على انفسنا بطبع كتاب السيف والنار عندما استطعنا الحصول على النسخة الأصلية .

نسأل الله أن يكون عملنا هذا فيه خدمة للسودان الحبيب والله ولى التوفيق ..

مكتبة الحرية ام درمان

تمهيـــد

وعدنا فى التمهيد الذى وضعناه لكتاب « التـاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » لمستر ويلفرد سكاون بلنت أن نصدر من بعده كتاب « السيف والنار فى السودان » لسلاطين باشا . وهذان الكتابان يعدان من المستندات التاريخية التى لا بد من الاطلاع عليها لمعرفة الحوادث التى تقلبت على مصر والسودان من خمسين سنة وهى الحوادث التى مازلنا نعانى نتائجها الى الآن .

فاليوم ها نحن نبرز كتاب « السيف والنار فى السودان » وفاء بذلك الوعد ورغبة فى أن تكون له الفائدة المرجوة فى خـدمة تاريخ مصر الحديث .

وسلاطين باشا ، مؤلف هذا الكتاب ، هو ضابط نمساوى ولد سنة ١٨٥٧ م فى فينا وجاء الى مصر سنة ١٨٧٨ م ودخل فى خدمتها فعينه غوردون باشا حاكماً لدارفور سنة ١٨٨٤ ولكن لم يمض عليه فى منصبه هذا قليل حتى اعتقلته جيوش المهدى فبقى أسيراً يـَدعى الاسلام والايمان بالمهدوية الى سنة ١٨٩٥ م وحينئذ فر الى الجيش المصرى واشترك معه فى استرداد دنقلة وأم درمان .

وبقى سلاطين باشا بعد ذلك موظفاً فى حكومة السودان بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٤ ثم أعلنت الحرب العالمية فترك الخدمة فى السودان وعاد الى النمسا ودخل فى خدمة الصليب الأحمر .

ولما عقدت الهدنة سنة ١٩١٨ انتدب عضواً فى بعثة الصلح فى باريس .

وقد نقل هذا الكتاب الى اللغة الانجليزية السر ونجت باشا الذى كان حاكماً للسودان ثم معتمداً لانجلترا فى مصر . وهذه الترجمة الانجليزية هى التى اعتمدنا عليها فى التعريب .

٢٦ يوليه ١٩٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الاول

تمهيـــد

فى يوليه سنة ١٨٧٨ عندما كنت ملازماً فى آلاى ولى العهد رودلف عند حدود البوسنة تسلمت خطاباً من الجنرال غوردون يدعونى فيه أن أذهب الى السودان وأشتغل فى خدمة الحكومة المصرية تحت ادارته ·

وكنت فى سنة ١٨٧٤ قد سحت فى السودان عن طريق أسوان فذهبت الى كورسكو وبربر ووصلت الى الخرطوم فى شهر أكتوبر من تلك السنة وعرجت على جبال النوبة وبقيت مدة قصيرة فى دلين حيث كان مركز الرسالة الكاثوليكية النمسوية . ومن هنا خرجت فى اكتشاف جبال جرلفان نايمة وجبال كاديرو ، وكنت أود أن أطيل بقائى فى هذه الأصقاع ولكن حال دون ذلك قيام عرب الحوازمة . ولما لم تكن لى مهمة سوى السياحة فان الحكومة طلبت عودتى الى

الأبيض عاصمة كردوفان . وكان قيام هؤلاء العرب ناتجاً عن جباية الضرائب الفادحة التى فرضتها عليهم الحكومة . وقد أخمدت الحكومة هذه الحركة بسرعة ولكنى لهذه الظروف لم أر من الصواب الرجوع الى النوبة وعلى ذلك قررت السفر الى دارفور .

وفى ذلك الوقت كان حاكم السودان العام اسماعيل باشا أيوب مقيماً فى الفاشر عاصمة دارفور وعندما بلغت الكاجه والقاطول وجدت ما خيب رجائى فان الحكومة نشرت منشوراً منعت فيه دخول الأجانب فى هذا القسم من السودان لأنه كان حديث العهد بالخضوع للحكومة وكان يخشى على حياة الأجانب فيه . فرجعت بلا توان الى الخرطوم حيث عرفت أمين باشا (وكان فى ذلك الوقت الدكتور أمين) وكان قد اتى من مصر حديثاً فى صحبة من يدعى كارل فون جرم .

وكان الجنرال غوردون حاكماً عاماً لمديريات خط الاستواء وكان مقيماً فى لادو فكتبنا اليه نطلب منه أن يشير علينا بما يراه . وبعد شهرين جاءنا جوابه يدعونا الى زيارته ولكن فى هذا الوقت وافانى خطاب من أسرتى فى فينا وهم يحثوننى على الرجوع الى أوروبا . وكنت أعانى مرض الحمى وكان لا يزال باقياً على سنة فى الخدمة العسكرية فقررت الرجوع والنزول على رأى افراد أسرتى .

أما الدكتور أمين فقد قبل دعوة غوردون وشرع فى السفر الى الجنوب كما شرعت أنا فى السفر نحو الشمال . وقبل الافتراق رجوت أمين ان يذكرنى بالخير أمام غوردون وقد فعل . وكان ايصاؤه بى لديه سبباً فى ذلك الخطاب الذى ذكرت أنى تسلمته وأنا بالبوسنة بعد ذلك بثلاث سنوات .

وبعد وصول أمين منحه غوردون رتبة بك وعينه حاكماً لمدينة لادو . وعند سفر غوردون تعين حاكماً عاماً لمديريات خط الاستواء ، وبقى فى هذا المنصب الى سنة ١٨٨٩ حيث عين مستر ستانلى مكانه .

وعدت أنا الى مصر عن طريق صحراء بيوضه ثم دنقلة ووادى حلفا وبلغت النمسا حوالى سنة ١٨٧٥ .

وقد فرحت عندما تسلمت خطاب غوردون الذى وصل الى ونحن فى حرب البوسنه واشتقت الى أن أعود الى السودان معيناً فى منصب ما . ولكن لم يؤذن لى بالسفر الا فى ديسمبر سنة ١٨٧٨ عندما انتهت الحرب وعادت فرقتى الى برنسبرج فأخذت فى التهيؤ مرة أخرى للسفر الى افريقيا .

وكان أخى هنرى فى الهرسك فقضيت ثمانية أيام فى فينا أودع أفراد أسرتى ثم ذهبت الى تريستا فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٧٨ وأنا اجهل تماماً انه سيمضى على ١٧ سنة أرى فيها الأهوال والغرائب قبل أن أرى بلادى ثانياً . وكان عمرى اذ ذاك ٢٢ سنة .

ولما بلغت القاهرة تسلمت تلغرافاً من جيجلر باشا بالسويس وكان قد عين مديراً لمصلحة التلغرافات بالسودان وكان على وشك أن يسافر الى مصوع لكى يفتش على الخط بين هذه البلدة وبين الخرطوم . وقد دعانى الى السفر معه الى سواكن فقبلت بكل سرور الانتفاع بهذه الفرصة التى تكرم فأتاحها لى . وافترقنا فى سواكن فذهب هو على ظهر الباخرة الى مصوع وشرعت أنا أهيىء نفسى للسفر الى بربر على الجمال . وقد عاوننى علاء الدين باشا الذى كان حاكماً فى ذلك الوقت والذى كان بعد ذلك فى صحبة

هكس باشا الذى قتل مع الجيش المصرى بأجمعه عندما اصطدم به جيش المهدى فى شيكان فى نوفمبر سنة ١٨٨٣ .

ولما بلغت بربر وجدت فى انتظارى ذهبية بأمر الجنرال غوردون فنزلت اليها ووصلنا الى الخرطوم فى ١٥ يناير سنة ١٨٧٩ . وقد لقيت هنا احتراماً ورعاية اذ قد خصنى غوردون بدار ليست بعيدة عن القصر وأنفذ الىّ من يدعى على افندى لكى يقوم بقضاء ما احتاج اليه . وكنت فى اجتماعى بالجنرال غوردون اسمعه يتحدث عن الضباط النمسويين الذين عرفهم فى طولطشة عندما كان فى بعثة الدانوب وكان يحفظ لهم فى قلبه أجمل ذكرى . وأتذكر قوله لى : أنه من الخطأ أن نغير ملابسنا البيضاء السابقة بملابسنا الزرقاء الراهنة .

وعيننى غوردون مفتشاً مالياً وطلب الى أن اقوم بالتفتيش فى البلاد وافحص شكايات السودانيين الذين كانوا يعارضون فى دفع الضرائب التى لم تكن تعتبر فادحة . واطاعة لهذه الأوامر قمت الى سنار وفازوغلى عن طريق المسلمية ، وعرجت على جبال قوقيلى ورجرج وكاشانكيرو القريبة من بنى شنغول ثم رفعت تقريرى الى الجنرال غوردون وأوضحت فى هذا التقرير أن الضرائب غير عادلة وأن معظمها يقع على عاتق أصحاب الأملاك الصغيرة من الأرض . أما كبار الملاك فكان من السهل عليهم أن يرشوا الجباة بمبالغ صغيرة فينجوا من الضرائب الا ما قل منها . وعلى هذا كان مقدار كبير من الأرض لا تؤخذ عليه الضريبة بينما يقوم الفقراء بسد العجز ودفع ضرائب ثقيلة عن املاكهم . وأبنت فضلا عن هذا النظام السيىء أن الأهالى مستاءون من الطرق الجائرة التى يتبعها جباة الضرائب وجلهم من الجنود والباشبوزق والشايجية . ولم يكن هم هؤلاء الموظفين سوى الحصول على الثروة بأسرع ما يمكنهم على

حساب السكان التعساء الذين كانوا يخضعون لسلطتهم الوحشية القاسية .

وكنت كثيراً ما أجد خلال أسفارى أن الأراضى التى يملكها الموظفون ومعظمهم من الأتراك والشايجية لا تجبى عليها ضرائب ما . وعندما كنت أسأل عن علة ذلك كان يقال ان هذا امتياز للموظفين لما يقومون به من الخدمة للحكومة ، وقد كانوا يستاءون أشد الاستياء عندما أقول لهم انهم يتناولون أجرا على هذه الخدمة .

ولكنى عندما قبضت على البعض منهم أقروا جميعا بأنهم متأخرون فى دفع الضرائب . ووجدت فى المسلمية وهى بلدة تجارية كبيرة تقع بين النيلين الأبيض والأزرق جماعة من النساء فى سن الشباب وكان يملكهن أغنى التجار وأكثرهم اعتبارا ويؤجرونهن للأغراض السافلة بأجور عالية . وكان هذا العمل من التجارات الرابحة ووقعت فى حيرة لا أدرى كيف أفرض الضرائب على هذه المنازل ، ولا أية خطة يجب اقرارها . وانى أعترف بأن تجاربى الماضية ومعارفى قد خذلتنى فى هذا الموضوع . وشعرت عندئذ بعجزى التآم عن القيام بأى اصلاح ، ولم يكن لى من الخبرة بالشئون المالية سوى القليل أو العدم ، فلذلك وجدت من العبث أن أستمر فى عملى وقدمت استقالتى .

وكان غوردون قد سافر فى هذه الأثناء الى دارفور بخصوص البحث عن الحملة التى أرسلت لمقاتلة سليمان بن الزبير باشا . ولكنه كان قبل أن يسافر قد رقى جيجلر الى رتبة باشا وعينه حاكماً عاماً مدة غيابه . فانتهزت الفرصة وأرسلت اليه مع البريد تقريرى واستقالتى وتسلمت بعد مدة قليلة تلغرافاً منه يوافق فيه على استقالتى من منصب المفتش المالى .

وقد ارتحت كثيراً الى تخلصى من هذا الواجب الكريه ، ولم أشعر بوخز الضمير لتركى هذا المنصب لأنى شعرت بعجزى التام عن معالجته اذ كان فاسداً من الرأس الى العقب .

..

وبعد ذلك بأيام تسلمت من غوردون تلغرافاً عيننى فيه مديراً لداره ، وهى تحتوى على الجزء الجنوبى الغربى لدارفور ، وأمرنى بأن أقوم اليها فى الحال لأنه كان على ان أقود حملة عسكرية لمقاتلة السلطان هرون ابن السلطان السابق وكان يسعى للاستقلال ببلاده والخروج على الحكومة المصرية . وطلب منى غردون أيضا أن أوافيه حين رجوعه من سفره الى مكان بين الأبيض وطرة الحضرة على النيل الأبيض . فأرسلت جمالى الى هذا المكان حيث كانت باخرة غردون فى انتظاره ونزلت أنا الى الباخرة التى سارت بنا الى طرة الحضرة حيث خرجت وركبت مدة ساعتين حتى بلغت محطة أبى جراد التلغرافية وعلمت من هناك أن غردون لا يبعد عنا سوى اربع ساعات أو خمس وأنه كان فى طريقه قاصداً بلوغ النيل . فركبت ثانياً وسرت ولم يمض على بضع ساعات حتى لقيته قاعداً فى ظل شجرة كبيرة وكان يبدو عليه التعب والاعياء ويشكو من تورم قدميه . وكان معى لحسن الحظ قليل من الكونياك أحضرته معى من الباخرة فانتعش منه واستعد لاستئناف السفر . وطلب منى أن أرجع معه الى الحضرة لكى نتباحث معاً فى مسألة دارفور ولكى يعطينى التعليمات الضرورية . وقد عرفنى الى شخصين من حاشيته وهما حسن باشا حلمى الجويزر الحاكم العام السابق لكردوفان ودارفور ويوسف باشا الشلالى وكان هذا آخر من انضم الى جيشى فى حملته لمقاتلة سليمان زبير والنخاسين . وامتطينا الدواب ولكن غوردون حث دابته حتى ما استطعنا أن ندركه . وبلغنا طرة الحضرة ووجدنا جمالنا التى تحمل أمتعتنا والتى كنا قد أرسلناها قبل قيامنا قد وصلت قبلنا . وأرست

الباخرة فى وسط النهر وعبرنا نحن الى البر فى قوارب . وكنت انا فى مؤخرة القارب ويليني يوسف باشا الشلالى ولما كنت أنا عطشان وكان بجانبه كوز رجوته أن يملأه من النهر ويناولنيه حتى اشرب . ورأى غوردون ذلك فابتسم والتفت الى وقـــال لى بالفرنسية : « الا تعرف أن يوسف باشا على الرغم من وجهه الأسود فى مركز أعلى من مركزك ؟ كان يجب الا تطلب منه أن يسقيك » فاعتذرت بالعربية الى يوسف باشا وقلت له انى طلبت منه الماء وأنا غائب الذهن فأجابنى بأنه مسرور لأن يخدمنى .

ولما وصلنا نزلت أنا وغوردون فى الاسماعيلية ونزل يوسف باشا وحسن باشا فى الباخرة الثانية بردين . واخذ غوردون يشرح لى حالة دارفور شرحاً وافياً وقال لى : انه يرجو أن توفق الحملة فى الانتصار على السلطان هرون ، لأن البلاد مضى عليها مدة طويلة من الزمن وهى فى حروب وسفك دماء وأنها لذلك فى أشد الحاجة الى السلام والراحة . وأخبرنى أيضا أن حـملة جسى الموجهـة ضد سليمان زبير ستنتهى قريباً وأنه لن يمضى عليه زمن طويل حتى يقتل أو يهزم ، لأنه قد فقد معظم من عنده من البازنجر أو حملة الاقواس وأنه من المحال أن يصمد أمام الخسائر التى اوقعها به جسى . وكانت الساعة فوق العاشرة عندما ودعنى غـوردون . وكان قد أمر باشعال النار لأنه كان ينوى السفر الى الخرطـوم وعندما سلمت وتنحيت قال لى :

« فلترافقك السلامة يا عزيزى سلاطين وليباركك الله . انى واثق بأنك ستعمل جهدك مهما كانت الظروف . وربما عدت انا الى انجلترا ولعلنا نتلاقى بعد » .

وكانت هذه الكلمات آخر ما سمعت منه ولكن من كان يمكنه أن يتصور ذلك القدر الذى كان مدخراً لكل منا ؟ وشكرته أنا لتلطفه ومعاونته وعندما بلغنا الشط انتظرت هناك حتى تقوم الباخرة ثم ما هى الا دقائق حتى سمعت ذلك الصفير الحاد ورفعت المرساة وتحركت الباخرة وولت ومعها غوردون وقد ذهب بعيداً عنى الى الأبد .

وفى صباح اليوم الثانى ركبت الجواد الذى اعطانيه غوردون وقد حملنى أربع سنوات بعد ذلك فذهبت الى أبو جراد ومنهـا سافرت الى أبو شوكه وخوصى ثم الى الأبيض حيث يوجد الدكتور زوربخين المفتش الصحى وكان على وشك أن يسافر الى دارفور فاتفقنا على السفر معاً الى داره ، ثم استأجرنا الجمال بمساعدة على بك شريف حاكم كوردفان وبينما نحن على وشك الرحيل اذا به يناولنى رسالة تلغرافية تنبىء بسقوط سليمان زبير فى داره فى ١٥ يوليه سنة ١٨٧٩ كما كان قد تنبأ غوردون عندما قال لى انه لابد خاضع أو مهزوم .

وهنا يجب أن اذكر أنه عندما فتح زبير باشا دارفور تركهـا لعناية ابنه سليمان وسافر هو الى القاهرة . وفى سنة ١٨٧٧ عين غوردون سليمان هذا حاكماً على بحر الغزال ولكن نشأ خـلاف بينه وبين من يدعى ادريس أبتر أحد أهالى دنقلة وكان زبير باشا قد وكل اليه العناية ببعض المسائل . ولكن أسرة زبير تنتمى الى قبيلة الجعالين الذين كان بينهم وبين الدناقلة تحاسد وتباغض . وانى أعتقد ان كثيراً من القلق فى السودان يرجع الى هذه الحقيقة .

فان سكان مديريه بحر الغزال خليط من قبائل الزنوج التى كانت مستقلة كل منها عن الأخرى حتى جاءهم عرب الدناقلة وعرب

الجمالين فاتحين بغية الاتجار بالعبيد . وينسب عرب الجعالـــين أنفسهم الى عباس عم النبى وهم يفخرون بهذا النسب ويباهون الدناقلة به . والدناقلة ينتمون فى زعمهم الى العبد دنقل . والمأثور أن هذا الرجل على الرغم من أنه كان عبداً قد ارتفع الى أن صار حاكم النوبة وان كان مع ذلك يدفع خراجاً لبهنسة الأسقف القبطى للبلاد الواقعة بين سراس ودبا . وقد أسس دنقل هذا بلدة سماها دنقلة ، وصار سكان هذا القسم بعد ذلك يدعون دناقلة . وغالبيتهم من أصل عربى ولكنهم لاختلاطهم بالسكان قد فقـــدوا مرتبتهم . وهم بالطبع يؤكدون انتسابهم للعرب ولكن الجعالين لا ينفكـــون يذكرون أن أصلهم من العبد دنقل ويعاملونهم بالاحتقار والازدراء . ويجب على القارىء أن يذكر هذه العلاقة بين الجعالين والدناقلة لأنه يتوقف على فهمها فهم كثير من حوادث السودان التى وقعت بعد ذلك .

وانتهى الخلاف بين سليمان زبير وادريس الى شجار . فشكا ادريس سليمان فى الخرطوم وطلب معاونة الحكومة وحصل على جيش بقيادة جسى باشا ثم تلا ذلك تلك الحملات التى انتهت بسقوط سليمان فى بحر الغزال . وكان جسى قد وعده بالابقاء على حياته ولكن الدناقلة دسوا له فاعدم . وكان له شريك يدعى رابح لم يسلم معه خوفاً من انتقام الدناقلة . فأخذ كوكبة من الجنود وسار بهم فى الشمال الغربى فأخذ يجازف ويقتحم الأهوال حتى بلغ قطراً قريباً من بحيرة تشاد فاستولى عليه وصار ذا خطـــر عظيم فى حظوظ القارة السوداء .

وهناك مسألة اخرى يجب علىّ ذكرها بخصوص الخلافات بين القبائل لما لها من الأثر فى حوادث السودان التى وقعت بعد ذلك والتى يحسن لذلك شرحها مع بعض التفصيل .

. لما زار غوردون دارفور زيارته الثانية عرف وتحقق من أن تجار الأبيض السودانيين يبيعون الأسلحة والبارود للثائر سليمان وكانوا بالطبع يعطفون عليه لما ينالون منه من الربح . وكانت هذه الذخائر الحربية ترسل بواسطة الجلابة أو صغار التجار بين الأبيض وبين بحر الغزال وكان هؤلاء يربحون منها ربحاً عظيماً مثال ذلك أن ثمن البندقية ذات الانبوبتين كان من ستة عبيد الى ثمانية . وكان ثمن صندوق الخراطيش عبداً أو عبدين . وقد حاول الموظفون فى الأبيض وقف هذه التجارة ولكن الصعوبات كانت عظيمة . وكانت قبائل العرب الرحل تسكن المراكز الواقعة بين كردوفان وبحر الغزال . وكان بين هؤلاء العرب قبائل الرزيقات والحوازمة والحمر والمسيرية . وكان من السهل على التجار الجلابة أن يخرجوا قوافل صغيرة وأن يجتازوا ويختبئوا فى الغابات الكثيرة التى لم يكن يسكنها أحد . واذا اتفق أن موظفا مصريا التقى بهم فانه كان يمكن التغلب عليه برشوة صغيرة .

وكان غوردون يعرف كل هذا ؛ ولذلك أمر بوقف التجارة بكل انواعها بين بحر الغزال والأبيض . وأمر كذلك التجار بترك المراكز الواقعة جنوب الأبيض والطويشة وطريق داره وحصر تجارتهم فى الجزء الشمالى والغربى ما دامت الحرب دائرة فى بحر الغزال . ولكن على الرغم من الدقة التى اتبعت فى تنفيذ هذه الأوامر كان الربح الناتج عن التجارة مع سليمان أكبر وأقوى اغواء من أن تقفه هذه الأوامر حتى كان التجار لا يعبأون باكتشاف أمرهم . ولم يكن فى يد الحكومة ما يمكنها من أن توقف هذه التجارة التى زادت بدلا من أن تنقص بعد ذيوع هذه الأوامر . فعمد غردون لهذا السبب الى وسائل حاسمة وأمر المشايخ والعرب بأن يقبضوا على التجار الجلابة ويرسلوهم بالقوة الى داره وطويشة وأم شنجه والأبيض والقى عليهم تبعة وجود الجلابة فى بلادهم بعد تاريخ معين .

• وانتهز العرب الحريصون هذه الفرصة وأخـذوا ينهبـون الجلابة بل التجار الوادعين الذين عاشوا بينهم زمناً طويلا والذين لم يكن لهم أقل دخل فى تجارة المهربات الحربية . فجمعوا القمح والزوان بلا تمييز وربحوا بذلك ربحاً عظيما • فما هو أن ذاعت أوامر غوردون حتى حمل العرب على التجار حملة عامة فلم يأخذوا منهم تجارتهم فقط بل أخذوا كل ما يملكونه حتى جردوهم من كـل شيء وساقوهم كالبهائم وهم تقريباً عراة يعدون بالمئات الى طوبشة وداره وأم شُنجه . وكان هذا عقاباً عظيماً لهم على مساعدتهـم أعداء الحكومة .

وكان كثير من هؤلاء التجار قد اقاموا بين العـرب سنوات وكان لهم زوجات وأولاد وسريات وأملاك كبيرة وقعت كلها فى أيدى العرب . والحق أن هذا الانتقام من هؤلاء التجار الـذين كانوا يتجرون بالمهربات الحربية وبالعبيد كان هائلا وان كانـوا هـم يستحقونه على مبدأ السن بالسن والعين بالعين . وكانت نتائج هذا العمل بعيدة المدى . وذلك لأن معظم هؤلاء الجلابة كانوا من الجعـالين الذين ذكرناهم فانغرست بينهم من ذلك الوقت وبين العرب الذين أذلوهم وأباحوا تجاراتهم عداوة لا تزال مستمـرة للآن والدلائل تدل على أنها فى ازدياد لا فى تناقص .

ولو اعتبرنا المروءة والانسانية لقلنـا ان هذا الاعتداء على الجلابة يستحق المناقشة من حيث عدالته . ولكن عند تدقيق الفحص نجد أن الظروف لم تكن تسمح بمعالجة هذا الظـرف الاستثنائى بالوسائل السياسية أو بروح العطف الانسانى فانه لم يجـد فى الحالة وقتئذ سوى اتخاذ اجراءات شديدة فعالة . والعرب أنفسهم يقولون : « نار الغابة تلزمه الحريقة » يعنون بذلك أنه اذا شبت النار فى الغابة لم يكن سبيل النجاة منها الا باحراق جزء من الغابة

بحيث اذا وصلت النار الكبرى لا تجد ما تأكله فينجو الإنسان منها بوقوفه في المكان الذى أحرقه هو نفسه . وهذا المثل يقبل التطبيق على الحالة التى ذكرناها .

ولما كان لهؤلاء التجار الجلابة (وجلهم من الجعالين والشايقية والدناقلة) أقارب فى وادى النيل وكان لهم أصدقاء يشتركون معهم فى النخاسة وسائر التجارة أوجدت أوامر غوردون سخطاً بينهم اذ لم يكادوا يفهمون العلة فى ضرورة اتخاذ هذه الاجراءات الشديدة .

الفصل الثانى

اقامتى فى دارفور وتاريخها السابق

غادرنا الابيض انا والدكتور زربوخين المفتش الصحى الذى كنت قد قابلته فى القاهرة وكانت مغادرتنا للأبيض فى يوليو سنة ١٨٧٩ فأخذنا طريقنا الى الفوجة آخر محطة تلغرافية ، وهنا تسلمت رسالة تلغرافية من غوردون يقول لى فيها انه مسافر الى الحبشة فى مهمة مع الملك يوحنا .

ولما بلغنا ام شنجه وجدناها مزدحمة بالجلابة الذين طردوا من الجنوب وكانت حالتهم تبعث على الشفقة . ومن الغريب أنــه شاعت عنى اشاعة مقتضاها أن غوردون خالى ، ولعل سبب ذلك زرقة عينى وانى كنت حليقاً ، وكان الجلابة ينظرون الى بعين الخوف لهذا السبب وكانوا يعدون غوردون أصل بلائهم الحاضر . وأخذوا يغمروننى بالعرائض لمعاونتهم فاخبرتهم بأن أم شنجه ليست داخلة ضمن نطاق أعمالى ، ولذلك لا يمكننى مساعدتهم . وقلت أيضاً انه لو كان فى مقدورى مساعدتهم من مالى الخاص لما فعلت .

وقد خالفت هذه القاعدة فى حالة واحدة ولكن قبل أن اقص هذه الحادثة يجب أن أقول : انه لا ينبغى الحكم على عملى من وجهة

الآداب المسيحية فقط بل أنا أقر بأنى خرجت عن حدود الشريعة الاسلامية ولكن عندما يقرأ القارىء القصة بأجمعها سيـــوافقنى على جميع ما عملته ويشترك معى فى العواطف التى بعثتنى على هذا العمل .

فقد زارنى فى أحد الأيام طائفة من التجار وطلبوا منى أن اتوسط فى مسألة شاب عمره ١٩ سنة وأصله من الخرطـــوم . وقصوا على أن هذا الشاب قبل مغادرته الخرطوم كان قد خطب ابنة عم له جميلة ولكنها فقيرة وتواعدا على الزواج بعد أن يسافر الشاب فى تجارة ويجمع بعض المال . فلما وصل الى أم شنجـــه عرف عجوزاً غنية افتتنت به اشد الافتتان . ولم يخبرنى هـــؤلاء التجار عن الشاب هل هو طمع فى أموالها أو لا . ولكن المسألة انتهت بأن تزوجته هذه العجوز ووجد هو نفسه أنه أصبح ثريـــاً فلم يكن له رغبة فى الرجوع الى الخرطوم وتطليق امرأته . وبلغت أخباره ابنة عمه فى الخرطوم فاستولى عليها ذهول وطلب الى أن أحل هذه المسألة . فماذا أفعل .

فاستدعيت الشاب وكان جميلا وجماله فوق المألوف فتنحيت به فى ناحية وأخذت اكلمه بكل جد ووقار واظهرت له سوء عمله فى التزوج بعجوز اجنبية عنه وكيف أن خطيبته تبكى حتى كاد يذهب بصرها وهى وان كانت فقيرة ولكنه يجب شرفاً أن يرعى مودتهـــا ووعده لها . فتردد مدة طويلة ولكنه أخيراً رضى بأن يذهب الى القاضى ويطلق هذه العجوز . وكنت قد استدعيت القاضى وأخبرته أنه اذا طلق الشاب زوجته يجب عليه أن يخبر المرأة بهذا الطلاق بكل رفق ولطف لأنى لا أرغب فى ضوضاء ، واستوثقت من أقارب الشاب بأنه بعد طلاقه يجب أن يسافر الى الخرطوم ثم أوصيت موظف الحكومة فى أم شنجه بأن ينفى هذا الشاب بعد يومين من

طلاقه ويأمر بعدم بقائه فى البلدة بعد هذين اليومين . وأوعزت له بأن يقول ما شاء أمام العجوز ويلقى على تبعة الخلاف بشرط أن يجتهد فى أن تعطى الشاب مبلغاً من المال يقوم بحاجته مدة سفره الى الخرطوم . ولم أكن اتصور وانا أعمل هذا العمل الزوبعـــة الهائلة التى أثرتها على رأسى . ففى الساعة الرابعة بعد الظهر وأنا منسطح على العنجريب فى عشتى سمعت صوت امرأة غاضبة ترغب فى أن ترانى فحدست من تكون هذه المرأة واستعددت للقائها وأمرت بدخولها . وما هو ان صارت فى العشة حتى رأت الدكتور زربوخين الذى كان معى وقتئذ فصاحت فيه وهى هائجة مجنونة : « لن اقبل الطلاق . هو زوجى وانا زوجته . تزوجنى على أصول الشريعة وأنا ارفض الطلاق » .

فدهش الدكتور زربوخين وتمتم كلمات مكسورة باللغة العربية وأخبرها بأنه لا يعرف شيئاً عن هذه المسألة وأن التبعة تقع على انا وحدى . ولم اتمالك من النظر والتأمل فى هذه المرأة الغريبة . فقد كانت ضخمة قوية عنيدة وكانت من الغضب بحيث لم تراع أدب اللياقة الذى تراعيه الشرقيات فى مخاطبة الرجال . فقد انفتل برقعها لشدة هياجها وبدا رأسها مغطى بمنديل حــريرى عديد الألوان وقع بعضه على كتفيها . وكان وجهها يضرب الى الصفرة وقد كبسته الاسارير وفى كل من خديها ثلاثة خطوط من الوشم بين الواحد والآخر نحو نصف بوصة . وكان معلقاً بأنفها قطعة مـــن المرجان الأحمر ويتدلى من أذنيها قرطان كبيران من الذهب أمـــا شعرها فكان حلقات صغيرة عديدة قد شمطت لتقدمها فى الســـن وظننت وأنا أنظر اليها أنى لم أر قط امرأة أكثر دمامة منها . وأنا فى هذه التأملات واذا بنعيبها الذى تحول الى تسألنى الســـؤال نفسه الذى سألته للدكتور المرعوب . فتركتها حتى هدأت قليلا ثم قلت :

« انى أدرك تماماً ما تقولين ولكن لا بد من الخضوع لما لا مفر منه فان زوجك سيتركك وأنت لا يمكنك أن تتركى البلدة معه . وتقولين أنك لا ترغبين فى الطلاق ولكن تذكرى أن الشريعة تحل للرجل الطلاق » .

فصاحت بى : « لو لم تتوسط لما طلقنى . لعنة الله على يوم جئتنا فيه » .

فقلت : « أرجوك الا تقولى ذلك فأنت امرأة غنية وأظن انك لن تجدى صعوبة فى الحصول على زوج أكبر سناً من زوجك الذى طلقك » .

فصرخت : « لا أريد أحداً غيره » .

فقلت بحدة : « اسكتى . إقارب زوجك السابق يريدون أن يتركك ويسافر . وقالوا انه لا يربطه بك الا أموالك . والآن مهما قلت فانه سيغادرك غداً . ألست تخجلين من التزوج بشاب صغير قد كان يمكن أن يكون أحد أحفادك وأنت عجوز » .

فجنت جنونها عندما فهت بهذه العبارة ولم تستطع ضبط نفسها فمزقت برقعها ورفعت يديها لا أدرى ماذا كانت تريد أن تفعله لو لم يدخل القواص ويجليها عن الغرفة بالقوة وهو يحذرها من الفضيحة التى تجلبها على نفسهابأعمالها هذه . وفى اليوم التالى سافر الزوج وهى فى غم شديد .

وبعد سنوات لقيت هذا الزوج وكان قد تزوج ابنة عمه فشكر لى صنيعى وتخليصى له من مخالب تلك العجوز . وكان فى

ذلك الوقت أباً سعيداً له أولاد عدة . وليس لي حاجة بأن أقول بأني نمت تلك الليلة مرتاحاً لهذا الصنيع الذى لم يكلفنى شيئاً .

وبعد ذلك بيومين برحنا أم شنجه وبتنا فى جبل الحلة فاستقبلنا هناك حسن بك أم كادوك شيخ قبيلة برني وكان على ولاء كبير للحكومة وقد منحه غوردون رتبة بك . وكان رجلا كهلا سميناً جداً عريض المنكبين ووجهه مستدير دائم الابتسام وقد يمكن أن نسميه « فولسطاف السودان » جرياً على شكسبير الذى سمى أكبر شخص مضحك فى دراماته « فولسطاف » فاننا بعد سنوات عندما انقلبت الأحوال وصار النسادة عبيداً صرنا انا وهو ياورين عند الخليفة وكان مزاجه البهيج هذا كثيراً ما يخفف عنا أعباء حياتنا التى كنا لا نتحملها احياناً وكان اخوه اسماعيل على النقيض منه رجلا طويلا نحيفاً يميل الى الجد . ولم يكن يتفق هذان الإخوان فى شىء الا فى مسالة واحدة هى حب المريسة (الجعة السودانية) والتهالك على شربها. وكان لكل منهما اناء يدعى انه بلبل توضع فيه هذه المريسة فيتسابقان أيهما يفرغ اناءه قبل الآخر .

وقد دعوانا الى العشاء معهما وشيوى لنا خروف كامل على فحم الخشب يصحبه عدة من الدجاج المشوى وطبق من العصيدة التى تؤكل فى كل وجبة فى السودان .. وكان أيضاً على المائدة عدة آنية من المريسة . وقد طاب لنا الطعام فأكلنا وتركنا المريسة لهما وشربنا نحن شيئاً مما عندنا من النبيذ الأحمر . وقد شرب حسن واسماعيل كلاهما من النبيذ والمريسة ما شاءا وكان إثر الخمر فى الأول عندما صدمته حمياها أن جعلته يتدفق فى الحديث أما الثانى فقد انعقد لسانه وصمت . وكان حسن يروى لنا بعض ما يعرفه عن غوردون وقد اكتأب وحزن عندما عرف بسفره الى الحبشة .

وقال لى بلهجة الحزن : « قد لا يرجع غوردون من الحبشة وقد يسافر الى بلاده فلا نراه ثانياً » ومن الغريب أن قولته هذه كان فيها شيء من الصحة . ثم ترك الغرفة وعاد بعد برهة ومعه سرج وسيف وهو يقول : « انظر . هذا هو آخر ما أعطانيه غوردون لما رافقته الي الفاشر . ما أكرمه وأرأفه » وعرض علينا اسماعيل سترة مطرزة بالذهب اهداها اليه غوردون . وقال حسن : « كان غوردون لا يعرف الكبر . فى أحد الأيام ونحن فى الطريق الى الفاشر . صاد أحد الخدم طائراً فلما حططنا رحالنا فى الظهر وضع الطباخ قليلا من الماء على النار حتى اذا غلى غمس فيه الطائر لكى ينزع ريشه . ورآه غوردون يفعل ذلك فذهب اليه واخذ يساعده فى نزع الريش فاندفعت أنا اليه ورجوته أن يكف من ذلك وأنا أقوم بدلا منه بهذا العمل » ولكنه قال لى : « وهل تظنني أخجل من العمل ؟ انى قادر علي أن أخدم نفسى ولست فى حاجة لأن يقوم بخدمتى فى المطبخ رجل حائز لرتبة بك مثلك » .

ولم يكف حسن عن مسامرتنا حتى ساعة متأخرة من الليل وقد حكى لنا عن تجاربه لما فتح الزبير دارفور ثم ما تلا ذلك من الثورة الى حالتها الحاضرة وكان كثيراً ما يعود الى ذكر غوردون . ومما قاله : « كنت مرة مسافراً مع غوردون فمرضت وجاء غوردون يعودنى فى خيمتى . وبينما هو يحدثنى قلت له انى كنت منغمساً فى الشراب وان وعكتى الحاضرة لم تحدث لي الا لانقطاعى عنه منذ ايام . وكان قولى هذا هو الصيغة غير المباشرة التى أردت منها أن يعطينى غوردون شيئاً من الشراب . ولكن ساء فالى فان غوردون وبخنى وعنفنى وقال لى : « انت مسلم وديانتك تحرم تناول الخمر . انى فى غاية الدهشة . اقلع عن هذه العادة فكل منا يجب أن يطيع أوامر دينه » فقلت له : « لقد اعتدت الشرب طول حياتى فاذا انقطعت عنه الآن فانى أمرض ولكنى سأعتدل فى

المستقبل » فبانت أمارات الرضا على وجه غوردون وهز يدى مسلماً وودعني وخرج وفى صباح اليوم التالى ارسل لى ثلاث زجاجات من الكونياك وأوصانى بالاعتدال فى شربه .

وكان اخو حسن صامتاً لا ينبس بكلمة وكان مرتفقاً يملأ كوباً وراء آخر من المريسة ويشربه بجد ووقار ونظام كأنه نظام بساعة ولما انتهى من الشراب وقف فى روية وتؤدة ومسح شاربيه وقال بلهجة الحزن : « نعم . نعم . الكونياك شراب طيب وهو ليس خمراً بل دواء وغوردون رجل عظيم بار ولن نراه ثانياً » .

وذهبنا الى الفراش فى ساعة متأخرة وأمرنا قبل نومنا أن نعد الدواب للقيام فى الفجر فلم ننم الا وقتاً قصيراً . ولما استيقظنا واردنا الركوب انا والدكتور زربوخين نظرنا حوالينا نبحث عن أهل البيت لكى نودعهم قبل سيرنا . ونحن فى ذلك واذا باسماعيل يعدو الينا ورأسه يميل من اثر الشراب السابق وقال لنا : « أيها السادة اننا سمعنا على الدوام بأن بلادكم عدل وانا واثق بأن الضيف هناك لا يسىء الى رب البيت . وأمس عندما أمرتم الدواب التى تحمل أمتعتكم بالسفر سرق رجالكم السجادة التى وضعتها لكم لتقعدوا عليها » .

فبحثت وتأكدت بأن أحد رجالى قد سرق هذه السجادة الثمينة وارسلت وراء الجمال قواصاً لكى يدرك هذا اللص ويحضره وقعدت انتظر . وبعد مدة جاء القواص ومعه السجادة ووراءه عسكرى زنجى من الحرس الثمانية الذين كانوا فى صحبتنا ولما استجوبنا هذا العسكرى قال انه حملها خطأ ولكننى لتأكدى من جريمته أمرت بجلده وارساله سجيناً الى أم شنجه . وقد تعكر مزاجى لهذه الحادثة لأنى كنت أعرف أن الناس هنا يحكمون على الأسياد بما

يرون من الخدم وكنت واثقاً بأنى اذا لم أعاقب هذا الخائن فــان مثل هذه السرقات ستكرر فى المستقبل .

واعتذرنا الى حسن وأخيه ثم شرعنا فى السفر الى الفاشر التى بلغناها بعد خمســة ايام ومررنا فى طريقنا على بروش وأرجود .

وقد كانت الفاشر طول مدة القرن الماضى عاصمة دارفور وهى مبنية على قارتين أو رابيتين واحدة فى الشمال واخري فى الجنوب يفصلهما واد عرضه نحو ٤٠٠ ياردة يدعي وادى تندلتى . وفى الغرب قلعة على تل حولها حائط من الطوب النيىء عرضه ثلاثة اقدام وحول الحائط خندق عمقه ١٥ قدماً . وكان فى الأركان أربعة أبراج وبها مدافع تطلق قنابلها من فتحات صغيرة .

وكان هذا الحائط يحتوى على مبانى الحكومـــة ومساكــن الضباط وثكنة الجنود وكان الخيالة غير النظاميين يسكنون خارجاً . وكان سكان القلعة يستقون الماء من آبار فى الوادى تبعد عنهم بنحو خمسين ياردة .

وكان مسدجاليه بك وهو رجل ايطالى حاكماً على الفاشر وقد لاقانا بالبشر وخصص لنا امكنة فى مبانى الحكومة وكنا قد أصبنـــا بحمى من مسيرنا فى الأمطار فقر رأينا على أن نرتاح بضعة أيام .

وبعد أن استرحنا استأنفنا السفر أنا والدكتور زربوخين الى داره ورافقنا على سبيل التشييع مسدجاليه بك واخبرنا أن زوجته ستحضر الى الخرطوم وانه قد طلب اجازة لكى يسافر ويستقبلها فيها ثم يحضر وإياها الى الفاشر فاقترحت عليه أن ينتظر حتى تنتهى مسألة السلطان هرون ، ثم يحضر وزوجته بعد ذلك ولكنه اجابنى بأنه ليس هناك أقل خوف وان فى البلاد جيوشاً كافية لقمع أى

حركة ، ولكني كنت سمعت بأن نفوذ هرون عظيم وأن هناك خوفاً على جنود الحكومة من ضغطه عليهم . ولما كنت حديث العهد بالمجيء الى السودان وقليل الخبرة بأحواله لم اقدر على أن أعطى رأياً باتاً فى الموضوع فودعته هو وسعيد بك جمعة الحكمدار وسرنا الى داره عن طريق كريوت وراس الفيل وشعيرية .

وكان لزربوخين هيئة تدل على انه اكبر منى سناً وكانت له لحية طويلة سوداء وكان يضع على عينيه نظارة سوداء أما أنا فكانت هيئتي تدل على أني اقل عمراً من الحقيقة فلم يكن شاربي قد نبت الا قليلا وكانت لى سحنة الصبيان فكنا لا نسير فى اى مكان حتى يظنه الناس أنه هو الحاكم والطبيب او الصيدلى . ولما قاربنا غاية سفرنا كان الدكتور زربوخين مريضاً بالحمى ولذلك تأخر بدابته عنى ومشى وئيدا حتى وصلت الى شعيرية قبله . وشعيرية هذه على سفر يوم من داره . وكان أهل القرية يستعدون لاستقبالنا فكنسوا المنازل ووضعوا الحصير ووضع القاضى والشيخ سجاداً لكي يستريح الحاكم القادم . وبرك جملى ونزلت عنه ولما سألونى عن شخصى قلت اننى أحد حرس الحاكم وأخبرت من معى من الحرس بالا يقولوا شيئاً . وأخذ القرويون يسألوننى عن الحاكم الجديد فقلت لهم : « إظنه سيجتهد بأن يعمل ما فى جهده وانه يميل للعدل والتسامح » .

فقال واحد منهم : « ولكن هل هو شجاع طيب القلب » وكان هذا السؤال تصعب الاجابة عليه . فقلت : « يبدو عليه كانــه لا يخاف ولكنى لم أسمع شيئاً عن شجاعته . وأظن أنه طيب القلب ولكنه بطبيعة الحال لا يمكنه أن يرضى كل أحد » .

فقال آخر : « لو كان لنا حاكم مثل غوردون باشا لرضى كل واحد وامنت البلاد بانه لم يتوقف قط عن الانعام عــلى الناس

والطائفهم وما جاءه فقير قط وعاد خائباً ولم اسمعه يتكلم بقسوة الا مرة واحدة وذلك حين كان سليمان زبير فى داره فانه التفت الى القاضى وقال ان بين السودانيين من لا يستحق ان يعامل بالرأفة به . فقال القاضى : « أجل سمعته يقول ذلك ولكنه كان يشير بقوله هذا الى الجلابة وتجار النيل الذين كانوا يشتركون مع الزبير وابنه فى جميع التجارات غير الشرعية التى كانوا يتكسبون منها » .

وقال شيخ القرية واسمه مسلم ولد كباشى : « غوردون بطل . فقد كنت انا اشتغل معه فى القتال مع عرب ميمه والخوابير فى سهل فافه فى يوم شديد الحر . وتقدم العدو واجلانا عن الخط الأول وكانت الحراب تقع علينا كثيفة من كل جانب ورأيت حربة تقع على قيد شعرة من غوردون فما بالى ولم ننل النصر الا لثباته هو واحتياطيه المؤلف من مائة رجل . ولماكانت المعمعة على اشدها أخرج سيجارة واشعلها . انى ما رأيت شيئاً قط فى حياتى مثل هذا وفى اليوم التالى عندما شرع فى توزيع الغنائم لم يغب عن ذهنه أحد ، ولم يحفظ لنفسه شيئاً وكان رفيقاً بالنساء والأطفال ولم يأذن بسبيهم كما هى عادتنا فى الحرب بل كان يطعمهم ويكسوهم على نفقته أو كان يردهم الى منازلهم عند انتهاء الحرب . وفى أحد الأيام سبينا عدة نساء بدون علمه وحجزناهن ولو علم بفعلنا لرأينا منه الويل » .

وبعد سكوت سألت عن الأحوال فى داره وصفات الموظفين لأنى كنت سمعت انهم لا يوثق بهم وانهم لا ينظرون بعين الرضا الى مجيئى .

وهنا وصل الدكتور زربوخين وسائر القافلة فوقف الشيخ والقاضى وأعيان القرية فى نصف دائرة لاستقباله . اما انا فقد

تنحيت جانباً واختفيت . وأخذت أنصت لما يقول مسلم ولد كباشي الذي بدأ يحيى الوالي الجديد ويصف له فرحه بقـدومه وكـان زربوخين لا يعرف من العربية الا القليل فارتبك اشد الارتباك لهذه التحية .

وقال لهم : « الحقيقة اننى لست الحاكم . انا مفتش الصحة ولا بد أن الحاكم قد وصل قبلى ولكن بالنسبة لأن الرجال الذين معه قليلون ربما لم يحسبه أحد لذلك أنه هو الحاكم » فتقدمت أنا عندئذ وشكرت للقرويين وأنا اضحك لطفهم وحسن استقبالهـم واكدت لهم بانى ساعمل جهدى لكى أرضيهم وانى منتظر منهم أن يعاونونى على انفاذ الأوامر . واخذوا بالطبع يعتذرون الى عن خطئهم ولكنى وضحت لهم أنه ليس هنـاك ما يدعو الى هـذا الاعتذار وقلت لهم انى ارغب فى أن تكون علاقتى بهم متينة حميمة وانى ارجو أن تكون هذه رغبتهم ايضاً . ومن هذا الوقت صـار مسلم ولد كباشى من أعز أصدقائى وبقى كذلك فى أوقات الفرح والحزن على السواء حتى برحت البلاد .

وقد هاجت هذه الحادثة الصغيرة شهوتنا للطعام وقعدنـا وتناولنا طعاماً فاخراً من الضأن المشوى ولما انتهينا امتطينا الدواب واسترحنا فى الليل تحت شجرة على مسير ساعتين من داره . وعند شروق الشمس أرسلت رسولا لكى يخبر بقدومنا ولما صرنا فى ارباض المدينة خرجت الحامية واصطفت واستقبلتنـا استقبـالا عسكرياً واطلقت سبع قنابل اكراماً لنا وكان معها حسن حـلمى الحكمدار وزوجال بك نائب الحاكم والقاضى وبعض أعيان التجار وذهبنا جميعاً الى القلعة حيث دار الحكومة وقضينا نصف ساعة فى التفتيش ثم ذهبت الى مسكنى وامرت بتهيئة بعض الغرف للدكتور زربوخين فى مسكنى لانى اردت ان ينزل عندي ضيفـاً بضعـة أيام .

وما كدنا ننتهي من العشاء حتى سمعت ضوضاء بين الخدم الذين كانوا يدافعون رجلين من الدخول الينا . وكان هذان الرجلان رسولين يحملان خطاباً من احمد قاطنج وجبر الله وهما الرئيسان للحامية غير النظامية فى بير جوى وهى على مسيرة ثلاثة أيام فى الجنوب الغربى من داره . وقد قالا فى الخطاب أنهما علما أن السلطان هرون سيغير عليهما وأنهما بالنسبة لقلة عدد الحامية قد قرروا اخلاء مكانهما ما لم تأتهم امدادات من الحكومة وقالا أيضا أنهما اذا تركا مركزهما فان جميع القرى ستنهب .

ولم يكن ثم متسع من الوقت لتأجيل فأمرت حسن افندى رفقى بأن يعد مائتى جندى نظامى وعشرين فارسا للقيام فى الحال معى الى جوى .

وما انتصف الليل حتى كان قد أعد كل شىء وودعت الدكتور زربوخين وقلت له أؤمل أن أراه بعد أربعة أيام أو خمسة وخرجت متوجهاً نحو الجنوب الغربى .

وكنت شاباً قوياً فى اشتياق الى الحرب وانى اذكر الآن مقدار فرحى الشديد للقاء السلطان هرون ومناجزته . ولم يخطر ببالى شىء عن المشاق وانما كل ما كنت مشتاقاً اليه انى كنت ارغب فى أن أبين لجنودى أنى قادر على قيادتهم . وفى الصباح حططنا رجالنا وكان جميع الجنود زنوجاً حتى ضباطهم . أما الجنود الراكبة فكانوا من الأتراك والمصريين وخطبتهم جميعاً قلت لهم انى الآن غريب عنهم ولكن عليهم أن يعرفوا انى مستعد لأن أشاركهم مشاقهم فى كل وقت وانى أرجو أن يكونوا ممتلئين حماسة وأن نسرع للقاء العدو . وكانت خطبتى بسيطة ولكن كان لها وقع فى نفوس الجند وعندما انتهيت منها رفعوا أسلحتهم فى الهواء فوق رؤوسهم على الطريقة السودانية وصاحوا بأنهم لن ينثنوا عن الظفر أو الموت .

وفى الظهر حططنا قرب قرية فأخذت أراقب رجالى وافحصهم وكانوا كلهم على أهبة ومعهم ذخيرة كافية . وكان مع كل جندى زمزمية من جلد المعز أو الغزال واسمها سن (وجمعها سنين) ولكن لم يكن معهم طعام . ولما سألت عن سبب ذلك قيل لى : « أينما ذهبت فى دارفور تجد الطعام » فذهبت الى شيخ القريـــة وطلبت منه تقديم كمية من الدخن . وكانوا ينقعون الدخن فى الماء ثم يعصرونه ويمزجونه بالتمر الهندى ثم يأكلونه . أما العصارة فكانوا يشربونها وكانت مزازتها تطفىء الظمأ . والغالب أن الأوروبيين لا يستطيعون هضم هـــذا الطعـــام ولكنه مغـــذ جـــداً والجنود السودانيون لا يأكلون تقريباً شيئا غيره وهم سائرون الى القتال . وقد اعتدت تناوله بالتدريج ولكنى وجدت انه اذا لم يكن الانسان فى صحة تامة فانه يعقبه سوء هضم شديد . وأحضر لنا شيـــخ القرية الدخن ومعه عصيدة وزعت على الرجال . وبينمـــا هـــم يأكلون دعوت الضباط لأن يأخذوا شطراً من اللحم المحفوظ بالعلب الذى كان معى فأخذوه واستطابوه قائلين انه افضل من الدخـــن والعصيدة وبعد ذلك طلبت من الكاتب أن يكتب لشيخ القرية صكا بمقدار ما تسلمناه منه من الدخن لكى يحط ثمنه من مقدار ما يدفعه لجابى الضرائب . ولكن هذا الرجل رفض قائلا : ان اطعام الجنود ليس فقط من واجباته بل ان أصول الضيافة والكرم تقتضيه . فقلت له : انى أعرف أن أهالى دارفور أسخياء ولكنى أجد ان طعام ٢٠٠ نفس يعدو حدود السخاء وانه لذلك يجب عليه أن يتســلم ثمن طعامه . فرضى أخيرا واطمأن الى حديثى وقال : انه لو سار الجنود على هذا المبدأ لسر السكان ولكن لسوء الحظ قد اعتـــاد الجنود اقتحام المنازل واخذ ما فيها حتى أن الأهـــالى صـــاروا يخشونهم وعندما ينزلون قراهم يجتهدون فى اخفاء ما عندهـــم . فشكرت للشيخ قوله هذا ووعدته بأنى سأصلح هذه الحالة .

وعند غروب الشمس وصلنا الى بير جوى وكان بها حامية غير نظامية عددها ١٢٠ رجلا يقودهم أحمد قاطنج وجبر الله . وقد اخبرانى بانهما بعثا جواسيسهما لكى يعرفوا حركات البيلطان هرون وانهما لا يظنان أنه قد نزل بعد من جبل مرة الى الوادى . وكنت فى غاية الاعياء وقد تملكنى النعاس فذهبت الى فراشى لأنام ولكن اطراد قرع الطبول اكراما لى وضربان رأسى منعانى من النوم وفى الصباح شعرت أنى مريض . ولما جاءنى أحمد ورأى ما أنا فيه قال لى : « يمكننا معالجة هذا بأيسر سبيل . عندى رجل يوقف ضربان الرأس فى الحال وهو افضل من الدكتور الذى فى داره والحقيقة أنه ليس فى داره دكتور وانما هو صيدلى يقال له دكتور على سبيل التأدب والتجمل » .

فقلت : « ولكن كيف يمكنه أن يعالجنى ؟ » .

فقال : « هذا شىء بسيط . يضع يديه على راسك ثم يقول شيئا فتبرأ بل تعود أحسن مما كنت قبل أن تمرض » .

فقلت : « اذن ادعه الآن » .

وكنت شابا وجاهلا فى تلك الأيام وخطر ببالى أن أحد هؤلاء العرب ربما قد زار أوروبا وعرف شيئا عن العلاج المغنطيسى وأنه قد ارصد حياته لفائدة الناس وشفائهم . وانى أعترف بأنى شعرت بشىء من القلق لما قاله احمد لى . وبعد دقائق قليلة ادخل أحمد الى غرفتى رجلا طويلا اسود له لحية بيضاء يظهر عليه انه من سكان بورنو وقال لى : « هذا هو الطبيب الذى سيشفيك من ضربات الرأس » .

ولم يتردد الطبيب لحظة بل وضع يده على راسي وضـــغط صدغي بابهامه وسبابته ثم تمتم جملة كلمات لم أفهمها وبصق فى وجهى . فهببت واقفا لهذه الفظاعة وضربته ضربة القته عــلى الأرض . وكان أحمد واقفاً بجانبى متكئاً على عكازته فرجــانى الا انظر للمسألة هذه النظرة وقال لى : « ليس بصقه قلة أدب . بل هو جزء من العلاج وستستفيد منه » ولكن الطبيب المســكين الذى زايلته ثقته بنفسه وقف بعيداً عنى وقال « وجع الراس من الشيطان ويلزمنى أن أطرده . وفى القرآن آيات تدل على امكــان طرده بالنفث وبذلك يقف عمله السيىء فى رأسك » .

ولم أتمالك من الضحك على الرغم من مضــايقتى وقلت : « وأنا اذن على عفريت وعلى كل حال ارجو ان يكون عفريتاً صغيراً وأن تكون قد نجحت فى طرده » ولم اسمح له باعادة الرقية واعطيته ريالا وامرته بالخروج . فخرج وهو يدعو لراسى بالشفاء ولكــن بقى على الرغم من هذا الدعاء يؤلمنى .

ولم تأتنى الى هذا الوقت أخبار عن هرون فبقيت طول اليوم فى فراشي وزارنى صديقاى قاطنج وجبر الله عدة مرات . وقد عرض على أولهما جواده فرفضت قبوله . أما الثانى فقد عرض على احدى خدمه وقال لى : « انها صغيرة جميلة وقد تربت تربية حسنة فى منزلى . وهى تعرف الطبخ واعمال البيت وتفهم فى الأمراض » فرفضت قبولها ايضاً وتركنى جبر الله وهو مكسور الخاطر لأنى لم اقبل هديته . ولكنى كنت مضطراً الى هذا الرفض لأنى بعــد ان جربت رقية الطبيب لم اكن شديد الرغبة فى ان أسلم نفسى لمراحم آنسة سودانية مهما كانت براعتها .

وفى صباح اليوم التالى استيقظت وقد عادت الى عــافيتى ولما لقينى احمد واخبرته بانى تعافيت قال لى فوراً : « انا كنــت

متحققاً من أنك ستشفى لأن عيسى (الطبيب) لم يضع يده على أحد الا شفاه » .

ومضى يوم آخر بدون أن يأتينا خبر عن هرون . وفى اليوم التالى رجع الينا حوالى الظهر أحد رسل جبرالله وقال لنا ان هرون قد جمع رجاله ولكنه لم ينزل بعد من التلال التى اتخذها مقراً له وقت الصيف . وفى الرابع (من وصولنا لبير جوى) جاءنا رسول آخر وقال ان هرون لما بلغه انى تركت داره وجئت الى بير جوى لمقاتلته سرح رجاله الذين ذهبوا الى جبل مرة .

فلما اسقط فى يدى وذهب املى فى القتال عـــدت الى داره وكان الدكتور زريوخين قد برحها وترك لى خطاباً يقول لى فيه انه يرجو لى النجاح . ووجدت أيضاً الكاتب الذى صحبنى منذ أن كنت مفتشاً مالياً وجاء معى الى داره قد جن مدة غيابه ووضعوه فى منزل بجوار منزلى فلما ذهبت اليه لكى أراه وقف وعانقنى وهو يصيح : « الحمد لله . لم يفعل السلطان هرون شيئاً لك . زوجل بك رجل خائن احترس منه . لقد أمرت بايقاد النار فى القاطرة لكى يحملك القطار الى أوروبا حيث تتمكن من رؤية أهلك وسأذهب معك . ولكن يجب الحذر من زوجل بك فانه وغد سافل » .

وكان ظاهراً انه قد فقد عقله ولكن المجانين أحياناً يقولون الحق . فأخذت فى تهدئته حتى رقد وسمع صفير القاطرة وأوهمته أنى معه فى القطار ثم تركته لعناية الخدم وخرجت . وبعد خمسة أيام مات هذا المسكين وأظن أن سبب موته انفجار عرق فى دماغه .

وشرعت أنا فى تدبير أمور مديرية داره وبعد شـهر تسلمت خطاباً من مسدجاليه بك يقول لى فيه (وكان مكتوباً بالفرنسية)

انه قد عزم على ان ينتهى من هرون ولذلك هو يأمرنى بأن أخرج سراً عن طريق منواشى وقبة بقسم من الجنود النظامية واتجه نحو جبل مرة واغير على نيورنه حيث مقام السلطان هرون . وقال لى انه قد أرسل قوة من الفاشر عن طريق طرة وقوة أخرى من تلقل عن طريق أبى حرز وسيلتقى الجميع فى مكان واحد ويعملون معاً فى مقاتلة هرون .

فاذعنت للأمر وغادرت داره ومعى ٢٢٠ جندياً نظامياً و ٦٠ من البازنجر وسرنا حتى بلغنا نيورنه حيث السلطان هرون فى جبل مرة فوجدناه قد جلا عنها وفى صباح اليوم التالى خرجت بفصيلة من الجنود أبحث عن هرون ولكننا لم نذهب بعيداً حتى سمعنا عيارات نارية تطلق بسرعة من ناحية نيورنه فركضت جوادى راجعا فوجدت الجنود الذين تركتهم قد اشتبكوا فى قتال مع قوة أخرى معادية فأدركت حالا انها احدى القوات التى أرسلت لمساعدتى من الفاشر ولكنها لم تصل فى الوقت المعين لها . فلما وصلت الى نيورنه ووجدت قوة مرابطة تحتلها أطلقت عليها النار وهى تحسبها انها تابعة لجيش السلطان هرون . وقد تكلفت مشقة كبيرة فى وقف اطلاق النيران التى قتل بسببها سبعة وجرح أحد عشر ومر عيار فى ملابسى وأصيب جوادى بعيارين .

وبقينا فى نيورنه عشرة أيام ولما لم يكن فى مقدورنا ان نحصل على أخبار صحيحة عن هرون قررت العودة . وكنا نحن فى عودتنا نمر على عدة قرى فنفاجئها لأن أهلها لم يكونوا ينتظرون مجيئنا من الغرب . وكان السلطان هرون قد جند معظم الرجال . اما الباقون فقد فروا الى التلال . ولكن رجالى تمكنوا من القبض على نحو ثلاثين امرأة سرن معنا مدة قصيرة . وقد فوجىء أهالى احدى القرى بنا فلم يتمكنوا من الهرب ولما رأيت أن جميعهم من النساء

أمرت الجنود بالوقوف حتى أتيح لهن الفرصة للفرار ثم أمرت الجنود أيضاً بأن يسيروا صفاً واحداً حتى لا يتفرقوا فى القرى ويعيثوا فيها .

ومما حدث أن أماً مسكينة كانت تحاول الهرب فباغتناها ففرت تاركة وراءها طفلين على صخرة وأخذت هى تعدو كالغزال على سند الجبل . فذهبت الى حيث الطفلين فوجدتهما عاريين ليس عليهما شىء سوى عقد من المرجان حول عنقيهما وحزام من المرجان أيضاً حول وسطيهما . وكان كلاهما أسود كالغراب والارجح انهما كانا توأمين يبلغ عمر كل منهما ١٨ شهراً . فنزلت عن الجواد وذهبت اليهما فأخذا فى الصراخ وكل منهما يمسك بالآخر فحملتهما وأمرت خادمى بأن يحضر قليلا من السكر . فسكتا فى الحال وصارا يبتسمان خلال الدموع ويقرضان السكر الذىكان فى الأرجح أحلى ما ذاقاه مدة حياتهما الصغيرة الماضية . وكان عندى مناديل حمر أحملها على الدوام معى لكى أقدمها هدايا فلففت كلا منهما فى منديل ووضعتهما على الصخرة كما كانا وسرت بعيداً عنهما . ونظرت اليهما بعد مدة فرأيت انساناً هو أمهما يزحف على الصخر اليهما . فلما بلغتهما عانقتهما ودغدغتهما بعد أن كانت قد يئست من حياتهما . وأخذت هذين الولدين فى لباسهما الجديد وعلى شفتيهما أثر السكر الحلو .

وبعد أيام ونحن لم نبلغ بعد داره جاءتنى الأخبار بأنه فى مدة غيابى عن هذه البلدة أغار عليها هرون وانتهبها وفر ثانياً الى التلال ومعه الغنائم والسبايا العديدة . فأخذت أدلاء من القرى المجاورة وخرجت أتعقبه ولما أن صرنا على مسافة سفر يومين فى الجنوب الشرقى من الفاشر لقيت جنوده الذين لم يتوقعوا مجيئنا .

وقد وفقت للاقتراب منهم بدون أن يرونى ثم حملنا عليهم حتى مزقناهم شر ممزق واستولينا على مقادير كبيرة من الأسلحة وأفرجنا عن السبايا اللواتى كن فى حوزتهم . وقتل جواد هرون ولكن هرون نفسه مع بضعة من أتباعه تمكنوا من الهرب وبعد أيام قليلة انهزموا أمام جيوش تلقل التى كان يقودها نور أنجره وقتل هرون وبقتله عاد السلام الى البلاد وانتهت الثورة .

ولما عدت الى داره وافانى خطاب من جسى باشا من بحر الغزال يقول فيه أن الدكتور فلكن والقسيس ولسون مبعوث الرسالة الكنسية الانجليزية فى طريقهما من أوغندا الى الخرطوم عن طريق داره ومعهما وفد من الملك متيسا الى جلالة ملك انجلترا. ورجانى جسى أن أقدم لهما جميع المساعدات التى فى مقدورى وقال انهما قد شرعا فى السفر الى داره فى اليوم الذى كتب فيه هذا الخطاب . وقد وصلا الى داره بعد ذلك بأيام قليلة وتمتعت بصحبتهما مدة وجودهما عندى .

وقد أخبرانى عن أشياء مهمة أما أنا فقد حكيت لهما عن آخر الأنباء الاوروبية وهى وان كانت قد مضى عليها أشهر قد كانت مع ذلك جديدة عندهما .

وفى الصباح سمعت أن رجال وفد الملك متيسا لما رأوا الجمال أول مرة خافوا منها وفروا . فقلت للدكتور فلنكن : « بما انك ستضطر الى اتمام سفرك على ظهر الجمال فمن الصواب أن تعتاد ركوب الجمال أنت ومن معك . فأحضر رجال الوفد حتى ندربهم على ركوبها » .

فذهب وارسلت أنا فى احضار جمل من احد التجار . وكان جملا سميناً ضخماً وحضر رجال الوفد وآخرون غيرهم فما رأوا

الجمل حتى طار صوابهم وفروا هائمين . ولم يوقفهم عن الاستمرار فى العدو سوى ثباتنا انا والدكتور فلنكن واوضح لهم الدكتور فلنكن أن الجمل حيوان وديع صبور وانهم سيستأنفون السفر الى مصر عليه وليس فيه ما يدعو الى الخوف ولكنهم مع ذلك لم يتقدموا الا على حذر ووقفوا على مسافة منه لا يجسرون على لمسه وكان تعجبهم عظيماً عندما رأوا القواص يمتطيه ويسير به وينيخه . وأخيراً تطوع أشجعهم لأن يركبه وساعدناه على تسنمه وقام به الجمل وهو خائف ولكنه أخذ ينظر الى رفقائه من مكانه العالى ويوضح لهم سهولة ركوب الجمال وملاذه . والظاهر انه دعاهم الى ركوبه فقد برك الجمل وتكأكأوا عليه جملة وارادوا جميعاً الركوب وحاول بعضهم أن يركب عنقه وتعلق آخرون بذنبه وتعلق نحو ستة منهم برجله ودهش الجمل لأول وهلة لهذا الازدحام حوله ثم تنبه وأخذ يضرب برأسه يميناً وشمالا حتى نفض جميع هؤلاء « الوجنديين » عنه وهب وقفاً وهم مبعثرون حوله . وأظنني لم أضحك فى حياتى قدر ما ضحكت فى هذه الفرصة . فقد ظن رعايا الملك متيسا (الوجنديون) أن الجمل جبل يتحمل أى عبء ويقوى على النهوض به ولبثوا مدة ذاهلين خائفين لا يقوون على الاقتراب منه ثانياً . ولكن أخذوا بالتدريج يتعلمون ركوبه فبدأ واحد ثم آخر يقترب منه ويركبه حتى انه عندما جاء ميعاد سفرهم كانوا جميعاً يعرفون كيفية قيادته .

.

وكان فى منزلى عدة أولاد من الذين استخلصناهم من أيدى النخاسين ولما لم يكن للدكتور فلنكن خادم يخدمه فقد اقترحت عليه أن يأخذ معه احد هؤلاء الاولاد فقبل ذلك مسروراً وأعطيته صبياً من الفرتيت يدعى كبسون وكان ذكياً فعزم الدكتور على أن يربيه فى أوروبا . وبعد سنتين ونصف سنة وانا بالفاشر جاءنى خطاب مكتوب بالانجليزية من كبسون هذا يشكرنى فيه لأنى أذنت له

بالسفر مع الدكتور فلنكن الى « بلاد كل من فيها طيب القلب رؤوف» ويقول انه قد تنصر وانه أسعد الأولاد وارسل مع الخطاب صورته فى ملابس افرنجية .

وجاء ميعاد سفر صديقى وكانا فى اشتياق اليه فركب الجميع جمالهم وقاموا الى الخرطوم عن طريق طويشة .

وبعد مدة جائنى خطاب من مسدجاليه بك يقول فيه انه مسافر الى الخرطوم لكى يحضر زوجته ، ولكنه ما كاد يصل الى الخرطوم حتى نشب خلاف بينه وبين ولاة الأمور هناك فاستقال وعين بدلا منه مديراً على دارفور على بك شريف الذى كان قبلا مديراً على كردفان .

وقريبــاً من ختام سنة ١٨٧٩ أو فى أوائل سنة ١٨٨٠ تسلمت خطاباً مكتوباً بالفرنسية من غوردون كتبه منذ شهرين قبل وصوله الى ضبره طابور فى الحبشة . وقد مزق الخطاب منذ سنين ولكنى أتذكر كلماته بالحرف تقريباً وهى :

عزيزى سلاطين

لما انتهت مهمتى مع الملك يوحنا عزمت على أن أرجــع فى الطريق التى جئت منها . ولكنى وأنا بالجلابات أدركنى رجــال تابعون للراس عدل وأجبرونى على الرجوع وسيأخذوننى محروساً الى كسلة ومنها الى مصوع . وقد أحرقت جميع الأوراق التى يخشى منها . وسيسقط فى يد الملك يوحنا عندما يعرف أنه ليس رئيس بيته .

صديقك ــ غوردون

الفصل الثالث

حـكومة دارفور

كانت سنة ١٨٨٠ سنة سلام وهدوء نسبيين فى داره . وكانت أهم أعـمالى ادارية فقد زرت تقريباً جميع القرى بنفسى وعرفت جميع القبائل العربية القوية التى كانت على الدوام مشتبكة بعضها مع البعض فى قتال متواصل أو موشكة على القتال وقد قمت عـدة مرار بالصلح بينها .

ووجدت فى ختام سنة ١٨٨٠ أن لدي عدة أشياء تستحـق مراجعة الحاكم العام فطلبت الاذن بالذهاب الى الخرطوم لـكى أقابل رؤوف باشا الذى صار حاكماً عاماً بعد سفر غوردون وقـد اجيب طلبى فبرحت داره فى سنة ١٨٨١ وبلغت الخرطوم بعـد أسبوعين .

هناك وجدت زربوخين الذى رحب بى وأنزلنى بمنزله القريب من مكان الرسالة الكاثوليكية الرومانية وكان ملكاً للمرحوم لطيف دويونو وهو رجل ملطى كان نخاساً شهيراً .

وفى مدة اقامتى فى الخرطوم كنت احادث رؤوف باشا كثيراً عن احوال دارفور واقترحت أنه يحسن عدلاً وانصافاً أن تخفض

الضرائب فى الفاشر وفى كبكبيه . وطلبت منه أيضا أن يأذن لى بأن اجبر العرب على أن يعطونى كل عام عدداً من العبيد لكى املأ بهم الفراغ الذى يقع فى الجيش بالأمراض والوفيات والحوادث . وطلبت أيضا منه أن يأذن للعرب بأن يدفعوا الضرائب عبيداً بدلا من المواشى لأنى أؤمل بهذه الطريقة أن استرجع الى جيشنا جنود (البازنجر) الذين كانوا ملتحقين بجيش سليمان زبير وصاروا الآن متفرقين فى القبائل وقلت ان معرفتهم بالأسلحة من أسباب الخطر الدائمة للحكومة . فوافق رؤوف على جميع طلباتى وأعطانى صكاً مكتوباً بذلك .

ولما كنت فى الخرطوم جاءنى فى يوم ما من يدعى حسن ولد سعد النور وهو دارفورى وكان أبوه قد قتل مع وزير أحمد شحاته فى شقة ، فرجانى أن اتشفع له لكى يعود الى دارفور فقابلت رؤوف باشا وطلبت ذلك منه فرضى . ولكنه بعد أيام أرسل لى وقال انه عاد فألغى أمره وانه لا يسمح بعودة هذا الرجل الى دارفور . فقلت أن كل جنايته أنه اشترك فى الثورة وقد فعل غيره ذلك وأنه لا سبيل له الآن الى ايصال الأذى بالحكومة . ولكن رؤوف باشا أبى أن يوافقنى على رجوعه وشعرت أنا بالاهانة لأنى كنت وعدت هذا الرجل بأنه سيرجع فقلت لرؤوف باشا أنه بين اثنتين : اما رجوع الرجل واما قبول استقالتى وخرجت مغضباً فاستدعانى بعد ذلك بيومين وقال لى انى كنت مخطئاً فى وعد هذا الرجل بالرجوع فأقررت بذنبى فقال لى انه سمح برجوعه وانه يعتقد انى موظف عنيد ولكنى ذو كفاية ولذلك طلب من الخديو توفيق باشا أن يعيننى حاكماً لدارفور وأن يمنحنى لقب بك . فشكرته واكدت له انى ساعمل جهدى لكى احقق ثقته فى .

ثم طلب منى رؤوف باشا أن اكتب له ضماناً اتحمل فيه تبعة مسلك نور فى المستقبل . فكتبت هذا الضمان وانا مسرور لأنى

شعرت أنه بعد كل ماتحملت من المشاق لأجل رجوعه الى وطنه سيحسن سلوكه ويثبت ولاءه وأمانته . ولما عدت الى منزلى أرسلت فى حضور نور وكان قد مضى عليه يومان وهو لا يدرى ما تنتهى اليه مسألته فلما أخبرته بأنه قد أذن له بالرجوع الى وطنه انكب على قدمى واخذ يشكرنى ويكثر من الدعاء لى . وشعرت بأنه رجل شريف يمكن الاعتماد عليه ولكنى كنت وقتئذ أجهل أنى قد ضممت الى صدرى ثعباناً .

وانتهت اجازتى بالخرطوم بسرعة بين الأصدقاء الكثيرين . وقد وصل الينا فى أواخر يناير سنة ١٨٨١ الاسقف كومبونى والأب أوهر ولدر والأب دختل وكانوا قد جاءوا من القاهرة . ووصل اليها أيضاً حسن باشا رئيس المالية وبوسانى وهانسل القنصل وقد نزل أوهر ولدر ودختل فى منزلى وكم كان لنا من حديث معاً عن وطننا المحبوب .

وفى ٢٥ يناير سنة ١٨٨١ وصل جسى باشا الى الخرطوم وصحته فى غاية السوء . قد برح مشرى الرق وركب النيل قاصداً الى الخرطوم فحجز السد سفينته . والسد هو تلك النباتات التى تنمو فى النيل بكثرة بحيث يحتاج أحياناً إلى قطعها بالفؤوس لكى يشق طريقاً للسفينة وبقى ثلاثة اشهر وهو يعالج اجتياز السد ولقى الأمرين من جوع وامراض بين رجاله . ومات أكثر رجاله وصار بعضهم يأكل بعضاً للجوع ، ثم أنجده أخيراً ملنرو فى الباخرة بردين وحمله عليها الى الخرطوم حيث عنيت به الراهبات . ولكن الصدمة التى نالت جسمه كانت قد هدته فلم ينجح الدكتور زربوخين مع كل ما بذله فى رد عافيته اليه . ثم قررنا جميعاً أن يرسل الى مصر وبذلنا كل مجهود لكى يشعر بالراحة والرفاهية فى سفره . وكان يرغب فى أن يأخذ معه خادمه الماظ وكان خصياً . ولكن رؤوف

باشا خشى ان تتقول الاقاويل عن ادارته فى السودان بوجود هذا الخصى مع جسى باشا فرفض ان يأذن له بمرافقته • ولكن الجاحى والحاح زربوخين عليه جعلاه يلين فى النهاية ويسمح له بالسفر معه . وفى يوم ١١ مارس حملنا جسى الى ذهبية الحاكم العام حيث سارت به الى بربر . ومن هناك حمل الى سواكن ونزل فى الباخرة التى نقلته الى السويس وكان قد تغلب عليه الضعف حتى لم يكن يقوى على الحركة • ووصل الى السويس فى ٢٨ مارس ونقل الى المستشفى الفرنسى ولكنه مات بعد وصوله بيومين •

ولم تكن الحال فى هذه الاثناء على ما يرام فى دارفور فقد كتب الى زوجال بك يقول : ان عمر واد دارهو قد سار سيرة سيئة فى شقة وقدمت خطابه هذا الى رؤوف باشا فأرسل اليه فى الحال تلغرافاً يأمره فيه بأن يسافر الى الفاشر .

ولم يعد لى فى الخرطوم ما يؤخرنى عن السفر فعزمت على أن أقوم بأسرع ما يمكن لكى أتسلم اعمالى . ووضع رؤوف باشا باخرة تحت تصرفى فتركت الخرطوم فى ٢٩ مارس ورافقنى الأسقف كومبونى والأب اوهرولدر الذى وعدته بأن أحمله على جمالى الى الأبيض . وقد شيعنا هانسل القنصل وماركو بولى بك وزربوخين وماركيه الى طرة الحضرة حيث ودعناهم . ولم افكر وأنا أودعهم اننى لن الاقى منهم بعد ذلك سوى واحد وأن تقدر لي العودة الى عاصمة السودان فى ظروف غريبة . وكنت شاباً يملأنى احساسي بالمركز الجديد الذى شغلته والتبعات العظيمة التى تحملتها بحماسة وأمل فى المستقبل . ولكن الاقدار كانت تخفى عنا حظاً آخر .

وبعد مسيرة خمسة أيام بلغنا الأبيض فبرحها الاسقف وقام بسياحة فى جبل نوبة اما الأب أوهر ولدر فقد بقى مدة ثم سافر فى أعمال الرسالة الى دلين فى جنوبى كردفان . ومكثت فى الأبيض

بضعة أيام ثم تسلمت تلغرافا لكى أقوم الى فوجه فودعت صديقى وسافرت اليها . وكان مقدرا لى الا أرى صديقى الأسقف فانه مات فى الخرطوم فى سنة ١٨٨١ .

اما الثانى أوهر ولدر فقد حكم علينا القدر بأن يمنى كل منا بمحن عديدة قبل أن نتلاقى أسيرين عند المهدى الذى كان يوشك أن يقلب ويقتلع كل نظام أو حكومة فى السودان .

ولما برحنا الأبيض غذذنا السير حتى وصلنا دارة ومنها الى الفاشر حيث بلغتها فى ٢٠ ابريل . ووجدت الأحوال الادارية قد بلغت درجة عظيمة من الارتباك والفوضى فقضيت بضعة أشهر وانا أجتهد فى ايجاد شبه نظام فيها ونجحت فى ذلك بعد أن جلت فى انحاء المديرية وباشرت عدة أعمال بنفسى وكبر نجاحى فى الاصلاح .

ولم أكن قد رأيت بعد الجزء الشمالى الغربى من المديرية فتملت بأخبار القتال بين عرب البادية وعرب المهرية وعولت على زيارة هذا الجزء . وفى منتصف شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ برحت الفاشر ومعى ٢٠٠ من الجنود المشاة وبعض الخيالة غير النظاميين وكان يقودها عمر واد درهو .

وبعد مغادرتنا الفاشر حططنا رحالنا للمبيت قرب آبار مدجوب وهى تقع فى منتصف الطريق الى قبة فلما خيم الظلام خرجت أتمشى نحو الآبار وكانت ملابسى تشبه ملابس الجنود فلم يكن من السهل معرفة شخصى وقعدت قريباً من الآبار أنظر الى النساء وهن يستقين . وجاء بعض الخيالة لكى يسقوا خيولهم وطلبوا من النساء أن يعطينهم دلاءهن . فرفضت النساء وقلن لهم : « بسملا جرارنا اولا ثم نعطيكم الدلاء » .

فقال احد الجنود : « لكأنكن تحكمن علينا بالعقاب من الله . وهذا جزاء منح الحرية للبلاد . والله لو لم يكن سلاطين معنا لأخذناكن انتن وجواركن ملكاً لنا » فأجبنه قائلات « الله يطول عمره » .

فرجعت وانا فى غاية السرور لأنى سمعت بأذنى شهادة السودانيين بارتياحهم الى الأوروبيين الذين نجوهم من المظالم التى كانت تتسم بها حكومة البلاد السابقة .

ولما برحنا كبكبية وصرنا على مسيرة نصف يوم منها أدركتنا رسل ارسلها الينا آدم عمر برسالة مكتوبة بالشفرة الفرنسية بعثها الى مركويولى بك باسم الحاكم العام . وكانت قد أرسلت لبيلا الى فوجه ثم الى كبكبيه من طريق الفاشر وهذا نصها :

« اغار درويش يدعى محمد احمد بدون مسوغ على راشد بك وجنوده قريباً من عذير . وأباده هو والجنود . الثورة خطرة جدا . اعمل اللازم فى مديريتك حتى لا ينضم الى هذا الدرويش أى واحد من الساخطين » .

فكتبت الرد فى الحال وهو : « وصلت الى الرسالة . وسأتخذ الاجراءات اللازمة لانفاذ أوامرك » .

وقد كنت سمعت قبل وصول هذه الرسالة الى بمدة أن شيخا من مشايخ الدين قد ظهر واخذ يناوىء الحكومة ويحث الناس على العصيان . ولكنى لما لم اسمع شيئاً عنه من الحكومة بصفة رسمية استنتجت أن مسألته قد سويت ولكن ابادة المدير راشد بك وجنوده

صارت تبدو لى الآن فى غاية الخطر . والظاهر أن الحركة قد امتدت بمجاة ولكن من كان يمكنه وقتئذ التنبؤ بالنتائج الهائلة التى بلغتها فيما بعد هذه الحركة .

ولم يكن من الممكن الآن ان ارجع بعد ان شرعت في السير نحو عرب البادية وعرب المهرية بدون ان اثير التلق فى النفوس عن علة رجوعى فى نصف الطريق فعولت على أن أتمم هذه المهمة قبل رجوعى .

ومن الغريب ان عرب البادية هؤلاء مع انهم محاطون من كل جانب بالمسلمين يكادون يؤلفون القبيلة الوحيدة التى لا تزال متعلقة بعادات الوثنية القديمة فى وسط افريقيا . فاذا سئل أحد رؤسائهم أن يصرح بدينه قال : (لا اله الا الله محمد رسول الله) ولكنه لا يعرف شيئاً غير هذه العبارة فهو يجهل القرآن ولا يصلي مع المسلمين .

وكانت عرب البادية يجتمع رجالها تحت شجرة كبيرة جداً من شجر الهجلك وقد فرشت أرضها بالرمل فيتمنون على اله مجهول ما يريدون ويدعونه الى حمايتهم .

ولهم أعياد دينية تقع فى أوقات غير معينة فيصعدون الى التلال ويقفون على القمة التى يطلونها بالجير ثم يذبحون أضحياتهم . وهم طوال الأجسام لهم هيئة شريفة ولونهم أسود شديد السواد ولكن انوفهم دقيقة وافواههم صغيرة وهم لذلك اشبه بالعرب منهم بالزنوج . ونساؤهم مشهورات بشعرهن الطويل السبط وبينهن جميلات يشبهن جميلات العرب . وهم يلبسون وزرة من جلود الحيوان ولكن النساء والطبقة العالية من الرجال يلبسون ملابس طويلة مصنوعة من قطن دارفور . وطعامهم غاية فى البساطة .

فهم لا يعرفون القمح ولا يزرعونه وانما يأخذون لب القرع الذي ينمو عندهم بكثرة وينقعونه فى آنية مصنوعة من لحاء الشجر . ثم يقشرونه ويتركون اللب فى الماء حتى تذهب عنه مرارته ثم يصفونه ويمزجونه بالبلح ثم يجففونه ويطحنونه دقيقاً يخبز مع اللحم فيكون طعاماً .

ولهم عادات غريبة فى الميراث . فاذا مات احدهم اجتمع اقاربه وحملوه الى قبره فى الجبانة التى تقع عادة خارج الحلة أو القرية التي يعيشون فيها . فاذا دفن وقفوا مستعدين فتشار لهم اشارة خاصة فيعدون الى بيت الميت متسابقين فمن بلغه قبل غيره غرز رمحه أو قوسه فيصير بذلك الوارث الوحيد لما ترك الرجل من مال ونساء ما عدا أم المتوفى وله الحق عندئذ فى ان يتزوج النساء او يسرحهن حسب حالته المالية فان عدد النساء يتوقف على غنى الرجل أو فقره .

ووصلنا اخيراً الى كامو حيث أخبرنى الزغاوة الكبير الشيخ صالح دنقوسة بأن رؤساء عرب البادية سيحضرون فى الغد . واتفقت معه على أن تكون شجرة الهجلك مكان اللقاء والمفاوضة وأن يكون ميعاد المفاوضة بعد ساعة من شروق الشمس ويكون هو ترجماناً بينى وبينهم . وامرت رجالى بنصب خيامهم على بعد نصف ميل من شجرة الهجلك ثم صففتهم فى صباح اليوم التالى استعداداً للقاء رؤساء البادية الذين اخبرنا صالح المذكور بقدومهم ، ووقفت مع ضباطى ومع السنجق عمر واد دارهو متقدمين على الجنود بنحو مائة ياردة ومعنا الخدم وقوفاً الى جانب الخيول . ثم ظهر لنا رؤساء البادية قادمين الينا ومعهم صالح وأيديهم مكتوفة الى صدورهم ورؤوسهم منكسة . وقد أحضروا معهم ترجماناً فتبادلنا التحية بواسطته ثم أمرت ببسط السجاد على الأرض

ودعوتهم الى الجلوس عليه . اما أنا وضباطي فقد جلسنا جنبي الكراسي ثم تناولنا شيئاً من السكر والماء والملح وشرعنا في المفاوضة .

. . . . .

وكان رجال البادية اربعة كلهم طويل شريف الهيئة ذو ملامح حسنة في سن الكهولة وكانت ملابسهم جلابيب بيضاء اخضرها لهم صالح وكانوا يحملون السيوف العربية المستقيمة وكانت أسماؤهم : جار النبي وبوش وعمر وكركره ولكني لست متأكداً بأنهم لم يتخذوا هذه الأسماء العربية المطنطنة وقتياً للظرف الحاضر فقط ، وكان أتباعهم يبلغون من ستين الى سبعين رجلا يلبسون القمصان والجلود وقد وقفوا وراءهم على بعد منهم . وقعد صالح دنقوسة قريباً من الشيوخ ومن المترجم .

وتكلم جار النبي مخاطباً المترجم قائلا « كرسي سلم » فقال المترجم : سلم يعني انه مستعد للترجمة ثم شرع في المفاوضة قائلا .

« نحن من قبيلة البادية وقد كان آباؤنا واجدادنا يدفعون الخراج لسلطان دارفور كل سنتين او ثلاث عندما كان يرسل جباته لجمعه . وأنتم الأتراك قد تغلبتم الآن على دارفور ولم تسألونا قط أن ندفع لكم خراجا . وأنت (لبسلاطين) قد صرت حاكما للبلاد كما أخبرنا بذلك صديقنا وأخونا دنقوسة ونحن نقر بطاعتنا لك وقد أحضرنا معنا رمزاً لهذه الطاعة عشرة خيول وعشرة جمال وأربعين بقرة . فهل لك الآن أن تقرر قيمة الخراج المطلوب منا ؟ » .

وصارت النوبة الى في الكلام فبعد أن قلت « كرسى سلم » قلت أنا اشكركم على خضوعكم وساطلب خراجاً صغيراً ولكني جئت

هنا لكى أطلب منكم ان تردوا الى المهرية جمالهم التى سرقتموها وتردوا اليهم أسراهم الذين تحبسونهم الآن » .

فتريث جار النبى هنيهة ثم قال : « منذ عهد آبائنا ونحن فى ثارات مع العرب المحيطين بنا فاذا قاتلناهم واسرنا منهم اسرى فمن حقنا أن نطلب فداءهم وكثيرا ما قبلنا قبلا فكاك اسرى المهرية » .

فسألت الشيخ حسب الله عن صحة هذه الدعوى فاجاب بالايجاب ، فسألته ثانياً هل كانت هذه العادة تجرى مدة سلاطين دارفور فقط او أنها جرت أيضاً بعد دخول دارفور فى حكم الحكومة المصرية » .

فاجاب : « قبل ان تفتحوا البلاد ومنذ سنتين غزت المهرية بلادنا فصددناهم فارتدوا عنا » .

فنظرت الى حسب الله ووجدت من عينيه أن الرجل يقول الحق فقلت « قد يكون ذلك ، ولكنى فى تلك الوقت لم أحكم هذه البلاد وأنا أعرف انكم فى تلك الأيام كنتم تعملون ما كنتم تظنونه صواباً ولست الوحكم على ما فات ولكنى أنا الآن الحاكم واطلب منكم السير على رغبتى . فيجب اذن أن تردوا الاسرى ولكن بما أن المهرية قد بداوكم بالهجوم فانا اسمح لكم بأن تحتفظوا بنصف الجمال برهاناً على شجاعتكم فى رد غارتهم » .

فخيم سكوت طويل ثم أخذ الأربعة يتفاوضون معاً . واخيراً أجاب جار النبى بقوله : « سنطيع امرك . ولكن بما ان جمع الجمال يحتاج الى مدة طويلة لتفرقها فى انحاء البلاد فانه من الأسهل علينا أن نرد الأسرى » .

فقلت : « اذن التفتوا لما اقول ونفذوا هذه الأوامر بأسرع ما يمكنكم . ردوا الجمال وأنا أعفيكم من خراج هذا العام لأنى أعرف أن من الصعب أن تدفعوا الخراج وتردوا الجمال فى وقت واحد » .

ورأينا أن هذه التسوية قد وافقتهم حتى صاروا يكثرون من الشكر والدعاء فطلبت منهم البقاء لصباح اليوم التالى وقلت ان صالح سيعنى بكل حاجاتكم . ثم امتطينا خيولنا وامرت الجنود بأن يطلقوا ثلاث طلقات . وقد ذعروا عندما صكت آذانهم لأنهم لم يسمعوا اطلاق العيارات النارية قبلا . ثم أمرت صالحاً بأن يحضرهم لى فى صباح اليوم الثانى وركضت جوادى الى مضرب خيامنا .

وتضيت طول النهار وانا مشغول البال بشأن رجوعى الى الفاشر بدون أن يؤثر رجوعى فى نجاح بعثتى . ولم يكن من المتيسر لى ان أبقى حتى ارى رد الأسرى وكنت ايضاً قلقاً بشأن قرب الماء الذى اعطاه لنا المهرية وقد وبخت حسب الله لعدم اتقانه هذه المهمة .

ولما جاءوا فى صباح اليوم التالى سألتهم هل ارسلوا الرسل لجمع الأسرى والجمال فأجابونى بالنفى فقلت لهم فى لهجة التعنيف انى لن اقدر على الانتظار لكى أرى تنفيذ اوامرى بنفسى . فقال جار النبى : « نحن هنا يا مولاى لكى ننفذ أوامرك فيمكنك أن تسافر حين تشاء ونحن نسلم الأسرى والجمال الى دنقوسة وحسب الله » .

فقلت : « عندى اقتراح آخر . فانى لا اشك فى اخلاصكم وولائكم ولكنى احب أن أزيد معرفتى بكم ولذلك أرى أن تصحبونى أنتم ومن تريدون أن يرافقكم الى الفاشر وفى اثناء غيابكم تنتدبون من

ترغبون فى ندبه لكى يسلم الرجال والجمال لحسب الله الذى سيبقى هنا مع دنقوسه . وعندما تبلغنى الأخبار وانا بالفاشر بأن مندوبيكم قد فعلوا ذلك أردكم انا الى بلادكم مثقلين بالهدايا . انكم لم تزوروا الفاشر قبلا ويلذ لكم رؤية عاصمة المديرية وقوة الحكومة وانى واثق بأنكم ستوافقون على اقتراحى هذا . وستسرون لما تشاهدونه هنالك حتى انكم ستوافقون بعد ذلك دائماً على كل ما أطلبه منكم فى المستقبل » .

فقال صالح ان الاقتراح حسن ولكنه قد سبق أن رأى الفاشر ولذلك هو لا يرغب فى زيارتها ثانياً . ورأيت من وجوه الآخرين أنهم يستحسنون الفكرة وبعد محادثات طويلة وافقونى على السفر معى . وكانوا لعلمهم بأن سفرنا يتوقف على انتداب من يثقون به لتسليم الأسرى والجمال اخذوا يتشاورون بسرعة فى انتداب عدد منهم لكى يقوموا بهذا العمل ولما انتهوا من ذلك زودوهم بستة رجال لخدمتهم واخبرونى باستعدادهم للسفر . ولكنهم قبل أن يسافروا طلبوا منى أن يقسموا يمين الولاء فوافقتهم على ذلك . وكان لأخذ هذه اليمين حفلة نظامها كما يلى :

احضروا سرج جواد ووضعوه على الأرض ثم وضعوا فوقه قدرا تحتوى على فحم خشبى متقد وغرزوا فى السرج رمحاً . ثم تقدم شيخ بعد شيخ منهم وصار يتلو كل منهم كلمات ثم يقسم فى نهايتها اليمين التالية :

(لا تمس ساقى هذا السرج وليطعننى هذا الرمح ولتأكلنى هذه النار اذا انا نكثت بهذا العهد الذى أتعهد به أمامه) .

وبعد هذه اليمين المحرجة لم يكن ثم ما يريبنى فى ولاء هؤلاء الناس أو فى شرفهم وأمرت بالشروع فى السفر بعد الظهر وبرحلنا

كاموا برفقة رؤساء البادية وحاشيتهم وأمرت صالحا وحسب الله بأن يخبرانى عن تنفيذ الاتفاق وتسليم الرجال والجمال . وكنت راغباً فى الوصول الى الفاشر بأسرع ما يمكننى ولذلك تركت رؤساء البادية مع فرقة المشاة واوصيت الضباط بالعناية بهم طول مدة سفرهم ثم اصطحبت عمر واد دارهو وحرس الشايجية واسرعنا فى السفر الى الفاشر .

وكان أول ما سمعته من الأخبار عند وصولى وفاة أميليانى دانزنجر الذى كان فى شقة . وقد كان قبلا مأمور القبة ولكنى كنت ارسلت اليه لكى يمثل الحكومة فى جنوبى دارفور وكان يشكو من مرض القلب منذ سنوات ثم قضى عليه اخيراً . ولم يفهم الموظفون الذين حوله سبب موته هذا الفجائى ولذلك اشتبهوا فى أنه قد مات مسموماً فحملوه على جمل وارسلوه الى داره ففحص الجثة الصيدلى المقيم هنالك وقال ان الموت طبيعى ودفنت الجثة فى داره واقمت انا نصبا من الحجر عليه تذكارا لهذا المواطن المسكين الذى لقى حتفه فى هذه البلاد النائية .

ثم بلغنى ان فى شقة قلاقل قد جرت حديثاً وأنى محتاج لذلك للسفر الى داره والاقامة بها جملة ايام . وجاءتنا ايضا اخبار مزعجة عن الحالة فى كردوفان والخرطوم ولكن كان المظنون فى دوائر الحكومة أن الثورة ستقمع بالحملة العسكرية التى ارسلت لهذا الغرض وبعد أيام وصل رؤساء البادية وقد أمرت بغية التأثير فيهم جميع جنود الحامية بالخروج والعرض امامهم وفى الليل اطلقنا جملة اسهم نارية اكراماً لهم . وقد انتدبت المدير لكى يقوم بحراستهم وراحتهم ولكنى لسوء الحظ لم أتمكن من البقاء معهم طويلا . فما كادت الخيول تستريح حتى شرعت فى السفر الى داره يصحبنى عمر واد دارهو ومائتان من الشايجية وانتدبت السيد بك جمعة لكى يمثل الحكومة مدة غيابى .

الفصل الرابع

رواية الخليفة عن المهدى

ظهر لنا أن حركة الدراويش كانت خطيرة جداً . ولقد ولد هذا الرجل محمد احمد قريباً من جزيرة ارغوا من عائلة فقيرة خاملة ولكن افرادها كانوا يدعون انهم من نسل النبى . ولكن هذه الدعوى لم يكن أحد يأبه لها وكان يعرف محمد احمد هذا باسم الدنقلاوى وكان أبوه فقيهاً عادياً وقد علمه القراءة والكتابة وهو صبى وأخذه الى الخرطوم ولكنه مات فى الطريق فى كريرى حيث بنى ابنه له بعد ذلك ضريحاً سماه « قبة سيدى عبد الله » .

ولم يجد محمد احمد من يعتمد عليه بعد وفاة ابيه فأخذ يدرس ويثابر على القراءة وكانت نفسه تنزع الى التفقه فى الدين فأحبه أستاذه وأوصاه بحفظ القرآن عن ظهر قلبه . ثم سافر الى بربر وتتلمذ لمحمد الخير فاتم عليه تعليمه الدينى وبقى جملة سنوات فى بربر يدرس ويقرأ وكان لتواضعه وذكائه محبوبا وفى حظوة من جميع المعلمين . ولما بلغ سن الرجولة غادر بربر الى الخرطوم فصار تلميذا للشيخ محمد الشريف وكان رجلا وقورا مشهورا وكان أبوه نور الدائم صاحب الطريقة السمانية المعروفة .

وواجب شيخ الطريقة أن يكتب فقرات من الأدعية والحديث فيحفظها تلاميذه عن ظهر قلب ويكررون تلاوتها حتى يتمهد بذلك لهم الطريق الى تصور الجنة التى هى غاية كل مؤمن . ولكل شيخ مذهبه وهو يحمل اسم مؤسس الطريقة مثل طريقة الخاتمية والخضرية والتغانية والسمانية الخ . وتلاميذ أصحاب الطرق هؤلاء يطيعونهم ويلزمونهم .

واظهر محمد أحمد تعلقه بالطريقة السمانية وتعلق بصاحبها الشيخ محمد شريف ثم رحل الى جزيرة أبه فى النيل الأبيض قريبا من كاوه وحوله جماعة من تلاميذه المخلصين المتعلقين به . وكانوا يرتزقون بزرع الأرض كما كانت تأتيهم هدايا عديدة من المؤمنين الذين كانوا يمرون عليهم فى النيل صعوداً او هبوطاً وكان عم محمد احمد مقيماً فى الجزيرة منذ سنوات فتزوج ابنته محمد أحمد . وكان أخواه محمد وحامد يعيشان هناك وكانا يشتغلان بصنع القوارب ويعاونان أخاهما على العيش . وحفر محمد أحمد لنفسه شبه صومعة فى شاطىء النيل وكان يعيش هناك بعيداً عن الناس وكان يصوم عدة أيام ولا يزور رئيس الطريقة الا من وقت لآخر لكى يثبت له اخلاصه .

وحدث فى احد الأيام أن محمد شريف جمع لمناسبة ختان أبنائه مشايخ الطريقة والتلاميذ وأذن لهم فى الغناء والرقص لأن الله يغفر فى مثل هذه الظروف الخاصة فى الأفراح ما يحدث من الخطايا والذنوب المخالفة ولكن محمد احمد لما انطبع عليه من التقى والصلاح استنكر الغناء والرقص وضروب الطرب الأخرى . وأوضح لأصدقائه مخالفتها كلها للدين وانه لا يمكن أى انسان مهما كان قدره ولو كان شيخ طريقة أن يترخص فيها . وبلغت هذه الأقوال محمد شريف فأكبر من محمد أحمد وعظ تلاميذه واستنكر الحجج التى

ادلى بها وطلب منه أن يبرر اقواله . وكانت نتيجة ذلك أن تقدم محمد أحمد بالاعتذار وهو يتذلل امام التلاميذ والاتباع ويطلب الصفح . ولكن محمد شريف أخذ يلعنه وينسب اليه الخيانة والخروج على شيخه بعد أن اقسم يمين الولاء له ثم محا اسمه من قائمة الأتباع المذكورين فى الطريقة السمانية .

بذل محمد احمد وصغر وذهب الى أحد اقاربه وطلب منه أن يصنع له « شعبة » والشعبة عبارة عن خشبة مشقوقة يوضع العنق فى شقها فتنضم عليه وتؤلم الانسان بذلك ألما شديداً . ثم ذر على وجهه رماداً وعاد الى محمد شريف فى هذه الهيئة يرجو الصفح ويقر بالتوبة والندم ولكن شيخ الطريقة رفض أن يخاطبه فعاد محمد احمد خائباً الى اهله فى ابه وكان يحترم مؤسسى الطريقة السمانية الشيخين نور الدائم والطيب احتراماً عظيماً ولذلك كان لطرده من طريقتهما وقع عظيم فى نفسه لا يكاد يحتمله .

وحدث بعد ذلك ان سافر محمد شريف الى بلدة قريبة من ابه فذهب اليه محمد احمد فى الشعبة ووجهه ملطخ بالرماد يستغفر ويتوب ولكن الشيخ طرده أفظع الطرد وقال له : « اخسأ عنى يا خائن . اخسأ أيها الدنقلاوى الشقى الذى لا يخاف الله والذى يخرج على معلمه ومولاه . لقد حققت قول من قال : الدنقلاوى شيطان مجلد بجلد انسان . انك تثير الشقاق بين الناس فاخسأ عنى فانى لن اغفر لك » .

وكان راكعاً يسمع هذا الكلام الجارح ثم انتصب وخرج والدموع تنهمل من عينيه ولكن هذه الدموع لم تكن دموع الندم بل دموع الغيظ والحقد اللذين كان يتلظى بهما قلبه وكان مما يزيده غيظاً قلة حيلته فى غسل هذه الفضيحة من نفسه . فعاد الى اهله واخبرهم أن محمد شريف قد طرده ولن يقبله فى الطريقة ثانياً وانه

قد عزم على أن يطلب من الشيخ القريشي أن يقبله في طريقته وكان هذا الشيخ قد خلف الشيخ الطيب جد محمد شريف وقد أذن له في تعليم الطريقة السمانية واعطاء العهد عنها وكان بينه وبين محمد شريف لهذا السبب غيرة شديدة .

وجاء جواب الشيخ القريشي يقول فيه انه مستعد لقبوله . وتهيأ محمد أحمد هو وتلاميذه للذهاب الى مسلمية حيث الشيخ القريشي واخذ العهد منه . وبينما هو في ذلك واذا برسالة من محمد شريف قد وصلته يقول له فيها انه يأمره بالقدوم وانه قد عزم على الصفح عنه وعلى الاذن له بأن يعود الى ممارسة الطريقة . فرد عليه محمد أحمد رداً ابياً قال فيه انه لا يطلب الصفح لأنه لم يذنب وانه لا يحب ايضاً أن ينقص مكانة الشيخ بأن يجتمع به علناً امام الناس وهو « دنقلاوى شقى »

واستقبله الشيخ القريشي مرحباً وانتشرت حكاية رفض محمد احمد قبول الصفح من شيخه في جميع انحاء السودان . ولم يكن الناس قد سمعوا بمثل هذا العمل من قبل واخذ محمد احمد يصرح بأنه ترك مولاه القديم لانه قد خالف الدين جهرة . فعطف عليه الناس عطفاً كبيراً لهذا السبب وجعلوا يتحدثون به وكبر مقامه في عيونهم وقد بلغت هذه الحادثة أهل دارفور وصارت حديثهم وصار هو بطلا يعجب به لرفضه الطاعة لمولاه .

وحصل على اذن من الشيخ القريشي بأن يعود الى ابيه حيث كان يزوره الناس من جميع البلاد يتبركون به وصارت العامة تهرع اليه وترى فيه مظلوماً خرج على ظالمه وابى الضيم : وكانت تأتيه الهدايا فيفرقها بين الفقراء ولا يأخذ شيئاً منها لنفسه حتى صار يلقبه الناس بلقب « الزاهد » .



ثم سافر الى كردوفان حيث يكثر الفقهاء . وهم من أجهل الناس واكثرهم خرافات . فلقى نجاحاً عظيماً بينهم . ووضع رسالة وزعها بين اتباعه المخلصين حضهم فيها على تطهير الايمان الذى فسد وانحط بفساد الحكومة وعدم احترام الموظفين أركان الدين .

وبعد اشهر مات الشيخ القريشى فذهب محمد احمد واتباعه الى مسلمية حيث بنوا له ضريحا له قبة تذكاراً له .

وحدث فى هذا الوقت ان جاء رجل يدعى عبد الله بن محمد التعايشى من قبيلة البقارة اى الذين يقتنون البقر وطلب من محمد احمد ان يدخل فى الطريقة السمانية فتبله محمد أحمد واقسم أمامه يمين الولاء . وكان عبد الله هذا اكبر اخوانه الأربعة وكان ابوهم يدعى محمد التقى من قسم الجبيرة من فخذ التعايشى . وكان هذا الفخذ ينتسب الى « أولاد ام صورة » وكان لعبد الله أربعة أخوة ثلاثة ذكور وهم يعقوب ويوسف وسمانى وأخت تدعى فاطمة . وكانت علائق ابيهم باسرته سيئة ، ولذلك عزم على مهاجرة السودان والحج الى مكة ثم الاقامة فى جوار الرسول بالمدينة . وقد وصف اولئك الذين عرفوا محمدا التقى هذا بأنه كان رجلا صالحاً متحرجا يؤدى واجباته الدينية بدقة ويشفى الامراض بالتعاويذ والتمائم وكان ايضاً يعلم الناس القرآن .

وكان عبد الله ويوسف اشد أولاده عصياناً وقد لقى منهم الأمرين فى تعليمهم بعض الآيات الضرورية للصلاة . أما يعقوب وسمانى فكان فيهما شيء من طبع والدهما وهدوئه وقد حفظا آيات القرآن وبعض الشروح وكانا يعاونانه على تأدية واجباته الدينية .

وقد اشتركت أسرة التعايشى فى مقاومة الزبير عند فتحه دارفور . وقد حكى الزبير بأنه عندما كان يقاتل فى الشقة وقع

عبد الله أسيراً وكان أوشك ان يقتله لولا ان توسط بعض الفقهاء. وعرف له عبد الله هذه المأثرة فجاءه يوماً يقول له انه رأى في نومه رؤيا تتلخص في أن الزبير هو المهدى المنتظر وانه هو عبد الله أحد اتباعه . قال الزبير :

« فقلت له انني لست المهدى ولكني لعلمي بشراسة العرب وأنهم اقفلوا الطرق قد جئت لفتحها واعادة التجارة الى ما كانت عليه » .

ولما انتهى الصلح مع الزبير عاد التقى هو واولاده عن طريق تلقة وشقة التى بقوا فيها سنتين ثم غادروها الى دار قمر عن طريق دار احمر والابيض . وكانوا قد نزلوا ضيوفاً على شيخ دار قمر وبقوا عنده عدة اشهر ومات هناك. ابوهم التقى فدفنوه في شرقلة وقبل موته اوصى أكبر أبنائه عبد الله بأن يحتمى ببعض المشايخ ثم يهجر هو واسرته السودان الى مكة حيث يعيشون بقية حياتهم ولا يرجعون الى السودان .

وسافر عبد الله وترك اخوته طبقاً لوصية ابيه في عناية الشيخ عساكر أبو كلام وسمع فى طريقه عن الشقاق بين محمد أحمد وشيخ طريقة السمانية التابع لها وعزم على أن يذهب الى محمد احمد وان يطلب منه الاذن بالاندماج فى طريقته .

وقد قال لى بعد ذلك الشيخ عبد الله بن السيد محمد خليفة المهدى : « كان سفرى شاقا جداً . وكان كل ما أملكه فى الدنيا حمارا له دبرة فى ظهره فلم أكن أستطيع ركوبه وانما كنت اضع عليه قربتى وغرارة القمح وابسط فوقهما ثوبى المصنوع من القطن واسوقه أمامى . وكنت فى ذلك الوقت البس ثوباً فضفاضاً من القطن مثل سائر رجال قبيلتى . أظنك تتذكر هذا الثوب يا عبد القادر » .

. (وكان يسميني عبد القادر فاذا كان أحد آخر قاعداً وله هذا الاسم فانه كان يدعوني باسم عبد القادر صلاح الدين اى سلاطين) .

وكانت ملابسي ولهجة كلامي تدلان على أني غريب وبعدما عبرت النيل كان كلما قابلني أحد قال لي : ماذا ترغب هنا . اذهب الى بلدك . ليس هنا شيء تسرقه وأهل النيل يسيئون الظن بنا لأن التجار الذين كانوا يذهبون الى الغرب للزبير كانوا يلاقون عنتاً كبيراً من العرب وكنت عندما أسألهم : أين المهدى المعروف باسم محمد أحمد واين يقطن ؟ كانوا ينظرون الى متعجبين ويقولون : وأنت ماذا ترغب منه . انه لا ينجس شفتيه بذكر اسم قبيلتك .

« ولكن لم القَ هذه المعاملة من كل الناس فان بعضهم كان يشفق على ويدلني على الطريق . وكنت مرة أجتاز قرية فأراد بعض أهلها أن يستلبوا مني حماري متعللين بأنه سرق منهم فى العام الماضى وكادوا ينجحون فى ذلك لولا أن توسط رجل صالح وأجازني القرية بحماري . وكنت طول الطريق عرضة للسخرية والتهزئة ولولا أن البعض كان يشفق على ويعطيني شيئاً من الطعام لمت جوعاً . وبلغت بعد الجهد مسلمية فوجدت المهدى مشغولاً ببناء ضريح للشيخ القريشي . فما هو أن رأيته حتى ذهب عني كل ما عانيته من المشاق وقعدت راضياً أعاينه وأسمع أقواله وتعاليمه . وبقيت ساعات لا أجسر على فتح فمي أمامه ثم تشجعت وأخبرته بقصتي والحالة السيئة التى صار اليها اخواني وعزمت عليه بالله والرسول الا ما أدخلني فى طريقته . ففعل ومد الى يده فقبلتها مشتاقاً وأقسمت له بالطاعة العمياء طول حياتي . وقد حافظت على هذا القسم حتى رفعه ملك الموت وسيرفعنا أيضاً يوماً ما ولذلك يجب أن نستعد للقائه فى كل وقت » .

وكان عبد الله التعايشي كثيراً ما يحادثني بمثل هذه الأحاديث يبعث الى فى الليل لكي أسامره فأقعد أنا على الأرض ويقعد هو

على العنجريب الفاخر المفروش بحصير السعف . وكان يثق بى ولا يخفى عنى شيئاً فى الأول أما بعد ذلك فصار يتشكك من جهتى .

وكان يحب التملق وكنت أغلو انا فى ذلك فافوت الحدود ولكنى كنت ارغب فى أن يتم حديثه فقلت له : « أجل يا مولاى لقد حفظت وعدك وكافاك الله فبعد أن كنت محتقراً مهيناً قد صرت الآن رئيس البلاد وملكها . ولقد كان يحق لأولئك الذين سبوك واهانوك أن يشكروك ويعترفوا بفضلك فانك لم تنتقم منهم بل حلمت وتمالكت فثبت بذلك انك خليفة النبى » .

قال عبد الله : « لما اقسمت يمين الولاء للمهدى احضر احد تلاميذه ويدعى على وقال له ولى : أنتما منذ الآن أخوان فليؤيد كل منكما الآخر وانت يا عبد الله اطع ما يأمرك به أخوك .

« وكان على يجاملنى وكان فقيرا مثلى وكان كلما أرسل اليه المهدى طعاماً يشاركنى فيه فأصيب منه . وكنا فى النهار نحمل الطوب لبناء الضريح وفى الليل ننام على فراش واحد وتم بناء القبة بعد شهر وكان الزائرون يتوافدون على المهدى بالمئات فلم يكن لديه من الوقت ما يمكنه أن يرانى او يفكر فى ولكنى كنت أعرف ان لى فى قلبه مكانة حتى انه جعلنى أحد حملة البيارق ولما غادرنا المسلمية كان الناس يهرعون الينا لكى ينظروا المهدى وكانوا يسمونه فى ذلك الوقت باسم محمد احمد فقط وكانوا ينصتون الى أقواله ويرغبون فى بركته .

« ولازمتنا هذه الحال حتى بلغنا جزيرة أبه . وكان نعلاى قد بليا وكنت قد اضطررت الى اعطاء حمارى للمقدم (وهو رئيس التلاميذ) لكى يحمل عليه رجلا مريضاً . ولكنا وصلنا فى النهاية

الى بيت المهدى وهنا أصابتنى دوسنطاريا شديدة فأخذنى « أخى » على الى عشته المصنوعة من القش ولم تكن تكاد تسع اثنين وكان يأتينى بطعامى ويحمل الى الماء للوضوء .

« وذهب فى مساء أحد الأيام لاحضار الماء ولكنه لم يرجع . وفى صباح اليوم التالى ابلغت إنه وهو يستقى من النيل هجم عليه تمساح وافترسه . الله يرحمه . الله يغفر له » .

فكررت انا هاتين العبارتين وقلت : « ما أعظم صبرك يا مولاى . من اجل ذلك قد رفع الله مرتبتك . وهل لى يا مولاى ان اسألك هل اعارك المهدى التفاتة مدة مرضك » ؟ .

فقال : « كلا . فقد اراد المهدى ان يبلونى . ولم يخبره أحد بمرضى الا بعد وفاة على وجاءنى بعد ذلك فى مساء أحد الأيام وكنت منهوكاً لا أقوى على النهوض فقعد بجانبى واعطانى مديدة سخنة من قرعتى وقال لى : اشرب هذا وثق بالله فانك ستشفى .

« ثم غادرنى وجاء بعض الاخوان فحملونى بأمره الى عشة قريبة من عشته . وكان هو نفسه يعيش فى عشة بسيطة . ومنذ اعطانى المديدة وانا آخذ فى التحسن والشفاء على حد وعده لى فانه لا يكذب ولا يقول الا الصدق » .

فأقول انا هنا : « المهدى لا يكذب ولا يقول الا الصدق وانت خليفة وقد سرت فى أثره واتبعت أوامره » .

ويتم الخليفة حديثه فيقول : « فلما اقتربت منه عادت الى صحتى بسرعة لأنى كنت أراه كل يوم وكنت أرى فيه نور عينى واسكن الى قربه . وكان يسألنى عن عائلتى ويقول انه يحسن بهم البقاء فى كردوفان فى ذلك الوقت وكان آخر شىء يفوه به لى قوله :

« ثق بالله • ثم اكثر من زيارته له وكان ياتينى كل يوم مراراً وباح لى يوماً بسره وقال لى ان الله قد بعثه مهدياً وأن النبى قد اخذه الى حضرة الانبياء والرسل ولكن قبل أن يقول هو ذلك لى كنت انا أعرف منذ رايت وجهه انه هو المهدى المنتظر . أجل ما كان اسعد ايامنا فى ذلك الوقت . لا هموم ولا متاعب . والآن يا عبد القادر لقد سهرت وتأخرت . قم واذهب الى فراشك » .

فأسلم عليه واقول وانا خارج : « اطال الله عمرك وقواك على هداية المؤمنين فى الطريق السوى » •

ووجد المهدى فى شخص عبد الله أداة مطاوعة تقوم بما يطلبه منها . ومما يعجب له الانسان انه لولا شجار محمد احمد مع محمد شريف لما ارتفع شأنه . فانه أصبح ذا شهرة بعيدة فى جميع أنحاء الجزيرة (اى القسم الواقع بين النيل الأبيض والنيل الأزرق) وصار يمنى نفسه بالمراكز العليا التى كتبت له فى صحيفة القدر . وجعل يخبر أتباعه فى السر أن الوقت قد آن لتطهير الدين وانه سيقوم هو نفسه بهذا العمل فمن يرغب منهم الاشتراك معه فلينضم اليه . وكان يسمى نفسه « عبد الله » ويوهم من يحضره أنه يعمل عن وحى من الله وقد أعلمه الخليفة بكل ما تجب معرفته عن قبائل الغرب وأخبره بأن فى هذه القبائل شجاعة وايد وأنها اذا لاحت لها الفرصة للدفاع عن دين الله ورسوله فانها لن تتأخر عن اغتنامها فتهب للموت أو الظفر •

ونصح الخليفة للمهدى بأن يقوم بسياحة فى كردوفان لكى يجذب اليه القبائل وقام كلاهما الى دار قمر (جمر) حيث كانت عائلة الخليفة التى انضمت إليهما . وقد أخبر المهدى أعضاء هذه العائلة بأن الوقت لم يحن بعد بتركهم بيتهم أما الآن فمن الأنفع ان يحضوا القبائل النازلة حولهم على الانضمام للمهدى .

وبرح المهدى دار قمر الى الأبيض حيث زار الأعيان والمشايخ وكان يحادثهم ويستطلع اراءهم ويؤسس لترسماته المستقبلة . وكان يسر الى أولئك الذين يثق بهم كل الثقة أنه أمين على رسالة تطهير الايمان الذى أفسده الموظفون . وكان السيد المكى رئيس مشايخ الأبيض أمينه الذى وثق به وقد نصح له بأن الوقت الحاضر لا يلائم الثورة لأن الحكومة قوية والقبائل منشقة بعضها على بعض . ولكن المهدى كان أكثر تفاؤلا واتفق كلاهما على الا يتحرك الشيخ حتى يشرع المهدى فى الحركة التى سيكتم أمرها الى حين اعلانها .

ولما غادر المهدى الابيض سار الى تاج الله حيث التقى بمك آدم حاكم المركز الذى استقبله استقبالا حسناً ولكنه لم يعده بالتأييد لأن القاضى نصح له بالا يعد هذا الوعد ثم عاد الى أبه عن طريق شرقلة .

وكان محمد أحمد فى اثناء سياحته ينظر فى أحوال البلاد ويتدبرها وقد أدرك أن الطبقات الفقيرة فى الأمة تكره الحكومة اشد الكره وذلك لكثرة الضرائب الفادحة المضروبة عليها كما بينت ذلك فى أحد فصولى الماضية ، وكانت هذه الطبقات تعانى ما يوقعه بها الجباة الغلاظ السفلة من ضروب الظلم والعسف . وكان بين هؤلاء الجباة عد من السودانيين لم يكن تفلت منهم فرصة لاثراء أنفسهم وتوظيف أقاربهم بغية تحقيق هذا الغرض أيضاً . وقد عين غوردون التاجر السودانى الثرى الياس ومنحه رتبة باشا فكان لهذا التعيين أثر سىء فى نفوس الأهالى . وهذا القول ينطبق على تعيين قريبه وهو تاجر ثرى أيضاً يدعى عبد الرحمن بن نجا . وكان كلاهما على كفاية يعرف حالة البلاد وكيفية حكم الأهالى ولكنهما كانا يشتغلان لمصلحتهما .

ونتج عن تعيينهمـــا أن انتشر روح التحاســـد بين كبـــار السودانيين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أهلا لمثل وظيفة الياس أو قريبه عبد الرحمن . ولما أرسل الياس باشا الى مك آدم يطلب منه دفع الضرائب رفض مك آدم هذا الطلب رفضاً باتاً مدعيا بانه من سلالة ملوكية وقال فى رفضه : « انى أدفع للتجار اثمان البضائع التى أشتريها ولكنى لا أدفع لأحد خراجاً . وفى الوقت نفسه أرسل الى الأبيض يسأل هل مات الاتراك وسائر البيض حتى صـــارت الحكومة تعين التجار حكاماً بـــدلا من أن تعين الأشراف وذوى البيوتات . وكان هذا سبب فصل الياس باشا وعبد الرحمن مـــن وظيفتيهما وتعيين الأتراك والمصريين فى مكانهما .

أما عن الموظفين الأوربيين فلم يكن فى السودان سوى عدد قليل . وكانوا محبوبين ومحترمين لأن الناس كانوا يثقون بهم ولكنى لا اشك فى أن بعض الاستياء كان يعزى اليهم . فربما أصدروا أوامر مصدرها حسن النية ولكنها كانت تخالف عادات الأهـــالى وتقاليدهم . ثم انى لا اشك فى ان موقفنا تجاه مسألة الرقيق قـــد أحدث استياء عظيماً بعيد المدى . فان الدين يأذن بالرقيق وقـــد كانت الأرض منذ عهد بعيد تفلح بالعبيد وكان العبيـــد يوكلـــون بالعناية بالماشية . ولست أشك فى أن النخاسة كانت تتطلب ارتكاب فظاعات وسفك دماء ، ولكن هذه الفظاعات لم يكن يبال بها أو يفكر فيها مشترو العبيد وكانوا على وجه العموم يعاملون عبيدهم معاملة غير سيئة . ولم نقتصر نحن على منع تصدير الرقيق بل كنا أيضاً نسمع شكاوى العبيد ، وكنا على الدوام نحرر العبد الذى يشتكى مولاه .

وانتهز محمد أحمد فرصة الاستياء هذه من وجوهها العديدة وكان يعرف أن الدين هو العامل الوحيد فى ربط هـــذه القبـــائل

المتنازعة . فأعلن انه « المهدى المنتظر » فصارت له بذلك شخصية فوق شخصية اى انسان آخر وكان يأمل بذلك أن يطرد من السودان جميع الأوربيين والمصريين والأتراك . ولكنه لم يكن يعتقد أن الوقت قد حان بعد لأن يعلن جهاراً هذه الدعوة . فعمد الى تأييد دعوته بزيادة الأنصار واستمر على ذلك حتى صارت دعوته سراً مكشوفاً .

وكان محمد شريف قد أخبر رؤوف باشا الحاكم العام سراً بنية محمد أحمد ولكن نزاعه السابق معه جعل ولاة الأمور لا يصدقونه واستنتجوا أنه يدس لخصمه الذى ذاعت شهرته لصلاحه وتقواه . ولكن الحكومة علمت بعد ذلك من مصدر آخر ان محمد أحمد خطر على الأمن العام ونوت بنية صادقة على أن تنتهى منه .

ولهذا الغرض ارسل رؤوف باشا يطلب محمد بك أبو السعود وامره بالسير فى الباخرة الى ابه واحضار محمد أحمد الى الخرطوم . ولكن أصدقاء المهدى وانصاره احاطوه علماً بنية الحكومة واخبروه انه اذا حضر للخرطوم فسيعتقل بها وأن اعتقاله ليس الا من دس محمد شريف ، فلما وصل أبو السعود بك الى ابه استقبله عبد الله التعايشى وشقيق لمحمد احمد وقاداه الى حيث مقام الشيخ . فأخبره أبو السعود عن التقارير التى بلغت للحكومة عنه وهى بالطبع كاذبة وعن الاشاعات التى تشاع عنه وطلب منه لذلك أن يسافر الى الخرطوم ويكذب هذه الاشاعات التى أشيعت عنه أمام الحاكم العام . فاجاب محمد أحمد وقد وقف فجأة وضرب صدره بيده قائلاً : « ماذا تريد منى . وحق الله ورسوله ما أنا الا سيد هذه البلاد ولن أذهب الى الخرطوم لكى أبرىء نفسى » .

فتراجع أبو السعود للوراء مذعورا من هذه اللهجة وأخذ يهدىء روع المهدى بكلمات رقيقة . ولكن المهدى الذى كان قد رتب هذا المنظر التياترى مع عبد الله ومع شقيقه صار يتكلم بحماسة وحرارة ويحض أبا السعود على أن يؤمن بما يقوله .

أما أبو السعود فكان الآن مهموماً بنفسه لا يبالى الا بأن يرجع الى الخرطوم ، ورجع بالفعل وأخبر الحاكم العام بحبوط مهمته .

وأدرك محمد أحمد أنه ليس هناك مجال لاضاعة الوقت وأن مستقبله يتوقف على مجهوده فلم يتوان عن الكتابة الى جميع أنصاره فى أنحاء السودان يستثيرهم على الحكومة . أما الأنصار القريبون منه فقد أمرهم بأن يستعدوا للجهاد .

وفى هذه الأثناء لم يكن رؤوف باشا مهملا أمر المهدى ، فقد عرف من حديثه مع أبى السعود أن خطورة المسألة عظيمة جداً فعزم على ارسال فصيلتين للقبض على المهدى ووعد كلا من قائدى الفصيلتين بأن يرقيه الى رتبة بكباشى اذا كان هو القابض عليه قبل الآخر وأراد من ذلك أن يحثهما على الاجتهاد والمنافسة ولكن عواقب هذا العمل كانت وخيمة جداً .

فان الجيش الذى كان يقوده أبو السعود نزل الباخرة « اسماعيلية » وكان بها مدفع فبرحت الخرطوم فى أغسطس سنة ١٨٨١ وسارت الى أبه . وكان هذا الجيش مؤلفاً من فصيلتين على كل منهما قائد . وقد اختلف هذان القائدان الواحد مع الآخر والاثنان مع أبى السعود وعرف محمد أحمد بالحملة الموجهة اليه فاستعان بقبيلتى دغيم وكنانة فأعانتاه واستعد هو للمقاومة وأخبر من حوله

بأن النبى قد ظهر له وقال له ان كل من اشترك معه فى هذا الجهاد سيعطى لقب « الشيخ عبد القادر الكيلانى » ولقب « أمير الأولياء» وهما لقبان محترمان عند المسلمين . وعندما تفاقمت الحالة وعظم الخطر لم يتقدم للجهاد سوى عدد قليل سلموا أنفسهم وأموالهم المهدى .

ووصلت الباخرة الى أبه عند غروب الشمس وعلى الرغم من أوامر ابى السعود نزلت الفصيلتان لأن كل ضابط كان يرغب فى الحصول على رتبة بكباشى قبل الآخر . أما ابو السعود الذى كان قد انغرس الخوف فى قلبه منذ قال محمد احمد أنه مولى البلاد فقد وقف بالباخرة فى وسط النهر ومعه مدفعه . وكان الضابطان كلاهما يجهلان المكان وكلاهما يرغب فى الحصول على رتبة بكباشى فسارا فى طريقين مختلفين على الشواطىء المتوحلة قاصدين عشة محمد أحمد . ولكن محمد أحمد كان قد ترك عشته واخذ أنصاره وتسلحوا كلهم بالسيوف والحراب والهراوات واختبأوا فى الديس . والتقت الفصيلتان عند القرية كل منهما قد أتت من جهة مقابلة للجهة التى اتت منها الأخرى وأطلقت كلتاهما النار على القرية الخالية من السكان فأصابت كل منهما الأخرى وحدثت خسائر خطيرة من الطرفين . وفى وسط هذا الارتباك هب اتباع المهدى من كمينهم وضربوا الجنود الذين كان قد فقدوا قوتهم المعنوية فتشتتوا فى كل مكان . وتمكن بعض الجنود من أن يصل الى الشاطىء وأن يسحبوا الى الباخرة ورعب أبو السعود وأراد أن يبحر بالباخرة الى الخرطوم فى الحال . ولكن الربان أشار عليه بالبقاء للصباح لعل بعض الفارين من الجنود يتمكنون من الوصول الى الباخرة . ولكن لم يأت أحد وفى الفجر أقلعت الباخرة تسير بأقصى سرعتها حاملة هذه الأخبار المحزنة .

ويمكن ان ندرك نتيجة انتصار محمد أحمد . فان رجاله خرجوا من المعركة سالمين لم تنلهم خسائر قط او اذا كانوا قد أصيبوا فاصاباتهم كانت طفيفة جداً . وقد جرح محمد احمد فى ذراعه فضمد جرحه عبد الله التعايشى ونصح له الا يخبر اتباعه به . والى هنا كان عدد اتباعه لا يزال صغيراً لأن الناس كانوا يعتقدون أن الحكومة ستتخذ اجراءات فعالة لاخماد حركته .

وأخذ عبد الله واخوته يحضون محمد احمد على ان يجعل المسافة بينه وبين الحكومة بعيدة فعول بناء على حضهم أن يقوم الى جنوبى كردفان . ولكيلا يفهم أتباعه أنه ينوى الفرار من وجه الحكومة اذاع بينهم انه قد أوحى اليه أن يذهب الى جبل ماسة . والمأثور فى السودان أن المهدى يخرج من جبل ماسة . وهذا الجبل فى شمالى افريقيا ولكن المهدى تغلب على هذه الصعوبة بأن اسم جبل ماسة على جبل قدير الكائن بكردوفان . وقبل ان يغادر أبه عين خلفاءه الأربعة طبقاً للوحى . واولهم الذى كان يمثل ابا بكر الصديق كان عبد الله التعايشى . وثانيهم الذى يمثل عمر بن الخطاب كان على واد حلو من قبيلة دغيم . وثالثهم الذى يمتل عثمان بن عفان لم يعين وقتئذ وقد عرض هذا المنصب على الشيخ السنوسى فرفضه . اما الرابع فكان على الكرار وكان من أقارب المهدى وكان صبياً .

ورفض اصحاب القوارب أولا نقل اتباع المهدى على النيل لانهم كانوا يخشون أن تعدهم الحكومة مشتركين مع محمد أحمد وأتباعه ، وكان قد انضم اليهم فريق من قبيلتى دغيم وكنانة العربيتين . ولكن محمد أحمد تغلب على معارضتهم وجعلهم ينقلونه فى النهاية هو ورجاله الى الشاطىء الآخر . وسار الجميع الى دار تمر وكان محمد أحمد يدعو السكان الى الانضمام اليه ويطلب اليهم أن

يذهبوا معه الى جبل ماسة . واشتدت الحماسة عندئذ بين رجاله وكانت لا تفوت فرصة يخبرون فيها السكان عن المعجزات التى يأتيها المهدى .

وحدث مرة أنه وقف برجاله فى أحد الأمكنة وكان قريبا منه ضابط معه ستون جندياً وكان هذا الضابط المدعو محمد جمعة يجمع الضرائب وخطر فى باله أن يهاجم المهدى ويقبض عليه ، ولكنه خوفاً من تبعة هذا العمل أرسل الى الابيض يستشير ولاة الأمر ولكن قبل أن تأتيه التعليمات من الأبيض كان المهدى قد جاز المكان برجاله . وبعد سنوات لقيت محمد جمعة وهو فى حالة تعيسة فى ام درمان وقال لى : « لو كنت أعرف بأنه سيقضى على بأن أمشى حافياً وأن استجدى من الناس كسرة الخبز لما طلبت تعليمات من الأبيض وتركت هذا الدنقلاوى الشقى يفر من يدى . لقد كان افضل لى أن اقتل من أن اعيش هذه المعيشة التعسة » .

واتيحت فرصة أخرى للقبض على المهدى ولكنها فاتت أيضاً . فقد كان جيجلر باشا قد انتدب لمهمة تحقيق اختلاس حدث باتفاق مع موظف فى الأبيض وبين تاجر سودانى ثرى يدعى عبد الهادى وسمع جيجلر باشا بأن المهدى قريب منه وذلك حوالى آخر سبتمبر فانفذ اليه محمد سعيد باشا ومعه أربع فصائل من الجنود للقبض عليه واحضاره للأبيض . ولكن الحملة ، اما عن قصد أو اهمال ، أخفقت فى مهمتها . فان الجنود على ما يظهر حطوا رحالهم فى المكان الذى نام فيه اتباع المهدى فى الليلة السابقة وبعد أن أضاعوا ثلاثة أيام بلا فائدة عادوا الى الأبيض وهم موسومون بالخوف من قتال المهدى فزادت بذلك كرامة المهدى ووجاهته .

•

وكانت نية محمد أحمد أن يقضى بعض الوقت فى جبل تاج الله . وسمع مك آدم بذلك فارسل اليه أحد ابنائه بهدايا من القمح والغنم

ومعه رسالة منه ينصح له فيها بالتوغل بعيداً فى الداخلية . فاستمر فى سيره وبعد مشقات طويلة بلغ جبل غدير حيث كان يوجد قسم من قبيلة كنانة غير السكان الأصليين .

وكان راشد بك فى ذلك الوقت حاكماً على فشوده وكان يعرف حركات المهدى ولذلك عول على الغارة عليه قبل أن يتقوى بمن ينضم اليه . وكان فى فشوده رجل المانى يدعى برجوف وكان فى الأصل يشتغل بالفتوغرافية فى الخرطوم فأرسله رؤوف مفتشاً لقمع تجارة الرقيق فى أعالى النيل .

وتقدم الآن راشد بك ومعه برجوف وكايكو بك ملك الشلوك قاصدين غدير . وكان راشد يقلل من أهمية المهدى فلم يكن يحفل باتخاذ الحرس والاحتياطات فكمن له المهدى وأوقع به وقتل من رجاله الف وأربعمائة الف نفس . وكان هجوم المهدى مفاجئاً وسريعاً حتى لم يستطع راشد ارسال صاروخ فى الهواء . وصمد راشد وقليل ممن معه للقتال ولكن رجال المهدى تكاثروا عليهم وقتلوهم .

ووقعت هذه الهزيمة فى ٩ ديسمبر ومن ذلك الوقت لم يتردد محمد أحمد فى المجاهرة علناً بأنه المهدى المنتظر . وكبر مقامه فى أعين العرب ومع ذلك لم تكن علاقته مع جواره على ما يجب . وقد أشار الخليفة عبد الله التعايشى الى هذه المدة وحكى لى عنها فقال :

« لما بلغنا الغدير كنا فى غاية الاعياء بعد هذا السفر الشاق الطويل . وكان للمهدى فرس واحد من تلك السلالة الحبشية الرديئة أما أنا فقد سرت المسافة كلها تقريباً على قدمى . ولكن الله يهب القوة للمؤمنين الصادقين الذين يسلمون أنفسهم وما يملكون

لأجل الايمان . وكان أخوتى يعقوب ويوسف وسمانى قد انضموا الينا وكذلك زوجة أبى التى كانت ترضع ابنى على صدرها . ولم يرض أخى هرون البقاء فأتى معنا أيضاً . وكنت على الدوام فى قلق بشأن اخوتى وزوجة أبى وعائلتى وابنى هذا الذى تراه عثمان شيخ الدين ولم تكن مشاق السفر تهمنا نحن الرجال فان المصائب والكوارث تأتينا من عند الله ونحن نتحملها راضين شاكرين لأن الله قد اصطفانا لنعلى كلمته ونرفع دينه الذى ديس مع التراب وكنا نعلم اخواننا . ولكن (وهنا كان يبتسم) تعليم الدين لم يكن ليأتينا بالطعام لأولادنا ونسائنا وكان الناس يهرعون الينا زرافات ولكن معظمهم كان فى فاقة تزيد عن فاقتنا وكانوا يأتون الينا لكى نعولهم . أما المتيسرون فكانوا يتجنبوننا . أجل ان المال لعنة ومن كان غنيا فى هذه الدنيا فانه لن ينعم بنعيم الفردوس ولم نكن نحصل على معونة ما من الناس الذين كنا نجوز بلادهم وكان المهدى مع ذلك يقسم ما يحصل عليه من القليل الذى لديه بين الحجاج الذين كانوا يقصدونه وكان قلبى يتفطر عندما أسمع بكاء الأطفال والنساء ولكنى كنت عندما أنظر الى وجه المهدى تعود الى الطمأنينة وأثق بالله . أجل يا عبد القادر ان الصبر مفتاح الفرج . كن صبوراً والله يكافئك » .

وقد نبهت هزيمة راشد بك الحكومة الى خطورة الحالة وهيأت تجريدة بقيادة يوسف باشا شلالى وكان قد ظهرت مواهبه فى حملة جسى باشا فى بحر الغزال وكان مشهوراً بصدق عزيمته وبسالته . وهيىء أيضاً مدد آخر مؤلف من فرقة من الطويجية ومعهم بعض المتطوعين بقيادة عبد الله واد ضيف الله (شقيق أحمد واد ضيف الله) وعبد الهادى وسلطان ديمه . وارسل هذا المدد الى كردوفان .

وفى هذه الأثناء أرسل المهدى الرسل الى جميع الجهات تحمل بشائر انتصاراته وهدايته ودعا جميع الأهالى الى الانضمام اليه فى الجهاد وأطلق اسم « الأنصار » على أتباعه ووعدهم بأربعة أخماس الغنائم التى تغنم فى الحرب . أما من مات منهم فقد ضمن له نعيم الفردوس . وبذلك استثار الصفات الكامنة فى نفس السودانى وأهمها الطمع والتعصب .

وكان جيش يوسف باشا شلالى يبلغ أربعة آلاف جندى يقودهم محمد بك عثمان وحسن افندى رفقى الذى كنت قد فصلته أنا من وظيفته قبلا . أما الخيالة غير النظامية فكانت بقيادة طه ابن صدر وهو رجل شجاع . وغادرت هذه القوة الخرطوم فى ١٥ مارس سنة ١٨٨٢ وعرجت على كوه حيث حطت رحالها تنتظر المدد الآتى من الأبيض .

وقد وجد عبد الله ضيف الله ان جمع المتطوعة ليس من المهمات السهلة . فقد كان الشعور العام انه من الخطأ أن يقاتل رجل صالح مثل المهدى ثم لم يكن هناك مطمع فى الغنائم لأن اتباع المهدى لم يكونوا أحسن حالا من الشحاذين . وزيادة على ذلك كان الياس باشا اغنى تجار كردوفان وحاكمها المعزول يكره ضيف الله أشد الكره وقد استعمل سطوته فى منع الناس من التطوع . ومع ذلك تمكن ضيف الله من تجنيد بعض المتطوعة باتفاقه مع ولاة الأمور وصارت قوته بمن فيها من النظاميين ٢٠٠٠ قبل أن يبرح الأبيض والتقى بالجيش فى كوه فصار مجموع الجيش ٦٠٠٠ وذلك حوالى منتصف شهر مايو .

واستراح يوسف باشا قليلا ثم تقدم نحو الغرب وضرب خيامه فى ٦ يونيو فى مسات القريبة من جبل غدير وهو واثق بالظفر .

والحق انه لم يكن هناك حسب ظاهر الأحوال ما يدعو مثل يوسف باشا ومحمد بك وأبو صدر الى الخوف من طائفة من العرب تــد أضناها المرض والجوع والعرى . ألم ينتصروا فى الماضى بجملة انتصارات فى النيل الأبيض وفى دونيله ؟ ألم يفتحوا بحر الغزال ويخضعوا سلطان دارفور ؟ فماذا يمكن أن يفعل معهم هذا الفقيه الأعزل الجاهل ؟ .

ولكن عبد الله واد ضيف الله لم يكن مغتراً بقوته فقد حذر هؤلاء القواد من تصغير شأن المهدى . وقد وقع من ظهر جواده وهــو خارج من الأبيض وهنا الوقوع يعتبر فى السودان شؤماً يخشى منه ولكنه كان يصرخ فى الصحراء فلم يسمع له أحد . بل لم يعن أحد منهم ببناء « زريبة » من الأشواك والأغصان حول الجيش وانمــا اكتفوا بالتقاط قليل من القش وصنعوا منه سياجا واهياً لم تكن منه فائدة قط . وما جاء الفجر حتى جاءت طائفة المهــدى التى أضناها الجوع والعرى والمرض وأوقعت بجيش يوسف باشا . وكان ذلك فى ٧ يونيو . فقد جازوا السـياج الواهى وباغتــوا الجنود وهم نيام فأجهزوا عليهم فقتل يوسف باشا وأبو صدر وهما فى قميص النوم على باب خيمتهما . ولم تمض دقائق حتى أبيدت جميع الجنود تقريباً . وكان لأبى صدر امرأة سرية فلما رأت مولاها يقتل هبت الى القتلة وقتلت اثنين منهم بمسدس فى يدها ولكــن وقعت فوق مولاها بطعنة حربة بلغت قلبها . وصمد عبد الله واد ضيف الله بعض الوقت ولكنه هو ورفقاؤه قضى عليهم بعد مــدة جيزة من القتال .

وفى البلاد غير المتحضرة عندما يحدث شىء غريب يعزى على الدوام الى قوة الهية وكان هذا تأثير نكبة يوسف باشا فى عقول السودانيين المستسلمين للخرافات فقد مضى ستون سنة كان القطر السودانى محكوماً فيها بالمصريين والأتراك .

فقد كانت العادة المتبعة أن تعاقب القبائل التى لا تدفع الضرائب المطلوبة منها ولم يكن أحد يجادل فى حق الحكومة فى هذا العمل . أما الآن فهذا الفقيه قد ظهر وجمع حوله شراذم الرعاع الذين لم يتمرنوا على الأعمال الحربية وليس معهم عدة السلاح وأوقع بجيوش الحكومة فلم يكن هناك من يشك اذن فى انه المهدى المنتظر .

وكانت هزيمة يوسف باشا سبباً فى خضوع كردوفان كلها للمهدى فصار فى امكانه الآن أن يهيىء لنفسه العدة التى كانت تنقصه . فأخذ فى جمع الأموال والأسلحة والخيول وسائر الغنائم يوزعها على رؤساء القبائل التى انضمت اليه . وكانت هذه القبائل تعتقد أنه المهدى المنتظر الذى لا تحدثه نفسه الا باقامة الدين ولا قيمة للأموال والأمتعة فى نظره .

وفشت أخبار المهدى فى كل ناحية وكانت هذه الأخبار اذا تنوقلت بين أهالى كردوفان الذين لم يصيبوا الا قليلا من التعليم يبالغ فيها مبالغة عظيمة . وخرج من الأهالى عدد عظيم تركوا بيوتهم يؤمون جبل غدير الذى كان يسمى الآن جبل ماسة وبعض من الأهالى تجمعوا حول رؤسائهم لمقاتلة موظفى الحكومة المشتتين فى انحاء البلاد .

وكانت هذه الأحوال توافق أهواء العرب الرحل فكانوا بدعوى الحرب الدينية يقتلون وينهبون الأهالى وكانوا يتهمونهم بالولاء للأتراك وفى الوقت نفسه أيضاً وجدوا فى هذه الحالة طمأنينة من حيث عدم دفع الضرائب لتلك الحكومة المكروهة .

واتصل المهدى بتجار الأبيض الذين كانوا بواسطة ثروتهم ونفوذهم يحكمون البلدة بل جزءاً كبيراً من سائر البلاد . وقد

ادركوا هم الحالة تماماً وكانوا يعرفون ضعف الحكومة وتوانيها واستعد كثير منهم لمشايعة المهدى . وكان الياس باشا من أعظم المستائين من الحكومة وكان يكره احمد بك ضيف الله صديق محمد باشا سعيد ولذلك جد واجتهد فى السر فى جمع الأنصار للمهدى . وكان عدد كبير من صغار التجار ينتظرون تحسن الأحوال التجارية اذا سقطت الحكومة وكان هناك قليل من التجار يكرهون المهدى ولكنهم كانوا يترقبون فوزه فلم تكن لهم حيلة سوى الانضمام اليه لئلا تقع زوجاتهم وأملاكهم غنيمة لرجاله عندما يعقد له النصر .

أما مشايخ الدين فقد رأوا فى هذه الحركة ما يرفع مقامهم وكانوا يفخرون بأن واحداً منهم قد تجرأ على أن يعلن عن نفسه انه المهدى وكانوا يترقبون الوقت حين يطرد هذا المهدى جميع الاتراك من البلاد ويبقى هو الحاكم لها . وكان هناك عدد قليل — قليل جداً — من أولئك الذين كانوا يقدرون الخطر الذى تستهدف له البلاد اذا فاز المهدى وقد فعلوا كل ما يمكنهم لتنبيه الحكومة . ولكن عدد هؤلاء كما قلنا كان قليلا فلم يكن لهم أثر فى الحركة .

وارسل الياس باشا ابنه عمر لكى يطلع المهدى على الحالة ويدعوه الى المجىء الى الأبيض . وكان محمد باشا سعيد ينتظر مجىء المهدى للأبيض ولذلك حفر خندقاً حول المدينة ظناً منه أن السكان سيصمدون للحصار وأشار عليه أحمد بك ضيف الله بتحصين مبانى الحكومة ففعل وبنى حولها جداراً بارتفاع الصدر . ولكنه لبخله وقع فى خطأ فاحش اذ بدلا من أن يختزن الحبوب استعداداً للحصار ويشتريها بأثمان عالية رفض أن يشتريها الا بالأثمان التى تباع بها وقت السلم . ولم تمض مدة حتى بيعت الحبوب لأولئك الذين شعروا بالانقلاب فى الحالة وعرضوا ثمناً اكبر مما عرضه محمد باشا سعيد .

وفى هذه الأثناء كان الاهالى يقتلون فى كل مكان . وكان العرب السفاكون لا يلتقون بجباة الضرائب أو شراذم الجنود او الموظفين المتفرقين حتى يقتلوهم . واغار عرب البديرة على سكان ابى حرز وكادوا يبيدونهم . وكانت ابو حرز على سفر يوم من الأبيض ولم يتمكن من الهرب الى الأبيض سوى عدد قليل من الاطفال والنساء والرجال . اما باقى السكان فاما أنهم قتلوا أو اخذوا اسرى وقت فرارهم فى الصحراء المحرقة . وكان العرب يسقــون الفتيات اذا عطشن أما النساء المسنات فكن يلاقين الأهوال . فقد كان هؤلاء العرب لكى يحصلوا على خلاخيلهن واساورهن يقطعون أيديهــن وأرجلهن .

وبعد أيام قلائل اغار العرب على بلدة أشبــاف فى شمـــالى كردوفان فنهبوها وقد دافع عنها نور أنجره الذى كان هناك فى ذلك الوقت وساعده سنجق محمد آغا يابو الذى كان قواص غوردون ، ولكنهما اضطرا الى التقهقر . وكان يابو هذا كرديــاً وقد فعــل العاجئب فى تقهقره فقد جمع النساء والبنات فى الوسط وأمرهن بأن يغنين غناء الحرب وكان يقول ان هذا الغناء ينفى الخوف عــن القلوب وكان يكر على العرب من وقت لآخر حتى نجح فى استرداد جميع الفارين تقريباً ووصل سالماً الى داره .

واغار العرب على داره هذه ولكنهم ارتدوا عنها أولا . ثم عادوا وجمعوا جموعهم يقودهم الشيخ رحمة الله فطوقوا البلدة ومنعوا عنها المؤن .

واجتمع جمع آخر من العرب فى كشجيل فارسل اليهم محمد باشا سعيد فصيلة من الجند فرقتهم ولكن الفصيلة فقدت من أفرادها عدداً كبيراً حتى ليصبح أن يعد انتصارها هزيمة . واجتمع هؤلاء العرب ثانياً فى بركة وكانت بها حامية مؤلفة من ألفى رجل فقتلوا

وحدثت نكبة أخرى مشابهة لهذه فى الشط على النيل الأبيض حيث قتل مائتا جندى . واغار العرب أيضا على الدويم فارتدوا عنها وخسروا الفى رجل .

وفى هذه الأثناء لم تكن رسل المهدى الذين أرسلهم الى الجزيرة وانين . فان عرب جهينة والحوارنة والاجليين ساروا الى سنار يقودهم ابوروف فحصروها ولكن جاء السنجق صالح واد الملك بقوة من الشايجية فرفع الحصار عنها .

وحاصر الشريف احمد طه مدينة ابى حرز الواقعة على النيل الأزرق . وكان جيجلر باشا يقوم بوظيفة الحاكم العام رؤوف باشا وقد وصل الى جوار المدينة فأرسل مك يوسف من الشايجية لمهاجمة الثوار ولكنه هزم . واستحى مك يوسف من الفرار فنزل من ظهر جواده وبسط فروته على الأرض وأمر أحد عبيده بأن يقتله . ويسافر جيجلر فى الحال الى الخرطوم وهيأ مدداً عاد به واغار على أحمد طه وقتله وارسل راسه الى الخرطوم . ثم طهر جوار سنار من الثائرين بدون أن يفقد عدداً كبيراً من رجاله ولكن على الرغم من هذا النجاح الوقتى كانت الحكومة تتسلم كل يوم أخبارا مزعجة عن الكوارث التى كانت تقع بجيوشها وبالسكان فى عدة انحاء من السودان .

وكانت نتيجة ذلك ارسال عبد القادر باشا حاكماً عاماً للسودان فوصل الى الخرطوم فى ١١ مايو سنة ١٨٨٢ وشرع بهمة فى العمل على تحصين المدينة . وكان لعمله هذا تاثير فى الأهالى الذين اتضح لهم ان الحكومة تنوى العمل بهمة . ولكنه فى الوقت

نفسه أوضح لهم خطورة الحال . وقد أمنت دور الحكومة مثل مخازن المؤن والذخيرة والدفترخانة من جميع الطوارىء وسحب الحاكم العام الى الخرطوم حاميات القلابات وسنهيت وجره وكان الهدوء التام يشمل هذه المراكز .

وفى هذه الأثناء أدرك محمد أحمد أن حضوره ضرورى لكى يشعل النار الخامدة ويحيلها لهيباً آكلا . ولذلك قبل دعوة الياس باشا للتوجه الى الأبيض وترك عمه محمود شريف مع بعض الأتباع فى جبل ماسة للعناية بزوجاته وأولاده ثم هبط الى الوادى وجمع جموعه وسار بهم الى عاصمة كردوفان الغنية .

الفصل الخامس

الثورة فى جنوبى دارفور

لما غادرت الفاشر قاصدا داره فى أوائل سنة ١٨٨٢ كان معى ٣٥٠ جنديا راكبا بقيادة عمر ودارهو ولم يكن هذا الحرس ضروريا ولكنى رايت ان اؤثر فى العرب واريهم ان لدى الحكومة قوات كبيرة تخمد بها اية حركة تدفعهم اليها نزعاتهم ..

ولما بلغت داره زرت قبر اميليانى ونصبت شاهداً من الحجر عليه للذكرى . وكان زوجال بك يقوم مقامه فى ادارة الأعمال وكانت الظواهر تدل على أن الحالة قلقة جداً . فقد خرج عرب الجنوب وهم الرزيقات والحبانية والمعالية على الحكومة فقد عقدوا عدة اجتماعات اعلن فيها أن الدراويش يهرعون للانضواء الى راية المهدى الذى أرسله الله لأعلاء كلمة الدين . فأمرت منصور افندى حلمى بأن يسافر فى الحال الى شقة لكى يعيد النظام الى نصابه وكان معه ٢٥٠ جندياً نظامياً و ٢٥ جندياً راكبا .

فسار عن طريق قلقة (كلاكة) وعدت أنا الى الفاشر لكى اجمع فصائل الجنود التى كانت متوزعة فى انحاء البلاد لجمع الضرائب ولكى أستعد بهم للطوارىء وقبل أن اغادر داره تحادثت

طويلا ومليا مع زوجال . وقد كنت أعرف هذا الرجل معرفة تامة عندما كنت حاكماً هنا وقد علمت أنه تحادث مع عمر واد دارهو كثيرا عن أحوال المهدى وأعماله وأتفق معه على أنه اذا استمر النصر معقوداً بلوائه فانهما ينضمان اليه . وكان هذان الرجلان أغنى من فى المركز وكان لهما نفوذ عظيم بين الأهالى ولذلك كان انشقاقهما علينا خطراً جداً . فرأيت أن أتحبب اليهما وأن أعمل كل ما يمكن لمنع هذا الشقاق . فلما حادثت زوجال لم أشر الى مقابلاته العديدة مع دارهو ولكنى حصرت كلامى فى الاشارة عليه بأنه بالنسبة لقرابته للمهدى وبالنسبة لأنه موظف كبير ينبغى له أن يعاون السلطة الشرعية فى البلاد .

ولما ودعت الضباط والموظفين شرحت لهم وجوب انتباههم الدقيق لواجباتهم وأخبرتهم بأنى سأعود من الفاشر فى أقرب وقت . ثم تركت الجنود الراكبة فى داره وسرت الى العاصمة التى بلغتها بعد سفر ثلاثة أيام . وهنا علمت أن المحطة التلغرافية فى فوجة قد استولى عليها الثائرون ورأيت لذلك أن آمر بارسال المدد الى أم شنجه .

وكان نظام البريد قد تعطل تماماً واضطررت لهذا السبب الى أن أرسل خطاباتى الى الأبيض والخرطوم فى داخل قوائم الرماح أو بين نعلى الحذاء أو أخيطها داخل ملابس حاملها . وكنت قد طلبت من الخرطوم امدادى بالذخيرة ولكنها لم تصل الى لاهمال الموظفين فانها أرسلت الى الأبيض متأخرة لانقطاع المواصلات لم يمكن ارسالها الى .

وعلمت من داره ان مادبو زعيم الرزيقات قد رفض أن يأتى . فلم أشك بعد ذلك فى أن جميع القبائل الجنوبية قد خرجت على

الجكومة وانها تنوى كل النية الانضمام للمهدى فقررت أن يكون مقامى فى داره فأخذت ٢٠٠ جندى من المشاة و ٧٥ من الجنود الراكبة وسرت بهم الى داره .

وعند وصولى أبلغت وقوع حادثة كانت فى ذاتها تافهة ولكن نتائجها كانت خطيرة جدا . فقد سبق أن ذكرت بأنى وانا مسافر الى الخرطوم التقيت فى الطريق بالشيخ على واد هجير من قبيلة المعالية فرافقنى الى الخرطوم . وقد أثبت ولاءه للحكومة فعينته رئيساً لقبائل المعالية الجنوبية . وقد سمع هذا الشيخ بقرب عقد اجتماع عرب الرزيقات بقيادة الشيخ بلال نجور بغية الانضمام الى المهدى فعول الشيخ على على أن يحضر هذا الاجتماع ويقبض على الشيخ بلال متهما اياه بالثورة .

فسار الى مكان الاجتماع مع حميه وبعض أصدقائه ورأى بعض الرجال المنتمين الى قبيلة قد حضروا ايضاً فطلب اليهم أن يخرجوا وينحازوا الى جانبه . ولكن لم يبال أحد بطلبه وحدثت فى اثر ذلك مشاغبة عومل فيها هجير وأصدقاؤه معاملة قاسية عنيفة حتى اضطروا الى أن ينجوا بأنفسهم . ولكن حكاية فرارهم انتشرت على غير وجه الحقيقة بحيث أنه عندما وصل هجير الى زوجته ومعه حموه وأصدقاؤه تلقتهم بقولها :

« راجلى اضليم وأبويا ريطة · سفر يومين سووهم فى جبطة » .

ومعنى ذلك : « زوجى ظليم (ذكر النعام) وأبى أنثى نعام حتى انهما قضيا سفر يومين فى لحظة » .

واقتفى بلال نجور اثر الهاربين تصحبه المعالية فهجم على دار الشيخ هجير . وأخذ الذين حول الشيخ هجير يحثونه على الفرار الى شقة ليدخل فى حماية منصور . ولكنه كان يتضور من آلام الكلمات القاذعة التى عيرته بها زوجته فرفض الفرار وقال :

« لن افر لكى انجو بنفسى . خير لى ان اقع بالسيف من أن تضحك منى امرأة » .

وقد وعد واوفى وعده فانه قاتل الجموع حوله قتال الأبطال حتى شقت حربة رأسه نصفين فوقع وهو يتلو الصلاة حتى مات . وقتل حموه ووقع فى جانبه أما زوجته التى كانت سبب كل هذا البلاء فقد وقعت أسيرة واستعبدت ودعانى منصور حلمي لكى اذهب الى شقة لرغبته فى الاتفاق مع القبائل لأنى امثل الحكومة وبهذه الصفة يكون له تاثير اكبر فيهم . واقترح ان نبنى قلعة حصينة فى شقة ونضع فيها مدفعين . ولما كان الاتفاق مع العرب ضرورياً فانى قررت اجابة طلبه وسافرت الى شقة ومعى ١٥٠ من الجنود النظامية و ٢٥ جندياً راكباً ومدفع .

وكنت فى أثناء سفرى اسمع من الأخبار ما يثبت انتشار الثورة وانتصار المهدي ولما وصلت الى قرية المادبو فى دعين جاءني رسول وأخبرنى هذاالخبر الغريب وهو ان منصور قد اغار على هذا الشيخ قريباً من شقة وفقد معظم من معه وبات فى شبه حصار فى مراى فأرسلت فى الحال فى طلب امداد من داره وبقيت مدة الانتظار فى دعين وانا لا اشك فى ان المادبو ينوى أن يهاجمني وقد تحقق ظنى . وقد انضم الى الشيخ عفيفى من قبيلة الحبانية ومعه ٢٥ من الخيالة والحق ان ماثر هذا الشيخ الموالى لجديرة بان تدون .

ففى مساء احد والشمس توشك ان تغرب خرج رجـالى يجمعون الحطب فأغار عليهم المادبو بخيوله التى تراءت لنا بأنها تقصد الى زريبتنا وهى تعدو . فلما رآهم الشيخ عفيفى أسرج فى الحال جواده وامتطاه واشرع حربته وقال لى :

« عارفنى زين . أنا نوز الطقش ابو جلب من آدم . انـا بدور عالموت » .

ومعنى هذا « أنت تعرفنى جيداً . أنا الثور الناطح . قلبى من صخر . أنا أبحث عن الموت » .

قال ذلك واندفع خارجاً من الزريبة ثم اختفى بين الأشجار وبعد لحظة عاد وحربته تقطر الدم ووراءه جواد قد استلبـه . وخرج شيخان آخران اشتبكا فى قتال خفيف ففقدا جواداً وغنما جواداً آخر . وبعد هنيهة سمعنا طلقات البنادق فخشيت أن يكون جيش المادبو قد وصل فطلبت الخيالة من العرب وجعلتهم يقفون موقف الدفاع فى الزريبة . ولكنى عرفت بعد ذلك بقليل ان ما وصل من جيش المادبو قوة صغيرة قد احتمت فى أدغال الأشجار فأرسلت خمسين رجلا لطردهم من مكمنهم فطردوهم وقتلوا منهم ثلاثة .

وفى صباح اليوم التالى ظهر العدو وهو يتقدم نحونا بقوات كبيرة فنفخنا فى البوق وذهب كل جندى الى مكانه . واغاروا علينا من الشمال الغربى وهم يحتمون بدغل من نارنا . وكان فى وسط زريبتنا ربوة فوضعت فوقها ديواناً كنا قد وجدناه فى احدى عشش المادبو فجعله أحد المصريين كرسياً . فقعدت عليه وأخذت اشرف منه على حركات العدو وأراقب أيضا حركات جنودنا فى الزريبة . وتقدم العدو حتى صار على مدى اطلاق النار وصار البندق يصفر

حول آذاننا . وقمت أنا لكى أعطى الأوامر وما كدت أترك الكرسى حتى مزقته رصاصة فرأيت من الأنسب الا أعرض نفسى للرصاص . واقترب العدو منا كثيراً واشتدت ناره ولكن رجالنا كانوا محتمين فلم نصب الا بأقل خسارة ولكن اصابات الدواب كانت كثيرة بحيث خفت أن تفنى جميعا فأمرت خمسين رجلا بالخروج بها من الجهة الجنوبية وداروا بها الى الغرب وأعملوا النار فى العدو بينما كنا نحن فى الزريبة نطلق النار عليهم أيضاً فتكلف العدو خسارة جسيمة حتى جلا من مكانه . ولكنا لم ننل هذا النصر بدون أن ندفع ثمنه فانى أتذكر أننا خسرنا ١٢ رجلا .

وفى المساء استولى التعب على الرجال فناموا وكنا ننتظر قضاء الليل فى هدوء ولكن حوالى الساعة الحادية عشرة فوجئنا باطلاق نار حامية . ولكن كان الظلام شديداً فلم يمكن تسديد الرماية فأمرت رجالى بألا يجيبوا وفتر اطلاق النار ثم وقف نهائياً .

وطلبت الشيخ عفيفى واقترحت عليه أن يرسل بعض رجاله لكى يبحثوا عن مكان المادبو ووعدتهم بالمكافأة الحسنة اذا هم أخبرونا عن مكانهم الحقيقى . فذهبوا وعادوا بعد ساعتين وأخبرونا بأن المادبو مع رجاله من البازنجر فى قريته . أما العرب فقد خيموا فى جنوب القرية وغربها . وكانت قوتهم كبيرة ولكنهم لم يتخذوا أية احتياطات للدفاع ، وزحف جواسيسنا الى جوارهم وسمعوا أحاديثهم وضحكهم واستهزاءهم بنا لأننا لم نجب على اطلاق النار علينا فى الليل وقالوا انه لم يمنعنا من ذلك الا شدة خوفنا .

فاستدعيت سبعين من رجالنا وأخبرتهم أمام الضابط بأنى أرغب منهم فى مفاجأة المادبو فى قريته . واننا اذا قاتلنا قوة تزيد على قوتنا فى العراء فاننا فى الأرجح نخسر خسارة جسيمة . ولكننا

قد تحققنا الآن أن العرب غير مستعدين فاذا هاجمناهم فى الليـل وهم على غرة فانهم يفقدون كل ما عندهم من قوة معنوية وتتاح لنا الفرصة بذلك للعودة الى داره والحصول على مدد جديد فوافق الجميع على هذه الخطة واراد الضباط ان ينضموا الى رجال هذه الغارة ولكنى رفضت ذلك .

وقد تركت خلفى ضابطين واربعين من حملة الأبواق وسبعين رجلا وخرجت أنا من الزريبة ومعى عفيفى الذى رفض ان يفارقنى وخشيت أن يخرج أحد من رجال أبى سلامة ويفشى امرنا فأمرت الضباط وشددت عليهم بالا يأذنوا لأحد بالخروج من الزريبة وان يكونوا على يقظة تامة . وصرنا نتقدم بحذر يدلنا الجواسيس على الطريق . فلم تمض ساعة حتى وجدنا أنفسنا على مقربة مـن العدو . وقد ثبت لى أن جواسيسنا قد أبلغونا الصدق وكنت أنا أيضاً أعرف هذه الجهة من قبل . فقسمت قوتى قسمين . أحدهما يقوده محمد آغا سليمان أحد أهالى بورنو والآخر اقـوده أنـا وأخذنا نزحف الى أن صرنا على بعد ٦٠٠ أو ٧٠٠ ياردة من العدو وهنا أمرت حامل البوق بعمل اشارة لاطلاق النار عـلى العـدو الوادع . وعقب ذلك ارتباك رجال العدو واختلاطهم فترك رجال المادبو (البازنجر) أسلحتهم وفروا . واجفلت الخيول لهذه الحركة الفجائية فى وسط الليل فجمحت فى كل جهة والعرب فى اثرها وبعد دقائق كانت القرية خالية وكنا نسمع جلبة الفارين الذين هربوا من شرذمة قدرها سبعون رجلا فقط .

فقد نجحنا تماماً واحتاج المادبو الى مدة ايام لكى يجمع فيهـا رجاله الفارين وأحرقت قريته وارتفع لهيبها الى السماء وانـار مكان المعسكر المهجور . وغنمنا عدداً كبيراً من السروج والبنادق القديمة والقيناها كلها فى النار ولكننا أبقينا بنادق رمنجتون وعدنا

الى الزريبة حيث حيانا الجنود هناك أجمل تحية وكانوا فى أشد القلق وهم ينتظرون رجوعنا .

ولم تكن قد وافتنى أخبار عن داره فقررت العودة اليها وبعد مسير ثلاثة أيام وصلت الى البلدة حيث وجدت الأمداد والذخيرة . ولما كان الرجال الذين رجعوا معى منهوكين فقد قررت أن أستبدل بهم رجالا من الأمداد الجديدة وأذهب لانجاد منصور حلمى . ولكنى فى الصباح دهشت اذ وجدت خطاباً يقول إن منصور فى طريقه الى داره وأنه سيبلغها فى اليوم التالى . وكان هذا الخبر من أسوأ ما سمعت لأن معناه مضاعفة الصعوبات فى استعادة شقة واحتلالها .

ووصل منصور فى صباح اليوم التالى ومعه قليل من العبيد الذين كانوا يتهافتون من الاعياء . وعلمت انه قد ترك رجاله لما القاه العدو فى قلبه من الرعب وعاد وحده الى داره . فلم اتوان فى معاقبة هذا الضابط الجبان وقبضت عليه وأرسلت الجواسيس فى كل ناحية ابحث عن جنوده ولم اعد افكر فى اعداد حملة لاستنقاذ شقة . وبعد عشرة أيام جاءتنى الأخبار السارة بأن هؤلاء الجنود قريبون من داره . وظهر أن من يدعى على آغا جمعة تراجع بهم لما تركهم منصور الى داره وحماهم من مناوشات العدو وحمل جرحاهم وجاء معه بعض تجار شقة الذين طلبوا حمايته .

وكان سعيد بك جمعة فى هذا الوقت حاكماً على الفاشر وكنت قد كتبت اليه مراراً لكى ينجدنى بالجنود والذخائر ولكنى وجدت أنه لا يود أو لا يقدر على اجابة طلباتى وسافرت الى خشبة حيث كنت قد اتفقت مع القبائل الموالية على لقائى هناك .

الفصل السادس

حصار الأبيض وسقوطها

كبرت آمال المهدى بانتصاراته العديدة السابقة وكان الياس باشا يحضه على القدوم الى الأبيض فترك جبل غدير ومعـــه آلاف من العرب النخاسين والمتعصبين وانحدر بهم الى كعبة وهى قرية صغيرة في ارباض الأبيض .

وأرسل من هناك الخيالة للاستكشاف ولدعوة الراغبـــين فى الانضواء للمهدى وأرسل أيضاً الى محمد باشا سعيـــد يأمـــره بالخضوع وقرىء خطاب المهدى أمام الضباط فاقترح محمد بك اسكندر قتل الرسل حملة هذا الخطاب ، وكان محمد باشا سـعيد غير موافق على هذا الاقتراح أولا ولكنه وافق فى النهاية وأعـــدم الرسل فوراً .

ولم يضن المهدى بأى مجهود لاثارة من حوله فكان يعظ الدهماء الذين حوله ويصف جنات النعيم التى وعد بها المؤمنون الـــذين يشتركون فى الجهاد . وفى صبيحة يوم الجمعة ٨ سبتمبر سار الناس وهم يغلون حماسة وليس معهم سوى السيوف والحراب وجموعهم تموج نحو المدينة . وكانوا قد تركوا ما غنموه من الأسلحة فى حملة

راشد وشلالى . وأخذ المتحصنون فى المدينة يصبون عليهم نـــار البنادق ولكن هذه الجموع التى لم تكن تطمـــح الا الى الغنـــائم والأسلاب . لم تكن تبالى بمن يقتل منها فكانوا يتقدمون ويملأون الخنادق ويجوزون الحواجز ودخل بعضهم المدينة . وفى هذه اللحظة أمر الضابط نسيم أفندى حامل البوق بأن يعطى الاشارة للتقـــدم واخذ الاشارة حملة الابواق فى كل مكان فنادوا بالهجوم فخرجـــت الجنود الى سطوح المنازل وتعلقوا بالأسوار والحيطان وصبـــوا النار والرصاص فوق رؤوس رجال المهدى . ورأت هذه الجموع الرصاص ينزل عليها كالبرد فتراجعت ببطء الى الوراء . وحاولوا مرة اخرى أن يتقدموا فردتهم الجنود ثانياً وقتلاهم يعدون بالآلاف وأخيراً خرجوا وتنحوا عن المدينة وانتصرت حامية الأبيض انتصاراً باهراً .

وقد قتل فى هذا الهجوم شقيق المهدى المدعو محمد وشقيق الخليفة عبد الله المدعو يوسف وقتل أيضاً القاضى وعدد من الأمراء . وكان المهدى مدة الهجوم محتمياً وراء منزل صغير . ولو كان محمد باشا سعيد سمع نصيحة أحمد بك ضيف وطارد الدراويش بعـــد اختلاطهم وتقهقرهم لكان نجح فى القبض على المهدى وتمكن من حقن الدماء الغزيرة التى أريقت بعد ذلك .

ولكن سعيد باشا قنع بهذا الانتصار الوقتى واعتقد أن المهدى قد سحق ، وأنه لا يجرؤ على معـــاودة الهجوم وأن هذه الهزيمة ستحبط أغراضه وتزيل سطوته . وقد أدرك أقارب المهدى وأصدقاؤه هذه الحالة أيضاً ونصحوا له بأن ينتقل الى تل جانزاره الذى يقع فى الشمال الغربى من المدينة ومكث هناك يحاصر المدينة حصـــاراً مكشوفاً وينتظر الأسلحة والذخائر التى ارسل فى طلبها من جبـــل عدير .

وفى هذه الأثناء كانت دلين وهى مركز المرسلين المسيحيين فى حالة خطرة وكانت بها حامية مؤلفة من ٨٠ عبداً . وكان المهدى فى طريقه الى الأبيض وقد أرسل أحد انصاره وهو مك عمر لكى يأسر أو يقتل من بها . وكان الأب أوهر ولدر والأب بونومى قد اتفقا على الهرب الى فاشودة ولكن تدبيرهما حبط لجبن الضابط الذى كان يقود فصيلة الجنود . فاضطرا الى الاذعان وسرق منهما كل شىء وسيقا أسيرين الى الأبيض . وحاول هنا المهدى هو والخليفة عبد الله أن يجعلاهما مسلمين هما وسائر الراهبات ولكنهم رفضوا جميعاً .

وفى اليوم التالى أخذهم الجنود وحولهم الدراويش يزعقون ويزيطون الى ساحة فسيحة حيث أقيم عرض كبير . ثم أوهموا جميعاً بالقتل ولكن عفى عنهم فى النهاية ووكل أحد السوريين المدعو جرجى استامبولى بالعناية بهم ، وكان هذا السورى من أهالى الأبيض الذين انضموا الى المهدى .

وفى هذا الوقت ظهر نجم مذنب فى السماء فاعتبره السودانيون نذيراً بسقوط الحكومة وأن المهدى قد ظهر على الأرض .

وأرسلت الحكومة تجريدة بقيادة على بك لطفى لرفع الحصار عن بارة والابيض ، ولكن بينما كان الجنود يسيرون وقد بلغ بهم العطش أغار عليهم عرب الجوامة يقودهم فقى رحمة . وكان عدد الجنود الفين ولم ينج منهم سوى مائتين تمكنوا من الوصول الى بارة . وبعد ذلك هوجمت بارة وكانت بها حامية صغيرة فصمدت وقاومت مدة ، ولكنها اضطرت فى نهاية سبتمبر الى التسليم .

وسقطت بارة بعد حصار طويل منظم . وكانت الحامية قد أوقعت بالمحاصرين وكلفتهم خسارة جمة ، ولكن شبت نار فى مخازن

الحبوب ثم فعل الجوع والمرض افاعيلهما ولم يكن هناك أمل فى المعونة فطلبت جنود الحامية من مسرور افندى الحكمدار ونور انجره ومحمد آغا جابو أن يسلموا . فسلموا المدينة فى يناير سنة ١٨٨٣ لعبد الرحمن واد النجومى الذى ساقهم الى جانزاره .

واحتفل المهدى بسقوط باره فاطلق مائة مدفع . وسمعت الحامية فى الأبيض اطلاق النار فظنت ان الحكومة أرسلت جيشا لرفع الحصار ، ولكن عندما عرف الجنود الحقيقة وأن بارة قد سقطت تراخت عزائمهم وفت فى أعضادهم . فقد مضت عليهم اشهر وهم يعانون فتك الجوع . فقد ارتفعت أسعار الأقوات بحيث أن ثمن الدخن كان قبل تسليم المدينة بشهر قد بلغ اربعمائة ريال للأردب ، وثمن الجمل ١٥٠٠ ريال وثمن الفروج ٣٠ أو ٤٠ ريالا وثمن البيضة ريالا أو ريالا ونصفاً . ولست أحتاج الى وصف هذه الحالة فقد اغنانى عن ذلك اخواى فى الأسر الأب أوهر ولدر والأب وسنيولى اللذان وصفا فظائع هذه الأيام فلن أعيد ما قالاه . انما يكفى أن أقول انه بعد حصار دام خمسة أشهر ذاق فيه المحاصرون أنواع الحرمان ، ومات فيه عدد عظيم من الأهالى ومن الحامية جوعاً اضطر محمد باشا سعيد الى التسليم . وكان يرغب فى احراق مخازن البارود ولكن الضباط رجوه الا يفعل ذلك ضناً بحياة زوجاتهم وأولادهم . فكتب الى المهدى يقول انه مستعد لتسليم المدينة . فأجاب المهدى بانه لا خوف عليه هو وسائر الضباط وفى صباح اليوم التالى أرسل وفداً مؤلفاً من التجار برياسة محمد واد عريف الى سعيد باشا يطلب منه ومن كبار الضباط ان يحضروا لديه .

وقد أحضر الوفد معه أكسية من المرقعات وهى لباس الدراويش المؤلف من رقع مختلفة لكى يلبسها سعيد باشا وضباطه . فلبسوها وركبوا جميعهم الخيول وساروا والحزن

مخيم على وجوههم وغادروا تلك القلعة التى دافعوا عنها دفاع الأبطال . وكان مع سعيد باشا محمد بك اسكندر الحكمدار ونسيم أفندى واحمد بك ضيف الله ومحمد بك يس وعدة ضباط آخرين .

واستقبلهم المهدى وهو قاعد على عنجريب قد فرش بجلد جدى ويسط يده لهم لكى يقبلوها وعفا عنهم . وقال لهم انه يعرف انهم لم يقاوموه الا لانهم كانوا مخدوعين لا يعرفون انه المهدى الذى جاء يؤدى رسالة الهية . وهو يعفو عنهم الآن ويطلب منهم أن يقسموا له يمين الولاء ويطيعوه فى جهاده . ولما انتهى من ذلك أعطاهم ماء وبلحاً وحضهم على الزهد فى الدنيا والاقبال على الآخرة . ثم التفت الى سعيد باشا وقال : « لست ألومك باعتبارك تركياً لدفاعك عن المدينة ، ولكنك لم تحسن فى قتل الرسل لأن الرسول لا يقتل » .

وقبل أن يجيب سعيد باشا أسرع اسكندر بك وقال : « مولاى المهدى . ان سعيد لم يأمر بقتل الرسل ، ولكنى أنا الذى فعلت ذلك بصفتى حكمداراً للقلعة وذلك لأنى اعتبرتهم ثائرين . وانى أقر بأنى لم أحسن فى عملى هذا كما قلت » .

فقال المهدى : « لم أقصد بكلامى الى أن تبرر عملك . فان الرسل قد نالوا كل ما كانوا يرغبون فيه . فانهم لما أخذوا الخطابات منى كانوا يرغبون فى الاستشهاد وقد تحققت رغبتهم . وقد أنعم الله عليهم بالنعيم . ولعل الله يمنحنا ما نالوه » .

وفى أثناء هذه المحادثة كان أبو النجا ورجاله قد احتلوا القلعة بتدبير سابق واحتلوا أيضاً مبانى الحكومة ومخزن البارود . أما الأمراء فقد احتلوا مساكن الضباط . وأمر المهدى واد العريف

وكان صديقاً سابقاً لسعيد باشا بأن يأخذه هو والضباط الى منازلهم ولكنهم عندما بلغوها علموا أن الأمراء قد احتلوها وأن أملاكهم قد ضودرت . وبعد قليل دخل المهدى المدينة وأمر باخراج الحامية من الخنادق . اما النساء والأولاد الذين كانوا ينتظرون اسعافهم فقد أمروا بأن يخرجوا من المدينة ويذهبوا الى معسكر المهدى وألا يأخذوا شيئا معهم وفتشت النساء تفتيشاً يثير النفس اذ كن يعرين من ملابسهن وكل ما وجد معهن أرسل الى بيت المال حيث وزعت الأموال بين الأمراء وسائر الأعيان . وكانت مناظر التفتيش تؤلم النفس فإن جنود المهدى كانوا فى طلب الذهب يجلدون الاهالى لكى يعترفوا بما عندهم .

وطلب امير بيت المال احمد واد سليمان سعيد باشا لكى يسلمه ما عنده من الأموال فاجاب سعيد باشا بانه لا يملك شيئاً . وكان المشهور أنه رجل غنى ولكنه أنكر وكابر وبلغ انكاره المهدى فاستدعى واد سليمان وطلب منه ان يبحث مع خدم سعيد باشا . ثم طلب هو سعيد باشا واخذ يحادثه عن الدين وكان كثيراً ما يسأله امام المجتمعين من الناس لماذا لا يدلهم على خزانته التى يحفظ فيها أمواله ، وكان سعيد باشا ينكر ويلح فى الانكار ويقول أنه لا يملك شيئاً . ومضى وقت ثم جاء واد سليمان الذى كان قد نجح فى أن يحمل احدى الخادمات على أن تعترف بالمكان الذى خبأ فيه مولاها أمواله ، واسر الى المهدى حتى لا يسمع الناس بانه وجد الأموال مخبوءة فى حائط .

أما المهدى فاشار عليه بالجلوس ثم اخذ يعظ الجموع امامه عن غرور الدنيا وضرورة الزهد ، ثم التفت فجاة الى سعيد باشا وقال : « لقد حلفت يمين الولاء فلم تخفى أمر أموالك ؟ المال اصل البلاء فهل تنتظر ان تجمع اكثر مما جمعت ؟ » .

فقال سعيد باشا : « ليس عندى مال ربحته ظلماً أو عدلا ـ فافعل بى ما تشاء » .

فقال المهدى : « هل تظننى رجلا مثل سائر الناس . الا تعرف اننى المهدى المنتظر . وان ابى قد كشف لى عن خزانتك التى اخفيتها فى الحائط ؟ اذهب يا احمد واد سليمان الى بيته ثم ادخل الى غرفته فتجد على الحائط الأيسر قريباً من الباب مكان الأموال فجرد الحائط من الجبس تجد أموال التركى فاحضرها الينا .

وكان سعيد باشا مدة غياب واد سليمان قاعدا مقطباً عابساً فى جوار المهدى . وعرف أن مكان أمواله قد افشى ، ولكنه كان من الكبرياء والأنفة بحيث رفض أن يصرح بانه قد كذب وسكت عن الكلام . وبعد دقائق عاد سليمان ومعه صندوق من التنك وضعه امام المهدى فلما فتحه وجده مملوءاً بالذهب المجموع فى اكياس ـ وقد عدوا فيه سبعة آلاف جنيه .

ثم قال المهدى : « يا محمد سعيد . لقد كذبت ولكنى سأعفو عنك . خذ يا احمد هذا المال وقسمه بين الفقراء والمحتاجين » ـ

فنهض محمد سعيد باشا وهو يقول : « انك تدعو الى الزهد ثم تأخذ أموالى فافعل بها ما شئت » ثم سار خارجاً .

فقطب المهدى وقال بصوت خافت : « دا ما ينفعنا » وبعد ايام تعلل عليه بعلة وأمر بقتله كما قتل أيضاً احمد بك ضيف الله وعلى بك شريف ويس . وهذه كانت نهاية هؤلاء الرجال الأربعة الذين دافعوا عن الأبيض . والحق أنهم كانوا جديرين بحظ احسن من هذا .

الفصل السابع

المهدية فى دارفور

لما وصلت الى خشبة جهدت جهدى لكى انظم قوة لمقابلـــة المادبو • وكانت القبائل التى طلبتها لمعونة الحكومة قد وصلت وصار جيشى يتألف كما يأتى :

جنود نظامية ببنادق رمنجتون	٥٥٠
جلابة	٣٠٠
بازنجر مسلحون	١٣٠٠
جنود مختلفة	١٠٠
المجموع (ومنه ٦٠٠ يحملون رمنجتون)	٢١٥٠

وكان يقود البازنجر شرف الدين . وكان لدينا مدفع جبـــلى و ١٣ رجلا من الطوبجية .

وكانت القبائل الموالية تتألف من البيجو والبركة والزغاوة (فى جنوب دارفور والمصرية والتاجو والمعالية الذين كانوا يعادون الشيخ ابو سلامه . وكان عددهم كلهم نحو ٧٠٠٠ رجل يحملون الحراب و ٤٠٠ حصان .

وكانت الحامية التى غادرتها فى داره مؤلفة من ٤٠٠ جنـــدى نظامى و ٧ مدافع والطوبجية اللازمين لها و٣٠ فرساً و٢٥٠ من البازنجر وكانوا كلهم تحت قيادة زوچال بك الذى كان يؤدى وظيفة قائمقام بدلا من أميليانى بك وقد تركت معه من يدعى جوتفرث روث وهو سويسرى كان قد ارسل الى السودان بشأن وقف النخاسة . وكان عالماً فى اللغة العربية وقد أسررت اليه انى لا اثق بزوچال بك وطلبت منه أن يعرف كل ما يمكن معرفته عنه من قرابته ويطلعنى على كل شىء يعرفه عنه .

وفى نهاية اكتوبر غادرت خشبة مع جميع الجيش وسرنا فى اقليم الرزيفات وكان مغطى بالديس الكثيف والاحراج . وكنـــا معرضين بذلك للهجوم فجعلت سير الجيش بحيث لا يمـــكن أن نباغت بكمين يبعث فينا الارتباك والاختلاط

وكان البازنجر فى جناحى الجيش ومعهم الأبواق لتنبيهنا عن اى خطر . وجعلت مؤخرة الجيش أقوى من الجناحين وذلك حتى اذا هوجم جناح أمكننا أن نجد الوقت الكافى لنزيده من قلب الجيش . وكان واجب المؤخرة من اشق الواجبات لانه كان عليهم أن يعنوا بالجمال التى تقع والا يغفلوا عن الفارين أو الذين يتخلفون . ولذلك جعلت السير فى المؤخرة مناوبة فيمنة الجيش تصير مؤخرة ثم تصير ميسرة ثم تعود يمنة وهلم جرا . وكنت أيضاً أخفف الاعمال عـــن البازنجر والجنود النظاميين بهذه الطريقة .

وكنت أؤمل بهذه الطريقة أن ابلغ شقة بدون اية خســارة جدية وكان قصدى عند وصولى أن أبنى قلمة هناك واضع عليهـــا المدفع ثم أترك الحامية هناك وأخرج بتجريدات خفيفة الى البـــلاد المضطربة حيث تتاح الفرصة لحملة الحراب بأن يغنموا ما يمكنهم من ماشية الرزيقات .

وعند وصولى الى ديين وجدنا كميات من الحبوب التى اختزنها المادبو فى القرية الجديدة التى بناها . فقسمتها بين الجنود واطمأننت بأن عندهم من الزاد ما يكفيهم جملة أيام . واسترحنا ثلاثة أيام وبثثنا طلائعنا لكى يدلونا على أمكنة المياه فى الطريق ثم استأنفنا المسير الى شقة .

وكنت محموماً فى هذه الأيام فسلمت قيادة الجيش لشرف الدين وهو يلينى فى القيادة وأمرته الا يتركنى . وفى اليوم التالى عندما غادرنا قرية كندرى وبعدما ان استرحنا قليلا تصايح الجنود فى المؤخرة بأن بعض الخيالة يتقدمون للهجوم علينا ووقف فى الحال كل رجل فى مكانه وعلى الرغم من الحمى المستولية على ذهبت الى حرس المؤخرة ورأيت بعض الخيالة الذين ربما كانوا يبلغون بعض مئات ولكن الأشجار كانت تخفيهم وكان لذلك من المستحيل تقديرهم تقديراً صحيحاً فاشرت لحرس جناحى الجيش بأن ينضموا الى ثم تقدمت ومعى خيالة الجيش وفرسان العرب وحصلت مناوشة بين الأشجار انتهت بتقهقر العدو بعد أن غنمنا منه ستة خيول . وبلغت خسارتنا سبعة خيول قتلت ، وفقد رجلان وجرح البعض ثم طاردنا العدو مسافة وعدنا واستأنفنا السير حتى الغروب فعسكرنا فى مكان يدعى أم ورقة .

وكنت لا أزال أعانى الحمى فأخبرت شرف الدين بأن يتبع التدبيرات التى أنهيها اليه بشأن ترتيب الجيش . وفى الصباح شرعنا فى المسير حتى اذا مضت ساعتان بلغنا ارضاً نزة رأينا فى جنوبها الشرقى بعضاً من العشش التى يبنيها عبيد الرزيقات الذين يشتغلون فى الحقول . وذهبت بمقدمة الجيش الى هذه العشش لفحصها وكان الجنود يعاونون الخيل على السير فى هذه الحمأة التى كانت تنغرز فيها أرجلها . ونحن فى ذلك واذا بنا نسمع

من المؤخرة اشارة الخطر تلاها فى الحال اطلاق الرصاص فتركت المقدمة فى العشش وركضت جوادى الى الميسرة وأخذت تسعين جنديا نظامياً وذهبت الى المؤخرة ولكن كان مجيئنا متأخراً فقد أطلق البازنجر والجنود النظاميون فى المؤخرة اول طلقة وبينما هم يملأون أنابيب البنادق لاطلاق الثانية هجم عليهم العدو بجمـوع كثيفـة فزحزحهم الى الوراء فى ناحية . ورأى جنودنا فى القلـب هـذا الاختلاط بين العدو والولى فامتنعوا عن اطلاق النـار . فأشرت لحملة الأبواق بأن يشيروا على جنودنا بالرقاد ثم يسددوا مرماهم الى أفراد العدو الدين اختلطوا بنا ويصيبوا أيضاً من يأتى بعدهم من الأعداء . وبهذه الطريقة وقفت الهجوم وقسمت العدو قسمين واحدا الى اليمين وآخر الى اليسار . وذهب هذان القسمان الى ميمنتنا وميسرتنا للاشتباك معهما فى القتال .

وكان الاختلاط الآن هائلا لا يمكن وصفه . فان الأعداء العرب الذين دخلوا الى قلب جيشنا كانوا لا يزالون فيه وقد أعملوا سيوفهم فى البازنجر ولم يكن مع البازنجر ما يدافعون به لأنهم كانوا لا يحملون سوى البنادق . أما الجنود النظاميون الآخرون فلم يجدوا من الوقت ما يساعدهم على تجريد السيوف وذلك لمفاجأة الغارة . ولكنـا تمكنا فى النهاية من قتل جميع العرب الذين جازوا الى قلب جيشنا . أما حرس الميمنة وحرس الميسرة فقد هوجموا من الأمام والخلف فلم يستطيعوا تحمل الصدمة وفروا فى كل جهة فتلقاهم فرسـان الرزيقات المختبئون فى الغابات وقتلوهم .

ولم تدم المعركة اكثر من عشرين دقيقة ولكن خسارتنا فى هذا الوقت القليل كانت عظيمة جداً . ومن حسن حظنا أن العدو الح فى مطاردة الفارين من جناحى جيشنا . وتمكنا نحن من تطهير القلب من جنود العدو ولكن ضحايانا كانت كثيرة وكانت الخسارة بين

أولئك الذين أطاعوا اشارتنا بأن يرقدوا قليلة ولـكن اصابـات البازنجر الذين لم يدربوا كانت غير قليلة وقتل ايضاً عدد كبير من جمالنا .

وفى وسط الاختلاط رايت أحد الأعداء يمر بالقرب منى ويحمل معه كيساً أحمر يحتوى على الفتائل التى نطلق بها البنادق . وكان يبدو عليه أنه يظن انه غنم شيئاً عظيماً . والحق انه كان بالنسبة الينا شيئاً عظيماً لأنه لا فائدة من البنادق بدون هذه الفتائل . وكان بجانبى خادم أسود لا يتركنى فقلت له : « هاك يا كبير فرصة تثبت بها شجاعتك التى كثيراً ما وصفتها لى . خذ حصانى واذهب وراء هذا الرجل واحضر منه الكيس الأحمر » .

فقفز الى الحصان وفى يده حربة وطار به وبعد دقائق قليلة عاد ومعه الكيس الأحمر ومعه ايضاً حربة حمراء بالدم .

واختفى فرسان العدو فعملنا اشارة الاجتماع ولكن لم يلب النداء سوى بضع مئات فقسمتهم قسمين أحدهما للحرس والآخر يشتغل بجمع الذخيرة من أولئك الذين قتلوا . ووضعنا ما جمعناه على الجمال ثم سرنا الى قرية عالية يمكن منها مشارفة السهل حولها . ثم جمعنا مقداراً من الأشواك وصنعنا بها زريبة بأسرع ما يمكننا خوفاً من ان يفاجئنا العدو فى اى وقت . وبعد أن انتهينا من ذلك فكرنا فى الجرحى الذين حملناهم الى داخل القرية وعملنا كل ما فى استطاعتنا لتخفيف آلامهم .

وكانت الجثث مبعثرة فوق الأرض لا يحصيها العد دع عنك من قتلوا . الغرابة والعجب أنه فى هذا المكان نفسه انهزم آدم طربوش وزير السلطان حسين وقتل فى المعركة .

ثم حان حين نداء الأسماء وهو واجب محزن . ووجدنا أنه قتل من ضباط المشاة الأربعة عشر عشرة وجرح واحد . وقتل من رؤساء الجلابة الشيخ خضر ومنجل مداني وحسن واد ستارات وسليمان واد فتح وفقى أحمد وحسيب وشكلوب . ومن الطوبجية الثلاثة عشرة لم يبق سوى واحد أما اليوناني اسكندر الذى جرح فى ذيين ولم يكن جرحه قد برىء بعد فقد قتل أيضاً . وجمعنا ونحن فى حزننا الموتى لكى نقدم لهم آخر تجارتنا . ووجدنا بين أكداس الجثث جثة شرف الدين مطعوناً فى قلبه ثم حفرنا فى هـــذه النزة قبورا وصرنا ندفن اثنين أو ثلاثة معاً فى كل قبر .

أما الجرحى المساكين فلم يكن فى مقـــدورنا أن نساعدهم كثيرا فان أولئك الذين كانت جروحهم خفيفة كانـــوا يشتغلون بتضميدها بأنفسهم . أما الذين كانت جروحهم خطرة فلم يكن عندنا لهم سوى الكلمات الطيبة .

وكانت رؤية هؤلاء الجرحى مما يؤلم النفس ويجعل الانسان يشعر بعجزه التام عن تخفيف ما بهم . ورأيت أحد الخدم ومعه حقيبتي وكان بها بعض الأقمشة للتضميد فاخذتها وجعلت أضمد بعض الجراحات . وأنا فى ذلك خطر ببالى أنى لم أر خادمى مرجان حسن وكان معه أحد جيادى . وكان صبيا سريا ذكيا لم يكمل بعد السادسة عشرة من عمره وكان هادئا شجاعا شريف النفس . فقلت للصبى الذى يحمل حقيبتي : « قل لى يا عيسى أين مرجان الذى كان يسوق جوادى مبروك (وكنت قد وضعت فى جيوب سرجه مذكراتي وخرائطى) قل لى أين هو » . انه صبى نشيط ولا بد أنه قد ركب الجواد وتمكن من الفرار .

ولكن عيسى بدت عليه امارات الحزن والوهن عند سؤالى هذا فهز رأسه وشرقت عيناه بالدموع ثم سلمني قطعة من لجام الجواد فقلت له : « ما هذا » ؟

فقال : « مولاى . لم أحب أن أزيد حزنك . لقد وجدت مرجان قريبا من هنا راقدا على الأرض وبصدره طعنة الرمح . ولما رآنى تبسم وقال : « لقد عرفت أنك ستأتى لكى ترانى . ودع مولاى وقل له انى لم أجبن ولم أسلم الجواد الا بعد أن وقعت مطعونا فى صدرى وقطعوا اللجام من يدى وجروا به . قل لمولاى ان مرجان كان أمينا . خذ السكين من جيبى فانها لمولاى . أعطها له ثم سلم عليه كثيرا » .

ثم غص عيسى بريقه وسلمني السكين وهو ينشج فآلمنى هذا الخبر ألما شـــديدا ووهنت قواى عند سماعه . أجل يا مرجان . ما أصغر سنك وما أشرف نفسك . وما أفدح مصيبتى فى فقدان هذا الخادم الأمين بل الصديق المخلص .

وقلت لعيسى : « قل لى : كيف كانت النهاية ؟ » .

فقال عيسى : « كان عطشان فحملت رأسه بين يدى ولم تمض بضـــع دقائق حتى مات فنهضت وتركته فقد كان على أن أؤدى أعمالى ولم يكن ثم وقت للبكاء » .

ثم قوينا سياج الزريبة وحفرنا الخنـــادق وراءه ثم أمرت بدق الطبول ونفخ الأبواق وأطلقنا بضع عيارات وذلك لكى يعرف الفارون أو الجرحى الذين ارتطموا فى الوحل أننا قد وجدنا ملجأ قريبا منهم . وجاءنا عدد كبير من هؤلاء فى النهار . وفى آخر النهار نادينا الأسماء فوجدت أن عندنا ٩٠٠ رجل وهم البقية المهزومة

الحزينة لجيش كان يبلغ ٨٥٠٠ رجل ولكننا مع ذلك رضينا بالنتيجة • ولم يبق من فرساننا وخيالتنا سوى ثلاثين ولا بد أن العدو قد غنم عددا كبيرا من الخيول وأن بعضها قد فر ورجع الى داره كل الى مسكنه ولكن الذخائر كانت كثيرة لدينا لأنها تخلفت عمن قتلوا •

وعند الغروب عاد رجال الرزيقات فدهشوا اذ رأونا متحصنين مستعدين لمقاتلتهم وارسل المادبو رجاله من البازنجر لمقاتلتنا ولكن بعد مناوشة قصيرة رددناهم ثم خيم الظلام ووقف القتال •

وبينما أنا قاعد وأتكلم مع الضباط اقترب منا الشيخ عبد الرسول ومسلم واد كباشي وسلطان بيجو واقترحوا علينا التقهقر من مركزنا الحاضر ونحن في جنح الظلام لأنه لم يبق لنا أمل في الانتصار على العدو بعد خسارتنا الفادحة • فقلت لهم : « ترغبون في التقهقر الآن ولكن ماذا نصنع بجرحانا • هل نتركهم لرحمة العدو ؟ » •

فخجلوا وصمتوا • فقلت لهم : « ليس اقتراحكم حسنا • لقد كنت أنا أحادث الضباط في هذا الشأن الآن ورأينا أن نبقى هنا عدة أيام وليس أمامنا ما نخشاه سوى الجوع يمكننا أن نذبح الجمال المجروحة والضعيفة وتقوت بها الجنود ثم لا بد أن نجد ما نقتات به أيضا هنا والمؤكد أن العدو سيهاجمنا ولكننا سنرده بسهولة وبهذه الطريقة نعود الثقة الى رجالنا بعد ما فقدوها للخسارة الفادحة التى وقعت بنا • انى أعرف الرزيقات فهم لن يقعدوا هادئين يترقبوننا •• وأنا واثق بأنه لا بد من الاصطدام مع المادبو والشيخ جانكو وسائر رجاله من البازنجر الذين سبق أن طردناهم الى بحر الغزال • وسيستريح الجرحى ويتعافون قليلا فاولئك

الذين ليس بهم سوى جراح طفيفة سيمشون على أقدامهم • أما من جراحهم بليغة فاننا نحملهم على خيولنا • وأظن أن اقتراحي هذا أفضل من اقتراحكم » •

وفي أثناء كلامي سمعت سلطانا يوافق على رأيي ولم أنته من كلامي حتى أمن الجميع عليه واتفق رأينا على البقاء •

ثم تكلمت موجها كلامي الى جميع الحاضرين وقلت : « هل تعرفون سبب هزيمتنا اليوم » ؟ .

فأجابوا بالنفي جميعا فقلت : « اليكم السبب • في هذا المساء وجدت بين الجرحى قائد المؤخرة حسن واد ستار وقد قال لي ان شرف الدين لم ينفذ تعليماتي بشأن تبديل المؤخرة كما فعلنا في الأيام السابقة فاغتاظ الجنود النظاميون لهذا السبب وتركوا مكانهم وانضم كل منهم الى فرقته بدون اذن ولم يرسل مكانهم رجالا آخرين • وفي الوقت نفسه ترك العرب الموالون المؤخرة وانضموا الى الجناحين وعندما هوجم حسن واد ستارات لم يكن معه من الرجال سوى ٢٥٠ من البازنجر لا يحملون سوى البنادق القديمة • وقد دفع شرف الدين عن اهماله حياته ووقعت بنا الخسارة جميعا • وليس هذا وقت التلاوم فلنفكر في شيء آخر • اذهبوا الى رجالكم وشجعوهم ثم ناموا حتى تصبحوا مستعدين لما يأتي به الغد • ولكن أنت يا سيد أغافو له لا يمكنك أن تنام للجرح الذي بك ولذلك سنصنع لك عنجريبا قريبا من باب الزريبة واذا حاول أحد أن يخرج بدون اذني فاضربه بالرصاص » .

فانفضوا من حولي وصرت وحدي فطفقت أفكر في موقفنا وأتدبر • ورأيت أن من المرجح أن نتمكن من التقهقر الى داره وكان

لدينا أكثر من ٨٠٠ بندقية . ولكن شعرت بمرارة الخسارة الماضية فقد قتل أحسن ضباطنا وخشيت أن يبلغ نبأ هزيمتنا داره فيكون له أسوأ أثر في رجال الحكومة والأهالى معا . فأيقظت الكاتب وأمرته بأن يكتب خطابين قصيرين : أحدهما لزوجال والآخر للحكمبدار محمد فرج وأخبرتهما بأنه على الرغم من خسارتنا الكبيرة فان حالتنا حسنة وأننا نرجو أن نرجع الى داره بعد أسبوعين .

ولكن اذا وصل الى داره بعض الفارين وأخذوا يشيعون الاشاعات المقلقة عن حالتنا فيجب اعتقالهم حتى أعود . ثم كتبت أنا بضعة أسطر لجوتفريت روث أصف له الحالة وأخبره بأنى سأرجع الى داره قريبا مع الباقى من جيشنا وانه يجب أن يتشجع ويبعث الرجاء فى نفوس من له . وكتبت أيضا بضعة أسطر لأمى واخوتى وأودعهم لأنه لم يكن من الممكن أن نتنبأ بما تنتهى اليه هذه القلاقل ورجوت جوتفريت روث أن يوصل هذه السطور فى حالة قتلى الى أهلى فى وطنى .

وتناولت الخطابات الثلاثة وقمت الى عبد الله أم درامة شيخ العرب المصرية الذين يقطنون قريبا من داره فأيقظته وقلت له : « أين أخوك سلامة » ؟

فقال وهو يشير الى رجل نائم فى جانبه : « هاكه » ثم أيقظه .

فقلت : « يمكنك يا سلامة أن تخدمنى الآن أجل خدمة وهى خدمة تفيدك أنت أيضا . انى أريد منك أن تأخذ هذه الخطابات التى تراها وتذهب بها الى داره وتسلمها للرجل الأوروبى المسمى روث وقد رأيته مرارا . واركب جوادى الذى كثيرا ما مدحته فى

هذه المهمة • وعليك أن تسافر الآن وعندما تبلغ خط العدو المحيط بنا الآن ركض جوادك فانهم كلهم نيام فيمكنك أن تختفي في الظلام قبل أن يعدوا خيولهم للعدو وراءك • ومتى جزت خطوطهم فأنت آمن وعندئذ تبلغ داره في بحر يومين وسأكافئك باعطائك فرسي السوداء التي في الاصطبل في داره » •

وبينما أنا أتكلم كان سلامة يشد حزامه على وسطه وكل ما قاله لي : « أين الخطابات ؟ » •

فناولتها له فأخذها وقال : « ان شاء الله وبمعونة الله سأوصل هذه الخطابات الى أصحابها • ولكنني أفضل أن أركب فرسي فانه لم يكن يجري بسرعة فرسك الا أنه يقوى على حملي • فهو يعرفني وأنا أعرفه • وفي مثل هذه المهمة يكون التعارف مفيدا » •

وأخذ يسرج فرسه وكتبت أنا رقعة الى روث وطلبت منه أن يسلم الفرس السوداء لحامل الخطابات وناولتها لسلامة بعدما أخبرته بمضمونها • ثم قاد فرسه الى الباب وكان هناك سيد أغافوله يتململ على فراشه اذ كان مجروحا في ساقه اليمنى وذراعه اليسرى • فأخبرته بمهمة سلامة فأمر له بفتح الباب • وامتطى سلامة فرسه وحمل في يده اليمنى رمحه وفي اليسرى جملة مطارد صغيرة يزرق بها العدو على بعد وشرع في السير •

فقلت له : « مع سلامة الله » فقال : « أنا واثق بالله » واتأد في سيره أولا حتى اقترب من خطوط العدو وهو يسير على حذر • ثم سمعت دبدبة سريعة ثم عيارا أو عيارين ثم خيم السكوت كأنه الموت • فقلنا جميعا : « ليكن الله معه » وعدنا الى الزريبة وقد بلغ منا الاعياء وما هو أن انطرحنا حتى نمنا •

ولما استيقظت في الفجر وجدت الرجال يشتغلون في التحصين وكان كما تنبأت فان العدو عاود الهجوم • ونشط اطلاق النار من الجانبين مدة ولكن بالنسبة لمكاننا المشرف اضطر العدو الى التقهقر بعد ان أوقعنا به وكبدناه خسارة جسيمة • وقد قتل وجرح منا عدد قليل وكان من القتلى علي واد حجاز وهو جمالي شجاع • ولما كانت نيتنا البقاء هنا بضعة أيـــام فان رجالنا جدوا في تحصين الزريبة وأخذنا ندفن من ماتوا منا وكان الفساد قد انتشر في أجسامهم وامتلأ الهواء برائحتهم •

وقضينا في الزريبة خمسة أيام كان العدو يهاجمنا فيها مرة أو مرتين كل يوم . وقد حدث في اليـــوم الثالث أن كريمه نور قائد مدفعية المادبو قتل فثبطت عزائم العدو وفتروا في هجومهم عن ذي قبل •

ولكن نهض لنا عدو آخر وهو القحط . فقد أكلنا كل شيء يؤكل فانتهت لحوم الجمال ولم يكن لدينا حبة ذرة • وقد اقتتنا أنا والضباط في المدة الأخيرة بكسرات من خبز الذرة كنا نطبخها مع ورق نبات يدعى كوال ونضرب هذا الخليط حتى يصـــير شبه عصيدة لا طعم لها • ولم يكن ثم ما يرجينا بتخفيف وطأة العدو أو بمجيء جيش لانقاذنا فلم يكن من الممكن أن نبقى أكثر مما بقينا وكان الجوع قد أثر فينا وأضعفنا •

وعلى ذلك جمعت جميع رجالنا وكان عددهم نحو ٩٠٠ رجل كلهم ما عدا قليلا من العرب مسلح بالبنادق • أما العرب فكانوا لجهلهم بالبندقية يؤثرون عليها حرابهم ثم خطبتهم خطبة قصيرة قلت فيها ان دماء ضباطهم ورؤسائهم تهتف بهم أن اثاروا لنا وان نساءهم وأولادهم ينتظرونهم مشتاقين لرؤيتهم ولكن من المحال

أن يصلوا اليهم ما لم يتحملوا الآلام بالصبر ويواجهوا المشاق بالجلد والشجاعة ثم ختمت خطبتي بقولي ان أولئك الذين قد سكن الخوف قلوبهم قد فروا يوم المعركة وأما الذين يقفون أمامي الآن فقد صمدوا وعانوا المشقات وأن الله سيكافئهم على جهودهم بالنصر •

فأجابوا بالهتاف وبرفع البنادق فوق رؤوسهم وهذه اشارة للطاعة ثم صرفتهم وأمرتهم بالاستعداد للرحيل في اليوم التالي • ثم نزعت من البندقيات القديمة التي تخلفت عن القتلى زنودها وجمعتها ثم القيتها في بركة أما البندقيات فقد أحرقتها • وألقينا كل ما لا حاجة لنا به في الماء وقسمنا الباقي بين الجنـــود • فخص كل رجل بين ١٦ الى ١٨ دستجة من الخراطيش ولكننا أتلفنـــا البارود الذي يستعمل في البادق القديمة لئلا يستفيد منها العدو • أما رصاص الخراطيش فقد وضعناه تحت رؤوس من ماتوا حديثا •

فلمـا كان السبت وهو اليـوم السابـع لنكبتنا بعد طلوع الشمس خرجنـا من الزريبة وألفنـا القـلب وحـوله المقدمة والمؤخرة والميمنة والميسرة وشرعنا في التقهقر وكان عندنا جملان فقط فجعلناهما يجران المدفع في القلب وأرسلت أنا في كل جانب فارسين للاستكشاف • وكان في القلب ١٦٠ جريحا فكان القادر يمشي على أقدامه ومن لم يقدر حملناه على خيولنا القليلة ، كل فرس يحمل رجلين أو ثلاثة وكنت أنا راضيا بالسير على قدمي ولكن الح على الضباط في الركوب فركبت لكي أشرف على الفلاة حول الجيش وكنا جميعا نعرف بأن العدو سيهاجمنا بعد خروجنا من الزريبـة فملأنا المدفع وعولنا على ألا نبيع حياتنا رخيصة وكنا واثقين باننا اذا نجحنا في رده مرتين أو ثلاثا فانه لن يعـاود الغارة علينـا وقررنا أن نسير في الجهة الشمالية الغربيـة لأن الأرض هنـاك مكشوفة ولكننا كنا نجهل مكان مياه الأمطار لأن أدلتنا قد فروا أو قتلوا •

وقبل أن يمضى على مسيرنا ساعة هوجمت مؤخرتنا فأدركت ان الساعة الحاسمة قد أزفت • فأمرت بالوقوف فى الحال وضممت الجناحين الى القلب • ثم اصطحبت حرسا مؤلفا من خمسين رجلا وسرت نحو المؤخرة وكانت تبعد عنا نحو ما ئتى ياردة • ونقلنا المدفع الى آخر القلب من جهة المؤخــرة وكلفنا الجرحى بملء البنــادق حتى لا يضيع وقت الجنود المقاتلة •

وقبيل أن يظهر مشاة العدو كنا نسمع وقع أقدامهم فاستعددنا لهم بحيث أنهم عندما ظهروا سددنا اليهم النار من حرس المؤخرة • فتوقفوا قليــلا ولكنهم كانوا يســتندون الى كثرة عظيمــة وراءهم فتشــجعوا وكل منهم قد شرع حربته فى يده اليمنى وحمل تحت ذراعه اليسرى عدة مطارد . وتمكنوا من الاقتراب منا حتى أصاب بعضهم بعض رجالنا بالمطارد التى تزرق على بعد • ولكننا أعملنا فيهم النار وكان مدفعنا يرميهم من القلب • فتقهقر رجالهم من حملة الحراب وصرنا وجها لوجه مع البازنجر وأصبح القتال بالنار من الجانبين ولكن جاءتنا امدادات من القلب فاستطعنا بهم أن نرد العدو بعد قتال عنيف دام عشرين دقيقة •

وكنت عند اطلاق أول عيار قد نزلت عن ظهر جوادى وهذا معناه فى السودان عدم الأمل فى الفرار والاصرار على واحدة من اثنتين : الظفر أو الموت • ولما انتهى القتال تحلق الجنود حــولى وأخذوا يهزون يدى بالنصر الأول الذى انتصرناه على العدو •

وبينما نحن نشــتغل بالقتال من المؤخرة كانت ميسرتنا قد اشتبكت أيضا وانتصرت فى النهاية ولكن خسارتها كانت جسيمة وجرح أحسن قائد باق لدى وهو زيدان آغا جرحا بليغا • وكان نوبى المولد وظهرت كفايته فى حملة دارفور اذ قاد فصيلة مؤلفة

من ١٢ رجلا واستخلص بها مندفعا من العدو وكان قد غنمه منا •
ولهذا العمل كوفيء بترقيته الى رتبة ضابط والآن أراه مصابا بعيار
في رئته اليمنى • فسألته عن صحته فقال لى بعد أن مد يده الى :
« أما وقد انتصرنا فما بى من بأس » ثم ضغط يدى وبعد دقائق
مات •

وقتل أيضا من جانبنا ٢٠ وجرح عدد كبير • فدفنا القتلى
بعجلة اذ لم يكن لدينا من الوقت ما يسمح بالحفر العميق ولكننا
غطيناهم حتى لا نعير بأننا تركنا قتلانا بلا دفن ، ثم استأنفنا مسيرنا
بحيطة وحذر ولكن ثقتنا فى أنفسنا زادت عن ذى قبل •

وفى الساعة الثالثة عاود العدو الغارة على المؤخرة ولكن الغارة
كانت خفيفة فطردنا المغيرين بدون أن نخسر أحدا • ثم وقفنا وأحطنا
الجيش بزريبة منتظرين من العدو غارة أخرى • ولكننا دهشنا اذ
لم نتلق هجمة واحدة من العدو طول الليل ، وفى الصباح بعد أن
نفد ماؤنا استأنفنا السير • ونحن فى مسيرنا عاود العدو الغارة
ولكن هجومه هذه المرة كان أضعف من هجومه فى الأمس فطردناه
بأقل عناء • واستمر سيرنا حتى الظهر بدون أن نجد ماء • فتفيأنا
فى ظل بعض الأشجار وأخذ رجالنا يبحثون عن نوع من الفجل
يدعى « فايو » وهو كثير العصارة وله ثلاث ورقات صغيرة تدل
عليه فكان رجالنا يقلعونه من الأرض ويمصونه فيطفىء عطشهم بعض
الشيء ، ولكن كنا مع ذلك فى حاجة لازمة للماء . وبعد أن استرحنا
استأنفنا المسير ثانيا فالتقينا مصادفة براع من الرزيفات يسوق
غنما • فتسابق الرجال الى الغنم واحتازوها من راعيها الذى وقف
مبهوتا مروعا لا يحاول الفرار وكان رجالنا ينوون قتله
لولا وساطتى • فأمرت بوضع الغنم فى القلب وأحضر الراعى الى
ويداه موثقتان الى ظهره وقبل أن أستجوبه أمرت بتوزيع الغنم

لكل رأس لخمسة رجال وما يتبقى لنا . وكان عدد الخراف يبلغ نحو مائتين . ما أجل هذه النعمة التى أنعم الله بها علينا ونحن في جوعنا هذا !

ثم التفت الى الرجل وقلت له انى لن أقتله اذا هو هدانا الى غدير ماء واذا أثبت أمانته فانى أكافئه وأسمح له بالذهاب الى أهله فرضي وقال : ان الغدران التي حولنا صغيرة ولكن اذا تكلفنا المسير مسافة فانه يضمن لنا بلوغ « الفولة البيضاء » وهو غدير كبير نجد فيه ماء يكفينا أشهرا . وكنت غير واثق به فأمرت صف ضابط وثمانية رجال بمراقبته والا يجعلوه يبعد عنى . ثم استأنفنا المسير وفى المساء وقفنا وصنعنا زريبة بتنا فيها كالعادة ومررنا ببضعة غدران ولكن ماءها لم يكن يكفينا وكنا نقاسى الشدائد من العطش فما جاء الفجر حتى قمنا واستأنفنا المسير بعد ليلة قضيناها من الأرق من شدة العطش .

وعند الظهر أشار الدليل الى بضعة أشجار قال ان الغدير تحتها . فوقفنا فى الحال وملأنا المدفع والبندقيات واستعددنا للمقاومة . فقد ترجح لدى أن العدو سيقدر عطشنا فينتظرنا تحت الأشجار ويفاجئنا بالنار . فأمرت الرجال بأن يراعوا النظام بكل دقة أو لا يستسلموا للفوضى . ولكن ما كاد يظهر الماء حتى هرع اليه الرجال يترامون عليه بلا نظام .

وكانت قبيلة الميما ثائرة الآن فأرسلت التعليمات الى عمر ولد دارهو لكى يقوم بمائتى جندى نظامى ومائتين من الخيالة الى بلاد الميما . وقررت فى الوقت نفسه أن أقاتل الخوابير الذين كانوا قد اتحدوا مع الميما . وذهب دارهو اليهم وأدى مهمته بنجاح اذ هزم الميما فى فاقة وفى وودة . وقمت أنا بمائة وخمسين جنديا

نظاميا وخمسين من الفرسان وسرت فى طريق شعيرية وبير أم الوادى حيث كان الخوابير ينتظروننى للهجوم على • ولكن بعد قتال قصير هزموا وتشتتوا وغنمنا منهم عددا كبيرا من الخراف والنيران •

ولما انتهيت من القتال بعثت الى دارهو لكى ينضم الى فى بير أم الوادى بمن تبقى من رجاله • وبعد أيام قلائل أدركنا وأخبرنا بكل أعماله وانتصـــارات المهدى فى كردوفان التى أقلقتنى قلقا عظيما • •

وكنت فى الليلة التى أرسلت فيها الى دارهو التعليمات لكى ينضم الى قد جاءنى رجل يدعى عبد الرحمن واد شريف وألح فى مقابلتى وكان هذا الرجل تاجرا معروفا فى داره وقد سبق أن زار الخرطوم وبدأ كلامه معى بقوله انه بالنسبة لمعاملتى الحسنة له فانه رأى من واجبه أن يخبرنى عن تسليم الأبيض وذلك حتى أتمكن من الاحتياطات اللازمة فى مثل هذا الحادث • وكان هذا الخبر صدمة قوية فشكرته وطفق هو يصف لى كيفية سقوط البلدة • فقد كان حاضرا فيها وقت التسليم ثم سافر الى أهله فى داره وسمع وهو فى طوبشة عن وجودى فى بيرام الوادى فأسرع فى ادراكى حتى يبلغنى أمر هذا السقوط •

ورأيت أنه من غير المفيد أن تبقى المســألة سرا فاستدعيت دارهو وسليمان بسيونى وأخذنا نتحدث معا فى هذا الموضوع • وكان واضحا لكل منا أن هذا الخبر سيكون مشجعا لأولئك الذين يكرهون الحكومة وصار من الضرورى لذلك أن أذهب الى داره •

ولما كنا قد عاقبنا الميما والخوابير فقد رأينا أن نرسل حملة الى طوبشة وكتبت فى اليوم التالى الى سعيد بك جمعة بأن يجلو

عن أم شنجة ويأخذ معه الحامية وجميع الأهالى الذين يرغبون فى تركها ويأخذهم جميعا الى الفاشر . وكنت كتبت له أنه بالنسبة لسقوط الأبيض فان العرب الآن سيوجهون نظرهم الى أم شنجة وهم اذا حاصروها صار من المحال تخليصها منهم وانه يجب بالنسبة للظروف الراهنة أن يجمع الجيوش فى الفاشر . وأمرته باقامة حرس فى فيفا وووده حتى تبقى الطريق مأمونة بين الفاشر وبين داره . ثم أمرت عمر واد دارهو بأن يقوم هو وجيشه فى الحال الى الفاشر وأن يوزع الغنائم التى غنمها من المميا بين جنوده وحامية الفاشر . أما ما غنمه من الخوابير فيعطى للجيوش المقيمة فى داره . وفى نفس اليوم انفصلنا فذهبت أنا الى داره وذهب دارهو الى الفاشر .

وانتشر خبر سقوط الأبيض فى كل مكان وظهر أثر ذلك فى القبائل العربية فصاروا يجتمعون ويقررون الثورة على الحكومة .

ولما وصلت الى داره أمرت بشراء كل ما يمكن من الذره وكان مدخرا لدينا كمية كبيرة منها ولكنى رأيت من الأنفع ادخار أكثر مما عندنا . وأرسل الى الشيخ عفيفى يقول ان قبيلته قد ثارت وانضمت الى الرزيقات ولكنه هو لا يريد أن ينكث بعهده ، ولذلك قد ترك أسرته وعشيرته وقصد الى عن طريق حلبة وأنه أرسل أخاه على برسالة الى بشارى بك واد بكير رئيس قبيلة بنى حلبة حيث أقسم له بأن يمر فى بلاده آمنا وانه لذلك يأمل الوصول الى فى بضعة أيام .

وبينما أنا فى انتظاره واذا بأخبار سيئة تقول انه قتل . وقد فقدت فيه أكثر العرب ولاء لى . وتبين بعد ذلك أن بنى حلبة الذين أمرهم رئيس قبيلتهم بأن يجيزوه أرادوا أن يأخذوا منه

أغنامه وثيرانه فرفض فقاتلوه فأظهر بأسا عظيما ولكن كمن له بعض العرب وراء الأشجار واغتالوه بحرابهم بينما كان يطارد العرب الذين هزمهم مرتين •

ورجع الى محمد واد عاصي الذى كنت أرسلته مع خالد واد امام الى كردوفان وأخبرنى بالحالة هنالك • وقد بشرنى بأن الحكومة فى الخرطوم تهيىء جيشا للاستيلاء ثانية على كردوفان ولكن لابد من مضى وقت طويل قبل أن تهيأ التجريدة وتشرع فى السفر •

فأخبرته باذاعة هذه الأخبار فى كل مكان ثم سألته عن علاقة زوجال بالمهدى فأجابنى على الرغم من أبحاثه لم يتحقق على وجه التأكيد هل تجرى بينهما مكاتبات ولكنه لا يشك فى أن المهدى يرسل رسلة الى زوجال فيخبرونه شفويا بما يرغب • وهؤلاء الرسل هم التجار الجائلون • وقد وافقنى على رأيى بأن زوجال لمركزه وتربيته يعرف بواعث هذه الثورة ولذلك لبس من المرجح أن يشترك مع الثائرين •

ولا شك فى أن تسليم الأبيض قد أضعف مركزنا وكان علينا أن نعمل بحذر وحيطة ما دامت مديرية كردوفان كلها قد صارت فى يد المهدى • وكنت أرجح أن أخبار واد عاصى عن اســتعداد الحكومة فى الخرطوم لارسال حملة للمهدى سيجعل المهدى يحتفظ بقواته ويجمع جيشه فى مكان واحد للمقاومة ، وعلى ذلك ليس من المحتمل أن يوجه جيشه الينا • ورأيت أن أرصد كل وقتى للقبائل العربية التى هيجها سقوط الأبيض ومنشــورات التعصب وكان يخشى منها أن تتمادى فى هياجها وترتكب أى شطط • ولم يكن من المنتظر أن يتم تهيئة التجريدة الخاصة بكردوفان قبل الشتاء فكان علينا أن نثبت ونقاوم بأية وسيلة حتى هذا الفصل •

وعلى الرغم من اقامة مراكز حربية فى فافا وفى وودة فان عرب الخوابير تجمعوا فى أم الأوادى وانضم اليهم بعض رجال الميما الذين غاظهم انقطاع المواصلات الى بلادهم وحمسهم سقوط الأبيض وكانوا يثيرون الهياج والفتن فى جميع البلاد بين داره والفاشر ولم تقو حامية فافا على مهاجمتهم . فعزمت لذلك على غزوهم لكى أريهم أن سقوط الأبيض لم يثبطنا وانتقيت ٢٥٠ جنديا قديما مدربا على الحروب ثم دربتهم بضعة أيام على قتال السنجة وأخفيت يوم شروعى فى السفر عن كل أحد .

ثم أخذت جميع الخيول وكانت تبلغ نحو السبعين وأشرت على واد عاصى بأن يطلعنا على أخبار داره ثم خرجنا وأسرعنا فى المسير فلم يمض يومان حتى بلغنا جوار بير أم الوادى حيث قد اجتمع عرب الميما والخوابير . ولم يكن معنا سوى أسلحتنا وذخيرتنا ولم نحمل ميرة لأن نيتنا كانت الهجوم ثم الرجوع . وفى اللحظة التى ظهر فيها العدو أمرت رجالى بتثبيت السنجة . وقاتلنا البازنجر وبعد عشرين دقيقة نجحنا فى تفريقهم ودخل بعض عرب الميما فى صفوفنا فقتلوا كلهم بحراب البنادق (السنجة) ثم أمرت الفرسان بأن يطاردوهم وأمرت الجنود النظاميين بأن يسيروا وراء الفرسان ليبحثوا عن مكان البطيخ لأن الفارين سيقصدونه بالطبع لكى يقصعوا عطشهم وقد نفذت هذه الأوامر وقطعنا البطيخ وقبضنا على عدد من النساء والأطفال وتفرق الرجال فى كل مكان يبحثون عن الماء ومات كثير منهم عطشا . وفى اليوم التالى أحرقنا خيام العدو وأخذنا النساء والأطفال الى بئر أم الوادى التى اعتزمنا الهجوم عليها الآن . فدافع العدو دفاع اليأس عنها وخسرنا ١٦ رجلا قتلوا و ٢٠ جرحوا . وأدركت من هذه الخسارة أن الجنود النظاميين عندى قد قلوا جدا فى حين أن العدو يزداد حتى بعد هزيمته .

ولما كنت الأوروبي الوحيد في بلاد غريبة وكان السكان حولي يدسون لي ويكرهونني كنت ألجأ الى وسائل عديدة لكي أعرف المؤامرات والترسيمات التي تدبر حولي • وكنت أحيانا بواسطة النقود أو الهدايا التي أرسلها سرا أعرف ما سيحدث لي قبل حدوثه وأحتاط له •

وكنت بواسطة الخدم استغل البغايا اللواتي كن يصنعن المريسة أي الجعة الوطنية وكان يشربها عندهن رجال الطبقات الدنيا • وكان الخدم يخبرونني بأن رجالنا وهم يتعببون هذه الخمر ويسكرون يتكلمون عن ثورة المهدي الذي لم يكونوا يعطفون عليه • ولكنهم كانوا يقولون أن الحكومة قد عينت في المراكز العليا ناسا من النصارى لمحاربة المهدي ولذلك فالنتيجة يجب أن تكون سيئة • ومما قالوه أنهم وان كانوا يحبونني الا أنهم يعزون ما أصابنا من الخسارة وما قاسيناه من الآلام الى أني مسيحي • وكنت متحققا بأن هذه الآراء ليست من ثمار ذهن الزنوج الذين لا يبالون بالدين وانما هي من ذهن أولئك الجنود الذين يكرهونني ويشتهون ازالة سلطتي وبث روح العصيان بين رجالي •

وعند قيامي من بير أم الوادي جاءتني أخبار سيئة أيضا ، فقد أخبرني الخدم بأن بعض الجنود الذين يذهبون الى حانة البغي التي كنت أرشوها لكي تخبرنا بكل ما يدور في حانتها قد ائتمروا على ترك الجيش • وعلمت بعد البحث أن الداعين الى ترك الجيش هم بعض من رجال قبيلة الفور وصفوف ضباطهم فانهم على قولهم قد سئموا هذا القتال وقد تحققوا أن أيام الأتراك قد باتت معدودة في السودان وانهم ينوون ترك جيشنا والذهاب الى جبل مرة للانضمام الى سلطان دود بنجه خليفة سلطان هرون • ولما كان أكثر رجالي من قبيلة الفور فاني شعرت بخطورة الحالة وأرسلت

ى الحال الى البكباشى محمد أفندى فرج وأخبرته بما سمعت .
فدهش وأكد أنه لم يسمع شيئا قط عن هذا الموضوع وانه لن
يهمل فى الاستقصاء ومعرفة الجناة ومعاقبتهم . فأمرته بأن يلتزم
التكتم والا يفعل شيئا يلقى بينهم الشك والتوجس . وأرسلت
وهو معى الى خادمى وأعطيت له صرة بها نقود وأمرته بأن يذهب
بها الى البغى ويعطيها لها ويطلب منها أن تدعو هؤلاء الرجال الى
منزلها وتسقيهم على حسابها ما شاءوا . وفى الوقت نفسه طلبت
منها أن تخفى الخادم بحيث يسمع ما يدور من الحديث بين الجنود
وأخبرتها بأنها اذا نفذت هذه الأوامر فانى أكافئها مكافأة سنية .
وعاد خادمى بعد قليل وأخبرنى بأن كل شىء قد رتب على ما تهوى .

وفى اليوم التالى أرسلت للبكباشى وأعطيته أسماء ستة من
الزعماء وأمرته بالقبض عليهم وزيادة على ذلك أعطيته أيضا التفاصيل
الخاصة بفرارهم من الجيش وتاريخ ذلك .

وبعد نصـف ساعة عاد ومعه الســتة المقبوض عليهم وهم
مغلولون من خلف وكانوا كلهم من الفور . وكان وراءهم عدد من
القواصين والنظارة فطردتهم ثم سألت هؤلاء الستة أمام ضابطهم
عن سبب خروجهم على الحكومة . فأنكروا انكارا باتا وجود هذه
النية عندهم وانهم براء من كل ما نسب اليهم . فقلت لهم : « ولكننى
أعرف أنكم عقدتم جملة اجتماعات فى منزل خديجة . وقد أتيحت
لكم كل فرصة لكى تتعقلوا ولكنكم أبيتم الا الطغيان فأمس كنتم
عندها تشربون المريســـة وأتفقتم على أن تنفذوا تدبيركم اليوم .
وكان غرضكم أن تضـموا اليكم الجنود وتخرجوا بأسلحتكم من
الباب الغربى للقلعة وبعد ذلك تذهبون الى السلطان عبد الله وكنتم
تنوون انفاذ خطتكم بالقوة . ألم تقل أنت يا محمد أنه لديك مئتا
رجل يطيعونك ويعملون ما تشير به عليهم ؟ ألا ترون أنى أعرف
كل شىء فما فائدة الانكار ؟ » .

وسمعوا كلامي وهم سكوت وعرفوا أنهم قد أفشى تدبيرهم فاعترفوا بكل صراحة وطلبوا الصفح والمغفرة • فقلت لهم : « ليس هذا في يدى الآن • اذهبوا الى ضابطكم واعترفوا له بكل شيء أمام سائر الضباط والفصل بعد ذلك للقانون » •

ثم أمرت الضابط بتأليف محكمة عسكرية وأن يجعل جميع صفوف الضباط يشهدون المحاكمة ولكنى أفهمته بأن يجعل المحاكمة مقصورة على المقبوض عليهم وذلك حتى لا يفر سائر الجنود المشتركين فى المؤامرة • وفى عصر اليوم نفسه تسلمت محضر التحقيق والاعترافات ولكن لم يكن قد حكم بعد عليهم • فرددت الأوراق وطلبت النطق بالحكم فجاءنى ضابطهم وأخبرنى بأن المحكمة حكمت بضربهم بالرصاص ولكنها تطلب تخفيف الحكم ولكنى شعرت بضرورة التنكيل بهم حتى يتعظ بهم غيرهم فأيدت الحكم وأنا فى أشد الألم والجزع وطلبت تنفيذه فى الحال •

ثم أخرجنا المحكوم عليهم وحفرنا ست حفر ووقفنا كلا منهم على حفرة خارج الزريبة وركع كل منهم ركعتين ثم ضربوا بالرصاص ولم يبدوا أقل خوف . وخطبت الجنود الحاضرين عن خطر المؤامرات وان كل من يحدث نفسه بالثورة والفتنة سيعاقب مثل هذا العقاب وقلت لهم انى أؤمل أن تكون هذه المأساة الأولى والأخيرة من نوعها وأن تكون علاقتنا فى المستقبل علاقة الصداقة •

وكنت حزينا مغيظا لهذا الحادث فقد تذكرت العدد الكبير الذى فقدناه فى المعارك الماضية والآن أضطر أنا الى اتخاذ أقسى الاحتياطات لحفظ النظام • وكان الدساسون حولى يعملون جهدهم لاضعاف سلطتى وهم يجهلون انهم لو نجحوا فى ذلك لما تحسنت حالهم والحقيقة أنه جاءهم زمن بعد ذلك كانوا يتحسرون فيه على عصيانهم أوامر ذلك الأوروبى الذى يكرهونه الآن •

وأرسلت في ذلك المساء فى طلب محمد أفندى فرج وسألته عن مجريات النهار وماذا كان وقع ضرب الجنود بالرصـــــاص فى سائر الجيش . وأضفت الى ذلك أنه يجب أن يعرف الجنود عدالة الحكم وان الجانين يستحقونه واننا استعملنا الرأفة مع سائر من اشتركوا في المؤامرة ثم قلت : والآن يا فرج أفندى انى أرغب فى أن تكون صريحا مخلصا لى . وأنا أعرف أنك تميل الى وتطيعنى ولولا ذلك لما طلبت أن أخاطبك وحدك هنا . فأخبرنى الآن كيف ينظر الى الجنود والضباط ؟ وهل يحبوننى أو يكرهوننى ؟ ولست بالطبع أقصد أولئك الذين يبحثون عن مصالحهم الشخصية » .

فقال فرج أفندى : « ان رجالنا لم يتعودوا هذه الصرامة فى الأحكام ، ولكنهم مع ذلك متعلقون بك لأنك مواظب على دفع المرتبات فى مواعيدها وهذا شيء لم يألفوه قبل . ثم هم يعرفون لك صنيعك فى توزيع الغنائم بينهم . ولكننا خسرنا هذا العام خسارات فادحة ولذلك سئم رجالنا القتال » .

فقلت : « ولكننا مضطرون الى القتال . فنحن لا نخرج للفتح أو للمجد الحربى وأنا شخصيا أوثر الراحة والدعة » .

فقال فرج أفندى : « انى أفهم هذا بالطبع ولكن هذه الخسائر التى كان يمكن تجنبها قد أثرت فى الجنود . فقد فقد أحدهم أبا وآخر أخاه وآخرون فقدوا بعض قرابتهم أو بعض أصدقائهم . واذا استمر هذا فان القتال يشق عليهم » .

فقلت : « وأنا أيضا أدرك ذلك وان كنت لم أفقد أبا أو أخا فانى فقدت أصدقاء . ثم أنى أخاطر بحياتى العزيزة ، كما يخاطر الجنود بحياتهم . فأنا على الدوام معهم وجسمى عرضة للرصاص أو للحراب مثل أجسامهم » .

فقال : « انهم يعرفون ذلك تمـــام المعرفة ويجب عليـــك ان تشكرهم لاطاعتهم رجلا أجنبيا يخاطرون بحياتهم معه » .

فقلت : « حقا انى أجنبى أوروبى . وليس هذا سرا مكتوما ولا أنا أتعير منه ، فهل رجالنا مستاؤون من ذلك ؟ أصدقنى » .

وكان محمد فرج من أحسن الضباط تربية . وقد درس فى عدة مدارس في القاهرة ولكنه دخل الجيش جنديا بسيطا . وكان يعرف فى غيره الميزات التى يمتاز بها ، وكان على الدوام مستعدا لأن يتعلم من أولئك الذين حصلوا على تربية أعلى من تربيته . ولم يكن متعصبا أو متدينا ولكنه كان حاد المزاج كثير التذمر . وكان تذمره وحدته جماع ما عنده من الصفات السيئة وقد قادته الى ارتكاب بعض الجرائم فنفى من أجلها الى السودان .

فلما طلبت منه أن يصدقنى رفع رأسه ونظر الى وقال : « ترغب منى فى أن أخبرك الحقيقة . فهاكها : انهم لا يعترضون عليك لأنك أوروبى بل لأنك غير مسلم » .

والآن عرفت منه ما أردت معرفته . فقلت له : « ولم يعترضون على ديانتى ؟ لقد مضيت السنين الطوال فى دارفور وهم يعرفون أنى مسيحى فما اعترض أحد على » .

فقال : « تلك أيام أخرى تختلف عن أيامنا الآن . فان هذا الوغد المدعو المهدى قد تستر بالدين وله أنصار يحضون الناس على اتباعه لكى يبلغوا أغراضهم السافلة .

وقد انتشر بين جنودنا رأى لا أعرف من أول من أذاعة مقتضاه أن هذه الحرب دينية وأنك لن تربح معركة فيها وان الهزائم ستتوالى

عليك حتى نقتل فى النهاية . وأنت تعرف أن الجنود الجهلة يصدقون هذه الأقوال وهم يعللون هزائمهم بأنك مسيحى . ورجالنا لا يدركون أن خسائرنا ناشئة عن تفوق العدو علينا فى عدد الرجال واننا مادمنا لا نؤمل فى مجيء امداد فاننا سنستمر على الهزيمة » .

فقلت له : « هبنى صرت مسلما فهل رجالنا يصدقون اسلامى ويؤملون فى النصر وهل هذا يزيد ثقتهم فى ؟ » .

فقال لى : « يصدقونك بلا شك أو على الأقل كثرتهم تصدقك . ألم تتحين كل فرصة لاظهار احترامك لديانتنا وأجبرت غيرك على احترامها ؟ تأكد أنهم سيثقون بك . ولكن هل تغير دينك عن عقيدة ؟ » قال هذا وهو يبتسم .

فقلت له : « اسمع يا محمد أفندى . أنت رجل ذكى قد حصلت على تربية وتعرف أن العقيدة لا شأن لها فيما نحن فيه الآن . وفى هذه الدنيا يحتاج الانسان الى أن يعمل أعمالا تخالف عقيدته اما اضطرارا واما لسبب آخر . وحسبى أن يصدقنى الجنود ويثقوا بى ويقلعوا عن خرافاتهم السخيفة . ولست أبالى بتصديق سائر الناس ، وأنا أشكرك الآن شكرا جزيلا وأطلب منك ألا تجعل هذا الحديث يخرج من فيك لأحد » .

وتركنى محمد أفندى فرج فتأملت وترويت قليلا فى الموضوع ثم استقر رأيى على أن أظهر فى اليوم التالى أمام الجيش كأنى مسلم . وكنت على تمام المعرفة بأنى فى اتخاذى هذا الموقف سيلومنى البعض . ومع ذلك قد عزمت على امضاء نيتى لكى أقطع على الدساسين حبل دسائسهم وتتاح لى الفرصة لأن أحتفظ بالمديريه التى عهدتها الى الحكومة المصرية . وكنت فى شبابى لا أبالى كثيرا

بالدين ولكنى كنت أعتقد أنى بالتربية والعقيدة مســيحى مؤمن بالمسيحية وان كنت أميل الى التسامح والى أن يختار كل انسان طريقة الصلاح التي يشتهيها . ولم يكن ذهابى الى السودان بصفتى مرسلا مسيحيا وانما كانت المهمة التي أعرفها ومن أجلها ذهبت أنى موظف فى خدمة الحكومة المصرية .

وعند طلوع الشمس أمرت بعرض الجيش وانتظارى ثم أرسلت الى زوجاله لكى يبعث الى القاضى أحمد واد بشير وأيضـــا التاجر المعروف محمد أحمد . فلما حضرا حادثتهما فى الشئون العامة ثم طلبت منهما أن يحضرا العرض معى داخل القلعة . ثم اتخذت القيادة فى العرض وأمرت الجنود أن يصطفوا فى هيئة مربع ثم امتطيت جوادى ودخلت داخل المربع ومعى الضباط والموظفون ثم قلت :

« أيها الجنود ، لقد كابدنا المشاق العديدة معا ونزلت بنا الكوارث الفادحة . وما الكوارث الا محك الرجال . ولقد جاهدتم وقاتلتم ببسالة الأبطال وليس عندى شك فى أنكم ستداومون على ذلك . فاننا تقاتل من أجل مولانا الخديو حاكم البلاد ومن أجل أنفسنا أيضا . ولقد اشتركت معكم فى الأفراح والأتراح وعندما كان يلوح الخطر كنت على الدوام معكم لا أخيم فى اللقاء . وانى وان كنت رئيسا فحياتى ليست أغلى من حياتكم » .

فصاح معظمهم : « الله يخليك » .

فاستأنفت قولى : « وقد سمعت أن البعض يعدنى أجنبيا غير مؤمن بالاسلام ولكنى أقول لكم انى مؤمن كما أنتم مؤمنون . أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » .

وعندما نطقت بهذه الشهادة رفع الجنود بنادقهم ثم هزوا رماحهم وصـــاحوا بالتهنئة وتقدم الضباط والموظفون لتهنئتى بالاسلام . ولما عاد النظام قلت انى سأصلى معهم ثم أمرت فرج أفندى باعادة الصفوف ثم صرف الجنود .

ولما انتهى كل شيء دعوت زوجال بك والضباط لكى يشربوا القهوة ويتنــــاولوا الغـــذاء معى . وودعنى الجميع وهم يؤكدون لى فرحهم وطاعتهم ولما غادرونى أمرت فرج أفندى بأن يشترى عشرين ثورا وأن يوزعها بين رجالنا « كرامة » وأن يعطى لكل ضابط ثورا ودفعت أنا ثمن هذه الثيران .

وكان الأثر الذى أحدثه عملى فى رجالنا أكبر مما انتظرت فلم أعد أرى منهم ذلك الاكراه الذى كنت أراه منهم عندما أطلب منهم الخروج فى التجريدات وان كان عدونا يزداد كل يوم فى العدد والقوة .

وكان التجار الذين كنت أدفع لهم نقودا لكى يرسلوا الى الأخبار قد أخبرونى بأن الجيوش ترسل من القاهرة الى الخرطوم وان الحكومة تتهيأ بسرعة لارسال تجريدة بقيادة ضباط أوروبيين لاسترجاع كردوفان . أما الأهالى فقد انضموا جميعا بلا استثناء الى المهدى وكانوا مصممين على المقاومة .

وكانت جميع القبائل فى جنوبى دارفور قد ثارت ولكن الجزء الشمالى بالنسبة لمراكزنا الحربية وبالنسبة لاتصال قبائله بمصر واستفادتهم من القوافل الصادرة عن مصر اليهم لم تكن قد بدت فيه بعد أمارة للثورة . ولم نجمع بالطبع أية ضرائب منذ وقت طويل ولذلك كنا ندفع مرتبات جنودنا من المال الاحتياطى .

وبدأت انتصارات المهدى المتوالية تظهر أثرها فى زوجال بك ولاحظت تغيرا فى سلوكه وان كان على الدوام يراعى اظهار الولاء والطاعة • وقد وضح لى أنه فى قلبه يحب الفوز للمهدى ابن عمه لأنه كان يعرف أنه فى مثل هذه الحالة سيعود فوز المهدى عليه بأكبر المنافع . وكان محبوبا لدى مرؤوسيه وكان بالنسبة الى أهالى السودان يعتبر حاصلا على قسط من التربية والتعليم وكان يخدم الناس مادامت هذه الخدمة لا تمس جيبه ، وكان يشاع عنه أنه سخى وكان ثريا له منزل كبير ومائدة مبسوطة وأظن أن سبب حب مرؤوسيه له أنه كان يغتفر لهم ذنبوبهم ويسمح لهم بملء جيوبهم بطرق خفية غير مشروعة . وقد توصل أكثر قرابته بواسطة نفوذه الى الحصول على مناصب حسنة وصاروا بذلك أثرياء ، وعلى دلك رأيتنى مضطرا الى أن أحتاط له . فان حب الجمهور له وموافقته على آرائى واطاعته أوامرى جعلتنى أكره وجود شقاق صريح بينى وبينه. ومثل هذا الشقاق لو حدث كان يؤدى الى نقض سلطتى . وعلى ذلك اضطررت وقتيا الى أن أتركه وشأنه . والمثل السودانى يقول : « ابعد النار عن القطن وأنت ترتاح » . وكان هذا المتل ينطبق على حالتنا والذلك لزمته .

ثم طلبت فرج أفندى وواد عاصى وقاضى البشير وكانوا كلهم يوالون الحكومة ويرجون بقلوبهم نجاحهم فأفضيت اليهم بالخطة التى انتويتها فأجمعوا على الموافقة . ولما خرجوا استدعيت زوجال بك وقلت له :

« اسمع يا زوجال . انت معى هنا ولا يشهدنا نحن الاثنين الا الله . فابن عمك المهدى قد فتح كردوفان وقد سقطت الأبيض وانضم اليه جميع الأهالى والبلاد التى بيننا وبين حكومتنا واقعة تحت يديه . وقد مال قلبك اليه عندما رأيت نجاحه فهل نسيت

كل ما صنعته لك الحكومة ؟ وهل نسيت الوسام والرتبة اللذين منحكهما الخديو بوساطة حكومة السودان ، وهل يمكنك أن تنسى واجباتك المكلف بها بحكم منصبك » ؟ .

فقال زوجال : « ان المهدى ابن عمى ولا يمكنني أن أنكر أن قرابته لى تجعلنى أميل اليه . ولكنى مع ذلك قد قمت فى الماضى جميع واجباتى وأؤمل ان أقوم بها أيضا فى المستقبل » .

فقلت : « لقد قمت بواجباتك على وجه العموم ولكنك على اتصال بالمهدى فلم تنكر ذلك عنى ؟ » .

فأجابنى زوجال بسرعة : « انى غير متصل به مباشرة ولكن التجار الذين يفدون عليه من كردوفان ينقلون الى رسائل شفوية عنه وقد أقسمت لحملة هذه الرسائل ألا أخبرك ، وهذا هو السبب فى كتمانى أمر هذه الرسائل ولكنى أؤكد لك أنه ليس فيها سوى أخبار عن كردوفان وأنه لم يحاول أن يجعلنى أنضوى الى لوائه » .

فقلت له : « ليكن الأمر كما قلت . فانى لا أطلب منك أن تبرر نفسك ولكن أخبرنى ماذا سمعت عن تلك التجريدة التى تهيئها الحكومة لاسترجاع كردوفان » .

فقال : « سمعت أن جيشا عظيما وصل الى الخرطوم وأنهم سيحاولون به فتح كردوفان » .

فقلت له : « لن يحاولوا ذلك فقط بل هم سينجحون فى فتح كردوفان . وأنت يا زوجال رجل تفهم وتعرف أنى اذا اضطررت بالظروف فانه يمكننى أن أمنع أذاك ، ولكنى لا أظن انه من الحكمة

أن أفعل ذلك الآن . دع عنك أنه مما يؤلمني أن أتخذ اجراءات ضدك فقد خدمت الحكومة بولاء مدة طويلة كما أنك صادقتني مدة طويلة ولذلك فأنا مستغن عنك الآن ويمكنك أن تذهب الى كردوفان . فان الحركات الدينية يكون لهـــا لمعة ورونق على بعد فيعطف عليهـا الانسان ، ولكن عند الاحتكاك بها تظهر حقيقتها فتذهب عنها جاذبيتها وتزول منها روعتها . وسأكلفك بحمل رسائل الى الخرطوم سرا وسيكون مضمون هذه الرسائل شرح المهمة التي أرسلت في شأنها . وبما أن التجريدة ستشرع في السفر الى كردوفان في الشهر الآتي فأنا أطلب منك أن تجهد جهدك في منع المهدي من ارسال تجريدة الى دارفور أو تحريض الناس على الثورة . فاذا فعلت ذلك فان الفائدة تعود عليك وعليه . واذا نجحت التجريدة فأنا أتحمل كل التبعات التي تقع عليك فليس هناك ما تخشاه . ولكن اذا نجح المهدي ـ لاقدر الله ـ فهناك يقطع ما بيننا وبين الحكومة فلا يمكن تخليصنا والمرجع وقتئذ أننا نخضع للمهدي ، وفي هذه الحالة يتسلم البلاد وهي في حالة حسنة . ولكي أضمن ولاءك وقيامك بهذه المهمة خير قيام سأحتفظ بزوجاتك وأولادك هنا في القلعة ، وسيحسب المهدي حسابا لهذا العمل ولا يعرض أهلك للخطر » .

فقال زوجال : « سأنفذ تعليماتك وأثبت لك اخلاصي . وهل تريد أن تكتب خطابا للمهدي ؟ » .

فقلت : « كلا لا أريد أن يكون بيني وبينه أية معاملة . وأنا عارف تماما بأنك ستتلو عليه حديثنا هذا . وابن عمك رجل ماكر وسيستغل ذهابك اليه بقدر امكانه ولكن مادمت تفي بوعدك لي فاني أعنى كل العناية بأسرتك . ومع أننا قد استغنينا عنك اسميا فاننا سنستمر على دفع مرتبك بالكامل ، أما اذا لم تف بوعـدك فـــان ضماننا لا يستمر وأود منك أن تشرع في السفر بأسرع ما يمكنك ويكفيك ثلاثة أيام تستعد فيها » .

فقال زوجال : « انى أؤثر البقاء مع أهلى ولكنى بما أنك تريد منى تأدية هذه المهمة كى تمتحن اخلاصى فأنا أقوم بها وملء قلبى الحزن » .

ثم أرسلت فى طلب فرج أفندى ووداد عاصى والقاضى وأخبرتهم بحضور زوجال بالمهمة التى كلفته بها . فبدا عليهم شىء كثير من الانفعال والدهشة وطلبوا من زوجال أن يقسم يمينا بالولاء فأقسم بالقرآن وبالطلاق بأن يلزم الاتفاق الذى بيننا .

فكتبت الخطابات الى الحكومة ووصفت الحالة فى دارفور وبعد ثلاثة أيام خرج زوجال فى رحلته ومعه ثلاثة من الخدم قاصدا الأبيض عن طريق طوبشه . وكان معروفا فى كل مكان أنه من قرابة المهدى . فلم يكن لذلك يخشى أحدا وعلمت بعد ذلك أنه قوبل فى كل مكان بحفاوة واكرام .

وأخذت على عاتقى الآن أن أركز مدافع جديدة فى زوايا القلعة وجمعت كل ما أمكننى جمعه من القمح . ولكن هذه المدة القصيرة من السكينة لم تدم طويلا فقد حرض الشيخ الطاهر الدجوى زوج ابنته بشارى بك واد بكير على الغارة على داره . وكان بشارى بك رئيس قبيلة بنى حلبة فأرسلت له خطابا أهدده فيه ، ولكنه أغار على عرب المصرية وقتل منهم عددا وأسر نساء وأطفالا . فعبأت ٢٥٠ من الجنود النظاميين و ١٠٠ من البازنجر وسلمت قيادتهم الى مطر أحد قرابة زوجال ، ولم أستطع أن أجمع من الخيول سوى ٢٥ فرسا لأن مرضا غريبا انتشر بينها وبهذه القوة خرجت قاصدا داره .

وبعد مسير ثلاثة أيام بلغنا أمكة حيث أغار علينا بنو حلبة بقيادة بشير بك وكان معهم صديقى القديم جبرالله . ولكن لم يكن معهم من الآت النارية الا عدد قليل ولذلك فرقناهم بسهولة . وفى اليوم التالى عاودوا الغارة في كلمباسى وهى على مسيرة يوم ونصف من أمكة وهنا أيضا اضطرناهم الى الفرار بسهولة .

وقد عزا رجالنا قلة خسائرنا الى صلاتى يوم الجمعة معهم لا الى قلة البنادق عند العدو ، ثم سرنا الى خشبة وأخرجنا شيخها وعرضنا عليه صلحا ولكنه رفض . ثم سرنا الى جورو على مسيرة نصف يوم . وبينما نحن فى الطريق كانت تتقدمنا طليعة مؤلفة من ١٢ فارسا . فأغار عليهم بشارى بك وحده واخترق صفهم وجرح أحدهم جرحا بسيطا ثم ثنى جواده هو بين الطليعة وبيننا على حدود الغابة وعلى بعد ٨٠٠ ياردة تقريبا منا .

ثم تقدمت نحوه ثلاثمائة خطوة فعرفته ولكنى لم أرمه وأرسلت اليه خادما أعزل لكى يقول له : « ان الحاكم يقدم لك تحيته ويخبرك بأنك اذا كنت ترغب فى أن تظهر بسالتك لزوجتك فليست هذه هى الطريقة لاظهار ذلك . وانك اذا عدت الى مثل ما فعلت فانك لابد مقتول » .

وكانت الطريق بيننا وبينه خالية الا من بعض الأشجار هنا وهناك ورأيت الخادم يذهب اليه ويقف أمامه بضع ثوان ثم عاد الينا مسرعا وقال : « ان بشارى بك يقدم لك تحيته وهو يقول انه لا يرغب فى الحياة بل يشتهى الموت » .

يا لغفلة الرجل . لقد وجد ما اشتهاه .

ولما بلغنا جورو صنعنا زريبة وكنت متأكداً بأن بشارى بك سيتهور ويغير علينا ولذلك أمرت الجنود بأن يخرجوا من الزريبة نحو ثلاثمائة خطوة ووضعت الخيالة على الجانبين وأرسلت عشرين فارساً الى الغابة لكى يغتر العرب بهم ويخرجوا اليهم وما كاد هؤلاء العشرون يخرجون فى مهمتهم هذه حتى رأينا عربيين راكبين قد ركضا فرسيهما اليهم وفى يد كل منهما حربة قد أشرعها . وكان هذان الرجلان بشارى بك وخادمه . وقبل أن يبلغ رجالنا عثر فرسه ووقع وبينما كان خادمه يساعده على النهوض والركوب اغار عليه رجالنا ورموه بمطرد فى وجهه نفذ فى عينه فكبه . أما خادمه فقد أصيب بحربة نفذت فى ظهره وقتلته . وركضت فرسى أنا اليه فوجدته فى النزع فان رجالنا طعنوه بعد وقوعه مرتين بالحراب . وهجم علينا ابنه لكى يخلصه فجرح ولكنه نجا بنفسه وقد كان معه شيخان وهما شرطيه حبيب الله والتوم قتلا كلاهما . فقبضنا على خيولهم جميعاً ثم هتفت بالجنود فحضروا الينا فأركبت وراء كل خيال واحداً من المشاة وطلبت منهم أن يطاردوا العدو لاعتقادى انهم لن يثبتوا للقتال بعد موت قادتهم .

وركضنا خيولنا نحو ميلين فوجدنا العرب وهم فى فرارهم فأمرت الجنود بالنزول عن الخيول واطلاق النار عليهم ثم حولت الخيالة الى بنى حلبة . ولم نشفق على أحد فى هذا القتال لأن رجالنا كانوا مصرين على الانتقام للشيخ عفيفى الذى قتل قريباً من هذا المكان .

وبعد ساعات قليلة تم تشتيت العدو فعدنا الى الزريبة . ونحن فى طريقنا وجدنا جثة بشارى بك فطلب منى الضباط ان

يقطعوا رأسه لكى يرسلوه الى داره ولكننى احتراماً لابن أخته الذى طلب الصلح بالأمس كففتهم عن هذا العمل وأعطيته الجثة فى كفن من القماش وحضرت انا بنفسى حفلة دفن هذا الصديق القديم الذى صار عدونا على الرغم منه واشتهى الموت فوجده .

وفى هذا القتال قتل منا رجلان وجرح عدد آخر وكان بين هؤلاء سلامة الذى حمل خطابى وأنا فى أم ورقة الى داره وكان علـــى الدوام فى مقدمة المغيرين .

ثم عدنا الى جورو . وكنت قد أصبت بدودة غينيا فى كلتـــا ساقى فلم أكن أستطيع البقاء على السرج لشدة ما كان بى مـــن الألم . ولم تكن ثم فائدة من البقاء بعد أن سحقنا بنى حلبة فعدنا الى داره .

الفصل الثامن

حملة هكس باشا

بعد أن سقطت الأبيض فى يدى المهدى اخذ يلتفت الى زيادة قوته . وكان انصاره على ضفتى النيل يوافونه بكل ما يجد من الأخبار فكان يعرف أن عبد القادر قد طلب امداداً من القاهرة . وكان يعرف أن هذه الأمداد قد وصلت وان الحكومة عازمة على استرجاع المديريات التى خرجت من يدها . وكان هذا هو سبب الحاحه فى الدعوة الى الجهاد وكان يذكر أتباعه بأن الحرب توشك أن تشب وانهم منصورون فيها .

وكان جيجلر باشا قد نجح فى دويم فى نوفمبر سنة ١٨٨٢ كما نجح أيضاً عبد القادر باشا فى معتوق فى يناير سنة ١٨٨٣ واحرز كلاهما النصر . ولكن المهدى لم يكن يبالى بهذه الهزائم وانما كان همه منصرفاً الى تلك التجريدة التى كانت تهيئها الحكومة فى الخرطوم بقيادة ضباط أوروبيين لكى ترسل الى كردوفان . ولذلك سارع الى نشر المنشورات يدعو فيها القبائل الى ترك بلادهم والانضمام اليه . وعندما كانت تجتمع هذه الجموع العديدة عنده كان يعظهم بحماسة ويحضهم على الزهد فى هذه الدنيا والاهتمام بالآخرة وكان يقول : « انا أخرب الدنيا وأعمر الآخرة » .

وكان بعد الأنصار المطيعين له بلذات النعيم التى لا يمكن عقلا أن يصفها وينذر المخالفين بعقاب الجحيم . وكانت تذاع المنشورات فى هذا المعنى فى كل مكان وكان يبعث للأمراء يطلب منهم الا يبقوا أحداً فى خدمتهم سوى أولئك الذين يحتاجون اليهم فى الزراعة . وأما من كانوا فى غنى عنهم فعليهم أن يرسلوهم اليه لينضووا الى لوائه .

وكان الأولاد والنساء والرجال يهرعون الى الأبيض لكى يروا هذا الولى ويسمعوا ولو كلمة واحدة من وعظه . وكان الجهلة يرون فى وجهه ما يدل على الوحى وانه الرسول الحق من عند الله .

وكان يلبس الجبة والسروالين ويتحزم عليهما بحزام من قش ويضع على رأسه طاقية يتعمم عليها ثم يقف خاشعاً أمام انصاره ويحضهم على حب الله والزهد فى هذه الدنيا . فاذا دخل بيته تغير كل هذا اذ كان يعيش فى ترف ونعيم بحيث تسترقه شهوة الطعام والنساء فينغمس فيهما انغماس سائر السودانيين . وكانت النساء أو الفتيات اللواتى يؤسرن يحضرن امامه فيختار أجملهن ويضمهن الى حريمه . اما اللواتى كن يجدن الطهى فكن يرسلن الى مطبخه .

وبعد سقوط الأبيض أخذ يفكر فى تعيين الخليفة الرابع وقر رأيه على أن يعين محمد السنوسى وهو اكبر شيخ دينى فى شمالى افريقيا لهذا المنصب . فأرسل طاهر واد اسحق برسالة الى السنوسى لهذا الغرض . ولكن السنوسى نظر بازدراء الى الرسول ولم يكلف نفسه مشقة الاجابة .

وشرع المهدى فى تنظيم حكومته . وكانت ادارته غاية فى البساطة . فأسس أولا بيت المال ووضع فى رياسته صديقه الأمين

احمد واد سليمان وكان يجبى الى بيت المال هذا جميع العشــور والفطرة والزكاة المأخوذة على جميع الغنــائم أو الأمــلاك التى استصفيت من اصحابها والغرامات التى تفرض فى السرقات وشرب الخمور والتدخين . ولم يكن هناك نظــام لايـرادات الحـكومة ومصروفاتها . ولذلك كان أحمد واد سليمان حراً فى الاعطاء والمنع لمن يشاء .

وكان القضاء فى يد القاضى الذى أطلق عليه المهــدى اســم « قاضى الاسلام » وكان له مساعدون . وكان أول من حصل على هذا المركز أحمد واد على الذى كان قاضياً تحت ادارتى فى شقة وكان بعد الثورة فى مقدمة المغيرين على الأبيض . وكان المهدى وخلفاؤه يحفظون لأنفسهم حق معاقبة اى مجرم وخاصة ذلك الذى يشك فى مهدوية المهدى . وكان الموت عقاب المجرم فى هذه الحالة . ولما كانت هذه العقوبات تخالف الشريعة فان المهدى منع درس الفقه وأمــر بتحريق جميع هذه الكتب ، ولم يكن يسمح بقراءة شىء غير القرآن . ولكنه مع ذلك لم يكن يأذن لأحد بشرحه علنا .

وكانت المواصلات بين المهدى وسكان الجزيرة الذين كانــوا يعتبرون أنفسهم أنصاره المخلصين لا تنقطع . وعرف منهم أخباراً عن سفر عبد القادر الى كاوه وسنار ومعه قوة كبيرة وكانت هــذه المدينة قد حاصرها أحمد الكاشف ولكن عبد القادر باشا هزمه فى مشرع الوادى ورفع الحصار . وطارد صالح بك الثائرين حتى جبل سخيدى وأجلاهم الى صحراء بين هذا الجبل وبين كاوه ولم يكن بها ماء فمات كثير منهم بالعطش . وهذا المكــان لا يــزال يــدعى عند السودانيين « تبكى وتسقط » لذكرى الذين ماتوا عطشا فيه .

ولكن هذه الهزائم لم تضعف حب الجمهور للمهدى . وليس شك فى أنها كانت تخفف عبء الموظفين وقتياً ولكنها لم تكن تمنع

مجيء اليوم المتوقع من الجميع . ولو كانت نصائح عبد القادر باشا قد سمعت لتغير حال السودان . فقد كان لا يوافق على ارسال تجريدة كبرى لتخليص كردوفان ولكنه كان ينصح بتوزيع الامدادات التى تأتى من القاهرة على مراكز على النيل بحيث تكون هناك حاميات ثم يترك الثوار وشأنهم مؤقتا . وكان عنده ما يكفى لقمع الثورة فى الجزيرة بين النيلين الأبيض والأزرق وأيضا لمنع تقدم المهديين من الغرب .

ولو اتبعت هذه النصائح لكان الأرجح أن سوء ادارة المهدى تؤدى الى الخلل والشقاق فيمكن للحكومة استرجاع ما فقدته بعد مدة قليلة . ولم يكن فى مقدورى الاحتفاظ بدارفور أكثر مما احتفظت به وحتى لو فرضنا أنه وقع فى يد المهدى لكان هذا أيسر الشربن . ولكن ولاة الأمور فى القاهرة لم يكونوا من رأى عبد القادر باشا وكانوا يرون أنه يجب أن تعاد للحكومة كرامتها وسلطتها مهما كلفها ذلك ، ودبروا لذلك تجريدة يقودها هكس باشا الانجليزى ومعه ضباط أوروبيون فاستدعى عبد القادر باشا الى القاهرة وقام مقامه علاء الدين باشا الحاكم العام للسودان الشرقى سابقاً . وعرف المهدى كل ذلك واستفاد منه .

وفى هذه الأثناء وصل زوجال الى الأبيض حيث احتفل باستقباله فأطلق مائة مدفع تكريماً له واشيع فى كل مكان أن دارفور قد سلمت نفسها للمهدى الظافر . واعتبر ايضاً رجوع زوجال الى دارفور ضماناً قوياً على دخول دارفور فى طاعة المهدى وأنها لذلك ليست فى حاجة الى ارسال قوة من الجيش ووجه المهدى الآن كل عنايته الى درس الحالة فى النيل .

وبعد وصول هكس باشا قام فى الحال الى كاوه وهزم الثائرين فى مرابية فى ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٢ وقتل أحمد المكاشف .

وكان عثمان دجنة أحد النخاسين فى سواكن قد بعثه المهدى لكى ينشر الدعوة الى الجهاد فى بلاد مختلفة وقد اثبت المهدى بعد نظره فى اختيار هذا الرجل الذى ذاع اسمه بعد ذلك وكان يقدر أنه اذا ثار السودان الشرقى فان الحكومة ترتبك وتؤخر تجريدة كردوفان أو لا ترسلها مطلقاً .

ولست أدخل فى تفاصيل الوقائع التى دارت بين هذا الأمير الجسور وبين الحكومة فانها معروفة مشهورة ولا تحتاج الا للاشارة اليها هنا فقط . ويكفى أن أقول ان المهدويين نجحوا فى شرقى السودان ولكن نجاحهم لم يؤثر فى الحكومة كما رغب المهدى بل بقيت على عزمها من تهيئة التجريدة لكردوفان . وفى أوائل سبتمبر سنة ١٨٨٣ غادر هكس باشا الخرطوم الى الدويم على النيل الأبيض حيث انضم اليه علاء الدين باشا الذى طلب اليه أن يصحب التجريدة .

وانى لا اشك فى أن ولاة الأمور فى القاهرة كانوا يجهلون الحالة فى كردوفان اذ كانوا يتصورون أن ارسال مثل هذه التجريدة لكردوفان يقضى على المهدى الذى صار الآن الحاكم المطلق فى المديريات الغربية وليس فيها أحد سوى أنصاره ، فهل نسوا أن المهدى أباد القوى التى كان يقودها راشد وشلالى ولطفى وأن باره والأبيض وغيرهما من البلاد قد خضعت له وأنه أصبح يملك من البنادق أكثر مما يملكه هكس فى تجريدته ؟

وهل غاب عنهم أن هذه البنادق قد صارت الى أيدى رجال ماهرين يعرفون كيفية استعمالها . وان من هؤلاء الرجال من كان يستخدم البازنجر ويصيد الفيلة والنعام وأنه قد تألفت تحت أيديهم فرق حربية ماهرة ؟ ثم الم ينضو الى راية المهدى آلاف من الجنود النظاميين وغير النظاميين الذين كانوا فى خدمة الحكومة قبلا ؟ وهل

خطر لهم ان هؤلاء الرجال كانوا ينوون ترك الانضمام الى هكس باشا عند رؤية جيشه ؟

لقد جهلت الحكومة في القاهرة كل ذلك وخاطرت بحياة الالوف لجهلها هذا . واظن انه كان بين أعضاء الحكومة من كان يعرف السودان ويعرف المثل القائل : « اللى بياخد أمى هو أبويا » والمهدى قد استولى على البلاد ويمكن أن نقول مجازا أنه تزوجها . لذلك نظر اليه السكان كما ينظرون الى مولاهم وحاكمهم ولم يكونوا يبالون وتتلذ بما نالوه من رعاية فى الحكم السابق . ولا أنكر أن هناك شواذ ولكن ملاحظاتى هنا تنطبق على الكثرة .

وكانت تجريدة هكس مؤلفة من عشرة آلاف رجل تسير فى هيئة مربع فى وسطه ستة آلاف جمل وكان سيرها فى أعشاب ونبات يزيد طولها على قامة الانسان فلم يكن فى مقدور الجنود أن يروا الى أبعد من مائتي ياردة الى ثلاثمائة وذلك فى الجهات المزروعة المكشوفة حيث يقطن بعض الناس ويكشفون بعض الأرض للزراعة وكان عليهم أن يكونوا مستعدين على الدوام لملاقاة عدو أكثر منهم عدداً وعدة وتجربة بالحروب وقد اشتهر رجاله بالفوز والشجاعة والاندفاع ولم يكن فى طريقهم سوى آبار قليلة وان كان بها مستنقعات عديدة .

ولو انهم كانوا أخذوا الطريق الشمالى ، طريق جبروه وباره لوجدوا الأرض مكشوفة أمامهم والماء وفيراً فى عدة أماكن . وهذا الماء اذا لم يكن يكفى الجيش فانه باستعمال الوسائل الحديثة فى الاستقاء واستنباط الماء كان يكفيه . وفى هذه الحالة كان يمكن الاستعانة بقبائل الكبابيشى فى مقاتلة المهدى ، وكان يمكن عندئذ الاستغناء عن عدد كبير من الرجال والحيوانات التى استعملت فى النقل .

وكانت الجمال فى وسط الجيش تؤلف غابة كثيفة من الأعناق والرؤوس . وكان من المستحيل أن يطاق العدو عيارا واحدا دون أن يصيب أحد هذه الجمال فانه اذا اخطأ أحداً من الأمام لم يخطىء الاصابة فى الوسط أو المؤخرة .

وكان يمكن ترك هذه الجمال مع الحرس فى دويم أو فى الشط ثم ارسال فصائل من الجيش لاعداد الطريق فى الشمال أو الغرب أو الجنوب وانشاء مراكز حربية فى البلاد التى تخضع . ويدهى أن هذا العمل كان يحتاج الى عام ولم يكن فى ذلك من بأس اذ لم يكن ثم داع للعجلة . ثم يجب أن نذكر أن الخلاف بين هكس والضباط الاوروبيين كان عظيماً كما كان هناك أيضاً خلاف بين علاء الدين باشا وبين الضباط المصريين .

ثم كان هذا الجيش مؤلفاً فى الأغلب من جيش عرابى المنحل الذى انهزم أمام الانجليز ولا شك فى أن الجنرال هكس كان يعرف هذه الأشياء وقد سئل مرة فى الدويم عن الموقف فقال : « أنا مثل المسيح بين اليهود » ومع ذلك سار فى طريقه وربما كان يعتقد أنه اذا رفض السير فان شرفه يجرح .

وأخذت هذه الكتلة المؤلفة من البشر والحيوان تسير سـيراً بطيئاً وكان السكان الذين يقطنون فى طريق الجيش قد فروا . وكان العرب يظهرون فجاة ثم يختفون من وقت لآخر . وكان هكس ينظر خلال نظارته فى احدى المرات فرأى فرساناً مختبئين بين الأشجار فأمر بالوقوف وأنفذ قسماً من الخيالة لكى يتقدم . وبعد دقائق عاد الخيالة وهم فى ارتباك شديد بعد أن فقدوا عدداً من رجالهم وجرح عدد آخر ورووا انهم رأوا قوة كبيرة . فأنفذ هكس الجنرال ماركار ومعه نصف اورطة لكى يذهب الى مكان المناوشة ويعاين الحالة

هناك . فعاد وقال أنه رأى ستة مقتولين وقد جردوا من كل شيء ولكنه لم ير احداً من العدو وكان هناك آثار عشرة من حوافر الخيل فكأن قسم الخيالة قد انهزم امام هؤلاء العشرة .

وفي اليوم التالى ظهر ثلاثة من الفرسان فهجم عليهم فاركار وليس معه سوى خادمه فقتل اثنين وقاد الثالث أسيراً . وقد أخبرني عن هاتين الحادثتين بعض من بقى من التجريدة وكانوا يصفون سير الجيش وهو فى هيئته المربع كانه سلحفات تزحف . ولم يكن من الممكن وهو في هيئته هذه أن تسرح الجمال للرعى فلم تأكل هذه الجمال سوى ما وجدته وهى محصورة فى هذا المربع وكان ما وجدته قليلا فكان ينفق منها كل يوم مئات . وكانت تاكل بطانة الرحال المحشوة بالتبن . ولما خلت الرحال من التبن لصق الخشب بلحمها فآذاها اذى كبيراً ومع ذلك كانت هذه الجمال تجر سيقانها وتسير حاملة أثقالها وأثقال من يقع من أخواتها .

ولا شك فى أن فاركار والبارون شكيندورف والماجور هيرلث وغيرهم من الضباط الاوروبيين وبعض كبار ضباط المصريين كانوا يجهدون جهدهم لكى يساعدوا هكس باشا فى هذه الظروف الحرجة ، ولكن معظم الجيش كان يجهل تماماً الأخطار الموشكة أن تقع به . وكان فيزتلى المسكين يرسم صوره وكان دونوفان يكتب مذكراته ، ولكن أين ذلك الذى يمكنه ارسالها الى بلادهما ؟

وما هو أن عرف المهدى أن الجيش قد شرع فى السير حتى أذاع المنشورات بين القبائل يدعوهم فيها الى الجهاد ، ويعد فيها المطيع بالمكافاة والعاصى بالعقاب وغادر هو الأبيض وضرب خيمته تحت شجرة كبيرة ينتظر قدوم الجيش المصرى واقتدى به خلفاؤه وأمراؤه فتكون من ذلك معسكر ضخم . وكانت جيوش المهدى

تعرض كل يوم وتقرع الطبول وتطلق المدافع وتدرب الجنود والخيول وكلهم يستعد للمعركة الكبرى . كان المهدى قد أرسل الأمراء الحاج محمد أبو جوجه وعمر واد الياس باشا وعبد الحليم مسمد الى الدويم لكى يراقبوا تقدم الجيش ويقطعوا مواصلاته ولكنهم امروا بالا يهاجموا الجيش بالذات . وقد علموا قبل سفرهم مقدار القوة المصرية ورجوا المهدى فى أن يسمح لهم بمهاجمتها ولكنه رفض .

وقبل أن تصل القوة الى رهاد رأى جوستاف كلوتز (وهو صف ضابط المانى وكان قبلا خادم البارون سكندروف ثم صـــار خادماً عند مستر أودنفان) أن المهدى سيقضى عليها اذا التقى بها ففر من الجيش بنية أن يذهب الى المهدى لكى ينضم اليه . وكان يجهل البلاد فأخذ يجول وفى صباح اليوم التالى عثر علــيه المهديون وكانوا يوشكون أن يقتلوه ولكنه صار يجاهد بالقليل الذى يعرفه من العربية لكى يفهمهم أنه يرغب فى مقابلة المهدى فارسل مع الحرس الى الأبيض . وكان لابساً ملابس الخدم ومع ذلك توافد عليه الناس زرافات لكى يروا هذا الانجليزى الذى جاء للمهدى يرجوه فى طلب الصلح . ولما أحضر الى المهدى صار هذا يسألــه عــن التجريدة أمام الاوروبيين الحاضرين . ولم يتردد جــوستاف فى وصف الجيش أسوأ وصف وأن صفوفه خلو من الشجاعة والوفاق . وارتاح المهدى الى هذه الاخبار ، ولكن جوستاف أخبره أيضاً أن الجيش لن يسلم وانه لا بد من معركة يباد فيها عن آخره ، ودعا المهدى جوستاف الى الاسلام فاجاب وأسلم ثم وكل المهدى بــه عثمان واد الحاج خالد .

ووثق المهدى من الظفر الى حد أنه وضع المنشورات العديدة فى طريق الجيش يدعو هكس باشا الى التسليم . وبدهى أن هكس باشا وضباطه لم يجيبوه ولكن كان لهذه المنتشورات بعض التأثر

فى اولئك الذين كانوا يخافون على حياتهم . واستعمل بعضهم هذه المنشورات لاغراض وبطريقة اغتاظ منها المهدى أشد الغيظ وكان بعد ذلك يعاقب الذين نجوا من القتل بأشد العقوبات اذا علم أنهم دنسوا هذه المنشورات الملهمة بأية طريقة !!

وقبل أن يبرح هكس باشا الدويم كانت الحكومة قد أبلغته انه سينضم اليه ستة آلاف رجل من جبل تاج الله وبضع مئات من عرب الحبانية ، وكان كل يوم يتشوف لرؤية هذه القوة لكى ينشط بها جنوده الذين خارت قواهم وضعفت آمالهم . ولكن هذه القوة لم تصل اليه بل لم يصل اليه اى خبر عنها .

وعندما غادر هكس رهاد قصد الى علوية فى دار غدايات أملا فى أن يجد هناك ماء يستقى منه الجيش . وفى ٣ نوفمبر وصـــل الى كشجيل التى تقع على بعد ٣٠ ميلا فى جنوبى الأبيض .



وكان المهدى فى هذه الأثناء قد حمس جنوده وأخبرهم أن النبى قد أوحى اليه أن عشرين ألفاً من الملائكة سيقاتلون الكفار مع جنوده يوم المعركة . وفى أول نوفمبر برح الأبيض قاصداً الى بركة فانضمت قواته الى جيش الأمراء الذى كان قد أرسله قبلا واخذ الجميع فى مناوشة المصريين والتضييق عليهم وكان العطش والاعياء قد فعلا فيهم فعلهما . وفى ٣ نوفمبر كان أبو أنجه والجهادية السود مختبئين فى غابة كثيفة فصبوا نارهم على قلب المصريين حتى اضطر الجيش الى الوقوف واقامة زريبة حوله وكانت الدواب والرجال هدفاً ظاهراً لا يخطئه اى رام . فكان فى كل لحظة يقع جمل او بغل أو انسان قد أعياه السير . واستمر هذا التقتيل ساعات وكل فرد من الجيش يعانى الآلام من العطش ولا يستطيع السير الى أى جهة . ولم يغادر العدو مكانه حتى الأصيل وبقى بعد ذلك يراقب الجيش كما تراقب القطة الفار . وكانت خسائر العدو قليلة فلم يقتل منهم سوى أمير أو اثنين وكان أخذهما ابن الياس باشا ولا غرابة فى قتله فقد تحمس وتهور حتى صار على قيد ذراع من الزريبة . وما أشد ما كان يعانيه هكس فى هذا الوقت . اذ بدلا من أن يجد رجاله الماء كان العدو يمطرهم رصاصاً ومع ذلك كان الماء قريباً منهم لا يبعد ميلا واحداً . ولكن لم يكن معهم احد يعرف هذه الجهات وهم لو كانوا يعرفونها لما انتفعوا بهذه المعرفة الآن لفوات الفرصة .

وفى الليل زحف أبو أنجه ورجاله ثانياً وصبوا النار طول الليل على هذه الكتلة المؤلفة من الناس والدواب وخارت قوى المصريين فكانوا يندبون حظهم قائلين « مصر فين يا ست زينب دلوقت وقتك » أما السود فكانوا منبطحين على بطونهم فلا ينالهم رصاص المصريين الذى كان يذهب فى الهواء فوقهم وكانوا يردون على المصريين بقولهم : « دى المهدى المنتظر » .

وفى صباح اليوم التالى تقدم هكس وقد خلف وراءه أكراما من القتلى وبعض المدافع التى قتل رجالها . ولكنه قبل ان يقطع ميلا هجم عليه نحو مائة ألف من المتحمسين المتوحشين الذين خرقوا الجيش ودخلوا الى القلب وحدثت عندئذ مقتلة هائلة ، ولم يحاول الثبات للعدو سوى بعض الضباط الاوروبيين والخيالة الاتراك ولكنهم هوجموا من كل جانب فقتلوا تقريباً عن آخرهم . ثم قطع رأس البارون سكندروف ورأس الجنرال هكس وحملا الى المهدى فطلب فى الحال كلوتز الذى صار اسمه الآن مصطفى وطلب اليه ان يعرفه صاحبى هذين الرأسين ولكن المهدى لم يكن فى حاجة الى التعريف فان كل أحد قد عرف أنهما قتلا وبعد هذا النصر المبين عاد المهدى وخلفاؤه الى بركة وقد اسكرهم هذا الفوز .

وكان فى ميدان القتال عدد كبير من الأمراء واتباعهم قد تخلفوا لجمع الغنائم وارسالها الى بيت المال . وقد جردت الآلاف من القتلى من جميع ملابسهم وارسلت الى بعد ذلك بمدة مذكرات فاركار وأيضا مذكرات أودنفان فقرأت كل ما كتباه وما أعظم مقدار ما قاسيته من الحزن من هذه القراءة . فقد كتب كلاهما شيئاً كثيراً عن الخلاف والشقاق فى الجيش وعن الشجار بين الجنرال هكس وبين علاء الدين باشا . وقد حمل فاركار على رئيسه حملة قاسية لأغلاطه الحربية فقد أحس كلاهما بالنكبة قبل وقوعها ، ولذلك كان فاركار يلوم رئيسه لأنه مع معرفته بالحالة المعنوية السيئة للجيش خرج به للقتال . ولم يحصل الضباط الأوروبيون على أية معرفة ولكن يظهر أن أحد الضباط المصريين المدعو عباس بك عاونهم بعض المعاونة . وأذكر أنى قرأت العبارة التالية بقلم فاركار « سألت أودنفان اليوم عن المكان الذى سنكون به بعد ثمانية أيام فأجابنى بقوله : فى العالم الآخر » .

وكانت مذكرات أودنفان مكتوبة بهذه اللهجة أيضاً . وكان قلقا بشأن فرار كلوتز ، وذكر هذا الفرار كمثال عن شعور سائر

الجنود واذكر قوله : « كيف تكون حالة الجيش اذا كان خادم أوروبى يهجره وينضم الى العدو » ويقول فى مكان آخر : « هأنذا أكتب مذكراتى وتقاريرى ولكن من هو ذاك الذى سيحملها الى وطنى » .

وبعد خمسة عشر يوماً عاد المهدى الى الأبيض ومعه الغنائم التى أودعها بيت المال . وكانت هذه الغنائم تحتوى مبلغاً كبيراً من النقود غير المدافع والبنادق ومع ذلك قد نهب العرب شيئاً كبيراً من هذه الغنائم على الرغم من العقوبات الوحشية التى كان يعاقبهم بها أحمد واد سليمان . وقد كان من المألوف أن تقطع يد السارق اليمنى وساقه اليسرى . أما الزنوج المكرة فقد سرقوا كمية وفيرة من الذخائر خبأوها فى الغابات وفى معسكرهم وأفادتهم بعد ذلـــك فوائد عظيمة .



وكان دخول المهدى الى الأبيض دخول الظافر الذى يستقبل بضروب الحفاوة الوحشية . فقد كان الناس يتراموف أمامه ويكادون يعبدونه . وليس شك فى أن انتصاره فى شيكان قد جعل السودان بأجمعه طوع أمره . فكان الأهالى من النيل الى البحر الأحمر ومن وادای الى كردوفان ينظرون الى هذا الولى ويترقبون حركاته . وكان أولئك الذين آمنوا قبلا بهدايته يستمسكون بايمانهم وينشرون نفوذه أكثر من ذى قبل . أما أولئك الذين استرابوا أولا فى دعوته فقد ثابوا الى اليقين بعد هذه الانتصارات العظيمة المتوالية . وأولئك الذين كانوا يعرفون فى قلوبهم أن هذه البدعة غش ومكر رأوا أنه يجب عليهم أن ينضموا الى المهدى مادامت الحكومة غير قادرة على تثبيت سلطتها حتى فى مديريات النيل .

وقد عرف فى هذا الوقت عـــدد كبير من الأوروبيين وبعض المصريين المقيمين فى المدن خطورة الموقف ولم يتوانوا فى الخروج من القطر السودانى أو على الأقل فى ارسال ما يخشون عليه من أمتعتهم ومنقولاتهم الى الشمال وقد أيقنوا أنه لا بقاء لهم بعد الآن فى السودان الذى بسط عليه المهدى نفوذه .

الفصـــل التاســـع

ســقوط دارفور

في ذلك الوقت كنت قد شفيت من مرضي (الدودة السودانية) وشعرت بأني أقوى على الخروج في تجريدة أخرى . ولكن عدد أتباعي المخلصين كان قد نقص نقصا سيئا وأيضا قلت ذخيرتنا .. وكان سيد بك جمعه يرسل الى بأنه غير قادر على أن يسعفني بما أطلب من الذخائر واحتج في ذلك بأن عرب الزبدية والمهرية قد بدا منهم شيء من العصيان حتى أنهم استولوا على مواشي بعض الناس المقيمين في جوار الفاشر وعندما طلب منهم ردها رفضوا .

وكانت كل آمالي معلقة الآن بنجاح جيش هكس باشا . وكان من حسن حظي أني كنت أجهل الطريق الذي اتخذه كما كنت أجهل أيضا الحالة المعنوية السيئة التي كان فيها الجيش . وكان قد مضى على الآن نحو عام لم أتسلم فيه أية رسالة من الخرطوم وكنت قد لجأت الى الحيلة لكي أحتفظ بحماسة رجالنا فادعيت بأنه جاءتني أخبار عن انتصارات الحكومة . وقد أذعت هذه الأخبار في شكل رسائل ملفقة قرئت علنا على الجيش وقوبلت باطلاق المدافع وهتاف الجنود . والحقيقة أني أنا الذي لفقت هذه الأخبار . ومن الحق أن أقول أني تسلمت في هذا الوقت رسالة صغيرة من علاء الدين باشا يقول فيها أن الخديو قد عينني قائدا عاما لجيوش دارفور وأن

الحكومة قد عزمت على ارســـال قوة لمعاقبة الثائرين وأرسلت نسخا عديدة من هذه الرسالة الى الفاشر وكبكبيه وأمرت باذاعتها بين الجمهور واطلاق النار عند قراءتها . واحتفلت بمقدم حامل هذه الرسالة احتفالا كبيرا وأثقلته بالهدايا . وأعلن أمامنا أنه عندما غادر الخرطوم كانت الحكومة تهيىء التجريدة التى قال عنها انها لابد منصورة وكان الواقفون على الحالة مترددين فى تصديق هذه الأقوال ولكنهم سروا مع ذلك لهذه الأخبار .

وبعد أيام قليلة عاد الى خالد واد امام الذى كنت أرسلته الى كردوفان ليأتينى بصحيح الأخبار وأفضى برسالة شفوية من زوجال يقول فيها ان الحكومة تهيىء تجريدة لمقاتلة المهدى . ولكن بعد أيام قبض على رجل قريبا من شقة ومعه خطاب من خالد للمادبو يطلب منه أن يستعد للقائه قريبا لكى يساعده فى اتمام مشروع . فلم يبق عندى شـــك فى أن خالدا قد انضـــم الى زوجال وصار خادمه المخـــلص .

وللحال أمرت بالقبض على خالد واحضاره الى فاعترف بأن زوجال قد أمره بأن يأخذ زوجاته الى مكان مأمون خارج عن منطقتى وأن يحضر زوجتين منهن اليه فى كردوفان وهذا هو سبب كتابته تلك الرسالة للمادبو .

فأمرت بالقبض على أسرة زوجال وتقييد خالد ثم استصفيت أملاكهما وضممتها الى بيت المال وأقمت حراسا على أملاك المقبوض عليهم الآخرين .

وصارت الصعوبات تتكاثر على يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة . ولم أكن لأبالى كثيرا بخيانة زوجال فقد كنت دائم التوجس

منه قليلا ولكنى قلقت قلقا شديدا للأخبار السيئة التى جاءتنى عن تجريدة هكس .

وكان وقتى مقسما بين ذهابى وايابى من القتال فى قمع الفتن التى أخذت فى الانتشار بسرعة مدهشة . ففى أحد الأيام أخرج لمنازلة المادبو وبعد يوم أخرج لقمع فتنة بها رئيس آخر ثم جاءتنى فى أحد الأيام أخبـــار هزيمة دارهو أمام الميما . فاقترحت على الضـــباط اخـــلاء داره وحصر قوانا للدفاع عن الفاشر ولكنهم رفضـــوا .

أضف الى كل هذا ذلك الخلاف الذى فشا بين أولئك الذين كنت أحسبهم من أخلص المخلصين لى . فان حسن واد سعد النور الذى حصلت له عن العفو فى الخرطوم كما يذكر القارىء والذى ضمنت ولاءه للحكومة وأذنت له بالاقامة فى داره والذى أعطيته منزلا بجانب القلعة وحين مات جواده أعطيته جوادا آخر والذى استخلصته لجلب الأخبار واثقا من ولائه وطاعته قد خاننى وتناسى كل هذه المروءات والافضال التى تكرمت بها عليه وركب الجواد الذى أعطيته له وذهب الى المهدى فصار من أخاص أتباعه .

وكانت المواصلات بينى وبين الخرطوم قد انقطعت منذ مدة بعيدة فان المهديين كانوا يقظين وكانوا يقبضون على أى انسان أرساله بخطـاب الى الخرطـوم وتمكنت فى احدى المرات وأنا أقاتل بنى حلبة من ارسال خطاب للقاهرة بواسطة قافلة كانت سائرة الى أسيوط فى طريق الأربعين .

ولكن طرق تخبئة الرسائل التى اتبعتها الى الآن كانت قد عرفت فلم يعد فى الامكان استعمالها . ومن هذه الطرق وضع

الرسالة بين نعلى الحذاء أو بين أديمى المزادة أو في قصبة الرمح .

وكنت في أحد الأيام أنظر في شئون القلعة فرأيت الجنود يعالجون حمارا به عرج في ساقه الأمامية . فألقوه على الأرض ثم فتحوا في جلده على الكتف فتحة أدخلوا فيها خشبة صغيرة ثم حزوه تحزيزات وذروا النطرون على الجروح وأخرجوا الخشبة . فخطر في بالى أن أرسل رسالة تحت جلد حمار بهذه الطريقة الى الخرطوم وانتخبت حمارا طيب الجرم ثم أدخلته منزلى حيث لا يرانا أحد وكررت هذه العملية ووضعت في الفتحة التى فتحتها مذكرة صغيرة لففتها في مثانة جدى ولم يكن حجم هذه الرسالة يزيد على طابع بريد ثم خطت الجرح بخيط من الحرير ونهض الحمار بعد ذلك كأن لم يكن به شيء . وأخبرنى الرجل الذى ندبته لارسال هذه الرسالة بأنه سلمها لعلاء الدين باشا في الشط قبل أن تقوم التجريدة بيوم أو يومين الى الأبيض . وأنه أخبر الرسول بأن الرد غير ضرورى وأنه سيصحبه الى الأبيض حيث يرسله من هناك الى بخطاب .

وكانت حالتنا من حيث المدخر من الذخائر سيئة جدا فان مجموع ما كان لدينا من الخراطيش لم يكن يزيد على ١٢ علبة لكل بندقية فاذا غامرنا بقتال فان نصف هذه الكمية يذهب في أول معركة . ولم يكن هناك أمل بالاسعاف فأخذت أفكر في أحسن طريقة للثبات بدون أن نفقد ذخيرتنا القليلة . واضطررت لذلك الى أن ألجأ الى الحيلة كسبا للوقت .

فوسطت بعض العرب الموالين لنا لكى يفاوضوا الثائرين ويقولوا لهم اننا مستعدون للتسليم ولكن لا يمكننا أن نسلم لهم

اذ لا ثقة لنا فيهم بعد قتالنا المتواصل مدة طويلة ، ولذلك اذا أرسل المهدي رسوله فاننا نسلم له البلدة وحكومة المديرية .

وكنت في هذه الانتظار أتسقط الأخبار عن حملة هكس وأحسب المدة التي يجب أن تصل في نهايتها الى الأبيض حيث يقاتل الفريقان وتقع الوقعة الحاسمة . وكنت أختلف الى السوق وأتحادث مع الأهالي عن الأحوال وكان كل أحد يعرف أن جيشا عظيما قد أنفذ الى الأبيض ولكن لم يكن أحد على يقين من النتيجة .

وأخيرا حوالي آخر نوفمبر شاعت الاشاعات عن هزيمة الجيش وكان على هذه الاشاعات مسحة الصدق ولكننا مع ذلك تعلقنا بالشك ولكن بعد يوم أو يومين جاءنا الخبر الأكيد بأن الجيش المصري قد اصطلم . فانسدل علينا الغم جميعا لهذا الخبر . وهكذا قضي علينا بعد هذه الشدائد والخطوب أن نقع في يد العدو وقد سدت دوننا أبواب النجاة . ولكن هل بقي بصيص من أمل بأن الأخبار قد بولغ في رواياتها ؟

لقد كان عندنا هذا البصيص ولكنه انطفأ فجأة اذ علمنا أن زوجال قد وصل الى أم شنجه وأن المهدي قد عينه « مدير عموم الغرب » .

وفي ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٣ جاءني الرسـول الذي كنت أرسلته الى المهدي وكان لابسا جبة فروى لي خبر الهزيمة المنكرة التي نالت الجيش وناولني خطابا من زوجال يطلب مني فيه التسليم ويخبرني عن هزيمة المصريين ولكي يثبت لي هذه الهزيمة أرسل الي بعض تقارير الضباط ومذكرات فاركار وأيضا مذكرات أودنفان .

وفي المساء جاءني فرج أفندي وعلى أفندي الطوبجي ضابط المدفعية وأخبرني بأن الضباط قد قرروا التسليم للمهدي لا لزوجال بك • وقد أوضحوا الأسباب التي ألجأتهم الى هذا القرار فان كل واحد منهم قد اقتنع تمام الاقتناع بأنه لا سبيل الآن للحكومة أن تنقذهم وأن الجيش في داره لا يزيد على خمسمائة وعشرة رجال ومنهم عدد كبير لا يصلح للقتال • وان الحالة المعنوية للجيش منحطة ، ولا أمل في الحصول على أي انتصار وأن الذخائر لا تكفي معركة واحدة سواء كنا مدافعين أو مهاجمين . وقالا لي أيضا انه لا يمكنني أن أسوم الجيش على القتال لأن الجميع قد عزموا على التسليم • فأخبرتهما بأني سأفكر في هذا الموضوع وأخبرهما في صباح اليوم التالي عن رأيي الأخير •

وفي تلك الليلة لم تغمض عيناي • فجعلت أتحسر وأندب هذا الحظ الذي يقضي علينا بعد معاناة الشدائد والأهوال بأن نسلم ونخضع . ثم بعد الخضوع ماذا خبأه القدر لنا ؟

وعرضت الحالة من البداية الى النهاية وأنا في هذا السهاد . لقد مضى على أربع سنوات وأنا أجاهد لتثبيت الحكومة ومقاومة الفتن الداخلية التي قمعتها ثم مقاومة حركة المهدي التي دخلت الى أصول الادارة وفشت فيها كالسوس وأخذت تتآكلها وتسري فيها من الغصون الى الأوراق حتى ذبلت وجفت •

والخلاصة أن هذه الدعوة المهدية قد تغلغلت الى قلوب الضباط والجنود فقد كانوا قبلا ينصبون لها العداء ويكافحونها لأني كنت ألوح أمامهم بقوة الحكومة وعودة سلطتها بنجاح حملة هكس وبالفوائد التي تعود عليهم اذا ثبتوا على الولاء الى حين يهزم الجيش المهدي • وكنت أجهد جهدي لكي أثبت للجنود والضباط ضرورة

فوز الحكومة فى النهاية ولكن جاءت هذه الهزيمة المنكرة فانقطع كل أمل • وقد كافحت الدسائس من الداخل والخارج • والقارىء يعرف مبلغ النجاح الذى نجحته فى ذلك • وكان يمكننى بواسطة الكمية القليلة من الذخائر التى لدى أن أقاتل بضع ساعات ولكن هل كان من المتيسر أن يخضع لى الضباط والجنود فى مثل هذا القتال ؟ فقد ذهبت رغبتهم فى القتال ولم يعد لى حق فى أن أجبرهم على أن يضحوا بأنفسهم فى قضية لم يعودوا يبالون بكسبها •

وبعد أن عرضت الموقف من جميع جوانبه تبين لى أن التسليم ليس فقط أسلم السبل بل هو السبيل الذى لا مفر منه • وبعد أن قررت فى ذهنى هذا القرار عدت الى الوجه الشخصى للمسألة • فانى باعتبارى ضابطا كنت أمقت هذا التسليم • ولم أكن أخشى شيئا أو أخاف على حياتى • وكنت واثقا بأنى اذا سئلت عن مسلكى فى المستقبل يمكننى أن أبرر كل ما عملته •

ولكن لفظة التسليم نفسها كانت كريهة وكان يكرهها أكثر فى نظرى أنى أوروبى مسيحى وأنى سأكون بين آلاف من السودانيين كل منهم ينظر الى كأنى دونه فى المقام • صحيح أنى أسلمت وتركت دينى ، ولكنى لم أفعل ذلك الا لكى أهدىء ثائرة الضباط والجنود على وقد نجحت فى غايتى أكثر مما توقعت ولكن هذا العمل لم يكن وفق مزاجى • ولم أكن أدعى فهم الآراء الدينية بدقة تخولنى الحكم على صلاح عملى أو فساده ولكنى كنت فى قرارة قلبى مسيحيا مثل جميع المسيحيين الذين أعرفهم • وعلى ذلك لم أكن أستمرىء الظهور بمظهر ادعاء الاســـلام • دع عنك أنى كنت أعرف أن تسـليمى سيضعنى فى يد هذا المصــلح الدينى السخيف (المهدى) وأنى سأضطر لذلك ألا أظهر فقط بمظهر المسلم العادى بل بمظهر المؤمن بالمهدى المتحمس لدعوته •

فهل يمكن لأحد أن يعتقد أنى كنت انظر للمستقبل بعين السرور ؟ ومع ذلك يجب أن أعترف بأن هذه الاعتبارات الدينية لم يكن لها فى نظرى وزن يعادل تلك الاعتبارات الأخرى عن تأدية واجبى • وعلى وجه العموم اقول أنى شعرت بأنه قد يحتم على الآن أن أسلم وأن أحقن الدماء التى لن تجدى اراقتها شيئا • ولم يكن هناك سبب يدعونى الى الخضوع للذل والهوان وما يشبه الرق بعد التسليم • فقد خطر لى أن أنتحر ولكن نفسى ثارت على هذا الخاطر ، فقد كنت فى شبابى وقد مضى على أربع سنوات كلها تبعات ومجازفات ولم آكن أشتهى أن تختم حياتى وأنا فى هذا العمر حتى مع انتظار تلك الأيام السود القادمة وقد من الله على برحمته وأبقانى فى تلك الحروب المتوالية وهو لابد يبقينى حتى أعود فأخدم تلك الحكومة التى حاولت أن أخدمها فى الماضى بولاء وأمانة •

هذه هى الخواطر التى كانت تساورنى عندما بدأ شعاع الفجر يقشع الظلام فى تلك اللحظات التى لن أنساها فى حياتى • وانتهيت بعد التفكير الطويل الى أنه لم يبق لى سوى التسليم وأن أرضى بأن أكون محكوما لأولئك الذين كنت أحكمهم وأن أخضع لأولئك الذين كانوا يخضعون • ويجب فوق كل هذا وذاك ان أكون صبورا • واذا مارست هذه الخلائق فى نفسي ورضتها عليها وحقنت دمى بها ونلت بعد ذلك حريتى فان هذه التجارب ستفيد بلا شك الحكومة التى أخدمها • ونهضت من فراشى وأنا على هذا العزم ولبست ملابسى الرسمية لآخر مرة اذ استبدلت بها بعد ذلك جبة المهديين التى مثلت فيها دورا جديدا فى حياتى • ومع ذلك فقد كان يخفق تحت الجبة قلب كله ولاء للحكومة وكله عزم على الاستفادة من هذه التجاريب اذا أذن الله بالعودة • ورأيت أن المسألة ستتلخص بينى وبين هؤلاء الأسياد الجدد فى أينا يتغلب ذكاؤه على الآخر • ولم أجبن عن هذا الكفاح المنتظر مع أنى لم آكن فى حاجة الى الاعتذار

والتبرير لو أنى جبنت اذا اعتبرت السنين الطوال التى قضيتها فى الأسر- وفى الحياة المزدوجة التى اضطررت الى الظهور بها ٠

وفى صباح اليوم التالى حضر الى الضابطان فعرضت عليهما خطاب زوجال الذى يطلب فيه منى التسليم وأن أقابله فى ٢٣ ديسمبر فى حلة الشعيرية حيث يسلمنى بيده خطاب المهدى الى ٠ ومما كتبه الى زوجال أيضا أنه يضمن حياتى وحياة جميع من معى من الرجال والنساء والأولاد ٠

ثم طلبت الكاتب وأمليت عليه خطابا لزوجال أعلنت فيه خضوعى وخضوع الحامية واتفقت على مقابلته فى ٢٣ ديسمبر عند حلة الشعيرية وسلمت هذا الخطاب لرسول يقوم به لايصاله الى زوجال الذى صار اسمه الآن سيد محمد ابن خالد ٠

وفى أصيل الغد جمعت الضباط وأخبرتهم بأنه لما كانت المقاومة غير مجدية فقد قبلت اقتراحهم عن التسليم ٠ ولكنى سأغادر داره فى هذا المساء لكى أقابل زوجال فى حلة الشعيرية وانى سآخذ القاضى معى ، أما الضباط فسأتركهم مع الحامية ٠ ثم شكرتهم بكلمات قليلة كانت شجى فى حلقى لولائهم واستعدادهم للتضحية بأنفسهم فى سبيل خدمة الحكومة وطاعتهم لى ، ثم ودعت كلا منهم باليد واحدا بعد آخر وودعت الموظفين المدنيين جملة وشرعت فى السفر ٠

وكنا فى منتصف الليل حين خرجت مع القواصين من داره ٠ وقد لاقيت المشاق فى سفراتى الماضية وأنا بدارفور ولكن هذا السفر كان أشق ما احتملته فقد كنا جميعا غارقين فى تأملاتنا المحزنة حتى لم ينطق أحدنا بكلمة ٠ وعند الغروب استرحنا قليلا

ووضع الخدم الطعام أمامنا ولكننا لم نمسه اذ لم تكن لنا شهوة للطعام ثم استأنفنا السير ولما اقتربنا من حلة الشعيرية بعثت ياورى لكى يتقدمنا ويرى هل حضر زوجال أم لا • وعاد الينا فى الحال وأخبرنا بأنه هناك ينتظرنا منذ الأمس وبعد مدة قليلة بلغنا المكان فوجدناه واقفا وترجلت وتقدمت اليه لكى أحييه فضمنى الى صدره وأكد لى صـــداقته ورجانى أن أقعد ثم سلمنى خطاب المهدى • ولم يكن فى هذا الخطاب سوى تعيين زوجال أى سيد محمد بن خالد حاكما على الغرب وأن المهدى قد عفا عنى وأوصى بمعاملتى بالاكرام الذى يليق بمنصبى وأن يعامل سائر موظفى الحـكومة السابقة باللطف والكرم • وبعد أن انتهيت من قراءة الخطاب قال لى زوجال ان المهدى انما عفا عنى للشهادة الطيبة التى شهدها فى حقى عنده ، وأنه سيقدم لى كل معونة . فشكرت له عطفه . ثم قدم الى الأمراء والطبيب حسن نجومى وقد كنت قابلتهم ســـابقا • ثم تناولنا الطعام وأخبرنى زوجال أنه ينوى السفر الى داره •

وبينما كنا نتحادث وصل الينا أحد ضباطى محمد آغا سليمان فلما رآنى لم يكترث لى أقل اكتراث بل ذهب الى زوجال وحياه تحية الحفاوة المبالغ فيها • فتذكرت أنه كان قد اتهم مع اثنين آخرين بأنه جاسوس زوجال • .

وأخذنى محمد (زوجال) وتنحى بى قليلا وخاطبنى فى شأن أقاربه وأسرته • فأخبرته بأن الجميع فى صحة جيدة وأن أقاربه لا يزالون معتقلين • ووافقنى على الاجراءات التى اتخذتها وقال انها أفادتنا نحن الاثنين • ثم قمنا وسرنا الى داره وقضينا الليلة فى الخيام قريبا منها ووافانا هناك عدد كبير من الأهالى والموظفين وكلهم قد لبسوا ملابس الدراويش وحيوا الوالى الجديد •

ولم تغمض عيناى فى تلك الليلة وكانت ليلة عيد الميلاد فتذكرت أهلى وأعياد الكنائس البهيجة التى يحتفل بها فى وطنى فى ذلك الوقت فى حين أجدنى هنا وحيدا مهزوما مضطرا الى تسليم رجالى وذخائرى الى العدو • وفى تلك الساعات الهادئة التى كانت أحفل ساعات حياتى حزنا وغما أخذت أعرض أمام ذهنى كل ما جرى لى فتحققت عندئذ أن أولئك الذين قتلوا فى ميدان الشرف كانوا أحسن حظا منى •

.

وفى الغد استقبل زوجال جميع الذين جاءوا اليه لكى يقدموا اليه طاعتهم وولاءهم ثم احتل الدراويش القلعة فتم له بذلك احتلال المديرية وتوافد عليه الأهالى لكى يقسموا له يمين الولاء للمهدى وفى النهاية عرض الجيش وأدى هذه المهمة نفسها •

.

ولقيت هنا المادبو الذى كان قد لحق بعبد الصمد فى برنجل فشيعنى الى المنزل وطلبت منه أن يقعد فقال :

.

« يبدو عليك كأنك مغتاظ منى وكأنك تعتقد أنى خنتك ولكن أصغ الى : لقد فصلنى ميليانى من وظيفتى باعتبارى رئيس المشايخ • فذهبت الى بحر العرب حيث طلبنى المهدى ولما كنت مؤمنا مسلما اتبعته فسمعت عظاته وتحققت من قداسة رسالته وحضرت هزيمة يوسف شلالى وانتصار رجال المهدى عليه انتصارا مدهشا فآمنت بدعوته ومازلت كذلك للآن • وقد وثقت أنت بالطبع بقوتك وأبيت أن تسلم بلا قتال • وعلى ذلك تحاربنا ولكنى لم أكن أقاتلك أنت شخصيا وانما كنت أقاتل الحكومة والله يعلم ما نسيت قط أنك كنت تنظر الى نظرة الصداقة فدعك من الغضب وكن أخا لى » •

.

فقلت : « لم أغضب لما فعلت فانك واحد من الآلاف ولو كان فى قلبى غيظ فان كلماتك قد أزالته » ·

فقال المادبو : « أشكرك وأدعو الله أن يقويك وأن يرعاك فى المستقبل كما رعاك فى الماضى » ·

فقلت له : « انى أضع ثقتى فى الله · ولكننى أجد من المشقات أن أتحمل ما أنا فيه · وان كان لا بد من تحمله » ·

فقال : « كلا · كلا · أنا عربى ولكن اسمع ما أقوله لك · كن مطيعا صبورا · عليك بالصبر فقد قيل ان الله مع الصابرين »·

والآن أخبرك أنى جئت اليك لكى أطلب منك شيئا وهو أن تقبل منى جوادى عربونا للصداقة بينى وبينك · وأنت تعرفه وهو « صقر المجاج » ·

وقبل أن أجد الوقت للاجابة غادرنى وبعد دقائق عاد ومعه جواده وكان من أجمل وأكرم خيول القبيلة ثم سلمنى رسنه· فقلت له « لست أقصد اهانتك برفض هديتك ولكننى أخبرك أنه لم تعد لى به حاجة وانى لن أركب كثيرا فى المستقبل » .

فقال : « ومن يدرى · الى عمره طويل بيشوف كتير · فانت مازلت شابا وستركب كثيرا ان لم يكن هذا الجواد فجواد آخر » ·

فقلت : « قد يكون ما تقول هو الصواب ولكن هل تقبل منى انت أيضا هذه الهدية ؟ » ·

قلت ذلك وأشرت الى طبول الحرب التى كنا غنمناها منه · وأخذها خادمى وسلمها له ووضعت على الطبول سيفا آخر قدمته

آيضا هدية منى وقلت : « لا تزال هذه الأشياء ملكى اليوم ولذلك يمكننى أن أهديها اليك . أما فى الغد فلا أعرف من يملكها » .

فقال : « انى أشكرك وأنا أتقبلها بكل سرور . لقد غنمها رجالك منا ولكن العرب تقول : « الرجال ستراده وراده . وهذا حق . فكم من مرة قاتلت وفررت ولكنى كنت أعود فأكر وأنجح » .

وأمر المادبو رجاله بحمل الطبول وخرج وهو مسرور ورقد أثر حديثه فى وتذكرت كلامه عن الصبر وان « اللى عمره طويل بيشوف كتير » .

وفى صباح الغد أمر الحاكم الجديد الأهالى بالخروج من منازلهم ثم فتش هذه المنازل وأرسل ما بها الى بيت المال . وكل من اشتبه فى حيازته مالا كان يجلده بلا رحمة أو تقييد قدماه ويربط الى حائط ورأسه مدلى حتى يغمى عليه . وكنت أناقش وأحاج ولكن خالد لم يكن ليثنيه كلامى .

ثم أخذ خدم الموظفين من رجال ونساء وقدموا للمهدى ولكن الفتيات الوسيمات احتفظ بهن للمهدى .

وبعد سبعة أيام من تسليمنا أخبرنى خالد أن سيد بك جمعه قد أرسل كبار الموظفين مع عمر واد دارهو لكى يعرضوا تسليم المدينة ولذلك قر رأيه على أن يسافر بنفسه الى الفاشر ولكنه عندما اقترب من المدينة كان الأهالى قد سمعوا بسوء معاملته لأهالى داره فقرروا عدم التسليم واضطر الدراويش لذلك الى حصار المدينة وفتق المحصورون فتوقا عديدة فى القوة المحاصرة ولكن الأهالى بعد ١٥ يوما من الحصار سلموا المدينة فدخلها خالد ومثل هناك الفصول

المروعة التى مثلها قبلا فى داره بشكل أقسى ، وعذب عددا كبيرا من الناس تعذيبا وحشيا •

وكان بين المعذبين ضابط يدعى حماده أفندى وقد طولب بما عنده من المال فأصر على أنه لا يملك شيئا وكانت احدى امائه قد أخبرت عن وجود مقدار من الفضة والذهب عنده،ولكنها لا تعرف مكانها فأحضر أمام خالد الذى قال له انه كلب كافر • فلم يقدر حماده أفندى على ضبط نفسه ورد على خالد قائلا انه دنقلاوى سافل • وهاج خالد لهذه الاهانة وأمر جنوده بجلد حمادة أفندى حتى يعترف بمكان المال • ومضت ثلاثة أيام وهو يضرب كل يوم ألف سوط ولكن بلا أدنى فائـــدة ولو كان حجرا لما تحمل هذا الضرب كما تحمله • وكان كلما سأله الجلادون عن ماله يجيبهم قائلا : « أجل عندى أموال ولكنها ستدفن معى » •

وأمر خالد بوقف الضرب ثم سلم هذا المسكين لعرب الميما لكى يحرسوه • وقد دهش عرب الميما أنفسهم لجلد هذا الرجل الذى لم يلن عوده أمام هذا التعذيب •

وخشى ابراهيم نجلاوى الجلد فسمع أحـد الأمراء يدعـونه بالعبد فقتل فى الحال زوجته ثم أخاه ثم انتحر • وانتحر أيضا أغافولا مؤثرا الموت على التعذيب • فلما رأى خالد ذلك أمر بوقف الجلد واكتفى بنفى المصريين فى أماكن متفرقة قريبة من المدينة •

وبعد سقوط الفاشر طلبنى خالد لكى ألحقه فبلغتها فى أوائل فبراير فأعطانى منزل سيد بك جمعه لكى أقيم فيه وأذن لى فى طلب خيولى وخدمى من داره . أما أمتعة البيت فيجب تســـليمها لبيت المال على سبيل الزهد فى الدنيا •

فنفذت كل هذه الأوامر وسلمت جميع أثاث المنزل لبيت المال ليد جابر واد الطيب ولم أحتفظ الا بالأشياء الضرورية للحاجات اليوميـة ٠

وكنت قد سمعت عند وصـولى عن شجاعـة حماده وجلده فبحثت عنه ووجدته فى حالة مروعة ٠ فقد كانت جروحه من كتفيه الى ركبه واسعة متهرئة وكان الموكلون بتعذيبه يذرون عليها الملح والفلفل لكى يستخرجوا منه وهو فى هذه الآلام اعترافا بمكان أموالـه ٠

ولكن كل هذا التعـذيب لم يكن ليحـدوه الى الاعتراف ٠ فذهبت وأنا يائس الى خالد وأخبرته بحالة هذا المسكين ورجوته أن يسمح لى بنقله الى منزلى لكى أعالجه ٠ فقال خالد لى « انه رجل ماكر أخفى أمواله وأهاننى علنـا ولهذا يستحق أن يموت موتـة شـنيعة » ٠

فقلت له : « أرجوك بحق الصـــداقة القديمة أن تعفو وتسلمه لى » ٠

فقال : « حسنا ٠ أفعل ذلك اذا ركعت أمامى » ٠ والركوع فى السودان علامة الهوان العظيم فشعرت بالدم يصـبغ وجهى ولو أنى دعيت الى هذا العمل لكى أنجى حيـاتي لما قبلت ولكنى رضيت بهذه الفضـيحة لكى أنجى هذا الرجـل التعس من آلامه المروعة ٠ وترددت لحظة ثم ضبطت نفسى وركعت ووضعت يدى على قدميه العاريتين فرفعهما وكأنه خجل مما طلب منى وأنهضنى وقال : « سأغفر عن حماده لأجلك ولكن عدنى بأنه اذا أخبرك عن أمواله أن تبلغنى » ٠

فوعدته بذلك وأرسل معى رجلا الى حمده فهتفت بالخدم وحملناه على عنجريب ونحن نرفق به كل الرفق الى منزلى ثم غسلنا جروحه ونصحناها بالزبدة لكى تخفف آلامه ولم يكن من الممكن أن يعيش كثيرا وقدمت له حساء فطفق يلعن أعداءه بصوت خافت ٠ وبقى فى منزلى أربعة أيام ثم طلب منى أن أقعد بجانب فراشه وأشار الى الخدم بالخروج ٠ ثم همس الى كلمات لا أكاد أسمعها وقال : « لقد حان حينى ٠ والله يجازيك الجزاء الحسن على ما أسديته الى من رأفة وشفقة . ولست أستطيع مكافأتك ولكنى اريد أن أظهر لك اعترافى بجميلك لقد خبأت أموالى » ٠

فصحت به : « قف هنا ٠ هل تريد أن تخبرنى عن مكان أموالك ؟ » ٠

فقال نعم « لعلك تستفيد منها » ٠

فقلت : كلا ٠ لن أستفيد منها ٠ فقد جئت بك هنا على شرط أن أخبر خالد بالمكان الذى أخفيت فيه أموالك اذا علمت ذلك ٠ وأنت قد تألمت وقاسيت كثيرا وتوشك أن تفقد حياتك لاصرارك على اخفاء أموالك ومنعها من أن تقع فى يد أعدائك ٠ فدعها اذن فى الأرض حيث هى فستبقى صامتة » ٠

وكنت وأنا أتكلم قد أخذ حماده يدى فى يده فقال :

« شكرا لك . الله يغنيك عن أموالى . الله كريم » ثم مد ساقيه وذراعيه ورفع سبابته قليلا وقال :

« لا اله الا الله محمد رسول الله » وأغمض عينيه وأسلم روحه ٠

وتأملت فى هذه الجثة الممزقة فامتلأت عيناى بالدموع وتساءلت : كم بقى لى من السنين أتحمل فيها الآلام حتى أرتاح هذه الراحة الأخيرة • ثم ناديت الخدم وأمرتهم باحضار رجلين صالحين لغسل الجثة ولفها فى قماش وذهبت أنا الى خالد لكى أخبره بموته • فقال لى :

« ألم يخبرك عن مكان أمواله » •

قلت : « كلا • فان الرجل قد تصلب فلم يفش سره » فقال : « لعنة الله عليه • ولكن بما أنه مات فى بيتك فادفنه وان لم يكن يستحق الدفن وكان أجدر بنا أن نلقيه كالكلب على التل » •

فتركته وذهبت الى منزلى حيث دفنا حماده أمام المنزل بعد الصلاة المعتادة •

وكان خالد غاية فى الخبث والدهاء يقسو على موظفى الحكومة السابقين ويساهل الأهالى بلا داع ، وكان يضع قرابته فى الوظائف وكان مع اجتهاده فى أخذ أموال الأهالى يتجنب كل ما من شأنه أن يحدث استياء عاما • وكان يحتفظ لنفسه بمعظم الايرادات ويرسل من وقت لآخر هدايا للمهدى والخلفاء وكانت هداياه عدة فتيات وسيمات أو بعض خيول عتيقة أو بعض الجمال وذلك لكى يبقى محمود الذكر عند مولاه وولى نعمته •

وكان منزله حافلا بالضيوف والولائم • وقد تزوج مريم عيسى باصى أخت سلطان دارفور مع أن عمرها كان فوق الخمسين . وكان لهذه السيدة حاشية مؤلفة من المئات من العبيد والاماء على الطريقة السودانية ولم يخطر ببال خالد أنه يجب عليه أن يمارس فضيلة انكار النفس بعض الشىء كما يأمر المهدى • وكان يأمر كل مساء

أن تصف مئات الأطباق والقفع المحملة بمختلف الأطعمة لأتباعه الذين كانوا يقعدون تحت النخيل فيذكرون مدائح المهدى ولا ينسون ذكر الأمير خالد من وقت لآخر .

وحوالى هذا الوقت جاءنى خطاب مطول من القاهرة بواسطة مدير دنقلة حمله الينا عربى موثوق به . وفى الخطاب أمرنى بحصر قوات فى الفاشر وأن أسلم المديرية لعبد الشكور بن عبد الرحمن شطوط وهو من سلالة سلاطين دارفور ثم على بعد ذلك أن أخرج بالجيوش والذخائر الى دنقلة . ولكن هذا الأمير الذى ذكر لى فى الخطاب كان لايزال فى دنقلة غير قادر على المجىء الى الفاشر ، وأنا أشك فيما اذا كان وصوله يغير أو يبدل فى الحالة ولم يكن من الممكن حصر قوات الفاشر بالنسبة لروح التمرد الذى فشا بين الجنود ، ولو كان فى قدرتى أن أجمع الجنود وأذهب بها الى الفاشر لما كان حينئذ ثم حاجة الى هذا الأمير . فان الحكومة كانت تجد فى الأمانة والكفاية أكثر مما تجد فيه . وأطلعت خالد على هذا الخطاب وأذن لى أن أكتب خطابا لأحد الأهالى يحمله هذا العربى الذى جاء من دنقلة فكتبته ولكنى لا أظن أنه وصل الى من أرسلته اليه .

وجاءتنا أخبار فى هذا الوقت تنبىء بسقوط بحر الغزال الذى كان يتولاه لبتون بك وأنفذ المهدى اليه الأمير كرم الله لكى يتولى حكومته . وكان لبتون بك قد اضطر الى التسليم لأن جميع اخوانه تركوه فسلم المديرية بلا قتال فى ٢٨ ابريل سنة ١٨٨٤ ولو لم يهجره أعوانه لتمكن لبتون بك بواسطة قبائل الزنوج من الاحتفاظ بالمديرية ورد غارات المهدى عنها جملة سنوات .

ورغب خالد فى أن يرافقنى سيد بك جمعه الذى كان لا يزال مقيما فى القبة وقد قبلت مرافقته على الرغم من دسائسه السابقة • وأيضا طلب أحد التجار اليونانيين مرافقتى فلم يعارض خالد وكان اسم هذا اليونانى ديمترى زيجاده •

وحوالى منتصف شهر يوليو غادرنا الفاشر أنا وزيجاده وكان معنا حرس مؤلف من عشرة رجال وبلغنا الأبيض بعد سفر شاق فتلقانا السيد محمود حاكم المهدى بلا حفاوة ، وأمرنا بأن نسافر فى اليوم التالى الى رهاد حيث يقيم المهدى •

الفصل العاشر

حصار الخرطوم وسقوطها

لما هزم المهدى هكس باشا وأباد تجريدته تحقق أن السودان كله قد صار عند قدميه • ولم تكن مسألة الاستيلاء على الخرطوم سوى مسألة وقت • وكان أول أعماله عندئذ أن أرسل قريبه خالد الى دار فور حيث كان يعرف أنه لن يجد أية مقاومة • وبواسطة كرم الله استولى على بحر الغزال وكل ما حدث أن حول الموظفون ولاءهم للخديو اليه • وكان مك آدم قد خضع وجاء هو وأسرته وسكن الأبيض • ورسخت المهدية فى شرقى السودان ووجدت وطنا معدا لها بين العرب الشجعان النازلين هناك • وأبيدت الجيوش المصرية فى سنكلت وطمانيب وكانت نكبة الجنرال بيكر قد زادت ثقة العرب بأنفسهم وكان مصطفى حوال يحاصر كسله •

أما فى الجزيرة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق فان صهر المهدى واد البصير هزم الحكومة عدة مرات • وقد كانت هذه حالة البلاد عندما وصل غوردون الى بربر فى ١١ فبراير سنة ١٨٨٤ •

وكانت الحكومة المصرية باتفاقها مع الحكومة الانجليزية قد قر رأيهما على ارسال غوردون للسودان اعتقادا بأن معرفتـه البلاد تسكن الفتنة • ولكن الحقيقة أن هاتين الحكومتين وغوردون

نفسه كانوا يجهلون خطورة الحالة فى السودان • فهل كانت الحكومتان تظنان أن غوردون لشجاعته الشخصية واشتهاره بالرفق بالفقراء فى دار فور يستطيع أن يوقف تيار التعصب ؟ وهل كان نفوذ غوردون يمكنه من تهـدئة عرب الجعالين النازلين بين بربر والخرطوم وفى الجزيرة ؟

لقد كان عكس ذلك هو المنتظر فان الحاكم الذى أمر بطرد الجلابة من الجنوب فى حرب الزبير كان خليقا بأن يكرهه عرب الجعالين لا أن يحبوه . فان أمر غوردون بطرد الجلابة قد أفقد عددا كبيرا من الجعالين من آبائهم أو اخوتهم أو أقاربهم ولم يكونوا ينسون أن غوردون هو السبب فى كل ذلك •

وفى ١٨ فبراير وصل غوردون الى الخرطوم فتلقاه الناس والموظفون بالبشر والحماسة وكان المتصـــلون به والمتنفعون منه يعرفون أن الحكومة لن تترك مثل هذا الرجل وحيدا بلا معونة • وكان أول ما عمله أنه أذاع منشـورا بتعـيين المهدى حاكما على كردوفان والاذن بالنخاسة والرق واقترح الدخول فى مفاوضات مع المهدى وطلب منه الافراج عن الأسرى وأرسل اليه هدايا من الملابس الثمينة • ولو أن غوردون أذاع هذا المنشور ومعه قوة فى الخرطوم يستطيع أن يسير بها الى كردوفان لتم له ما أراد ولكن الأخبار بلغت المهدى بأنه جاء الخرطوم وليس معه سوى عدد قليل من الحرس . ولا شـــك فى أن المهدى تعجب من غوردون كيف يمنحه بالكلام ما حصل عليه هو بالسيف.وما لا يمكن غوردون أن يسترده منه • وقد رد عليه المهدى بخطاب طلب فيه منه أن يسلم المدينة ويحقن بذلك دمه •

وكان الخليفة عبد الله يد المهـدى اليمنى • وكانت قرابة المهدى يكرهونه لهذا السبب ويكيدون له • ولكنه كان يعرف تماما

أن المهدى لا يستطيع أن يدبر الأمور بدونه • فشكا الى المهدى دسائس هؤلاء الناس وطلب منه أن يعترف فى وعظه بما قام به من الخدمات للمهدية • فأذاع المهدى منشورا لا يزال يشار اليه للآن كلما احتاج الخليفة عبد الله الى تغيير فى الحكومة أو سن قانون من جديد . وهذا المنشـــور يقضى على جميع أتباع المهدى بالطـــاعة للخليفة وأن ينظروا اليه كأنه نائب المهدى الذى يقوم بتنفيذ مشيئته •

ولما قل الماء عزم المهدى كما سـبق أن ذكرنا على الرحيـل بمعســـكره الى رهـاد وهى على مسيرة يوم من الأبيض • وحوالى منتصف أبريل تم انتقال هذه الكتلة العظيمة المؤلفة من رجال ونساء وصبيان •

وكان المعسكر فى رهاد عبـارة عن بحر طام من العشش المصنوعة من القش يمتد الى أبعد ما يصل اليه النظر وكان المهدى يقضى نهاره فى الصلاة والوعظ وسائر واجباته الدينية • وكان قد عين محمد أبو حرجه واليا على الجزيرة وأنفذه اليها مع عدد كبير من الاتبـاع وأمره بأن يرأس الثورة على الحكومة ويحاصر الخرطوم •

وهذا هو وصـف الحالة كما وجدناهـا عند وصولنـا أنا واليونانى زيجاده وسيد بك جمعه الى رهاد ، ولما اقتربنا أرسلت أحد خدمى الى الخليفة لكى يعلمه بقدومنا • ولكنه تأخر فعزمنا على الركوب اليه بأنفسنا •

واتخذنا الطريق المؤدى الى السوق وسمعنا صوت الاومبية (الطبل) التى تؤذن بمقدم الخليفة • واتفق أنى وجدت أحد أهالى دارفور فسألته عن معنى دق الطبل فقال لى : « الأرجح أن الخليفة

عبد الله قد أمر بقتل أحد الناس وهذا أمر للناس لكى يشهدوا القتـل » ·

ولو كنت من الذين يؤمنون بالتفاؤل والتشاؤم لتشاءمت من هذه المقابلة حيث يقتل انسان عند أول دخولى المعسكر · ولكن سرنا حتى بلغنا مكانا رحبا مكشوفا ورأيت خادمى ووراءه رجل آخر وكلاهما يسرع الينا · وصار بنا هذا الرجل وقال : « قفوا حيث أنتم فان الخليفة وحرسه ، قد خرجوا للقائكم وكان يظن أنكم خارج المعسكر » ·

« ووقفنا وعاد الرجل يخبر الخليفة بوصولنا · وبعد دقائق

رأينا جمعا من الفرسان وحولهم جمع آخر من المشـاة المسلحين وهم يسيرون على ايقاع الطبل · ووراء هذا الجمع رأينا الخليفة نفسـه وكان قد وقف والى يمينه ويساره صـفان من الفرسـان ينتظرون أوامره · وأمرهم الخليفة بأن يشرعوا فى رياضة خيولهم · وكانت هذه الرياضة عبارة عن أربعة من الفرسان يخرجون بخيولهم صفا واحدا ويجرون شوطا ثم يعودون أدراجهم ويكررون هذا الجرى عدة مرات حتى يضطرهم الاعياء الى الراحة وكانوا يركضون خيولهم الى مكاننا ورماحهم مشرعة حتى اذا بلغونا هزوا الرماح قريبا من وجوهنا وقالوا : « فى شأن الله ورسوله » ثم ركضوا خيولهم ثانيا الى مكان الخليفة ·

وبعد أن تكرر هذا الركض نحو نصف ساعة جاءنى أحد خدم الخليفة وأخبرنى بأن الخليفة يرغب فى أن أركض على هذا النحو اليه ، ففعلت ذلك وهززت فى وجهه الرمح وقلت : « فى شأن الله ورسوله » وعدت الى مكانى ·

فارسل الى يطلب منى أن أتبعه وبعد قليل بلغنا منزله · وساعده على النزول عن جواده خادم . أما سائر الفرسان فوقفوا

على مسافة منه ثم اختفى وراء السياج وبعد دقائق أرسل الينا يطلبنا فقادنا الخادم الى مكان فسيح داخله منزل من القش حيطاً وسقفا . وكان فيه عدد كبير من العنجريبات عليها حصر من ورق النخيل . وأمرنا بالقعود على عنجريب ثم قدم لنا مزيجا من الماء والعسل فى قرعة وبعض الملح فأصبنا منهما وانتظرنا مجىء الخليفة ودخل علينا بعد مدة وجيزة فوقفنا فأخذ يدى وضمها الى صدره وقال : « الحمد لله الذى جمعنا . كيف حالك فى هذا السفر الشاق ؟ » .

فقلت : « شكرا لله الذى أبقانى حتى أرى هذا اليوم . لقد ذهب عنى تعبى عندما رأيت طلعتك » .



وكنت أعرف أن سبيل الحصول على مكانة ما لديه هو تمليقه.
ثم أعطى يده لسيد بك ولديمترى فقبلها كل منهما وسألهما عن حالهما . وصرت أتفرس فيه فرأيت أن لون وجهه هو السمرة الخفيفة ووجهه عربى عليه مسحة من الرقة ، وكانت لاتزال آثار الجدرى بادية فيه وكان أنفه منقاريا وفمه حسن عليه شاربان صغيران وعلى خده شعر خفيف يتكاثف حول الذقن . وكان ربعة بين القصير والطويل وسطا بين السمن والنحافة وكان لابسا جبة مرقعة مؤلفة من رقع مربعة كل رقعة تختلف فى اللون عن الأخرى وعلى رأسه طاقية قد تعمم عليها بعمامة من القطن وكان اذا تكلم تبسم فتبدو أسنانه البيضاء .

ولما حيانا رغب الينا فى الجلوس فجلسنا على الحصير فوق الأرض وجلس هو على عنجريب . ثم أعاد السؤال عن صحتنا وأبدى ارتياحه لبلوغنا مقام المهدى . وأشار لأحد الخدم فأحضر لنا طبقا من العصيدة وآخر من اللحم ووضعهما أمامنا ثم نزل الينا وطلب منا أن نأكل وكان يأكل بشهوة قوية كأنه يستمرىء طعامه كل الاستمراء ، وكان يسألنا بعض أسئلة ونحن نأكل . وقال : « لم انتظرتم خارج المعسكر ولم تدخلوا بلا اذن وهل يحتاج الناس للاذن لكى يدخلوا بيوت أصدقائهم ؟! » .

فقلت : « نحن نرجو عفوك . غاب عنا خادمنا مدة طويلة ولم يخطر ببال أحدنا أنك تخرج للقائنا . ولما اقتربنا من المعسكر سمعنا دق الطبل فسألنا عن معناه فقيل لنا : ان أحد المجرمين يقتل وكنا ننوى أن نسير وراء الطبل ولكن رسولك جاءنا عندئذ » .

فقال : « وهل بلغ من ظلمى أنه عندما تقرع طبولى يظن الناس أن مجرما سيقتل ؟ » .

فقلت : « كلا يا مولاى . أنت مشهور بالصرامة مع العدل » .

فأجاب : « أجل اني صارم · وهذا ما يجب على وسنعرف السبب في ذلك عندما تطول مدة اقامتك معنا » ·

وكان بعض من يعرفونني قبلا قد استأذنوا الخليفة لكي يدخلوا ويسلموا على فأذن لهم الخليفة ودخلوا ولكنهم لم تتح لهم الفرصة للكلام معي سوى عبد الرحمن بن نجا الذي كان في تجريدة هكس فقد قال لي بلهجة سريعة خافتة :

« خذ حذرك والزم الصمت ولا تثق بأحد » فأثر كلامه في ونقشته في قلبي ·

ثم غادرنا الخليفة ، وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر أرسل الينا لكي نتوضأ ونذهب الى المسجد وبعد دقائق جاءنا هو وأخبرنا بأن نسير وراءه · وكان يسير على قدميه لأن المسجد الذي كان قريبا من عشة المهدي لم يكن يبعد عن منزل الخليفة سوى نحو ٣٠٠ ياردة ، ولما دخلنا وجدناه مزدحما بالمصلين الذين اصطفوا صفا بعد صف ولما دخل الخليفة تنحوا له باحترام · وفرش على الأرض لنا جلدة شاة وأشار هو علينا بأن نقعد خلفه · وكان مقام المهدي مؤلفا من عدة عشش كبيرة محاطة بسياج من الشوك في الجنوب الغربي للمسجد · وكان في المسجد شجرة تظلل عددا كبيرا ، ولكن سائر المصلين كانوا يصطلون الشمس المحرقة · وكان في المسجد في أقصى طرفه الأمامي الى اليمين عشة صغيرة كان يقعد فيها المهدي بعد الصلاة لمحادثة من يرغب في رؤيتهم على حده · وبعد الصلاة دخل الخليفة الى هذه العشة وظننا أنه يريد أن يخبر المهدي بمجيئنا · وعاد الينا وقعد معنا وفي الحال خرج المهدي ويمم نحونا فوقف الخليفة ووقفنا جميعا وراءه · أما الباقون فقد لزموا مكانهم ولم ينهضوا . وتقدمت أنا قليلا فحياني المهدي بقوله : « السلام عليكم » فرددنا عليه بقولنا : « عليكم السلام » ثم مد يده فقبلتها عدة مرات وفعل كل من سيلد بك جمعه وديمتري مثلي · ثم أشار علينا بالجلوس ثم وجه الخطاب الى قائلا : « هل أنت مسرور ؟ »

فقلت : « أجل يا مولاى . لقد سررت ونلت السعادة بقربى منـك » .

فقال : « بارك الله فيك أنت وأخويك (يريد ديمترى وسيد جمعة) لقد كانت تبلغنى أخبار المعارك بينك وبين أتباعى فكنت أدعو الله لهدايتك . وقد سمع الله ونبيه لدعائى . وكما خدمت مولاك السابق لأجل المال الزائل يجب أن تخدمنى الآن لأن من يخدمنى يخدم الله والاسلام وينال السعادة فى هذا العالم والفرح فى العالم الثانى » .

فأبدى كل منا ولاءه وكنت قد أوصيت قبلا بأن أطلب مبايعته فانتهزت هذه الفرصة وطلبت ذلك . فدعانا الى أن نركع على طرف جلد الشاة ثم وضع كل منا يديه فى يديه وأقسمنا هذه اليمين :

« بسم الله الرحمن الرحيم . بايعنا الله ورسوله . وبايعناك على توحيد الله ولا نشرك بالله شيئا . لا نسرق ولا نزنى ولا نأتى البهتان ولا نعصيك فى المعروف . بايعناك فى ترك الدنيا والآخرة (كذا ...) ولا نفر فى الجهاد » .

ولما انتهينا من البيعة قبلنا يديه وصرنا معدودين من أنصاره المخلصين ، ولكننا كنا أيضا عرضة لأن يقع بنا عقاب هؤلاء الأنصار . وشرع المؤذن فى الأذان وكان المهدى يؤمنا فيصـلى ونحن نكرر ما يقول . ولما انتهت الصلاة رفع الجميع أيديهم يدعون بالنصر للمؤمنين . ثم ابتدأ المهدى فى وعظه .

وكان حوله جموع عظيمة من الناس يعظهم عن غرور العالم وزواله ويحضهم على الزهد وألا يفكروا الا فى الدين والجهاد ، وكان يصف لهم ملذات النعيم التى سيلاقيها المؤمنون بمذهبه ، الداعون الى دعوته . وكان بعض المتحمسين يقـاطعونه بصيحات التواجد والطرب . والحق أنى مقتنع بأن جميع الحاضرين سوانا كانوا

مؤمنين ايمانا حقا بدعوته • وكان الخليفة قد خرج من المسجد فى مهمة ما ولكنه نبه الملازمين لى أن يطلبوا منا البقاء مع المهدى الى الغروب •

وسنحت لى عندئذ فرصة بأن أنظر الى المهدى وأتعرف أو صافه • كان طويلا عريض الاكتاف خفيف السمرة متين البنية • وكان رأسه كبيرا وعيناه براقتين وكانت له لحية سوداء وعلى كل من خديه ثلاثة حزوز • وكان أنفه وفمه حسنى الوضع وكانت عادته الابتسام على الدوام واذا ابتسم بدت أسنانه الناصعة وكان أفلج بين ثنيتيه فرجة يتفاءل بها السودانيون ويسمونها فلجة • وكان هذا سببا فى حب النساء له اذ كانوا يسمونه « أبو فلجة » وكان يلبس جبة قصيرة قد أجيد غسلها وقد عطرت بالمسك والصندل والورد واشتهرت عنه هذه الرائحة حتى صارت تسمى « ريحة المهدى » وكانوا يقولون انها تماثل رائحة الفردوس ان لم تفقها •

وقد قضينا الوقت كله ونحن مكاننا قعود فوق سيقاننا المطوية تحتنا حتى وجبت صلاة المغرب •

وفى هذه الأثناء كان يروح ويغدو من المسجد الى البيت عدة مرات • ولما انتهت الصلاة استأذنت فى الخروج لأن الخليفة كان قد وعدنى بلقائه فى ذلك الوقت • فأذن لى ونصح لى بأن الزم الخليفة وأرصد نفسى لخدمته • فوعدته بالطاعة وبلزوم أمره بالحرف ثم قبلنا يده أنا وديمترى وسيد بك وخرجنا •

وكانت ساقاى تخدرتا من القعدة الطويلة حتى ما كنت أقوى على المشى عليهما ولم يبد على سيد بك ألم لأنه معتاد هذه القعدة • أما ديمترى فسار وراءنا وهو يتلفظ ألفاظا خافتة باللغة الاغريقية يلعن فيها المهدى • ورافقنا ملازم الى منزل الخليفة حيث قعدنا الى وقت العشاء •

وأخبرنا الخليفة بأنه بعد أن رآنا فى الصباح وفد اليه حسين خليفة مدير بربر فثبت لدينا من ذلك سقوط بربر وكانت الاشاعات قد بلغتنا ونحن على حدود دارفور ولكننا لم نلاق أحدا نتحقق منه هذا الخبر • ويبدو أن المدينة سقطت على يد الجعاليين وبذلك انقطعت المواصلات بيننا وبين مصر • وكان هذا الخبر سيئا للغاية وكنت أنتظر لقاء حسين خليفة لكى أتعرف منه صدق هذا الخبر •

وغادرنا الخليفة لكى ينام فمد كل منا ساقيه على عنجزيبه واستسلم للأقدار •

وفى الصباح بعد فطور العصيدة واللبن سمعنا قرع الطبول تؤذن بخروج الخليفة وأسرجت الخيول فى الحال • وأشرت على الخدم بأن يعدوا لنا أنا والسيد بك جمعه جوادين امتطيناهما وأدركنا بهما الخليفة الذى كان قد سبقنا • وكان راكبا جواده بقصد النزهة فقط وكان معه عشرون من المشاة وكان عن يمينه رجل أسود ضخم من قبائل الدنكار وعلى يساره عربى طويل جدا يدعى أبا تشيكه كان يعاونه فى الركوب والنزول • ولما بلغ الرجة التى كان بها بالأمس أمر الفرسان بأن يكرروا الرياضة التى قاموا بها أمس • وبعد مدة سرنا الى نهاية المعسكر حيث أرانى الخليفة آثار زريبة وخنادق وأخبرنى أنها من عمل هكس قبل أن تباد قوته ، وكان قد مكث هناك ينتظر المدد من تاج الله . وكانت هذه الخنادق مصنوعة لمدافع كروب • وقد أثار هذا المنظر فى نفسى ذكرى أليمة عن تلك الآلاف التى أبيدت عن آخرها تقريبا وان هذه النكبة هى سبب وجودى فى مكانى هذا الآن .

وعند رجوعنا عرج بنا الخليفة الى منزل أخيه يعقوب الذى كانت عشته قريبة من عشة الخليفة اذ لم يكن بين سياج كل منهما

سوى ممر ضيق • وتلقانى يعقوب بالبشاشة • وبدا عليه من دلائل السرور مثل ما بدا على أخيه ونصح لى بأن أخدم الخليفة بأمانة •

ويعقوب أقصر من الخليفة عريض الاكتاف مستدير الوجه وبه آثار الجدرى وله أنف يرتفع من طرفه وشاربان ولحية خفيفة . وحظه من الدمامة أكثر من حظه من الجمال ولكن طريقته فى الحديث عجيبة من حيث اظهاره عطفه على محدثه • وكان يخاطبنا وهو يبتسم كما يفعل الخليفة والمهدى • ولا غرابة فى ذلك ما دامت أحوالهم فى هذا الرواج • ويعقوب يقرأ ويكتب وقد حفظ القرآن عن ظهر قلبه ، أما الخليفة فبالمقابلة الى أخيه يعتبر جاهلا . وهو أصغر سنا من الخليفة ولكنه مستشاره الأمين وصاحب الرأى الذى لا يعلى عليه • وويل لمن يرتأى رأيا يخالف يعقوب أو يشتبه فى أنه يدس له اذ لا رجاء فى حياته •

وأصبنا شيئا من البلح الذى قدمه لنا ثم استأذنا فى الخروج وعدنا الى رقوبه حيث قصدنا الى المسجد وقعدنا الى الغروب كما فعلنا البارحة وجاء المهدى فوعظ الناس فى الزهد فى الدنيا والجهاد حتى ينالوا نعيم الفردوس • وتحمس المصلون وقد أسكرهم التواجد فصاحوا بمدائح المهدى • أما نحن التعساء فكنا نتألم من مقعدتنا وتلعن فى قلوبنا المهدى والخليفة . وجميع من حولهما من السفلة المنافقين •

وفى اليوم التالى طلبنا الخليفة وسألنا : هل نرغب فى السفر الى دارفور • وكنت أعرف أن هذا السؤال لم يوجه الينا الا على سبيل الامتحان فأجبنا بصوت واحد اننا نأسف أشد الأسف لفراق المهدى • ورأيت أنه كان ينتظر هذا الجواب فابتسم وامتدحنا لحسن اختيارنا •

واقترح علينا الخليفة أن نترك عشتنا وأرسل ديمترى مع ملازم الى أميره وكان يونانيا أيضا وأمر بمنحه عشرين ريالا · فلما غادرنا التفت الى سيد بك وقال : « وأنت يا سيد جمعه مصرى وكل انسان يحب بنى وطنه وعندنا كثير من المصريين وكلهم ابن مجرب · ثم أنت شجاع يمكن الاعتماد عليك ولذلك يجب أن ترافق أمير المصريين حسن حسين وسيعطيك منزلا ويقضى لك حوائجك وسأعمل أنا أيضا كل ما فيه راحتك » ·

وسر سيد بك جمعه لهذا الترتيب ثم التفت الخليفة الى وقال : « أما أنت يا عبد القادر فغريب وليس لك أحد سواى · وأنت تعرف العرب فى جنوبى دارفور معرفة جيدة فبناء على أمر المهدى يجب أن تبقى معى ملازما لى » ·

فأجبت مسرعا : « هذه هى أمنية قلبى · وانه لحظ حسن لى ان أتمكن من خدمتك ولك يا مولاى أن تثق بطاعتى وأمانتى » ·

فقال : « انى أعرف ذلك · حماك الله وقوى ايمانك · ولا شك فى أنك ستكون ذا منفعة كبرى للمهدى ولى » ·

ثم اختليت بالخليفة فأعاد على مسمعى التعبير عن سروره بخدمتى ومرافقتى اله · ثم حذرنى من الاختلاط بأقاربه الذين يحسدونه وربما أحدث اختلاطهم بى قطيعة بينى وبينه · وأمر ببناء بضع عشش لى من القش فى الزريبة المجاورة له والتى يملكها أبو أنجه (وكان غائبا فى جبال النوبة) وفى أثناء ذلك أبقى بعشتى وأحضر الظهر والمساء وأسمع وعظ المهدى · فشكرته شكرا جزيلا ووعدته بالأمانة والولاء ·

وفى اليوم التالى حضر حسين باشا خليفة فى سؤاله وكان أول ما سأل عنه حالة والى بربر السابق · فأجابه حسين باشا

بالجواب المعتاد • فأخذ فى سؤاله عن الحالة فى وادى النيل فوصف له حسين باشا البلاد التى بين بربر وفشودة وقال انها صارت الآن تابعة للمهدى وأن المواصلات بينها وبين مصر قد انقطعت أما الخرطوم فان غوردون يدافع عنها ولكن عرب الجزيرة قد حاصروها • وكان بالطبع يصف الأحوال بالصبغة التى تروق الخليفة . وكان الخليفة مسرورا بهذه الأخبار ، وسروره يبدو عليه فى اشاراته واستفهاماته • ووعد الخليفة حسين باشا بأن يقدمه فى صلاة الظهر للمهدى وأكد له عفوه عنه • وقبل ذلك الميعاد يمكنه أن يستريح معى •

ورافقت الخليفة بعد ذلك الى المسجد ومعنا حسين باشا الذى قدم الى المهدى وعاد معى الى منزلى لقضاء الليلة • وتعشينا عند الخليفة كالعادة ثم قمنا الى عشتى • فلما خلا كل منا الى أخيه أعدنا التسليمات والتحيات ، وصرنا نندب الحالة التى وقعت فيها البلاد والتى أنزلتنا الى هذا الدرك • ثم قلت : « يا حسين باشا انى أعدك بالصمت فأخبرنى الحالة فى الخرطوم وما يفعل السكان هناك ؟ » •

فقال : « وا أسفاه • هى كما وصفت للخليفة • فان اذاعة المنشور باخلاء السودان قد قلبت الحالة ، وكانت سببا غير مباشر فى سقوط بربر • ولست أشك فى أنها كانت ستسقط على أية حال ، ولكن هذا المنشور أسرع فى سقوطها • ولما كان غوردون فى بربر منعته من اتخاذ هذه الخطة ولا أدرى ما الذى جعله يسلكها ثانيا » •

وتحدثنا كثيرا عن الأحوال والحوادث التى وقعت لحسين باشا وكان رجلا مسنا وقد تعب فنام . ولكن حديثه أطار النوم من عينى • وجعلت أفكر فى غوردون وقلت فى نفسى هل هذا هو

غاية مجهودات غوردون لخدمة البلاد ؟ وهل تذهب ضحايا الرجال والمال بلا فائدة ؟ لقد عولت الحكومة المصرية على ترك البلاد وهي وان لم ننتفع منها في الماضي فسيكون مستقبلها عظيما . وأقل ما فيها تلك الآلاف من الجنود السود الذين يمكن أن يجندوا في الجيش . وستترك الحكومة هذه البلاد لأهلها وتبقى علاقتها بها ودية وتسحب حامياتها وذخائرها منها وترضى بقيام حكومة محلية .

وكان هذا هو الغرض من ارسال غوردون أملا في أن تقديره بين الأهالي واحترامهم له (وكان هو يكبرهما أكثر من حقيقتهما) يمكنانه من تأدية هذه المهمة . ومن الحقائق أن غوردون كان محبوبا في المناطق الغربية والمناطق الاستوائية حيث كسب حب الناس بطيبة قلبه وسخائه . وكان وقت اقامته في تلك المناطق يكثر من لتجوال والسياحة وكان جسورا عطوفا وقبائل تلك الجهات تقدر ماتين الصفتين . فلا شك اذن في أن تلك القبائل كانت تحبه ولكنها صارت الآن تعبد المهدي ولذلك نسيت غوردون .

وليس السودانيون أوروبيين اذ هم عرب وزنوج ولا يقدرون العطف والرقة قدرهما . وقد أذيع المنشور باخلاء السودان بين العرب وأخصهم الجعاليين وكانوا يكرهون غوردون لأنهم لم ينسوا بعد ما فعله مع الجلابة .

ولما جاء غوردون الى الخرطوم وليس معه قوة يستند اليها عرف هؤلاء العرب أنه يعتمد على نفوذه الشخصي في تحقيق أغراضه . ولكن الواقفين على الحالة كانوا يعرفون أن النفوذ الشخصي هو نقطة من بحر في حل المشكلة السودانية .

فما الذي أغراه باذاعة هذا المنشور والاعلان فيه عن اخلاء الحكومة المصرية السودان . وقد نصح له حسين باشا الا يقرأه

فى بربر ولكن عندما وصل الى متمه قرأه أمام جميع الناس • فهل لم تبلغ غوردون منشورات المهدى التى أرسلها عقب سقوط الأبيض ؟ ألم يعرف أنه كان يدعو الناس فى هذه المنشورات الى اعلان الجهاد على الحكومة وأن من يعصيه فى هذا الأمر يعتبر خائنا للدين فتصفى أملاكه وتؤسر نساؤه وأولاده ويصيرون عبيدا للمهدى ؟

لقد كان غوردون يرمى الى الحصول على معاونة هذه القبائل حتى يتمكن من سحب الحاميات وكان يمكنه أن يتفق معها على ذلك • ولكنه الآن أضاع هذه الفرصة اذ كيف يمكن أن تساعده هذه القبائل اذا كان هو قد أعلن اخلاء السودان ومعنى ذلك أن تترك هذه القبائل لرحمة المهدى ؟ وماذا كان يفعل المهدى بهم لو أنه علم أنهم عاونوا غوردون على أن يسحب الحاميات ؟ ثم هل كان يمكنهم أن يقاوموا المهدى ومعه أربعون ألف جندى كل منهم يحمل بندقية وذلك غير الألاف المتحمسين الذين يشتاقون الى الدمار والغنائم ؟

كلا . لقد كانت هذه القبائل أعقل وأحصف مما حسبها غوردون • كانت تعرف أنه اذا انسحب غوردون من البلاد وتيقن المهدى أنهم عاونوه فانه يستأصل شأفتهم ويسبى نساءهم وأولادهم • ولم يكونوا هم فى حاجة الى هذه التضحية •

واذا لم يكن فى مقدور الحكومة لأسباب سياسية وغير سياسية أن تحتفظ بالسودان فان من العبث أن يرسل غوردون ويضحى به بلا فائدة • ولم تكن ثم حاجة الى رجل ذى مهارة شاذة لكى يسحب جنود الحاميات والذخائر على البواخر الى بربر بحجة رفع الحصار عن المدينة وعندئذ تسحب جميع الحاميات أو معظمها . ولكن كان ينبغى السرعة فى هذا العمل ثم هو لم يكن ممكنا بعد سقوط بربر • ويجب أن نذكر أن بربر لم تسقط الا فى ١٩ مايو

أى بعد ثلاثة أشهر من وصول غوردون الى الخرطوم · وعلى كل حال نقول ان اذاعة منشور غوردون قد عجل سير الأحوال الى حد مزعج · فان الأهالى عرفوا نية الحكومة فى اخلاء السودان وصار كل منهم ينظر الى مصالحه الخاصة التى صارت على خلاف مع مصالح الحكومة التى قلبها مواطنهم المهدى ·

ولم يكن فى مقدور غوردون مع صفات الشجاعة والنشاط التى يتصف بها بحق أن يوقف سير الأحوال بعد أن ارتكب هذه الغلطة السياسية الكبرى ·

ولقد كنت أتقلب فى العنجريب وأنا فى هذه الأفكار بينما كان حسين باشا يغط فى نومه . ورأيت أن الايمان بالقضاء والقدر يفيد فى مثل هذه الساعة ، ولكننى كنت مازلت أوروبيا لم تبلغ نفسى هذه المرحلة وان كنت قد تعلمت بعد ذلك أن انظر الى الأشياء نظر التسليم والهدوء ، وعلمتنى تجاربى فى السودان أن أمارس تلك الفضيلة الكبرى ، فضيلة الصبر ·

وانتشرت بعد أيام قلائل اشاعة بأن غوردون أغار على أبى حرجه وجرحه وأن قواته التى كانت قد طوقت الخرطوم قد وقعت وهزمت · فامتلأ قلبى سرورا بهذه الأخبار وان كنت قد تظاهرت بعدم المبـالاة ·

ووصل الى معسكرنا صالح واد الملك وكان قد سلم نفسه فى فيداس ثم أرسله أبو حرجه بعد ذلك الينا · وعفا عنه الخليفة والمهدى فأثبت هذه الأخبار وأمدنى ببعض معلومات عن غوردون ·

وفى هذا المسـاء استدعانى الخليفة للعشـاء معه وما كدنا نسرع فى تمزيق كتلة اللحم الكبيرة التى أمامنا حتى سألنى قائلا « هل سمعت الأخبار اليوم عن الحاج محمد أبى حرجه ؟ » ·

فقلت وأنا أشعر بالنفاق : « كلا · لم أترك بابك طول اليوم ولم ألتق بأحد » ·

فقال الخليفة : « لقد فاجأ غوردون الحاج محمد من البر والبحر وكان البحر الأزرق فى الفيضان · وقد أحاط البواخر بـ ا يمنع رصاص البنادق من الوصول الى جنده · هذا الكافر رجل ماكر ولكنه سينال عقاب الله · وقد تقهقر رجال الحاج محمد وغوردون الآن فى طرب النصر ولكنه مخدوع فان الله لا ينصر الا الذين يؤمنون به وسينتقم الله منه قريبا . وليس الحاج محمد ذا كفاية ولذلك سيرسل المهدى واد النجومى لكى يطوق الخرطوم ».

فقلت وأنا أقصد عكس ما أقول : « أرجو الا يكون الحاج محمد قد خسر خسائر فادحة » ·

فقال الخليفة بحق : « لا حرب بلا خسارة ولكنى لم أقف على التفاصيل بعد » ·

وكان انتصار غوردون قد عكر مزاجه فذهبت عنه دماثته وكان يبدو عليه أنه يخشى النتائج لهذا الانتصار . ولما ذهبت الى عشتى بعثت خادمى لكى يدعو صالح واد الملك سرا لزيارتى · فأخبرته بأنه الخليفة يؤيد رواية انتصار غوردون فقال لى انه سمع أيضا هذا الخبر من أفراد قرابته · وامتلأ قلبى بهجة وطربا لهذا النصر ، ووجدت نفسى أتحدث وأنا كلى رجاء بالمستقبل ولكن صالحا كان يعد هذا النصر وقتيا ، وكان يبنى اعتقاده هذا على أسباب معقولة ·

وأخذ يوضح لى الحالة بقوله انه عندما وصل الى الخرطوم بدأ تأثير المنشور عن اخلاء السودان يظهر وزادت لذلك صعوباته ·

وصارت قبائل الجعاليين تجتمع وقد اختارت لها الحاج على واد سعد رئيسا وقد اجتمعت لديه قوة كبيرة ولكنه لأسباب شخصية كان يميل الى الحكومة فجعل يسوف فى القتال ٠

ورأى القناصل فى الخرطوم أن الحالة تتفاقم فطلبوا من غوردون أن يرسلهم الى بربر ٠ وقد كان مما يشك فيه أن يصلوا سالمين الى بربر ، ولذلك نصح لهم غوردون بالبقاء فى الخرطوم فبقوا ٠ أما أهالى الخرطوم فقد أخذوا يتوجسون من غوردون لأنهم تحققوا من المنشور أن غوردون انما جاء لكى يسحب الحامية وان كانوا قد عرفوا بعد ذلك أن غوردون انما جاء لكى يدافع عنهم أو يموت معهم ٠

وجمع الشيخ عبيد وهو من أكبر مشايخ الطرق فى السودان أتباعه فى الحلفاى لكى يحاصر بهم الخرطوم ٠ وأرسل غوردون بعض الجيش بقيادة حسن باشا حسين الذى كان حاكما على شقه لكى يجلوا المحاصرين عن أماكنهم ووقف غوردون على سطح قصره يراقب جنوده منه بتلسكوبه فرأى بعض ضباطه يفاوضون الثائرين فى التسليم فأحضرهم فى الحال وعقد لهم محكمة عسكرية ثم ضربوا بالرصاص ٠ ولكنه على الرغم من هذه النكبة تمكن من تخليص الشايجيه وكانوا موالين للحكومة فانه ندب لهم السنجق عبد الحميد واد محمد فأنقذهم وأحضرهم الى الخرطوم ٠

وكان صالح واد الملك فى فيداس قد طوقه الثائرون ، فرجا غوردون أن يفك الحصار عنه ولكن غوردون لم يتمكن من ذلك فاضطر الى التسلم ومعه ألف وأربعمائة من الجنود غير النظاميين وذخائرهم ٠ وبعد هذا النصر جمع الحاج محمد أبو حرجه جميع سكان الجزيرة لمحاصرة الخرطوم ٠

وبينما كانت هذه الأحوال تجرى حول الخرطوم كان محمد الخير معلم المهدى السابق وكان قبلا يدعى محمد الذكر قد أتى الى النهر فعين المهدى تلميذه السابق أميرا على بربر ووضع جميع القبائل فى تلك المديرية تحت تصرفه . فجمع محمد الخير جميع أنصاره من الجعالين قبيلته وأمدهم بعدد كبير من البرابرة والبشارية وسائر العرب ثم طوق بهم مدينة بربر فلم يمض عليها بضعة أيام حتى سقطت .

وكانت مديرية دنقلة لا تزال ثابتة على ولائها للحكومة وذلك يرجع الى مكر مديرها مصطفى بك ياور . فانه عرض تسليم المدينة الى المهدى مرتين ولكن المهدى توجس شرا منه لأنه تركى وأرسل أحد قرابته سيد محمود على لكى يشترك هو وأمير الشايجية الشيخ حداى فى تسليم المدينة . فلما علم مصطفى بك ياور ذلك وكان عنده فى ذلك الوقت ضابط انجليزى (هو اللورد كتشنر) يشجعه على القتال جهز جيشا وأوقع بحداى ثم سحق المهديين فى كورش ، وقتل الأميران محمود وحداى .

أما فى سنار فلم تكن الحال على ما يرام . فقد حوصرت وكان المدخر بها من القمح كثيرا ولكن مواصلاتها كانت مقطوعة وحاول الحاكم نور بك أن يرد المحاصرين فنجح وأرجعهم الى مسافة بعيدة .

وجاءت المخطابات تترى الى المهدى رجاء أن يقدم الى النهر ولكنه لم يكن فى حاجة الى العجلة اذ كان متأكدا أن السودان كله قد صار فى يديه وأنه لا يمكن أن يؤخذ منه الا بجيش مصرى أو أجنبى كبير . وكان يعرض الجيش كل يوم جمعة ويحضر العرض بنفسه وكان جيشه مؤلفا من ثلاثة أقسام يقود كل قسم منه خليفة ، ولكن الخليفة عبد الله كان يسمى (رئيس الجيش . وكان قسمه يسمى الراية الزرقاء وكان أخوه يعقوب ينوب عنه وكان

الخليفة على واد حلو يقود قسم الراية الخضراء . أما الراية الحمراء أو راية الاشراف فكان يقود قسمها الخليفة محمد شريف وكان للأمراء الأصاغر رايات خاصة .

وكان أمراء الراية الزرقاء يصـــفون جنودهم يوم العرض بحيث تواجه الشرق .

وكان جنودالراية الخضراء يصفون أمامهم بحيث يواجهون الغرب . ويصل بين هذين الصفين جنود الأشراف وأمراؤهم بحيث يواجهون الشمال .

وكانت جنود المهدى قد كثر عددها فكان العرض يحتاج الى ميدان كبير جدا مفتوح من ناحية واحدة يدخل منها المهدى ومعه صحابته . ويقول آخر أنه سمع أصواتا من السماء تبـارك فى أنصار المهدى ونعدهم بالنصر . بل بعضهم يقول ويؤكد أنه رأى الملائكة تبسط أجنحتها وتؤلف سحابة تقى الجيش وهج الشمس .

وبعد ثلاثة أيام من وصول خبر هزيمة الحاج أبو حرجه وصل البنا فى رهاد رجل ايطالى يدعى يوسف كوزى آتيا من الخرطوم . وكان قبلا فى بربر فلما سقطت تركه المسيو ماركه وكيل شركة ديبونرج لكى يتمم بعض الحسابات فى بربر ، وأرسله محمد الخير بعد سقوط بربر الى أبو حرجه وهذا بعثه الى غوردون بخطاب ولكن غوردون رفض أن يتلقـاه ورده الى خطوط العدو على الشاطىء الشرقى للنيل الأزرق فلما وصل الى المهدى أرسله ثانيا الى غوردون بصحبة رجل يونانى يدعى جورجى كالامانتينو ومعـه خطاب الى غوردون يطلب فيه منه التسليم . وأرسلت أنا على يد هذا اليونانى بضع كلمات لكى يحملها الى غوردون سرا . وأذن لليونانى بأن

يدخل الى الخرطوم · أما كوزى فلم يؤذن له لان الضباط اتهموه بأنه عندما دخل فى المرة الأولى دعاهم الى التسليم ·

ولما انتهى شهر رمضان استدعى أبو انجه ومن معه من القوات فى جبل الدائر وأعلن المهدى عندئذ أن النبى قد أوصى اليه أن يقوم الى الخرطوم ويحاصرها بنفسه وأمر جميع الأمراء بجمع رجالهم والتهيؤ للسفر وكل من يتخلف عن هذا الجهاد تصفى أملاكه ·

ولكن الناس الذين لم يكن لحماسهم حد لم يكونوا فى حاجة الى التحذير من التخلف فانهم كانوا يهرعون الى القتال وكل منهم طامع فى الغنيمة التى تنتظر انتصار المؤمنين · وكانت نتيجة اعلان المهدى الجهاد أن هاجر الناس جملة وكانت هجرتهم لا مثيل لها فى تاريخ السودان ·

وغادرنا رهاد فى ٢٢ أغسطس وكانت قوات المهدى تسير فى ثلاث طرق مختلفة · فاتخذت القبائل التى تحمل على الجمال الطريق الشمالى · وكان طريقها على فرس وصلبة وطرة الحضرة · أما الطريق الوسطى التى تمر على طيارة وشرقله والشط ودويم فقد اتخذها المهدى والخلفاء والأمراء · أما البقارة وسائر القبائل التى لها مواش فقد اتخذت الطريق الجنوبية · وكنت أنا بالطبع ملازما للخليفة أرافقه ولكنى كنت عندما تحط رحالنا أرسل فى طلب صالح واد الملك الذى كان فى رفقة المهدى . وكان الخليفة لسبب لا أعرفه يكرهه وأمرنى بأن الزمه أنا وخدمى وكلف ابن عمه عثمان واد ادم بأن يعنى بأمرى · ومع ذلك كنت أدقق من وقت لآخر لرؤية صالح واد الملك وكان واقفا على الدوام على الحالة فى مديريات النيل ·

ولما كدنا نبلغ شرقله شاعت اشاعات عن رجل مسيحى مصرى وصل الى الأبيض وأنه في طريقه الى المهدى . وكان البعض يقولون انه امبراطور فرنسا وآخرون يكذبونهم ويقولون بل هو قريب ملكة انجلترا . فلم يكن ثم شك فى أن الرجل أوروبى فشعرت بأشد الشوق لرؤيته .

وأخبرني الخليفة فى المساء بأن رجلا فرنسيا وصل الى الأبيض ، وأنه بعث فى طلبه واحضاره الى المهدى . ثم قال « هل أنت فرنسى وهل عندكم في بلادكم قبائل مختلفة كما هو الحال في السودان ؟ » .

وكان الخليفة يجهل أوروبا كل الجهل فجعلت أنير ذهنه عن الموضوع بقدر امكانى . ثم قال الخليفة : « ولكن ما يريد منا رجل فرنسى يأتى الينا ويقطع هذه الطريق الطويلة ؟ عسى أن يكون الله قد هداه الى الصراط المستقيم » .

فقلت : « لعله يبقى فى صحبتك وصحبة المهدى » .

فنظر الى الخليفة وكان لا يصدق قولا وقال : « سنرى » .

ثم بلغنا شرقلة وما كدنا نحط رحالنا حتى أرسل الى مولاى وقال : « يا عبد القادر لقد وصل الفرنسى الينا وأمرت باحضاره هنا . فانتظر واسمع ما يقوله اذ ربما نحتاج اليك » .

ثم جاءنا حسين باشا وبدا لى أن الخليفة استدعاه . وبعد مدة جاءنا ملازم وأعلن أن الرجل الغريب واقف أمام الباب فأذن له بالدخول . ورأيته رجلا طويلا حوالى الثلاثين من عمره وكانت الشمس قد لوحت وجهه . وكان شارباه ولحيته خفيفة اللون وقد

لبس الجبة والعمامة . وحيا الخليفة بقوله : « السلام عليكم » . فلم يتحرك الخليفة من العنجريب بل أشار عليه بالقعود وبدأ بقوله : « لم جئت هنا وماذا ترغب منا ؟ » .

فأجاب بلهجة غريبة غير مفهومه بأنه فرنسى جاء من فرنسا .

فقال الخليفة : « تكلم بلغتك مع عبد القادر وهو يوضح لنا ما تقصد » .

فتحول الغريب الى ونظر الى متوجسا وقال بالانجليزية « نهارك سعيد يا سيدى » .

فقلت : « هل تتكلم الفرنسية . أنا اسمى سلاطين . الزم الجد ولا تتطوح . وبعد ذلك يمكنك أن تخبرنى على حدة ما تريده » .

فتذمر الخليفة قائلا : « ماذا تقولان ؟ انى أعرف ماذا يطلب ؟ » .

فقلت له : « أخبرته يا مولاى عن اسمى وطلبت منه أن يتكلم بصراحة لأنك أنت والمهدى قد وهبكما الله معرفة ما يدور فى أفكار الناس » .

وأسعفنى حسين باشا وكان قاعدا خلفى فقال : « هذا حق . الله يطيل عمر الخليفة ثم التفت الى وقال : « لقد أحسنت فى تنبيه الغريب » .

فسر الخليفة لهذا التملق وقال : « باحثه عن غرضه » .

فقال الغريب بالفرنسية : « اسمى أوليفيه بان . وأنا رجل فرنسي . ومنذ صباى وأنا متعلق بالسودان . أحب أهله . وجميع أهل بلادى يشعرون شعورى . ونحن فى أوربا بيننا وبين بعض الأمم احقاد . والأمة الانجليزية هى احدى هذه الأمم وقد رسخت قدمها فى مصر واحد قوادها غوردون موجود الآن فى الخرطوم فأنا جئت لكى أقدم للمهدى مساعدتى أنا وأمتى » .

فقال الخليفة بعد أن ترجمت له هذه الأقوال « أية مساعدة ؟ »

فقال أوليفيه بان : « مساعدتى الآن هى النصيحة . ولكن أمتى ترغب فى صداقتكم وهى مستعدة لمعاونتكم بالمال والسلاح بعد شروط » .

فقال الخليفة وكأنه لم يسمع ما قاله : « هل أنت مسلم ؟ » .

فأجابه : « أجل . أنا مسلم منذ زمن طويل وقد أعلنت اسلامى فى الأبيض » .

فقال لى الخليفة : « أقعد أنت وحسين باشا هنا مع هذا الفرنسى وسأذهب أنا الى المهدى لكى أخبره عنه وأعود » .

فلما غادرنا الخليفة حييت هذا الغريب وعرفته بحسين باشا ولكن شعرت بشىء من الكراهية له لعلمى أنه قدم لمساعدة أعدائنا . ولكن مع ذلك نبهته الى أن يحذر فى كل ما يقوله وأن يدعى ان الباعث له على المجىء هو الايمان لا الأغراض السياسية . واغتاظ حسين باشا من هذا الفرنسى حتى قال لى بالعربية : « هل تقديم المال والسلاح لهؤلاء الناس يعد سياسة ؟ هؤلاء الناس ليس لهم غرض الا القتل ونهب الناس واستعباد النساء والبنات . لقد كنتم تنسبوننا الى القسوة والشر وتعاقبوننا حين كنا نشترى العبيد

السود مع أن العبد الأسود لا يمتاز على الحيوان الا فى أنه يقدر على حرث الأرض » ٠

فقلت : « معلهش اللى عمره طويل بيشوف كتير » ٠

وأخذنا كلنا نفكر ونتأمل كل فى حاله ننتظر مجىء الخليفة ٠ وبعد مدة عاد الينا وأمرنا بالوضوء استعدادا للصلاة مع المهدى ٠ فتوضأنا وذهبنا الى مكان الصلاة ووجدنا عددا عظيما من الناس كلهم يبالغون ويهولون فى شأن هذا الغريب الفرنسى ٠

ولما أخذ كل منا مكانه جلس أوليفيه بان فى النصف الثانى وجاء المهدى عندئذ وكانت جبته نقية معطرة وعمامته قد رتب طياتها ترتيبا يفوق المعتاد وعيناه مكحلتين لهما بريق شديد وكان يبدو عليه أنه عنى عناية كبيرة لكى يؤثر بهيئته فى الناس . ولا شك فى أنه شعر بالسرور والزهو لرؤيته رجلا يأتيه من بلاد بعيدة يعرض عليه المعاونة ٠

وقعد على سجادة وطلب أوليفيه بان وحياه بابتسامة ولكنه لم يصافحه ثم أذن له بالقعود وسأله عن سبب مجيئه وكنت أنا المترجم بينهما ٠

وأعاد أوليفيه بان حكايته فطلب منى المهدى أن أترجم أقواله بصوت عال يسمعه جميع الحاضرين ٠ ولما انتهيت قال هو أيضا بصوت عال : « لقد سمعت أقوالك وفهمت مقاصدك ولكنى لا أعتمد على معونة الناس وانما أعتمد على الله ورسوله ٠ فان أمتك غير مؤمنة ولا يمكننى أن أعقد محالفة بينى وبين أمة غير مؤمنة وبمعونة الله سنهزم أعداءنا ونظفر بهم بواسطة الأنصار والملائكة الذين يبعثهم الينا النبى » ٠

وعلا الهتاف من آلاف المجتمعين عند سماعهم هذا الكلام •
ولما عاد النظام والسكون قال المهدى : « تقول انك تحب الاسلام وتعترف أنه حق فهل تؤمن به وهل أنت مسلم ؟

فقال الفرنسى : « أجل • انى مسلم • لا اله الا الله محمد رسول الله » •

فمد المهدى يده فقبلهـا ولكنه لم يطالبه بيمين الولاء • ثم جاء ميعاد الصـلاة فنظمت الصـفوف وقضينا الصلاة • ثم وعظنا المهدى وشرح لنا الزهد فى الدنيا وكيفية النجاه وخرجنا مع الخليفة الذى أشار على بأن آخذ أوليفيه بان معى الى عشتى وأنتظر أوامره •

وخلا كل منا الى الآخر فتحادثنا مليا لا نخاف شيئا • وكنت أكره المهمة التى جاء من أجلها ولكن أيضا كنت أتحسر عليه لجهله فأعدت التحية ورحبت به وقلت له : « والآن يا عزيزى أوليفيه ، نحن هنـا وحـدنا لن يزعجنـا أحد فلنتكلم بصراحة • ولو أنى لا أوافـق على مهمتك ولكن أؤكـد لك بأنى سـأعمل كل ما فى استطاعتى للمحافظة عليك • لقد عشت أنا هنا جملة سنوات بعيدا عن المدينة فأخبرنى عما يحدث الآن فى العالم ؟ » •

فقال لى : « اننى أثق بك كل الثقة ، وأعرف اسمك ، وأحمد المقادير التى جمعتنى بك ، وهناك عدة أشياء تهمك معرفتها ، ولكن أقصر كلامى الآن على مصر » •

فقلت له : « أخبرنى اذن عن ثورة عرابى باشا والمقتلة التى حدثت بسببه وتدخل الدول واحتلال الانجليز مصر » •

فقال : » أنا محرر فى جريـدة الأنديبنـدانس التى يرأس تحريرها روشفور الذى أظن أنك سمعت عنه . وأنت تعرف أن فرنسا وانجلترا نقيضان فى السياسة واننا نضع فى وجه انجلترا كل ما يمكننا من العراقيل • ولم أحضر أنا ولى صفة النيابة على أمتى بل جئت بصفتى الشخصية فقط ولكن الأمة تعلم بمجيئى وتوافق عليه • وقد عرف ولاة الأمور الانجليز مقاصدى وقبضوا على فى وادى حلفا لارجاعى ولكن لما بلغت أسنا اتفقت مع العرب على أن يحملونى سرا الى الأبيض عن طريق الكعب • وقد استقبلنى المهدى مرحبا بى كما ترى ولذلك فانى أرجو الخير على يده » •

فقلت : « وهل تظن أنه يقبل اقتراحك ؟ » •

فقـال : « اذا رفض اقتراحى فانى أظن أنه يعمل لايجـاد علاقات حسنة بينه وبين أمتى وهذا يكفينى . وأظن أنه بما إنى جئت مختارا فهو لا يعارض فى سفرى ثانيا الى بلادى » •

فقلت : « هذا مما أشك فيه • قل لى هل لك عائلة ؟ » •

فقال : « نعم . لى زوجة وولدان فى باريس وهم لا يغيبون عن بالى وأرجو أن أراهم قريبا • ولكن أخبرنى لم يعارض المهدى فى سفرى ؟ » •

فأجبته قائلا : « انى أعرف هؤلاء الناس والى الآن لا أظن أن هناك ما يدعو الى الخوف على حياتك ولكنى لا أقدر أن أقول متى وكيف يمكنك أن تسافر الى بلادك ، وأرجو أن المهدى يرفض اقتراحاتك التى أظن أنها ربما تفيده ولكنى أرجو أيضـا أن تعود سالما لعائلتك التى تنتظرك بنافد الصبر » •

وكنت قد أمرت الخادم باحضار شيء نأكله وطلبت احضار جوستاف كلوتز (خادم ودنفان الذى كان قد فر من جيش هكس وانضم الى المهدى) لكى يأكل معنا • وما كدنا نشرع فى تناول الطعام حتى دخل اثنان من ملازمى الخليفة وطلب من أوليفيه بان أن يتبعهما • فدهش لهذه الدعوة الفجائية وبدا عليه الخوف وهمس الى بأن أسأل عنه • ودهشت أنا أيضا لأن لغته العربية لم تكن مفهومة فلماذا يطلبه الخليفة وحده ؟ وكنت أقول ذلك لمصطفى « كلوتز » واذا بملازم يطلبنى أنا أيضا • ولما دخلت على الخليفة وجدته قاعدا وحده وأشار على بالقعود فقعدت الى جانبه •

ثم قال لى بلهجة الذى يسر الى شيئا : « ياعبد القادر أنت واحد منا • قل لى ماذا تظن فى هذا الفرنسى » •

فقلت : « أظن أنه مخلص وأن قصده حسن • ولكنه لا يعرفك ولا يعرف المهدى ويجهل أيضا أنكما تعتمدان على معونة الله وحده ولا تحتاجان الى معونة انسانية وان هذا هو سبب انتصاراتكم المتتابعة لأن الله يكون على الدوام مع المؤمنين به » •

فقال الخليفة : « لقد سمعت كلام المهدى عندما قال انه لا يرغب فى أية علاقة بينه وبين غير المؤمنين وانه يمكنه أن يهزم أعداءه بدون أن يستعين بهم » •

فقلت : « هذا أكيد • ولا فائدة من وجود هذا الرجل هنا ويمكنه أن يعود الى وطنه ويخبر الناس هناك بالانتصارات التى يحرزها المهدى وخليفته » •

فقال الخليفة : « لعله يفعل ذلك بعد . أما الآن فقد أمرته أن يبقى مع زكى طومال الذى سيعنى به ويقدم له حاجاته » •

فقلت له بلهجة التوسل : « ولكنه يجد مشقة عظيمة في التعبير عن فكره بالعربية اذ هو لا يزال يجهلها » .

فقال الخليفة : « لقد تمكن من الوصول الينا بدون مترجم ولكنى مع ذلك أسمح لك بزيارته » .

ثم أخذ يتكلم عن أشياء أخرى وأخذنى لرؤية الخيول التى أهداها اليه زوجاله من دارفور وكنت أعرف بعضها جيدا . وبعد أن تركته ذهبت الى أوليفيه بان فوجدته قد أسند رأسه على يديه وهو فى تفكير عميق . ولما رآنى هب واقفا وقال : « لا أعرف ماذا أقول عن كل هذا . لقد أمرونى أن أمكث هنا وأحضروا لى أمتعتى ووكلوا بى رجلا يدعى زكى . فلم يتركونى أمكث معك ؟ » .

فقلت بلهجة العطف : « هذه هى طبيعة المهدى والخليفة شر منه فى ترتيب الأشياء على ضد ما يرغب الانسان . وأنت الآن تمتحن فى الصبر والطاعة والايمان ولكن لا تخش شيئا فان الخليفة يتوجس منا شرا نحن الاثنين ويجب أن نبقى منفصلين حتى لا ننتقد أعماله » .

قلت لزكى طومال : « يا صديقى هذا رجل غريب فأنا أوصيك به خيرا فكن معه بحق صداقتنا القديمة » .

فقال : « لن يحتاج الى شيء أستطيع تقديمه اليه » .

ثم قال بتؤدة : « ولكن الخليفة أمرنى أن أمنع الناس من مخاطبته فأرجوك ألا تقابله كثيرا » .

فقلت : « هذه الأوامر لا تنطبق على . فانى كنت منذ برهة عند مولاى الخليفة فأمرنى أن أزور هذا الغريب . فأكرر عليك أن تعامله معاملة حسنة » .

ثم عدت الى أوليفيه بان وحاولت أن أدخل السرور فى قلبه وأخبرته بأن الخليفة قد منع الناس من مخالطته وان هذا الأمر فى مصلحته لأن اختلاطهم به قد يؤدى الى أن يدسوا له عنده ويوقعوا به . أما أنا فانى أزوره كلما سنحت الفرصة .

وفى اليوم التالى قرع طبل الخليفة ايذانا باستئناف السير. وكانت عادتنا أن نسير من الصباح الى الظهر ولذلك كان سيرنا بطيئا .وكنا عندما نقف أذهب الى الفرنسى فأجده قاعدا فى خيمته كالعادة . وكانت صحته جيدة ولكنه كان يشكو من سوء الطعام . وقال زكى بعد أن سمع هذه الشكوى أنه أحضر اليه العصيدة فلم يذقها . فاوضحت له أنه غريب لم يألف بعد الطبخ السودانى واقترحت عليه أن أجعل خادمى يهيىء له طبقا من الحساء وآخر من الرز . وسألنى الخليفة فى تلك الليلة هل رأيت أوليفيه بان ؟ فأخبرته بأنى قابلته وانى وجدته صائما لا يستطيع أن يأكل العصيدة فجعلت خادمى يهيىء له طعاما لئلا يمرض ولذلك أرجوه أن يسمح لى بذلك . فوافق الخليفة ولكنه قال : « ولكنك أنت تأكل من طعامنا فيحسن به أن يعتاد هذا الطعام فى أقرب وقت . ثم أين مصطفى « كلوتز » فانى لم أره منذ بارحنا رهاد » .

فقلت : « أنه عندى يساعد الخدم على العناية بالخيول والجمال » .

فقال الخليفة : « اطلبه الآن » ففعلت وجاء بعد برهة صغيرة ووقف أمامنا فقال له الخليفة : « أين كنت ؟ انى لم أرك منذ أسابيع . هل نسيت أنى مولاك ؟ » .

فقال كلوتز فى لهجة التأفف : « لقد ذهبت الى عبد القادر باذنك وأنت لا تعنى بى وقد تركتنى وحدى » .

فقال الخليفة وهو غاضب : « سأعنى بك فى المستقبل » ثم هتف بأحد الملازمين وطلب منه أن يخبر كاتبه ابن نجا بأن يضع مصطفى فى الأغلال وخرج مصطفى وهو لا ينبس بكلمة ·

ثم قال الخليفة : « ان عند مصطفى وعندك ما يكفيكما من الخدم فيمكنك أن تستغنى عنه · وقد كنت اختصصت به ولكنه تركنى بدون سبب · فأمرته بأن يلزم أخى يعقوب ولكنه تركه أيضا والآن عندما ذهب اليك قام فى ذهنه أنه يمكنه أن يستغنى عنا جميعا » ·

فقلت : « أعف عنه فان الرحيم يعفو . ائذن له بالبقاء مع أخيك فلعل هذا يصلحه ؟ » ·

فقال : « يجب أن يبقى مصفدا عدة أيام حتى يعرف أنى مولاه وهو ليس مثلك · فأنت تأتى الى كل يوم »

وشعرت كأنه يقول هذا لكى يطمئننى لأنه رآنى قد تألمت ، ثم أمر بالعشاء فأحضر وأكلت أنا بشهوة أكثر من المعتاد حتى أوهمه بأنى راض · وكان قليل الكلام وقت الطعام يبدو عليه كأنه مغموم · وبعد العشاء حاول أن يقول شيئا يزيل به أثر الكآبة ولكن لهجته كذبته · ثم انفصلنا وعدت الى خيمتى وأنا أتأمل فى الحالة · فقد كنت عازما على أن أبقى على وفاق مع الخليفة حتى تتاح لى ساعة الخلاص ، ولكن صلفه وغطرسته وسوء أدبه قد جعلت هذا الواجب ثقيلا على ·

وبعد أن سرنا خمسة أيام بلغنا الشط حيث وجدنا الآبار مسدودة فشرعنا فى فتحها وأقمنا بعض العشش هناك ، لأن المهدى قرر الاقامة هنا بضعة أيام · وكنت وقت مسيرنا أزور أوليفيه بان

دأجد آماله التى جاء بها تذهب بالتدريج . وكانت معرفته بالعربية قليلة جدا ولم يكن يؤذن له بالكلام الا مع العبيد الذين كانوا فى خدمته . ولم تمض عليه أيام حتى نسى مهمته الأصلية وصـــار لا يذكر شيئا سوى زوجته وأولاده . وكنت أحثـــه على التفـاؤل بالمستقبل وأن ينزع عن نفسه هذه الكآبة التى لا تنفعه فى شىء . وكان الخليفة قد نسيه تقريبا فلم يكن يذكره أبدا .

وبعد وصولنا بيوم الى الشط وافانا محمد الشريف شيخ المهدى السابق الذى كان قد طرده من طريقته وكان أصدقاؤه قد حثوه على أن يذهب اليه ويستغفره .

ولكن المهدى أحسن استقباله وسار معه بنفسه الى خيمته وأهدى اليه فتاتين حبشيتين جميلتين وخيولا وغير ذلك . وبهذه المعاملة السمحة جذب المهدى اليه أنصار الشيخ محمد الشريف وضمن ولاءهم .

ولما غادرنا شرقلة جاءتناالأخبار بأن جيوش غوردون هزمت هزيمة منكرة . ولما بلغنا الشط جاءتنا تفاصيل هذه الهزيمة التى انتصر فيها الشيخ عبيد علي محمد باشا فى أم درمان . وكانت نتيجة هذا النصر أن الثائرين زادوا ضغطهم فى حصار الخرطوم ولما أمدهم واد النجومى بجيشه وجد غوردون أنه لم يعد فى قوته أى فتق فى القوة التى تحاصره .

وخرجنا من الشط الى الدويـم حيث عرض المهدى الجيش عرضا عظيما وأشار الى النيل وقال : « ان الله قد خلق هذا النهر ووهبكم مياهه لتشربوها وقسم لكم أن تملكوا جميع ما على ضفتيه من أرض » فهتف له الجميع هتاف الفرح والسرور وكل منهم يعتقد أن تلك البلاد العجيبة قد وقعت فريسة للمهديين .

وغادرنا الدويم الى طرة الحضرة حيث قضينا أيام العيد • وكان أوليفيه بان الفرنسى قد أصيب بحمى ولما زرته قال لى : « لقد جازفت جملة مجازفات فى حياتى دون أن أفكر فى نتائجها ولكن مجيئى هنا غلطة فادحة . وقد كان أصلح لى لو أنى وقعت فى يد الانجليز ومنعونى من تنفيذ ارادتى » • وكنت أجهد جهدى لكى أعزيه وأسرى عنه ولكنه كان يقابل كلامى بهز رأسه •

وفى العيد صلى المهدى بصوت عال غير عادى • ولما وصل الى الخطبة بكى وانتحب انتحابا مرا • وكنا نحن الذين لا يؤمنون بدعوته نعرف أن هذا البكاء نفاق لن يعقبه خير لأحد ولكن كانت له النتائج المرغوبة فان قبائل النيل الأبيض سارعت الى الانضواء تحت رايته وتحمس الناس أشد تحمس لسماعهم خطبته •

وبعد أن استرحنا يومين استأنفنا السفر ، وكنا نزحف زحفا كالسلحفاة لكثرة جموعنا وازدياد عددهم يوما بعد يوم • وكانت حالة أوليفيه بان تسوء كل يوم وتبين أن ما به هو التيفوس • ورجانى أن أطلب من المهدى بضعة نقود لأن الذين يعنون به يضايقونه بما يطلبونه منه • ففعلت وأمر المهدى أمين بيت المال بأن يعطيه خمسة جنيهات ودعا له بالشفاء • وأخبرت الخليفة بحال بان وبأن المهدى وهبه خمسة جنيهات فلامنى لأنى فعلت ذلك بدون اذنه . وقال لى : « اذا مات هنا فانه يكون سعيدا فان الله بقدرته قد نقله من الكفر الى الايمان » •

وفى صباح اليوم التالى أرسل الى بان فذهبت ووجدته ضعيفا لا يقوى على النهوض • وكان قد مضى عليه يومان لم يذق فيهما شيئا من الطعام الذى كنت أرسله له ، ولما قعدت الى جانبه وضع يده فى يدى وقال : « لقد جاءت ساعتى • وأنا أشكر لك

حنوك علي ورعايتك لى • وآخر ما أطلبه منك من المعروف اذا نجوت من هؤلاء المتوحشين وأتيحت لك الفرصة بزيارة باريس أن تذهب الى زوجتى المسـكينة وأولادي وتخبرهم أنى وأنا أموت كنت لا أفكر الافيهم » •

وكان وهو يقول هذا الكلام تنحدر العبرات على خديه الغائرين • وعدت الى تعزيته وتقويته ولكنني سمعت قرع الطبول فاضطررت الى تركه • وكانت هذه آخر مرة رأيته فيها • وأمرت أحد خدمى المدعو نطرون أن يبقى معه • ثم ذهبت الى الخليفة فأخبرته بحالته السيئة ورجوته أن يأمر بابقائه في احدى القرى حتى يشفى • فوافق الخليفة على مقترحي وطلب منى أن أذكره بهذه المسألة عند الغروب •

ثم جاء الغروب ولكن المريض لم يجيء بل جاء نطرون وحده فقلت له وكان يتفزز من خاطر يساوره : « أين يوسف ؟ » ويوسف هذا هو اسم أوليفيه بان الذى تسمى به حين صار مسلما •

فقال : « مات سيدى • وهذا سبب تأخيرنا • وقد دفناه » •

فدهشت وقلت : « كيف مات ؟ أخبرنى عما حدث » •

فقال : « اشتدت به علته حتى لم يستطع الركوب ولكنا كنا مضطرين الى السير • وكان من وقت لآخر يغيب عن وعيه ثم يفيق ويتكلم بكلمات لا نفهمها فوضعنا على سرج الفرس عنجريبا وربطناه به ، وجعلناه يرقد عليه ولكنه كان من الضعف بحيث لم يتماسك فوقه فوقع فجأة ولم يفق بعد ذلك ثم مات فكفناه فى شال من القطن ودفناه وأخذ زكى جميع أمتعته » •

فتبين لى أن مرضه كان قد بلغ به وأن السقطة قد عجلت الموت وكانت السبب المباشر له . يا له من مسكين . جاء الينا وآماله لا تسعه ثم تكون هذه خاتمته ؟

وذهبت فى الحال الى الخليفة فأخبرته بوفاته فقال : « انه لسعيد » ثم أرسل الى زكى أحد الملازمين لكى يأمره بالاحتفاظ بأمتعته ثم أرسلنى أنا الى المهدى لكى أخبره بوفاته . وتأثر الخليفة وقال بضع كلمات تدل على عطفه وحنانه ثم تلا صلاة الموتى .

وبعد ثلاثة أيام اقتربنا من الخرطوم وصرنا على مسيرة يوم منها . وكنا ونحن فى الطريق قد رأينا بواخر غوردون فى النهر وبدا لنا أنها أتت الينا للاستطلاع ثم عادت بدوران تطلق عيارا .

ولما جاء المساء وضربنا خيامنا جاءنى ملازم من المهدى وطلب منى أن أذهب اليه فذهبت ووجدته قاعدا مع عبد القادر وأدام مريم وكان قاضيا سابقا وله نفوذ عظيم بين قبائل النيل الأبيض . وكان حسين خليفة هناك فصرت أنا رابعهم .

فقال المهدى : « بعثت فى طلبك لكى تكتب الى غوردون أن يسلم المدينة فلا يتعرض للهزيمة . وأخبره بأنى المهدى الصادق فعليه تسليم الحامية فيسلم . وأخبره أيضا أنه اذا رفض التسليم فاننا سنقاتله جميعا ، وقل له انك ستقاتله أنت بنفسك وان النصر مضمون لنا وانك انما تقول له ذلك حقنا للدماء » .

فالتزمت الصمت حتى دعانى حسين خليفة للاجابة فقلت : « مولاى المهدى . أرجوك أن تنصت الى فانى أريد أن أكون أمينا مخلصا فلا تغضب اذا وجدت فى قولى ما يخالف رأيك . فانى اذا كتبت الى غوردون أقول له انك المهدى المنتصر فانه لا يصدقنى

وإذا هددته بأنى أقاتله بيدى فهو لا يخاف من ذلك شيئا • ولما كانت رغبتك الوحيدة هى حقن الدماء فانى أطلب منه التسليم فقط • وسأقول له انه ليس عنده من القوة ما يمكنه من قتال المهدى وانه لا أمل له فى الحصول على معونة أحد ثم أقول انى سفير الصلح بينك وبينه » •

فقال المهدى : « أنا موافق على ما تقول • اذهب الآن واكتب الخطابات وفى الغد تحمل الى غوردون » •

فذهبت الى خيمتى وكانت خيمتى قد تمزقت وبليت فأهديتها الى بعض من حولى ونصبت بدلا منها بعض الملابس على عصى كنت أجلس تحتها وأتظلل بها فى النهار • أما فى الليل فكنت أنام فى الخلاء • وبحثت عن مصباح وأخذت فى كتابة الخطابات وأنا قاعد على عنجريب • وكتبت أولا بضعة سطور لغوردون باللغة الفرنسية قلت انى قد فقدت المعجم الفرنسى لأن المهديين قد أحرقوه ولذلك فأنا أكتب بالألمانية حتى يمكننى التعبير باسهاب عن أغراضى ـ وقلت انى أؤمل أن ألاقيه قريبا وأنى أدعو الله لنصره • وقلت أيضا ان بعض الشايجية الذين انضووا قريبا الى راية المهدى لم يفعلوا ذلك الا خوفا على أنفسهم وأولادهم وأن صدورهم لا تحمل الحقد أو البغضاء لغوردون •

ثم كتبت خطابا مسهبا بالألمانية قلت فيه أنى سمعت من جورج كالامنتينو أنه (أى غوردون) قد غضب من تسليمى للمهدى وانى لذلك أوضح الحقائق راجيا منه أن ينظر فيها ويعتبرها ثم شرعت فى شرح التجريدات التى جردتها لمقاتلة السلطان هرون » ثم قلت انه عند بدء الثورة المهدية كان الضباط الذين فى جيشى يسمعون أخبارا عن عرابى وأنه طرد الأوربيين من مصر وأن هزائمى تعزى الى أنى غير مسلم • فاضطررت لذلك الى القضاء على هذه

الدسائس بالادعاء بأنى مسلم ونجحت بهذه الطريقة الى أن اصطلم جيش هكس وانقطع كل أمل فى المعـونة . وأخبرته عن تناقص جيشى بالحروب المتوالية حتى صار عدده لا يبلغ بضع مئات من الجنود وأن الذخيرة نفدت أو كادت . وأن الضـبـاط والجنـود طالبونى بالتسليم فلم يكن بد بعد ذلك بصفتى أوربيا وحيدا من الخضوع · وأخبرته بأن هذا التسليم كان من أشق الأعمال على · ولكننى شعرت باعتبارى ضابطا نمسويا أنى عملت عملا لا أخجل منه · ثم قلت انى بما سلكته من المسلك الحسن مع الخليفة والمهدى قد حصلت على ثقتهما حتى أذنا لى بالكتابة اليه بحجة أنى أطلب منه التسليم ، ولكننى أعرض عليه نفسى لكى أقاتل معه حتى الموت أو النصر · فاذا وافق على قرارى لكى أنضم فأنا أرجو أن يكتب الى بضعة أسطر بالفرنسية بهذا المعنى · ولكن لكى تجوز الحيلة يجب أن يكتب الى بضعة سطور بالعربية أيضا ، يطلب منى فيها أن أستاذن المهدى لكى أذهب الى أم درمان للمفاوضة فى الصلح والتسليم ثم أشرت الى ولاء صالح بك وبعض المشايخ الآخرين له ولكنهم لا يمكنهم أن يفروا اليـه لأنهم فى هذه الحالـة يضحون أولادهم وزوجاتهم ·

ثم كتبت خطابا آخر بالألمانية الى القنصل هانسل أرجوه أن يعمل كل ما فى جهده لكى أعود الى الخرطوم وانى اذا رجعت الى الخرطوم أكون ذا فائدة كبيرة لأنى أعرف مقاصد المهدى ومبلغ قوته وما الى ذلك · ولكنى أخبرته بأنه فى حالة انعقاد النية على تسليم الخرطوم لا داعى لى للهرب فقد ذاعت اشاعة بين رجال المهدى مقتضاها أنه اذا لم تأت معونة لغوردون فانه سيسلم . وبديهى أنه اذا سلم غوردون ووجدنى المهدى قد فررت اليه فانه يصرف غضبه كله الى لأنى عاونت عدوه عليه ·

وقد بدا لى أنه من الانصاف والعقل أن أتأكد من هذه المسألة ۰ وكانت الاشاعات القائلة بأن حامية الخرطوم قد سئمت القتال تروج بيننا وأنها تنوى التسليم فشددت لذلك من عزم هانسل وقويته على الثبات وأن قوات المهدى ليست بالكثيرة التى يشاع عنها ۰ وانه يكفى الجيوش المصرية أن تثبت وتنشط حتى يحق لها النصر وحضضته على الثبات ستة أسابيع على الأقل حتى تتمكن النجدات من انجادهم (ولما عدت الى القاهرة فى سنة ١٨٩٥ علمت أن خطاباتى هذه قد بلغت الى ولاة الأمور الانجليز وطبعت مع يوميات غوردون) ۰

وأخبرته أن عندنا اشاعة تقول أن الباخرة الصغيرة التى أرسلت الى دنقلة قد تحطمت فى وادى غمر ولكننى لا أعرف مبلغ هذه الاشاعة من الصحة أو الكذب ۰

وفى صباح اليوم التالى فى ١٥ أكتوبر أخذت هذه الخطابات وذهبت الى المهدى وأخبرته بأن يرسلها مع أحد خدمى الى أم درمان ۰ ثم ذهبت وبحثت عن الصبى مرجان فورا وكان عمره يومئذ ١٥ سنة فسلمته الخطاب أمام المهدى ۰ وأمر المهدى واد سليمان بأن يعطيه حماراً ومقدارا من النقود ۰ وقبل أن يغادرنا مرجان أمرته وأكدت عليه بألا يخاطب أحدا سوى غوردون والقنصل هانسل وأن يقول لهما بأنى أرغب فى الذهاب اليهما ۰

وفى الظهر جاءنا فرسان من بربر وأكدوا لنا رواية تحطيم الباخرة وقتل الضابط ستيوارت ومن معه ۰ وأحضروا معهم جميع الأوراق والوثائق التى كانت فى الباخرة وأمرنى الخليفة بأن أقرأ ما هو مكتوب منها باللغات الأوربية ۰ ووجدت بين هذه الأوراق جملة خطابات مرسلة من الخرطوم ووثائق رسميه اخرى ۰

وكان أهم ما في الأوراق التقرير الحربي الذى يصف الحوادث اليومية في الخرطوم • ولم يكن ممهورا بتوقيع ولكننى لم اشك فى أن كاتبه هو غوردون ولم أطلع الا على جزء من المكاتبات التى لم أتمكن من قراءتها قبل أن دعاني المهدى وسألنى عن محتويات هذه الأوراق فاجبته بأن معظمها رسائل شخصية وأن بها تقريرا حربيا لم أفهمه . وكان بين هذه المكاتبات لسوء الحظ بعض الخطابات والتقارير المكتوبة بالعربية تمكن المهدى والخليفة أن يقفا منها على الحالة فى الخرطوم • وكان بينها خطاب نصفه بالأرقام ونصفه بالحروف مرسل من غوردون الى الخديو وقد تمكن عبد الحليم أفندى الكاتب السابق في كردوفان أن يفهمه • ووجدت بين تقارير القنصليات خبر وفاة صديقى أرنست مارتو الذى مات فى الخرطوم من الحمى •

وناقشنى المهدى فى الأورق التى نرسلها الى غوردون لكى نقنعه بأن الباخرة قد تحطمت وأن الضابط ستيوارت قد قتل وكان يعتقد أن هذا يجعل غوردون مضطرا الى التسليم • فأشرت على المهدى بأن أحسن ما يقنعه هو تقريره الحربى وأنه يجب لذلك رده اليه • وطال الجدال فى هذا الموضوع وأخيرا استقر الرأى على مقترحى •

وفى مساء اليوم الثانى عاد الى مرجان الذى كنت أرسلته بخطاب الى غوردون وغيره ولكنه لم يحضر معه جوابا • فلما سألته عن سبب ذلك قال انه عندما وصـــل الى قلعة أم درمان وسلم الخطابات خرج اليه بعد مدة ضابط القلعة وأخبره بأن يعود وأنه لن يجاوب على الخطابات •

وأخذت هذا الصبى فى الحال الى المهدى فأعاد هذا الجواب ثم ذهبت الى الخليفه وأخبرته بما جرى • وفى المساء نفسه دعانى

المهدى وأمرنى بأن أكتب خطابا آخر وقال انه متأكد أن غوردون سيجاوب عندما يسمع بتحطيم الباخرة • وأبديت استعدادا فى الحال لطاعة أمره وأشار على بأن يحمل مرجان هذا الخطاب أيضا فذهبت الى مكانى على العنجريب وقعدت الى ضوء مصباح ضعيف وكتبت بضع كلمات عن فقدان الباخرة ووفاة ستيوارت وذكرت جملة أشياء كنت قد شرحتها فى خطاباتى السابقة وقلت له أنه اذا كان يعتقد أنى أتيت أمرا يخالف واجبات الضابط وان هذا هو الذى منعه من الاجابة على خطاباتى فأنا أرجوه أن يتيح لى الفرصة لكى أدافع عن نفسى حتى يحكم على حكما سديدا •

وفى الصباح ذهبت مع مرجان الى المهدى • وأمر المهدى أحمد واد سليمان أن يعطى مرجان حمارا وسلمه خطابى ثم سافر مرجان وجاءنا بعد يوم ومعه جواب من هانسل مكتوب بالألمانية ومعه ترجمة بالعربية وهذا نصه :

عزيزى سلاطين بك •

لقد وصلت خطاباتك وأنا أعرض عليك أن تمضى الى طابية راغب بك (فى قلعة أم درمان) وأنا أرغب فى أن أخاطبك بشأن الاجراءات الخاصة بتخليصنا • ويمكنك أن ترجع بعد ذلك الى صديقك •

المخلص لك

هانسل

ولم أفهم المقصود من هذا الخطاب • هل غايته الحقيقية خدع المهدى ؟ اذ لو كانت هذه هى الغاية لكانت الصيغة العربية كافية ثم خطر ببالى أنه كان يمكنه أن يوضح غرضه باللغة الألمانية ولكن لعله توقى ذلك خشية وجود أحد فى معسكرنا يفهم هذه اللغة

فيغرر بى • واعتبرت ألفاظ الخطاب فوجدته يقصد أو يلمح الى انضمامه الينا • وقد كانت راجت بيننا اشاعات عن خوفه من سقوط المدينة ورغبته هو وسائر الضباط النمسويين فى التسليم للمهدى • ولكن لم يكن من الممكن أن يبت الانسان فى هذه النية • ثم قوله : « ويمكنك بعد ذلك أن ترجع الى صديقك » هل يقصد به رجوعى الى المهدى أو رجوعى الى غوردون والحق أنى قد غطى على المعنى ولكنه كشف لى بعد مدة قليلة •

وأخذت الخطاب فى الحال الى المهدى وأخبرته بأن النص العربى يوافق النص الألمانى • ولما أتم قراءته سألنى هل أرغب فى الذهاب اليه فأجبت بأنى مستعد لتلبية أمره وأنى على الدوام طوع اشارته •

فقال لى : « انى أخشى أنك اذا ذهبت الى أم درمان ولقيت القنصل يقبض عليك غوردون ويقتلك لأنى لا أعرف السبب فى عدم كتابته اليك لو كان يحسن بك الظن » •

فقلت : « لست أعرف سبب سكوته عن الرد وربما كان عنده من الأوامر ما يمنعه من مخاطبة العدو • ولكنى أظن أنه يمكن تسوية الحالة عندما التقى بـ « هانسل » وأنت تقول ان غوردون ربما يقبض على ولكنى لا أخشى ذلك ولو حدث هذا لأمكنك أن تخلصنى • أما أنه يقتلنى فهذا ما لن يحدث » •

فقال المهدى : « اذن يمكنك أن تستعد للسفر وتنتظر أوامرى » •

وكنت عند ذهابى الى عشة المهدى قد سمعت بمجىء لبتون بك من بحر الغزال • وعند رجوعى الآن ذهبت اليه ووجدته واقفا بباب

الخليفة ينتظر الاذن بدخوله ٠ ولم يكن من القواعد المرعية أن يخاطب الانسان أحدا لم يحصل بعد على عفو المهدى فقال لى انه يؤمل الأمل كله ان أذهب الى الخرطوم ٠ وقال أيضا أنه ترك خدمه واتباعه على مسيرة ساعات من المعسكر وطلب منى أن أستأذن الخليفة فى مجيئهم ٠ وبعد دقائق دعاه الخليفة فعفا عنه وأذن له باحضار أتباعه وأخبره أنه سيقابل المهدى ٠

وذهبت أنا الى مكانى وقعدت على العنجريب وأنا فى أشد القلق أنتظر الأوامر لكى أذهب الى أم درمان ٠ وكان يخطر ببالى وأنا قاعد أن المهدى ربما قد غير فكره ورجع عن عزمه بشأن سفرى ٠ وأخيرا جاءنى خادم يخبرنى أن الخليفة أرسل ملازميه فى طلبى ٠ فلما نهضت أخبرنى الملازم أن أسير معه الى عشة يعقوب حيث كان أخوه الخليفة ٠ فسارعت الى عمامتى فتعممت واحتزمت وسرت وراءه ٠ ولكن لما بلغنا يعقوب قيل لنا أن الخليفة قد غادرها الى عشة أبو انجه ٠ وداخلنى شك فى هذا التطواف فى الليل اذ لم تكن هذه عادتنا وكنت أعرف مقدار ما عند هؤلاء الناس من المكر والخديعة فاستعددت لأى حادث ٠ ولما بلغنا زريبة أبو انجه أذن لنا بالدخول ٠ وكانت هذه الزريبة واسعة وكان بها مظلات من قماش كل منها قائمة على عمود من خشب وكل واحدة منفصلة عن الأخرى بحائط من الذرة ٠ وذهبنا فى ضوء مصباح الى احدى هذه المظلات فوجدت يعقوب وأبو انجه وفضل المولى وزكى طومال والحاج زبير قاعدين فى حلقة يتكلمون بجد ونشاط ٠ وكان وراءهم بضعة رجال قد وقفوا وهم مسلحون ولكنى لم أجد أثرا للخليفة الذى قيل لى أنه يستدعينى وتأكدت عندئذ أن هناك مؤامرة على ٠ وتقدم الملازم وخاطب يعقوب ثم أمرت بالتقدم وقعدت بين الحاج زبير وفضل المولى مواجها لأبو أنجه ٠

فخاطبني أبو انجه قائلا : « لقد وعدت المهدي يا عبد القادر أن تخلص له » . وواجب عليك أن تفي بوعدك . ثم عليك أن تطيع الأوامر وان كان فيها ما يؤلمك . أليس كذلك ؟ » .

فقلت : « هذا حق . وأنت يا أبو انجه اذا سلمت لي أمرا من المهدي أو من الخليفة تجدني مطيعا » .

فقال : « اني أمرت بالقبض عليك ولكن لا أعرف السبب » وعندما قال هذا استل الحاج زبير سيفي وكنت قد وضعته على ركبتي كما هي العادة ثم سلمه لزكي طومال وقبض بكلتا يديه على ذراعي اليمنى .

فقلت للحاج زبير : « لم آت هنا لكي أقاتل فعلام تقبض على ذراعي ولكن افعل ما أمرت به يا أبو انجه » .

وهكذا قضى علي بما كنت أقضي به على غيري ، ثم وقف أبو انجه والحاج زبير وخلى ذراعي . ثم أشار أبو انجه الى مظلة في الظلام وقال : « اذهب الى هذه المظلة » .

فرافقني السجان ومعه ثمانية آخرون الى المظلة ثم طلب مني أن أقعد على الأرض واحضرت لي السلاسل . وقعدت فوضع في كل من ساقي حلقة طرقت حتى تضام طرفاها . ثم وضع حول عنقي حلقة أخرى وبها سلسلة كانت تعوق حركة عنقي . وتحملت كل ذلك وأنا صامت . ثم غادر الحاج زبير وقال لي الحارسان اللذان تركا معي أن أقعد على الحصير الذي بجانبي .

والآن بدأت أفكر وكنت ألوم نفسي على أني لم أجازف وأفر الى الخرطوم على جوادي . ولكن هل كان غوردون يقبلني وقد ضربت

بعيدا عن الخطر كما قال المهدى ؟ ولكن ما هو حظى الآن ؟ هل هو حظ محمد باشا سعيد وعلى بك شريف ؟ ولم تكن عادتى التفكير فى همومى الشخصية وتذكرت قول الماذبو : « كن مطيعا وصبورا . الى عمره طويل بيشوف كتير » . وقد مارست الطاعة والآن يجب أن أمارس الصبر . أما العمر الطويل ففى يد الله وحده .

وبعد ساعة لم أنمها بالضرورة رأيت عددا من الملازمين يقتربون منى ومعهم المصابيح وعندما اقتربوا رأيت بينهم الخليفة عبد الله فوقفت وانتظرت .

ورآنى واقفا أمامه فقال : يا عبد القـادر هل سلمت أمرك للقدر ؟

فقلت بلهجة الاطمئنان : منذ كنت طفلا . لقد اعتدت الطاعة والآن يجب أن أطيع أردت أو لم أرد .

فقال : « ان صداقتك لصالح واد الملك وخطاباتك لغوردون قد جعلتنا نشتبه فى أمرك . وهذا هو ما ألجأنى الى أن أجبرك على أن تسير فى الطريق القويم .

فقلت : « اننى لم أخف صداقتى مع صالح واد الملك . انه صديقى وأظن أنه مخلص لك . أما خطاباتى لغوردون فقد أمرنى المهدى أن أكتبها » .

فقال الخليفة : هل أمرك بأن تكتب ما كتبت ؟

فقلت : « لقد كتبت ما أمرنى به المهدى ولا يمكن لأحد أن يعرف محتويات هذه الخطابات سواى أنا ومن كتبت اليه . وكل ما أرجوه يا مولاى هو العدل وألا تصغى لأقوال الدساسين » .

ثم غادرني فحاولت أن أنام ولكن أعصابي كانت هائجة . فكانت الخواطر المختلفة تمر برأسي . وكان الحديد حول عنقي وساقي يؤلمني أشد الألم فلم يكن النوم مستطاعا . وما كدت أغفي تلك الليلة برهة قصيرة . وفي شروق الشمس جاءني أبو انجه ومعه خدم يحملون طعاما . وقعد على الحصير الى جانبي ووضع بيننا الطعام . وكان الطعام فاخرا يحتوي على فراريج ورز ولبن وعسل ولحم مشوي وعصيدة . ولكنني قلت له أنه ليست عندي شهوة للطعام فقال لي : « أظنك خائفا يا عبد القادر ولهذا لا يمكنك أن تأكل » فقلت : « كلا . لست أخاف شيئا . وانما لا أشتهي الطعام الآن . ومع ذلك سآكل شيئا حتى لا تستاء » ، ثم بلعت لقمتين وكان أبو انجه يتودد الى ويظهر لي أني ضيفه المكرم .

ثم قال لي : « لقد استاء الخليفة لأنك لم تظهر له خضوعا وقال انك عنيد ، وان هذا في رأيه هو السبب في عدم خوفك » .

فقلت : « هل كان يجب علي أن ألقي نفسي على قدميه وأطلب منه العفو عن جرائم لم أرتكبها . أنا في يديه فليفعل بي ما يشاء » .

فقال : « غدا سنتحمل ونسير نحو الخرطوم ونضيق الحصار على المدينة ثم نهجم هجمة واحدة وسأطلب من الخليفة أن تبقى معي وسيكون هذا أهون عليك من ذهابك الى السجن » .

فشكرته وغادرني .

وقضيت اليوم كله وأنا وحدي . وكنت أؤدي الصلاة بعناية أمام الحرس وغيرهم وكان في يدي مسبحة أسبح بها كما هو الشأن بين المسلمين الطيبين . ولكن الحقيقة أنني كنت أكرر عليها صلاة النصارى . (أبانا الذي في السموات) .

وكنت أرى على مسافة منى خيولى وخدمي وسائر أمتعتى .
وجاء أحد خدمى الى وأخبرنى بأنه أمر بأن يلتحق بأبى انجه

وفى بكور اليوم التالى قرعت الطبول للتقدم فقوضت الخيام وحملت الجمال وتحرك المعسكر بأجمعه . وكان الحديد فى ساقى يمنعنى من المشى . فأحضروا لى حمارا وكانت السلسلة المربوطة بها الحلقة التى حول عنقى طويلة تحتوى عى ٨٣ حلقة كنت أسلى نفسى بعدها وأطويها طيات حول جسمى وحملت الى ظهر الحمار يسندنى من كل جانب رجل حتى لا أقع وكنت وأنا سائر يمر بى أصدقائى فيتحسرون ولا يجسرون على مخاطبتى ووقفنا بعد الظهر على ربوة أمكنتنا من رؤية نخيل الخرطوم فشعرت بالشوق الشديد يغالبنى للانضمام الى الحامية .

ثم حططنا وأمرنا بضرب خيامنا مؤقتا تحت امرة الخليفة عبد الله . أما الأمراء الآخرون فقد ذهب كل منهم بجنده واختار مكانا لمعسكره . وكنت فى هذا الوقت قد شعرت بالجوع الشديد واشتقت الى شيء من الطعام الذى قد قدمه لى أبو انجه فى الأمس . ولكن أبا انجه كان قد التحق بالخليفة وكان قد نسينى

وحدث أن زوجة أحد الحراس اهتدت اليه وأحضرت له خبزا من الذرة فأكلت معه وفى الصباح استأنفنا مسيرنا وبقينا نمشى نحو ساعة ثم حططنا ثانيا فى المكان الذى اختير نهائيا للمعسكر .

وكان أبو انجه قد رتب كل شيء لكى أبقى معه ولا أرسل الى السجن فنصبت لى خيمة ممزقة قديمة وضع حولها زريبة من الشوك فقعدت تحت هذه الخيمة ووضع على بابها ديسة من الشوك يليها الحرس .

وأمر المهدى الآن بتضييق الحصار • وفى المساء أرسل عددا من الأمراء الى الضــفة الشرقية لمعونة واد النجومى وأبى حرجه وطلب من جميع أهالى هذه الناحية أن ينضموا الى المحاصرين • وأمر أبو انجه وفضل المولى بأن يذهبا الى قلعة أم درمان لحصارها وكانت تقع على بعد ٤٠٠ متر من النهر من الضفة الغربية وكان يدافع عنها فرج الله باشا وهو ضابط سودانى ترقى من رتبة كابتن فى عام واحد الى أن صار قائدا للقلعة • وكان الذى رقاه بهذه السرعة غوردون • وتمكن أبو انجه من أن يحفر الخنادق بين القلعة والنهر ويضع فيها جنوده على الرغم من اطلاق النار عليه من البواخر والقلعة • بل تمكن أبو انجه من أن يغرق احدى هذه البواخر وهى الباخرة « حسينية » بواسطة مدفع سدد مرماه اليها • ولكن البحارة فروا الى الخرطوم •

وأهمل أمرى مدة الحصار وكان حرسى يغير كل يوم وكانت معاملتهم تختلف • وكانت الرقابة تشتد على اذ كان الحرس مؤلفا من عبيد أسرى ولكن اذا كانوا جنودا يعرفوننى فاننى كنت الاقى منهم بعض الحرية وكانوا يؤدون لى الخدمات الصغيرة ولكنهم كانوا يمنعوننى من مخاطبة أى انسان • وكان طعامى سيئا وكان أبو انجه مشتغلا بالحصار فبقيت أنا مدة غيابه تحت رحمة زوجاته وكان قد أمرهن باطعامى •

وحدث فى احدى المرار أن حارسى كان أحد جنودى القدماء فبعثته برسالة الى رئيسة زوجات أبى انجه أشكو اليها عدم اطعامى مدة يومين : فأرسلت الى جوابها تقول : « هل يظن عبد القادر أننا نسمنه هنا بينما عمه غوزدون باشا لا عمل له الا فى القاء القنابل على زوجنا الذى ربما يقتل بسببه » •

وقد كانت هذه المرأة مصيبة فى قولهـــا اذا اعتبرت وجهة نظرها ٠

وكان يسمح أحيانا لبعض اليونان بالمجىء الى ومخاطبتى وكانوا يخبروننى بما يجد من الأخبار ٠

وكنا عندما حططنا رحالنا هنا قد قبض على لبتون بك وقيد بالسلاسل بتهمة محاولة الانضمام الى غوردون ٠ ولما فتشت أمتعته وجدت فيها وثيقة وقع عليها الضابط مؤداها أنه اضطر الى تسليم المديرية وأخذت زوجته وابنته البالغة من العمر خمس سنوات الى بيت المال ٠ وكانت زوجته زنجية فى خدمة « روسيت » القنصل الألمانى من الخرطوم ولما عين مديرا فى دارفور ذهبت معه ٠ فلما مات فى الفاشر التحقت بلبتون بك وسافرت معه الى بحر الغزال ٠ وأمر الخليفة بتصفية جميع ما يمتلكـه لبتون ولكنه أذن لزوجـة لبتون وابنته بأن يكون معهما خادم ٠

وفى أحد الأيام جاءنى جورجى كالامنتينو وأخبرنى بأن الجيش الانجليزى بقيادة ولسون يتقدم نحو دنقلة ٠ ولكنه لا يزال فى صعيد مصر وان كانت الطلائع قد بلغت دنقلة ٠

وكان غوردون بعد أن أذاع منشور اخلاء السودان قد أفهم أهالى الخرطوم أنه سيجىء اليهم جيش لانجادهم ٠ وتمكن من بث روح الشجاعة والرجاء فى جنود الحامية ، ولكن بقى الشك فى ميعاد مجىء الجيش وهل يأتى قبل فوات الفرصة ؟

وفى أحد الأيام جاءنى ملازم من قبل الخليفة وطوق عنقى وساقى بملفات أخرى غير ما كان على وأضاف اليها قضيبا من حديد وظننت أن الغرض من ذلك اذلالى ٠ وكنت لا أقوى قبلا على النهوض

لثقل ما أحمله من القيود فلم تزد اضافة هذه القيود الجديدة شيئا لأنى كنت راقدا طول الوقت ٠

ومضى اليوم التالى دون أن يحدث فيه شيء ٠ وكنت أسمع من وقت لآخر فرقعة العيارات بين المحصورين والمحاصرين ولكن اليونان الذين كانوا يزودوننى قبلا من الأخبار منعوا الآن من مخاطبتى فبقيت لذلك فى جهل من كل ما يجرى حولى ٠

وفى احدى الليالى بعد غروب الشمس بنحو أربع ساعات عندما كان النوم يتسلل الى أعضائى وينسينى ما أنا فيه أمرنى الحارس بأن أنهض فى الحال فوقفت ورأيت ملازمى الخليفة اللذين أخبرونى بأن الخليفة فى أثرهم قادم الى ٠ ثم رأيت جماعة تحمل مصابيح فأخذت أسائل نفسى : لم يأتى الى الخليفة الآن ؟ ٠

ولما اقترب الخليفة منى قال لى بلهجة الملاطفة : « يا عبد القادر اقعد » ٠

ثم بسط له خدمه فروته فقعد الى جانبى وقال : « هنا ورقة أرغب فى أن تخبرنى عما فيها لكى تثبت لى أمانتك » فأخذت الورقة وقلت : « سأفعل يا مولاى » ٠

وكانت الورقة لا تزيد فى الحجم على نصف ورقة سيجارة ، وقد كتبت من الجانبين وكان مكتوبا عليها باللغة الفرنسية ما يلى :

« عندى عشرة آلاف رجل تقريبـــا ٠ ويمكننى الدفاع عن الخرطوم الى آخر شهر يناير ٠ والياس باشا كتب الى ٠ وقد أجبر

على ذلك . انه رجل مسن وغير كاف . أنا أغفر له . جرب محمد أبو حرجه أو غن لنا اغنية أخرى » .

« غوردون »

ولم يكن هناك ما يشير الى الشخص المرسلة اليه هذه الرسالة . وكنت متأكدا بأنه ليس في معسكرنا من يعرف الفرنسية وهذا هو سبب مجيء الخليفة الى .

فقلت : « الرسالة من غوردون وهى مكتوبة بخطه بلغة جفرية لا يمكننى أن أفهمها » .

فقال الخليفة وقد بدا عليه الغضب : « ماذا تقول ؟ أوضح ما تقول » .

فقلت : « هنا كلمات لا أدرك معناها . فان لكل كلمة معنى خاصا ولا يمكن أن يفهمها الا من اعتاد تفسير الجفر . ولو سألت أحدا من الموظفين السابقين لأكد لك صحة قولى » .

فهاج الخليفة وصاح بى غاضبا : « أليس فى الرسالة اسم الياس باشا واسم محمد أبو حرجه » .

فقلت بلهجة التهكم : « لقد صدق من أخبرك بهذا فانى يمكننى أن أقرأ اسميهما ولكن لا أفهم شيئا عما يقصد من ذكرهما . ولعل الذى أخبرك بهذين الاسمين يمكنه أن يفسر سائر ما فى الرسالة . ثم انى أجد فيها أيضا رقم ١٠٠٠٠ ولكن لا أعرف هل المقصود منه عدد الجنود أو غير ذلك » .

فأخذ الورقة من يدى ونهض وهو يقول : « انى مهما عجزت عما فى هذه الورقة فان غوردون سينهزم وستسقط الخرطوم » ثم تركنى مع الحرس .

والآن عرفت أن غوردون يقول أنه يمكنه الثبات الى آخر يناير وكنا فى أواخر ديسمبر فهل يمكن انقاذ البلدة قبل فوات الفرصة ؟ ولكن ماذا يعنينى من كل ذلك ؟ هاأنذا مقيد بالسلاسل ولست أقدر على عمل شىء يغير مجرى الحوادث .

وبلغنا أول يناير الذى يقول غوردون أنه يمكنه أن يتبت فيه الى آخره وأخذت أشعر أن الساعة الحاسمة تقترب .

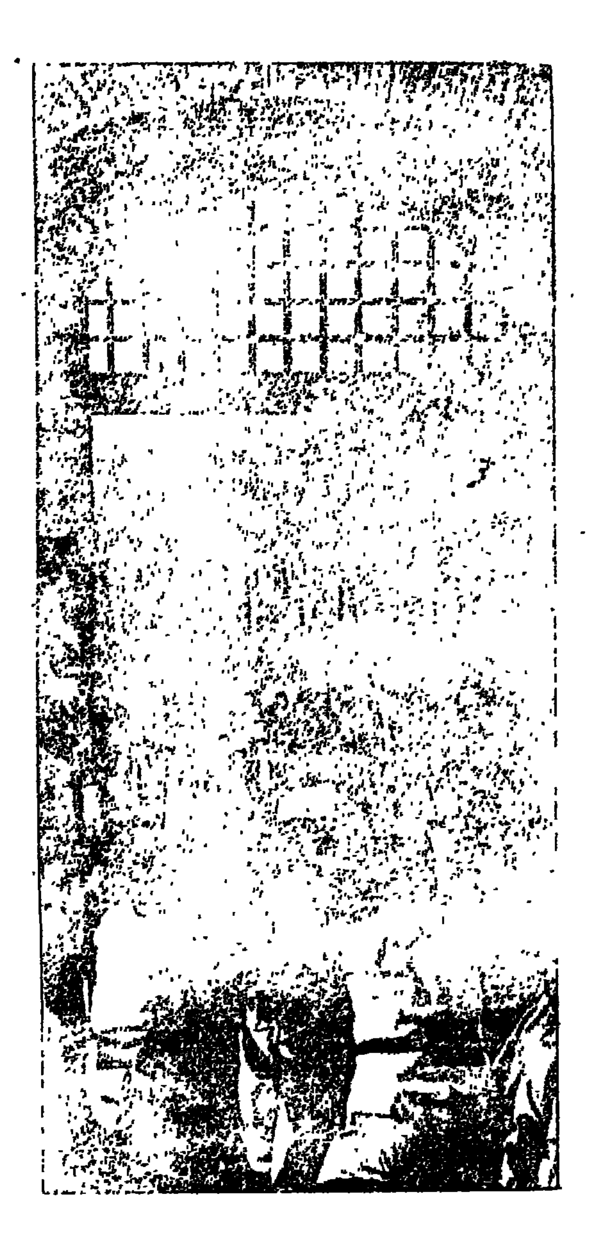
واشـتد القتال بين قلعة أم درمان وبين الدراويش وكان فرج الله باشا يجهد جهده وحاول على الرغم من قلة عدد الحامية أن يفتق فتقا فى القوة المحاصرة ويخرج ولكنه رد الى القلعة ثانيا . وفقدت مؤونة القلعة وشرع عندئذ فى مفاوضات التسليم . وكان فرج الله قد خاطب غوردون بالرايات عن التعليمات الواجب اتباعها فأذن له غوردون فى التسليم اذا لم يكن قادرا على الثبات . وعفا المهدى عن جميع رجال الحامية ولما خرجت الحامية دخل رجال المهدى ولكنهم خرجوا فى الحال لأن مدفعية الخرطوم أمطرتهم وابلا من القنابل وكان فى القلعة مدفعان ولكن مداهما أقصر من المسافة التى بينهما وبين البلدة وحدث التسليم فى ١٥ يناير سنة ١٨٨٥ .

ووقع أن أم درمان سقطت فان المهدى لم يرسل أى امداد للمحاصرين فى شرقى الخرطوم وجنوبها لأنه كان يعرف أن القوة المحاصرة تكفى للمهمة المنتدبة لها وكان كما كانت حامية الخرطوم كلاهما ينظر بعين القلق الشديد الى الشمال حيث تكون الكلمة الفاصلة .

وكان غوردون باشا قد أرسل الى متمه خمس بواخر بقيادة خشم الموس وعبد الحميد واد محمد لكي تنتظر مجيء الانكليز وتجيء بهم الى الخرطوم بأسرع ما يمكنها وكان غوردون ينتظر مجيئهم بغاية القلق وكان قد خاطر بكل شيء على مجيء القوة الانجليزية ولكن كل انسان كان يجهل ما تم في أمرها ٠

وأذن غوردون في أوائل الشهر لجملة عائلات بمبارحة الخرطوم ولم يكن الى هذا الوقت يجيز لنفسه طردهم ولذلك اضطر الى توزيع المؤونة عليهم فكان يوزع مئات الأوقيات من البسكويت والذرة على الفقراء كل يوم ٠ وهو على هذا العمل يستحق مكافأة الله ولكنه في الوقت نفسه قضى على نفسه وعلى رجاله ٠ فقد نفد الزاد وصار كل انســـان يبكي ويطلب الخبز ٠ وعاد الآن الى اغراء الأهالي بالخروج من المدينة وهو لو كان قد فعل ذلك منذ شهرين أو ثلاثة لكان عنده من المؤونة ما يكفي رجاله مدة طويلة ٠ ولكنه كان يعتمد على مجيء الجيش وكان لذلك لا يعنى بادخار المؤونة فهل كان يعتقد انه لا يمكن لجيش انجليزى أن يتأخر عن ميعاده ٠

وبعد ستة أيام من سقوط أم درمان سمعت عويلا في المعسكر لم أسمع مثله منذ خروجي من دارفور ٠ وكان المهدى يمنع الناس من اظهار الحزن على الموتى والقتلى لأنهم في مذهبه يدخلون النعيم ٠ ففهمت أنه لابد أن قد حدث شيء غير عادى حتى يخالف الناس مذهب المهدى ٠ وكان الحراس المكلفون بحراستى يتطلعون لمعرفة سبب هذا العويل وقد تركونى لهذه الغاية ٠ وعادوا بعد قليل يقولون ان طلائع الجيش الانجليزى التقت بالقوات المجموعة من البرابرة والجعليين والدغيم وكنانة الذين يقودهم موسى واد حلو وهزمتهم في أبو طلا (أبو كلبه) وقد هلك كثيرون ولم ينج الا عدد قليل عادوا وأكثرهم به جراحات وقد فنى الدغيم وكنانة تقريبا وقتل موسى واد حلو وعدد من الأمراء أيضا ٠



فيا للبشرى لقد كان قلبى يثب وثوبا لهذه الأخبار • وقلت لنفسى لقد جاء الرجاء بعد هذه السنوات الطويلة • وأمر المهدى والخليفة بأن يكف الناس عن العويل ولكنه استمر مع ذلك عدة ساعات وأرسلت الأوامر لنور أنجره بأن يقوم الى متمه •

وبعد يومين أو ثلاثة جاءتنا أخبار هزيمة أخرى فى أبى كر وهزيمة أخرى أيضا فى قبة « جوبات » وتيار قلعة على النيل قريبة من متمة •

وعقد المهدى وأمراؤه مجلسا للتشاور • فقد رأوا أن كل ما جنوه من الانتصارات السابقة قد بات فى خطر حتى أن المحاصرين للخرطوم خافوا وارتدوا من الحصار • وصار القضاء على المهدى مسألة يمكن انهاؤها فى بضعة أيام • فيجب عليهم أن يخاطروا بكل شىء • فأرسلت الأوامر للمحاصرين بأن يستعدوا الاستعداد التام للهجمة الأخيرة •

ثم لم لم تأت البواخر التى تحمل الجنود الانجليزية ؟ فهل كان قواد هذا الجيش يجهلون أن حياة جميع من فى الخرطوم قد باتت فى خطر • ولقد انتظرنا طويلا لكى نسمع صفير البواخر يؤذن بمقدم الانجليز ودوى مدافعهم فوق خنادق الدراويش ولكن انتظارنا كان عبثا • أجل كان عبثا • ولم نكن نفهم علة هذا التأخير أو معناه وكنا نتساءل هل طرأ عائق جديد ؟

وكان يوم الأحد ١٥ يناير • وهو يوم لن أنساه فى حياتى • ففى مســـاء ذلك اليوم عبر المهدى وخلفاؤه فى زورق الى الشط الشرقى حيث كان رجالهم مجتمعين للقتال • وكان قد عرف أن النية قد عقدت على مهاجمة الخرطوم فى صباح اليوم التالى وذهب

المهدى لكي يحمس رجاله ويذكرهم بالجهاد والقتال الى الموت .
وكنت أدعو الله أن يكون غوردون قد عرف هذه النية واستعد لها .

وفى هذا الوقت أمر المهدى والخلفاء أتباعهم بألا يهتفوا ولا يصيحوا حتى لا تدخل الشبه فى قلوب رجال الحامية الذين أنهكهم الجوع والكلال . وخطبهم المهدى وهم سكون ثم عادوا الى الشط الغربى بعد أن خلف الخليفة شريف الذى رجاه أن يبقى مع المجاهدين .

وكانت تلك الليلة أحفل ليالى فى قلق النفس وثورتها . فقد كنت أقول لنفسى لو أن الحامية تثبت هذه الليلة وتصد المغيرين . اذن لن أخشى شيئا على الخرطوم . أما اذا انهزمت فاننا نفقد كل شىء فى السودان . وشعرت باعياء فى الفجر وبدأ النوم يتسلل الى واذا بى أسمع ضجيج المدافع والبنادق من آونة لأخرى . ثم شمل السكون مرة أخرى . ولم يكن النور قد قشع الظلام بعد حتى لم أكن أتبين الأشياء . فما معنى كل هذا ؟ ضجيج المدافع والبنادق ثم سكوت تام ؟

ثم ظهر قرص الشمس أحمر فى الأفق . فتساءلت ماذا يأتينا به هذا النهار ؟ وقعدت أنتظر وأنا فى أشد القلق وهياج النفس . ثم سمعت أصوات الابتهاج والنصر من بعيد وتركنا الحرس وجروا لكى يعرفوا سبب هذه الأصوات . وبعد دقائق عادوا الينا وأخبرونا بأن الخرطوم أخذت عنوة وصارت الآن فى أيدى الدراويش وبقى لى شك أتعلل به هل تكون هذه الأخبار كاذبة ؟!

ثم زحفت ونهضت وأخذت أنظر فى المعسكر فوجدت جمعا غفيرا من الناس قد تألبوا حول مكان المهدى والخليفة ثم رأيت هؤلاء

الناس يسيرون نحوى . وكان أمامهم ثلاثة من الزنوج يدعى أحدهم، « شطة » وكان سابقا أحد الحرس العبيد عند ضيف الله . وكان في يده قماش مشرب بالدم قد لف على شيء وكان وراءه جمهور من الناس يبكين . واقترب العبيد الثلاثة منى ثم وقفوا وهم يشيرون اشارات الاهانة والسباب . ثم حل « شطة » القماش وأخرج لى رأس غوردون .

فدار رأسي وشعرت كأن قلبى قد توقف . ولكنى جمعت كل قواى وضبطت نفسى ونظرت الى هذا المنظر المفزع وأنا صامت . وكانت عينا غوردون الزرقاوان قد فتحتا الى النصف . أما الفم فكان في هيئته العادية . وكان شعر رأسه وعارضيه قد علاهما الشيب :

وقال « شطة » وهو ممسك بالرأس أمامى : « أليس هذا رأس عمك الكافر ؟ »

فقلت بهدوء : « وما فى ذلك . جندى شجاع وقع وهو يقاتل . انه لسعيد اذ قد انتهت آلامه » .

فقال شطة : « ها . ها . لا تزال تمدح الكافر . ولكنك سترى النتيجة » .

ثم تركونى وذهبوا الى المهدى ومعهم اشارة النصر المفزعة هذه ووراءهم جمهور يبكى .

ثم عدت الى خيمتي وقد ماتت نفسى فى جسمى . أجل لقد سقطت الخرطوم ومات غوردون . وهذا اذن هو نهاية حياة هذا

البطل الذى وقع وسيفه فى يده • هذا الرجل الذى لم يكن يعرف الخوف والذى كان له من الخصال ما أذاع شهرته فى العالم أجمع •

فما هى فائدة الجيش الانجليزى الآن ؟ لقد تأخر فى متمة وكان فى تأخيره هلاك الخرطوم • لقد وصلت طلائع الانجليز الى جوبات على النيل فى ٢٠ يناير ووصلت بواخر غوردون الأربع فى ٢١ منه • فلماذا لم يرسلوا على هذه البواخر جنودا الى الخرطوم مهما كان عددهم قليلا • فلو أن الحامية رأت عددا من هؤلاء الجنود لامتلأت قلوبهم حماسة وقوة ورجاء ولاستطاعوا أن يصمدوا للعدو • وكان السكان الذين فقدوا كل ما عندهم من ثقة فى وعود غوردون تعاودهم ثقة جديدة ويحاربون الى صف الحامية لتأكدهم بأن القوة الانجليزية توشك أن تنجدهم •

وقد جهد غوردون جهده لكى يثبت وقد أعلن أن جيشا انجليزيا قادم اليه وطبع نقودا من الورق وكان يوزع الأوسمة والرتب كل يوم بلا حساب لكى يشجع الجنود ولما أخذت الأحوال تسوء واليأس يحل كان هو يجاهد فى تحميس الجنود وترجيتهم ولكن اليأس قلب الرجاء • فلم يعودوا يروا فائدة فى هذه الأوسمة والرتب • أما نقود الورق فربما كان هناك من يشترى ورق الجنيه بقرشين آملا أملا ضعيفا فى الربح اذا جاءت المصادفات بانتصار للحكومة •

ولم يكن أحد يصـــدق وعود غوردون الآن . ولو أن باخرة واحدة حملت بعض الجنود وجاءت بهم الى الخرطوم وأخبرتهم بأن الانجليز انتصروا لامتلأت قلوب السكان والجنود حماسة وصدقوا وعود غوردون وكان عندئذ يمكن لضابط انجليزى أن يرى الجزء الذى دمره فيضان النيل من حصون المدينة وكان فى الحال يأمر

باصلاحه . ولكن ماذا كان يمكن أن يصنعه غوردون وهو وحيد وليس معه مساعد أوربى .

ولم يكن فى مستطاعه أن ينظر فى كل شىء كما أنه لم تكن بين يديه الوسائل التى تمكنه من التحقق من مرءوسيه هل ينفذون أوامره أم لا ؟ وكيف كان يمكن لقائد أن ينتظر من جنوده القيام بتنفيذ أوامره اذا كان غير قادر على أن يضمن لهم قوتهم ؟

وفى الليلة المشئومة ليلة ٢٥ يناير علم غوردون بأن المهديين سيهجمون على المدينة فأرسل أوامره يخبر القواد هذا الخبر . ولعله كان يشك فى صدق نيتهم فى الهجوم فى بكور اليوم التالى . وفى الوقت الذى عبر فيه المهدى الى الضفة الشرقية كان غوردون قد أمر باطلاق بعض الأسهم النارية فى الفضاء وكانت ألوانها كثيرة مختلفة وكانت الموسيقى تعزف فى الوقت نفسه والغرض من كل ذلك تحميس الجنود الذين أضناهم الجوع حتى يثوب اليهم نشاطهم وانتهت الأسهم النارية وسكتت الموسيقى ثم نامت الخرطوم وشرع العدو يزحف فى حذر وصمت . وكان رجال العدو يعرفون أماكن الضعف فى الحصون وكانوا يعرفون أن الجنود النظاميين قد وضعوا فى الأماكن القوية فى حين أن الخندق المتهدم القريب من النيل الأبيض وأيضا مصطبة الخندق لم يكن يحميها سوى الأهالى الضعاف .

وكان هذا الجزء من الحصون فى حالة سيئة لأن بناءه لم يتم وكان كل يوم يزداد الجزء المعرض منه على النيل . واجتمع معظم الدراويش عند هذه النقطة وكانت سائر قواتهم تواجه سائر الحصون . وشرع فى الهجوم عند اشارة متفق عليها . وفر فى الحال جميع من كانوا عند النيل الأبيض بعد أن أطلقوا بضع

طلقات . وبينما كان الجنود يشتغلون فى صـــد هجوم القوات الأخرى المهاجمة كان الآن الدراويش يدخلون من جهة النيل الأبيض ويخوضون فى الماء والوحل الى ركبهم . ثم ينصبون فى الشوارع . ودهش الجنود اذ رأوا الدراويش يهاجمونهم من خلف .

ولم يقاوم الجنود عندئذ الا مقاومة ضعيفة ووضع كل منهم سلاحه فى الحال . ثم قتل المصريون أما السود فلم يقتل منهم الا عدد قليل . ولم تبلغ خسارة العدو ثمانين أو مائة رجل . ثم فتح الدراويش أبواب المدينة فخرج من تبقى من الجنود الى معسكر المهدى .

ولما دخل الدراويش من جهة النيل الأبيض تصايحوا وهم يعدون فى المدينة « للسراية . للكنيسة » لأنهم كانوا يعتقدون أنهم سيجدون هناك الأموال المدخرة كما يجدون غوردون الذى دافعهم طويلا عن المدينة وعكس عليهم أغراضهم ، وكان القادة فى هذا الهجوم رجال مكين واد النور الذى قتل بعد ذلك فى معركة توسكى وهو ينتمى الى قبيلة العرافين . وكان قائدهم السابق شفيق مكين الذى كان يدعى عبد الله واد النور وقد قتل فى حصار الخرطوم وكان رجاله الآن يرغبون فى الثأر له ، وكان عدد كبير أيضا من رجال أبو حرجة يســـتبقون نحو السراى وكانوا يرغبون فى الانتقـام لهزيمتهم فى بورى حيث هزمهم غوردون .

ولما دخلوا السراى وجدوا الخدم فى قبو السراى فقتلوهم فى الحال وكان غوردون واقفا على السلم المؤدى الى غرفة الجلوس فقال لهم عندما رآهم : « أين مولاكم المهدى ؟ » .

ولكنهم لم يكترثوا لهذا السؤال وتقدم أولهم وطعن غوردون بحريته فوقع على وجهه دون أن ينطق بكلمة . فأخذ القتلة يجرونه

على السلالم الى باب السراى وهنا أخذوا رأسه وأرسلوه الى المهدى فى أم درمان • أما الجسم فقد ترك لرحمة المتعصبين • وكانت آلاف من هذه الخلائق الوحشية تمر على الجسم ويغمس كل منهم حربته فى دمه • فلم يمض زمن حتى صار الجسم قطعة مشوهة من اللحم وقد بقيت بقع الدم مـدة طويلة فى المكان الذى قتل فيه غوردون شاهدة على ارتكاب هذه الفظيعة بل كانت ترى أيضا على درجات السلم مدة عدة أسابيع ولم تغسل الا حين قرر الخليفة أن يتخذ هذه السراى مأوى لزوجاته السابقات واللاحقات •

ولما أحضر رأس غوردون للمهدى قال انه كان يود أن يحضر اليه غوردون حيا لأنه كان ينوى أن يدخله فى الاسلام ثم يقايض به الحكومة الانجليزية على عرابى باشا لأنه كان يأمل أن يساعده عرابى فى فتح مصر • واعتقادى أن المهدى كان ينافق فى تأسفه هذا على قتل غوردون لأنه لو كان يرغب حقيقة فى الابقاء على حياته لما خالف أمره أحد •

وقد فعل غوردون كل ما فى استطاعته لكى يقى حياة الأوربيين الذين كانوا فى الخرطوم فقد أذن للضابط استيورت مع بعض القناصل وعدد كبير من الأوربيين فى السفر الى دنقلة ولكن بحارة الباخرة « عباس » كانوا غير كفاة وكانوا أيضا مستائين فصدموا الباخرة فى الشلالات فوقع الضابط ستيورات ومن معه فريسـة للغدر الذى قضى عليهم •

وكان غوردون يرغب فى هرب اليونان فسلمهم باخرة وتعلل فى الظاهر بأنهم يعرفون البحر وأمرهم بالتفتيش فى النيل الأبيض وذلك كى يتيح لهم الفرصة بأن يسافروا جنوبا الى أمين باشا ولكنهم أبوا ذلك وكان غوردون مهتما بسلامتهم فاقترح اقتراحا آخر

فانه أمر الناس بعدم السير فى الطرق المؤدية الى النيل الأزرق بعد الساعة العاشرة ثم كلف اليونانيين بحراسة هذه الطرق وذلك لكى تتاح لهم الفرصة بالفرار على باخرة قد أرسيت قريبا • ولكن اليونان اختلفوا فيما بينهم فضاع هذا التدبير

وأنا لا أشك فى أن هؤلاء اليونانيين لم يكونوا يرغبون فى الفرار الى الخرطوم فان معظمهم كانوا يعيشون فى بلادهم أو فى مصر فى فاقة شديدة وهم لم ينالوا الثروة الا فى السودان ولذلك لم تطاوعهم نفوسهم على تركه •

وكان غوردون يريد أن يقى نفوس جميع الناس الا نفسه • ويمكنني الآن أن أنتقد غوردون من حيث أنه لم يحفر خنادق ولم يقم تحصينات تحمى السراى ، ولكن الأرجح أن الذى منع غوردون من عمل ذلك أنه خشى أن يتهم بالاهتمام بحياته • وربما كان هذا أيضا هو السبب فى عدم وضعه حراسا حول السراى.

وكان يمكنه أن يستعمل عددا من الجنود لهذا الغرض • وهل يمكن لأحد أن يشك فى الفائدة التى تعود على الجميع من حماية نفسه • وكان يمكنه بمثل هذا الحرس أن يصل الى الباخرة « اسماعيلية » القريبة من السراى • وكان فرغلى ربان هذه الباخرة قد رأى العدو وهو يهجم على السراى فوقف بالباخرة ينتظر مجىء غوردون ولم يبرح الشط حتى تأكد أنه قتل فاقتلع المرساة وسار الى وسط النهر ثم أخذ يروح ويغدو أمام المدينة حتى أشار اليه الدراويش بعفو المهدى •

وكان لفرغلى زوجة وعائلة فى الخرطوم فسلم بعد أن حصل على الأمان • ولكن ما كان أكثر انخداعه فانه ذهب الى بيته فوجد

ابنه (وكان فى العاشرة من عمره) مقتولا ووجد زوجته قد ألقت بنفسها على ابنها وجسمها ممزق بالحراب ·

وليس من الممكن أن يصف الانسان مبلغ الفظاعة والقسوة فى المذبحة التى تلت قتل غوردون فانه لم ينج أحد سوى الرجال والنساء من العبيد وكل امرأة عليها شيء من الملاحة من الأحرار · أما غير هؤلاء الذين نجوا من القتل فلم تكن نجاتهم الا مصادفة · وانتحر كثير من الناس وكان من بينهم محمد باشا حسن ناظر المالية فانه زحف الى جنب ابنته وزوجها وكان كلاهما قد قتل وقد رآه أصدقاؤه فى هذه الحال فحضوه على الفرار ولكنه أبى فحاولوا أن يأخذوه عنوة ولكنه صار يصيح ويدعو على المهدى ودراويشه فمر به بعض الدراويش فأجهزوا عليه ·

وقتل عدد من الناس من أيدى عبيدهم السابقين وكانوا قد انضموا الى العدو وكانوا أدلاءه فاشتركوا الآن فى القتل والنهب والاغتصاب ·

ويمكن أن يملأ الانسان مجلدا عن هذه الفظائع التى ارتكبت فى ذلك اليوم المشئوم · ولكنى أشك فى مصير الذين أبقى على حياتهم هل كان أفضل عن مصير القتلى ؟ ·

وعندما احتل الدراويش المنازل شرعوا فى البحث عن الكنوز ولم يكن يقبل عذر أو انكار · وكان معظم السكان قد خبأوا أموالهم فكان كل من يشتبه فيه يعذب حتى يفشى السر أو حتى يقتنع معذبه بأنه لا يملك شيئا . وكان السوط يستعمل باسراف فكان الناس يجلدون حتى يتنـــاثر لحمهم . ومن ضروب التعذيب التى كانت تستعمل أن يعلق الرجل من ابهاميه الى عمود من الخشب فيترجح

هو تحته فى الهواء حتى يغمى عليه . وكانوا يأتون بسلخين من القصب الهندى ويضعون كلا منهما على وجه الرجل ثم يربطون طرفيهما ثم يضرب هذان السلخان بعصا فيحدث من اهتزازهما آلام مضنية . وكانوا يعذبون النساء بهذه الكيفية أيضا . ويعذبوهن فى أماكن أجسامهن الحساسة بطريقة لا يمكننى أن أصفها هنا . وحسب القارىء أن يعرف أن أفظع الطرق فى التعذيب كانت تستعمل للحصول على الأموال .

ولم ينج من هذا التعذيب سوى النساء الصغيرات فى السن والفتيات وذلك خوفا من أن يعترض هذا التعذيب الغاية التى ستستخدم لها هذه النساء والفتيات .

وجميع هؤلاء النساء والفتيات أرسلن الى المهدى يوم فتح الخرطوم فاصطفى منهن من أراد ورد سائرهن الى الخلفاء والأمراء واستمر جمع النساء والانتخاب بينهن عدة أسابيع حتى امتلأت بهن بيوت هؤلاء الأوغاد الشهوانيين بل فاضت بشباب الخرطوم الذى قضى عليهن النحس أن يقعن فى أيدى الدراويش .

وفى اليوم التالى منح عفو عام لجميع الأهالى ما عدا الشايجيه الذين أهدر دمهم ، ولكن على الرغم من هذا العفو استمر القتل وارتكاب الفظائع عدة أيام بعد سقوط الخرطوم .

وحملت الغنائم الى بيت المال ولكن بعد اختلاس أشياء كثيرة منها . ووزعت المنازل المهمة على الأمراء . ويمم المهدى والخليفة فى الباخرة « اسماعيلية » الى الخرطوم ورأيا نتيجة انتصارهما الدموى . ولم يبد أحدهما أية علامة على التحسر أو الأسف، بل ذهب كل منهما الى المنزل المخصص له . وكان كل منهما يقول لأتباعه ان الله أنزل العقاب بسكان المدينة لعسفهم وعدم اتباعهم ايمان المهدى .

وقضيت الأيام الأولى فى اللهو واتباع الشهوات • ولما شبع المهدى وأتباعه من النساء ابتدأوا يلتفتون الى الخطر الذى يداهمهم من الخارج . فأمر الأمير عبد الرحمن واد نجومى المشهور بأن يجمع قوة كبيرة ويذهب بها الى متمه لمقاومة الانجليز ويطرد هؤلاء الكفار الذين قيل أنهم بلغوا النيل قريبا من هذه البلدة .

وفى صباح يوم الأربعاء بعد سقوط الخرطوم بيومين حوالى الساعة الحادية عشرة سمعنا اطلاق القنابل وعيارات البنادق فى ناحية جزيرة تونى . ثم ظهرت باخرتان وهما « الشـــلامونية » و « بردين » وكان عليهما السير تشارلس ولسون وعدد من الضباط والجنود الانجليز جاءوا لانقاذ غوردون . وكان السنجلى خشم الموس وعبد الحميد محمد اللذان كان غوردون أرسلهما لقيادة الشايجية ، على هاتين الباخرتين أيضا . وسمعوا جميعا بما حدث لغوردون ولكنهم أرادوا أن يتأكدوا من الخبر وجاءوا الى نصف الطريق بين جزيرة تونى والنيل الأبيض .

وأطلق الدراويش نيرانهم على الباخرتين من الخنادق الواقعة فى الشمال الشرقى لقلعة أم درمان . ولكن الباخرتين عادتا فى الحال عندما رأى رجالهما سقوط الخرطوم .

وسمعت بعد ذلك من بعض بحارة هاتين الباخرتين أنهم هم والانجليز تأثروا لسقوط الخرطوم . وعرفوا أن السودان قد بات تحت سيطرة المهديين . وكان المفهوم من الحديث الذى كان يتحدث به الجنود على البواخر أن الغرض هو انقاذ غوردون فلما تأكد الخبر عن موته عادت البواخر الى دنقله .

ثم اتفق دليل الباخرة « الثلامونية » على أن يجنح بالباخرة الى الشاطىء حتى يكسرها ثم يفر فى النيل هو والربان عبد الحميد ونجحت هذه الخطة وبلغ من شدة اصطدام الباخرة أنها عطبت حتى احتاجوا الى نقل ما فيها بسرعة الى الباخرة « بردين » وفر كلاهما وقت الاصطدام وحصلا بواسطة أصدقائهما على عفو المهدى وعادا الى الخرطوم . واستقبلهما المهدى استقبالا حسنا وامتدح صنيعهما فى كسر الباخرة . ومع ان عبد الحميد كان من الشايجية المكروهين وأحد أقارب صالح واد المك فان المهدى خلع عليه مرقعة اكراما له وكان عدد كثير من النساء قرابته قد سبين عند سقوط الخرطوم ووزعن على الأمراء فلما عفى عنه أعدن اليه .

أما الباخرة « بردين » فإنها فى عودتها جنحت وارتطمت بالوحل . ولما كانت حمولتها ثقيلة فانه لم يمكن انقاذها . وكان ذلك قريبا من متمه . وكان عليها السير تشارلس ولسون فشعر عندئذ بحرج مركزه وكان الجنود الذين معه قليلين فلم يكن فى وسعه أن يعبر الى الشط الغربى ليلتحق بسائر قوته فى جوبات لأن العدو كان قد خندق بينه وبينها فى واد حبشى وكانت قوة الدراويش فى واد حبشى بعدما أصابها من الخور وانحلال العزيمة بعد هزيمة أبو كابه قد عادت اليها شجاعتها بعد سقوط الخرطوم وانتشار خبر مجىء النجومى وكان فى جوبات باخرة ثالثة تدعى « صفية » فأرسل السير تشارلس اليها ضابطا فى زورق يطلب المعونة .

وقامت « صفية » فى الحال وعلم العدو بذلك فخندق على الشاطىء وتهيأ لمجيئها فلما اقتربت صب عليها نارا حامية من البنادق والمدافع . ولكن الجنود فيها قاوموا ببسالة عازمين عزما صادقا على انجاد الباخرة « بردين » مهما كلفهم ذلك واستمر سير الباخرة حتى أصيب المرجل .

ولكن الربان أمر فى الجال باصـــلاح الخلل فأخذ العمال يصلحونه والنار تنصب عليهم من العدو وقضى الليل كله فى هذا الاصلاح حتى اذا كان الصبح تمكنت « صفية » من استئناف السير ومقاتلة الدراويش . بل تمكنت من اسكات مدافعهم وقتل أميرهم حمد واد فايد وعدد آخر من صغار الأمراء .

وبلغت « صفيه » « بردين » وأنقذت السير تشارلس ورجاله وكان لهذا العمل العظيم أثر آخر فى انجاد الجنود الانجليز فى متمـــه .

وكان جيش النجومى يسير ببطء لصعوبة جمع الرجال وقد أضره أيضا خبر قتل الأمير حمد واد فايد وهزيمة الدراويش فى واد حبشى أمام باخرة واحدة . وقد قيل لى بعد ذلك عند عودتى الى مصر أن ربان الباخرة « صفيه » عند احرازها ذلك النصر كان اللورد تشارلس بريسفورد . ويقال ان النجومى عندما سمع بهذا النصر قال لرجاله أنه اذا عزم الانجليز على الدخول الى السودان فانهم بالطبع سيقاتلونهم . أما اذا اتجهوا نحو الشمال فانه لا قتال بينهم وبين رجاله بل يحتلون البلاد التى جلوا عنها . وتأخر فى سيره حتى بلغ متمه بعد جلاء الانجليز عنها وعن جوبات . ومع أنه طاردهم الى أبو كلبه فانه لم يشتبك معهم فى قتال .

وعندما جلت طلائع الانجليز تحقق المهدى أن السودان بأجمعه قد أصبح ملكه فطفح عندئذ سرورا . وأعلن هذا الخبر فى المسجد وأخذ يصف للدراويش فرار الانجليز وكيف أن النبى قد أوحى أن الله قد خرق قربهم فماتوا جميعهم عطشا .

وفى اليوم الخامس لسقوط الخرطوم رأيت ثلة من الجنود أمام خيمتى الممزقة فوضعونى على حمار وأنا فى قيودى وساروا بى الى السجن العمومى . وهناك طوقوا حولى عمودا وحلقة من الحديد يبلغ وزنهما ثمانية عشر رطلا وكان هذا القيد الجديد يسمى « الحاجة فاطمة » وكان لا يقيد به الا من كانت جناياتهم خطيرة أو من يوصفون بالعناد من المسجونين .

وكنت أجهل السبب فى سقوط مكانتى فى عين الخليفة الى هذا الحد ، ولكن علمت بعد ذلك أن غوردون عندما عرف من خطابى أن القوة التى أرسلها المهدى الى الخرطوم غير قوية أذاع هذا الخبر بين الجنود فى خطوط الدفاع . وهذا المنشور الذى نشره غوردون وقعت منه نسخة فى يد حمد واد سليمان وكيل بيت المال فسلمها للمهدى والخليفة . فتأكدت لديهما عندئذ الشبهات فى خيانتى وتدبيرى السابق لكى التحق بغوردون .

ووضعونى فى زاوية من الزريبة الكبيرة (أى السجن العمومى) ومنعونى من محادثة أى انسان بحيث اذا خالفت هذا الأمر فان العقاب هو الجلد . وكنا فى الليل أربط أنا وجميع المسجونين فى سلسلة طويلة الى شجرة وفى الصباح يفك الرباط . وكان يربط معى بعض العبيد الذين قتلوا أسيادهم وكنت أرى لبتون بك فى زاوية أخرى من الزريبة وكان قد مضت عليه مدة فى هذا المكان حتى ألفه . وكان قد أذن له فى مخاطبة جميع من يريد باستثنائى أنا وحدى .

وفى اليوم الذى دخلت فيه السجن آفرج عن صالح واد الملك وكان أخوه وابنه وجميع قرابته تقريبا قد قتلوا وأذن له أن يخرج ويبحث عله يجد أحدا منهم .

وكان طعامي سيئا للغاية فشعرت كأني قد وقعت من الرمضاء في النار . فقد كنت قبلا أشكو من الجوع الذي كان يصيبني من وقت لآخر ولكن الآن صرت لا أجد طعاما سوى الذرة الجافة آكلها كما يأكلها العبيد وكان مع ذلك مقدار ما يعطى لي قليلا جدا ورأتني وأنا في هذه الحال زوجة أحد السجانين فأخذتها الشفقة وصارت تأخذ مني الذرة وتسلقه ثم تعيده الى طربا فآكله ولكن لم يأذن لها زوجها بأن تقدم لي طعاما آخر لئلا يعرف رئيس السجانين ذلك فيبلغ الخبر للخليفة . وكنت أنام على الأرض وأضع تحت رأسي حجرا كوسادة وكان هذا يحدث لي صداعا مستمرا ولكن حدث في أحد الأيام ونحن نساق الى النهر لكي نغتسل أني وجدت في الطريق بطانة بردعة يظهر أن صاحبها ألقاها لعدم فائدتها فحملتها وخبأتها تحت ذراعي ونمت عليها تلك الليلة . كما ينام الملك على وسادة من زغب .

ولكن أحوالي أخذت في التحسن . فان رئيس السجانين الذي لم يكن يكرهني صار يأذن لي بالتحدث مع سائر المساجين . وخفف قيودي . أما « الحاجة فاطمة » وأختها فكانتا لاتزالان في مكانهما ولا يمكنني أن أقول أنهما كانتا تزيدان في رفاهيتي في تلك الأشهر المضنية التي قضيتها في السجن .

وبعد أيام حدثت حركة بين السجانين وأخبرني رئيسهم أن الخليفة سيأتي قريبا لزيارة السجن . فسألته عما يجب أن أفعله أمامه حتى أسترضيه فنصح لي بأن أجيب فورا على الأسئلة التي توضع لي وألا أشكو أي شكاية وأن أبقى منكسرا ذليلا في الزاوية التي خصصت لي . وحوالي الظهر حضر الخليفة ومعه اخوته وملازموه وصار يطوف على الزوايا ويرى بعينيه ضحايا عدالته . وبدا لي من مسالك المساجين أن رئيس السجن نصح لهم بمثل

ما نصح لى فقد كانوا هادئين فى مكانهم وقد حلت سلاسل البعض وأفرج عنهم ثم اقترب الخليفة منى وهز رأسه الى بعطف وقال : « عبد القادر . أنت طيب » .

فقلت : « أنا طيب يا سيدى » .

ثم تركنى وسار . واقترب منى يونس واد وكيم حاكم دنقله وأحد قرابة الخليفة فهز يدى وقال لى : « تشجع . لا تخش شيئا . كل شىء سيصلح قريبا » .

وابتدأت أحوالى تتحسن منذ هذا اليوم ولكن كنت أشعر بطول الوقت .

وانتشرت وافدة الجدرى فى أم درمان وكانت تحصد المئات كل يوم حتى بادت أسرات عن آخرها . واعتقادى أن الخسارة من هذا المرض كانت أكبر من أى خسارة خسرها الدراويش فى المعارك الماضية . والغريب أن العرب أصيبوا به أكثر من غيرهم ومات منه معظم السجانين . أما نحن المسجونين فلم نصب بشىء وان كنا قد فزعنا فزعا شديدا . ولعل الله فى رحمته رأى أن فيما نقاسيه أكثر مما نتحمل .

واتيحت لى الفرص الآن للتحدث مع لبتون الذى كان يزداد سأمه كل يوم . وقد كان يبلغ به الحنق والغيظ أن يشكو أحيانا مر الشكوى وبصوت عال حتى كنت أخشى عواقب فعله هذا . ولكن المعيشة التى كنا نعيشها فى السجن كانت قد أثرت فيه حتى خفت على صحته . وتمكنت بعد محادثات طويلة معه من تهدئته . وكان مع عمره الذى لم يعد الثلاثين قد شاب رأسه ولحيته فى مدة سجنه هـــذه .

وأشيع في أحد الأيام أن الخليفة مزمع المجيء الى السجن فهيأت خطبة وعنيت بانشائها وفعل لبتون مثل ذلك . وكان المرجح أنه سيخاطبني أولا .

ثم جاءت الساعة الخطرة ودخل الخليفة الى صحن السـجن وبدلا من أن يطلب المسجونين واحدا بعد آخر وضع له عنجريب وقعد عليه وأحضر له المساجين وقعدوا في نصف دائرة . فأفرج عن البعض ووعد الآخرين ببحث قضاياهم ولكنه لم يلتفت الى ولا الى لبتـــون .

فنظر الى لبتون وهز رأسه فوضعت اصبعي على فمي أحذره من عمل أي شيء طائش والتفت الخليفة الى رئيس السجن وقال : « هل بقي على شيء » .

فقال السجان : « أنا في خدمتك يا مولاى » .

ثم قعد الخليفة بعد أن كان قد هم بالقيام والتفت الى وقال : « عبد القادر أنت طيب » .

فقلت : « يا مولاى . اسمح لى بالكلام أخبرك عن حالى » .

فأذن لى بالكلام فقلت : « أنا يا مولاى من قبيلة غريبة . وقد جئت أطلب حمايتك فحميتني . ومن طبع الانسان أن يخطيء ويذنب الى الله والى الناس . وأنا قد أذنبت ولكنني الآن أتوب . أتوب الى الله والى الرسول . هأنذا يا مولاى في القيود والسلاسل أمامك . هأنذا عريان جوعان أفترش الأرض وأرقد هنا صابرا أنتظر قدومك لكي تعفو عني . مولاى اني أتذلل لك وأرجو أن تفرج عني ولكن اذا رأيت بقائي في هذه الحال التعسة فادعو الله أن يقويني على تحملهــــا » .

وكنت قد حفظت هذه الخطبة جيدا والقيتها بفصاحة نادرة ورأيت أنى بلغت بها الأثر الذى أردته فى نفس الخليفة ثم التفت الى لبتون وقال : « وأنت يا يا عبد الله » .

فقال لبتون : « لا أزيد شيئا على ما قاله عبد القادر . أعف عنى وافرج عنى » .

فالتفت الى الخليفة وقال : « منذ مجيئك من دارفور عملت كل ما يجب أن يعمل لأجلك ، ولكن قلبك بقى بعيدا عنا وأردت أن تلحق بغوردون الكافر وتحاربنا فى صفه ولقد وفرت عليك حياتك لأنك أجنبى . ولكن اذا كنت قد تبت حقيقة فانا أعفو عنك أنت وعبد الله . يا سجان انزع عنهما القيود والسلاسل .

فحملنا السجانون وبعد استعمال الحيل تمكنوا من نزع القيود ثم أعادونا الى الخليفة الذى كان قاعدا على العنجريب ينتظرنا . ثم أمر باحضار القرآن فوضعه على فروة وطلب منا أن نقسم يمين الولاء له . فوضع كل منا يده على القرآن وأقسم بأن يخدمه بأمانة وولاء فى المستقبل . ثم نهض وأمرنا بأن نسير وراءه ونهضنا ونحن نكاد نجن من الفرح بالافراج عنا بعد هذا السجن الطويل وسرنا فى إثره .

ولما بلغنا منزله أمرنا بأن نبقى فى مكان بعيد عنه وتركنا . وبعد دقائق عاد الينا وقعد الى جانبنا وحذرنا من عصيان أوامره . ثم قال انه تسلم خطابات من قائد الجيش فى مصر يقول فيها أنه قد أسر أقارب المهدى الذين كانوا فى دنقله وأنه يعرض أن يقايض بهم على من عند المهدى من الأسرى الذين كانوا مسيحيين » .

وقال : « لقد قررنا أن نجيب بأنكم جميعا مسلمون وأنكم متحدون معنا ولا ترغبون فى أن نقايض عليكم برجال ولو من قرابة المهدى . فليفعلوا ما شاءوا بأسراهم » .

ثم أضاف الى ذلك قوله : « ولكن لعلكم تحبون العودة الى النصارى ؟ » .

فأكدنا له أنا ولبتون بأننا لا نرغب فى تركه وأن مسرات الدنيا كلها لا تغرينا بمفارقته وأن بقاءنا معه يفيدنا لأنه يرشدنا الى طريق الخلاص . فجازت عليه أكاذيبنا ووعدنا بأن يقدمنا الى المهدى الذى كان قد وعد الخليفة بزيارته فى عصر ذلك اليوم فى منزله . ثم خرج وتركنا .

وجاءنا كثير من الأصدقاء يهنئوننا بالافراج عنا وكان بينهم ديمترى زيجاده ولكن لم يكن معه المقدار المعتاد من التبغ . وكان بينهم أيضا صديقى القديم الشيخ عليش فلما أخبرته بأننا سنقابل المهدى نصح لى بعض نصائح مفيدة فى هذه المقابلة .

ولما غربت الشمس جاءنا الخليفة وأمرنا بأن نتبعه فسرنا وراءه حتى دخلنا على المهدى وهو قاعد على عنجريب . وكان قد سمن سمنا فاحشا حتى ما كدت أعرفه . فركعنا أمامه وقبلنا يده عدة مرات وأكد لنا أنه يرغب فى الخير لنا وأن القيود والسلاسل تنفع الناس ، يعنى بذلك أن العقاب يمنع الناس من ارتكاب الجرائم فينفعهم لهذا السبب . ثم والى الحديث الى قرابته الذين كانوا فى أسر الانجليز وأنه رفض المقايضة بنا قائلا : « انى أحبكم أكثر مما أحب قرابتى ولهذا رفضت المقايضة » .

فأجبته مؤكدا له الأمانة والحب وقلت له : « ان كل انسان يجب أن يحبك أكثر مما يحب نفسه لأن من لا يفعل ذلك لا يمكنه أن يحب أحدا من قلبه » .

وكان الشيخ عليش قد أوصاني بأن أقول له ذلك . فلما سمع المهدى كلامى التفت الى الخليفة وقال : « اسمع ما يقول . قل ثانيا » .

فكررت العبارة على مسامعه فأخذ يدى بين يديه وقال : « لقد قلت حقا . أحبنى أكثر مما تحب نفسك » .

ثم طلب لبتون بك وأخذ يده وأمرنا كلينا بأن نقسم يمين الولاء لأننا قد حنثنا بيميننا الماضية . فأقسمنا من جديد وأمرنا الخليفة بالقيام فقبلنا يد المهدى وشكرنا له بره بنا وعدنا الى مكاننـا .

ومضى زمن قبل أن يأتينا الخليفة . ولما عاد أذن للبتون بأن يرجع الى عائلته وكانت لاتزال فى بيت المال وبعث معه بملازم يريه الطريق وأكد له عنايته به ثم قال لى : « وأما أنت فأين تريد أن تذهب ؟ هل تعرف أحداً تذهب اليه ؟ » .

فقلت : « ليس لى سوى الله وأنت . ليس لى أحد يا مولاى يعنى بى فافعل بى ما تراه خيرا لى » .

فقال الخليفة : « لقد كنت أرجو وأنتظر هذا الجواب منك . ويمكنك أن تعد من هذه الساعة واحدا من أسرتى . وسأعنى بك ولن تحتاج الى شيء . وستنتفع بملازمتى ولكن أشترط عليك شيئا واحدا وهو أن تطيع كل ما أرسله اليك من الأوامر . وواجبك

ينحصر فى أن تقعد مع الملازمين طول النهار على باب المنزل . أما فى الليل بعد ذهابى فيمكنك أن تذهب الى منزلك الذى سأخصصه لك • وعندما أخرج يجب أن ترافقنى واذا ركبت فعليك أن تسير بحذائى حتى يأتى الوقت المناسب للاذن لك بالركوب الى جانبى . فهل أنت راض بهذه الشروط ؟ وهل تعد بالقيام بها ؟ » .

فأجبت : « أنا راض يا مولاى كل الرضا بهذه الشروط . وستجد فى خادما مطيعا وأرجو أن أجد القوة لكى أقوم بواجباتى خير قيام » .

فقال : « الله يقويك ويبعث لك الخير » ثم نهض وقال : « نم هنا هذه الليلة فى حماية الله وسأراك غدا » .

وبقيت وحدى وشعرت أنى خرجت من سجنى فدخلت فى آخر وأدركت فى الحال ما رمى اليه الخليفة فانه لم يكن فى حاجة الى خدمتى لأنه لم يكن يثق بى أقل ثقة ولم يكن يريد أن ينتفع بى فى مقاومة الحكومة المصرية أو مقاومة العالم المتمدين .

ولكنه أراد أن أكون أمام عينيه يشرف على على الدوام . ولعله أيضا أراد أن يعتز ويزهو بوجودى أمامه مطيعا كالعبد فيفتخر بذلك أمام قبيلته التى هى الآن أساس سلطته . والتى كانت يوما ما تحت امرتى وكذلك يفتخر بعبوديتى أمام سائر القبائل التى كنت أحكمها • ومع ذلك قلت لنفسى يجب أن أعنى كل العناية بألا أغضبه وألا أتيح له الفرصة للأذى . وكنت أعرف الخليفة تمام المعرفة وأدرك أن ابتساماته لا تساوى شيئا وقد قال لى هو ذلك فى احدى المرات فقد كنا نتحدث فقال : « عبد القادر : ان من يتطلع الى السيادة والسلطة يجب عليه ألا يظهر الناس على أغراضه . والا فان خصومه وأعداءه يفسدونها عليه » .

وفى صباح اليوم التالى جاءنى وطلب أخاه يعقوب وأشار عليه بأن يخرج بى ويرينى مكانا أبنى فيه عشتى بحيث لا أكون بعيدا عنه . وكانت قرابة الخليفة قد أخذوا الأمكنة القريبة ولذلك لم نجد أقرب من مكان يبعد عنه نحو ٦٠٠ ياردة فأخذته لبناء عشتى .

ثم طلب الخليفة كاتب سره فأرانى وثيقة موجهة لقائد الجيش الانجليزى خلاصتها أن جميع الأسرى الاوربيين قد دخلوا فى الاسلام باختيارهم وأنهم لا يبغون الرجوع الى بلادهم وطلب منى أن أوقع هذه الوثيقة .

ثم سألنى فجأة : « ألست مسـلما ؟ أين تركت زوجاتك اذن ؟ » .

وكان هذا السؤال مربكا فقلت : « لى زوجة واحدة تركتها فى داره وقد بلغنى أنها أسرت مع سائر الخدم وأنهم الآن فى بيت المال » .

فقال : « وهل لك أولاد ؟ » فأجبته بالنفى فقال : « الرجل بلا ولد كالشجر بلا ثمرة وبما أنك قد صرت فى خدمتى فسأعطيك بضع زوجات حتى تعيش عيشة هنية » .

فشكرت له عنايته بى ورجوته أن يؤجل هديته الى أن أنتهى من بناء عشتى وقلت له فى ذلك ان الحريم يجب الا يعرض لنظر الأغراب . وكان أبو انجه قد أخذ جميع أمتعتى فأمر الخليفة بأن يعوضنى منها باعطائى مخلفات المرحوم أوليفية بان فأرسلت الى جميعها وكانت تحتوى على جبة قديمة وعباءة عربية بالية وقرآن مكتوب باللغة الفرنسية . وأرسل الى فضل المولى يقول ان سائر

أمتعة أوليفيه بان قد فقدت منذ وفاته . وأمر الخليفة بأن ترد الى النقود التى كانت قد أخذت مني وأودعت بيت المال . وكانت تبلغ أربعين جنيها وبعض الاقراط التي جمعتها لطرافتها وهذه كلها سلمها الى حمد وأرسلها له .

وشرعت فى بناء منزلى وكنت فى مدة البناء أقيم فى منزل الخليفة ووكلت أقدم خدمي سعدالله النبوى في بناء منزلى وكلفته بأن يجعله مؤلفا من ثلاث عشش مستقلة داخل حظيرة . ولم أكن أبرح باب الخليفة منذ الصباح الباكر حتى المساء . وكان كلما خرج راكبا أو ماشيا أسير معه عاري القدم . وكان الخليفة عندما رأى قدمي قد تلفتا من السير بلا حذاء قد أذن لى بأن ألبس نعلين وكانتا تحزان فى قدمي وتؤلمانني .

وكان الخليفة يرسل الى فآكل معه فى بعض الأوقات وكان أيضا يرسل ما يتبقى من طعامه لنا فآكل مع الملازمين الذين صرت واحدا منهم . واذا كان الليل وذهب الى فراشه توجهت أنا الى منزلى فأنسطح على العنجريب وأنا في غاية الاعياء وأنام الى الفجر حيث أستيقظ وأذهب الى باب الخليفة فأنتظره للصلاة .

ولما علم الخليفة بأن منزلى قد تم بناؤه أرسل الى جارية وقال لى سعد الله انها جاءت متلففة . وأنها قاعدة تنتظرنى . فأمرت سعدالله بأن يشعل مصباحا ويرشدنى اليها . ففعل ووجدت المسكينة راقدة على حصير . وسألتها عن ماضى حياتها فأخبرتنى بصوت مشئوم أنها من النوبارية وكانت تنتمى الى قبيلة فى جنوبى كردوفان وأنها سبيت وأرسلت الى بيت المال فبقيت هناك الى أن أرسلها الى حمد واد سليمان . وكانت وهى تتكلم قد رفعت ما على رأسها من

الأقمشـــة المعطرة التى كانت متلففة بها فبدا لى وجهها وكتفاها وصـــدرها .

وأشرت الى سعدالله بأن يقرب المصباح منها ثم رأيت عندئذ أنى فى حاجة الى أن أعبىء جميع قـــوتى لكيـــلا أرعب وأقع من العنجريب فقد كان لها وجه دميم تطل منه عينان صغيرتان وكان أنفها عظيما مفرطحا تحته فم له شفتان غليظتان تكادان تبلغان أذنيها عندما تضحك . وكان رأسها يرتكز على عنق غليظ أشبه شىء بعنق الكلاب التى من سلالة « البول دوج » وكان اسم هذه المخلوقة مريم . فأمرت سعدالله بأن يأخذها بعيدا عنى ويعطيها عنجريبـــا .

فهذه اذن هى أولى هدايا الخليفة لى . وهو لم يهد الى حمارا أو فرسا أو بضعة نقود أستعين بها ولكنه أرسل لى جارية دميمة لا أرتاح الى وجودها وهى لو كانت جميلة لما قدرت على القيام بتكاليفهـــا .

ولما ذهبت فى اليوم التالى سألنى هل أرسل لى حمد واد سليمان جارية ؟ فقلت : « أجل . لقد أنفذ أوامرك على الفور » ثم وصفت له الجارية وصفا دقيقا .

فاغتاظ الخليفة أشد الغيظ وبعث فى طلب حمد واد سليمان ووبخه على عدم طاعة أوامره بل مخالفته أيضـــا أوامر المهدى . وأرسلت الى فى المساء جارية أخرى أقل دمامة من سابقتها وكان الخليفة هو الذى اختارهـــا . ولما هدأت بمنزلى سلمتها لمراحم سعدالله الخادم .

واطمأن المهدى والخليفة والأمراء من ناحية الغارات الخارجية فشرع كل منهم فى بناء منزل يوافق مكانته وحاجاته . وأخذت النساء سبايا الى الخرطوم الى هذه المنازل الجديدة وأخذ أسيادهن فى التمتع بهن لا تزعجهم نظرة الغريب أو حسد الصديق .

ولم يكن الخليفة والمهدى وقرابتهما يحبون أن يعرف الناس أنهم أخذوا معظم الغنيمة لأنفسهم ، لأن هذا العمل ينافى تعاليم المهدى الذى يقول بالزهد فى ملذات الدنيا وكانت منازلهم واسعة تسع أكثر ممن فيها وذلك انتظارا للغنائم التى ستأتيهم من البلاد التى لم تفتح للآن .

وفى يوم ما مرض المهدى ولم يذهب الى المسجد للصـلاة . ولم يأبه أحد لمرضه أولا لأنه كان قد أعاد على أسماع الناس عدة مرار أنه سيفتح مكة والمدينة والقدس ثم يموت بعد عمر طويل فى الكوفة . وأن النبى قد أظهره على هذه الرؤيا . ولكن مرض المهدى لم يكن وعكة خفيفة فقد استولت عليه حمى التيفوس وبعد ستة أيام من مرضه بدأ الذين حوله يقنطون من شفائه .

وكان سـيدى الخليفة يهتم اهتماما كبيرا بمرض المهـدى ولا يبرح داره ليل نهار . وكنت أنا أقف على الأبواب بلا غاية معينة .

وفى مساء اليوم السادس اجتمع جمهور كبير حول بيت المهدى وأمر المصلون فى المسجد بأن يصلوا ويدعوا لشفائه لأنه بات فى خطر الموت . وكانت هذه أول مرة أعلنت فيها الصـفة الخطرة للمرض المصاب به المهدى أمام الناس . وفى صباح اليوم السابع . أذيع أن حالته تسوء ولم يبق شك فى أنه يموت .

وكان المرض الآن قد بلغ غايته . وكان المهدى راقدا على عنجريب وحوله الخلفاء وقرابته وحمد واد سليمان ومحمد واد بشير (أحد كبار موظفى بيت المال ووكيل بيت المهدى) وعثمان واد أحمد والسـيد المكى (وهو شـيخ من شـيوخ الدين فى كردوفان) وبعض من كبار أنصاره الذين سمح لهم بالدخول فى غرفة مرضه .

وكان المهدى يغيب عن وعيه من وقت لآخر ولما شعر بأن آخرته قد قربت قال للذين حوله : « ان الخليفة عبدالله هو الخليفة الصادق ، وقد عينه النبى للخلافة بعدى . فهو منى وأنا منه . وكما أطعتمونى وأنفذتم أوامرى كذلك افعلوا معه . الله يرحمنا » .

ثم جمع ما فيه من قوة وكرر عدة مرات عبارة : « لا اله الا الله محمد رسول الله » ووضع يديه مشبوكتين على صدره ومد ساقيه وأسلم روحه .

وقبل أن يبرد دمه أقسم أنصار المهدى يمين الولاء للخليفة عبد الله . وكان أول من بايعه سيد المكى ثم عقب ذلك الخليفتان الآخران وتبعهم جميع الموجودين ولم يكن من الممكن أن يحتفظ بوفاة المهدى سرا لا يذاع بين الجمهور ولكن أمر الجميع بألا يبكوا أو ينوحوا وطلب من الجميع مبايعة الخليفة . وكانت ستنا عائشة أم المؤمنين كبرى زوجات المهدى فى غرفة وفاته قاعدة متلففة فى احدى الزوايا فلما مات خرجت من الغرفة لكى تخبر سائر النساء بوفاة مولاها وزوجها ، وكان عليها أن تعزيهن وتمنعهن من النوح والندب . وكان معظمهن قد فرحن فى قلوبهن بوفاة المهدى الذى جلب الخراب على البلاد والذى دعاه الله الى محكمته العليا قبل أن يتمتع بثمار انتصاره .

ولكن على الرغم من الأوامر القاضـــية بمنع النوح والندب ارتفعت الأصوات في كل بيت وقيل ان المهدى مات باختياره لأنه كان في شوق شديد لرؤية الله .

وشرع بعض الموجودين في غرفة المهدى بغسل الجثة ولفها في قماش من الكتان وأخذ البعض في حفر حفرة عميقة في الغرفة التي مات فيها وبعد ساعتين وضعوا الجثة في الحفرة وبنوا فوقها بالطوب ثم طمروا الحفرة بالتراب وصبوا عليه ماء . ولما انتهوا من ذلك رفعوا أيديهم وتلوا عليه صلاة الموتى وخرجوا من الغرفة وهدأ روع الجماهير المتكاكئة حول المنزل .

وكنا نحن الملازمين أول من دعى الى الخليفة الذى صار يسمى بعد ذلك خليفة المهدى فاقسمنا له يمين الولاء وأمرنا بان ننقل منبر المهدى الى مدخل المسجد وأن نخبر الجمهور بأنه سيخطبهم الآن فلما أخبرناه باننا قد نفذنا أوامره خرج من غرفة المهدى وذهب الى المسجد واعتلى المنبر لأول مرة باعتباره حاكما للبلاد .

وكان يتفزز من الهياج وعبراته تنحدر على خديه ثم قال بصوت عال :

« يا أصدقاء المهدى . انه لا مرد لقضاء الله . لقد غادرنا المهدى الى الجنة حيث يجد ملذات النعيم . وعلينا نحن أن نتبع تعاليمه وأن نتعاون وأن نتساند كما يتساند بناء البيت . وهذا العالم فان . فلا تنحرفوا عن طريق المهدى واغتبطوا بالشـــطر الحسن الذى معكم من أنصاره وأتباعه . وأنتم أنصاره وأنا خليفته . فاقسموا الآن الى يمين الولاء » .

ولما انتهى من هذه الخطبة القصيرة شرع الحاضرون فى المبايعة وكانت صيغتها .« بايعنا الله ورسوله ومهدينا وبايعناك على توحيد الله الخ ... » .

وكانت كل طائفة تبايع تخرج وتأتى أخرى وكان المجتمعون كثيرين حتى كانوا فى خطر الموت من الزحام . واستمرت المبايعة الى المســـاء . وكان الخليفة قد سكت عن البكاء وأخذت امارات الفرح ترتسم على وجهه عندما رأى هذه الجماهير العديدة تزدحم لمبايعته .

وكان قد جهده التعب فنزل عن المنبر واحتسى جرعة ماء بعد أن جف ريقه من تعبه طول النهار . ولكن خاطر السلطة الجديدة وانه الحاكم للقطر السودانى كان يؤنسه ويشد من عزمه ولم يترك المنبر الا بعد أن الح عليه كبار أتباعه بذلك .

وقبل أن يترك المنبر طلب أمراءه وجعلهم يقسمون يمين الولاء على حدة وأمرهم بلزوم طاعته وطاعة أخيه يعقوب ونصح لهم بان يعيشوا على وفاق بعضهم مع البعض لأنهم أغراب وذلك لكى يكافحوا دسائس أهل البلاد التى نزلوا فيها ثم حضهم على لزوم تعاليم المهدى .

وكنا قد تأخرنا الى ما بعد منتصف الليل فلم أرغب فى الذهاب الى منزلى وانطرحت على الأرض حيث أنا أسمع روايات الناس عن موت المهدى واستعدادهم لطاعة الخليفة .

والآن يمكننا أن نتساءل : ماذا فعل المهدى لاحياء الدين . وما هى تعاليمه ؟

لقد دعا الى الزهد وكان يجحد الملذات الدنيوية وغرور هذا العالم . وهدم النظام الاجتماعي ونظام الموظفين وسوى بين الأغنياء والفقراء واختار الجبة المرقعة لباسا عاما لجميع الناس . وضم المذاهب الأربعة المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي الى مذهب واحد ولم يكن اختلافها كبيرا فانه مقصور على كيفية الوضـــوء والسجود وكيفية عقد الزواج وما الى ذلك . واختار بضع آيات من القرآن سماها الراتب وكان يأمر المصلين بتلاوتها بعد صـــلاة الصبح وصلاة العصر .

وقد سهل على الناس عملية الوضوء ومنعهم من الشراب وكان السودانيون لا يعقدون زواجا بدون أن يشربوا . وأنزل قيمة المهر الى عشرة ريالات وثوبين للبكر وخمسة ريالات وثوبين للثيب . ومن أعطى أكثر من ذلك كان يصادر في أملاكه . وقصرت وليمة العرس على طبق من اللبن وآخر من البلح . وكان يقصد تيسير الزواج وكان يحتم على الآباء والأوصـــياء زواج بنـــاتهم . وهن بعد صـــغيرات .

ومنع الرقص واللعب وكل من خالف ذلك يعـــاقب بالجلد وتصفى أملاكه . وكان السباب يعاقب عليه بحساب ثمانين جلدة لـكل كلمـــة بذيئة والحبس سبعة أيام . ومنع استعمال الخمور والمريســـة وتدخين التبغ ومن خالف هذه الأوامر يعاقب بالجلد والحبس ثمانية أيام ومصادرة أملاكه . وكان السارق يعاقب بقطع يده اليمنى فاذا عاد الى السرقة قطعت اليسرى .

ولما كانت عادة الرجال في عرب السودان ارسال شعورهم أمر المهدي بحلقها وكذلك أمر بمنع النوح على الموتى أو ندبهم ومنع الولائم التي تقام في المآتم ومن خالف ذلك تصفى أملاكه .

ولما كان المهدى يخشى فرار جنوده لعلمه بما يقاسونه من المعيشة التى رتبها لهم ولعلمه بان مذهبه قد لا يعد صحيحا فى نظر المسلمين الآخرين منع السودانيين من الحج الى مكة ومنع المواصلات بين السودان والأقطار المحيطة به .

وكان يعاقب كل من يصرح بالشك فى صحة مذهبه ويشهد عليه اثنان بقطع يده اليمنى وساقه اليسرى . وكان يستغنى أحيانا عن شهادة الشاهدين بما يدعيه من ايحاء النبى له واثباته جناية المتهم أو براءته .

وكان أيضا يعرف أن معظم أوامره تخالف الدين فأمر لذلك بمنع الناس من دروس الفقه وشروح القرآن وقضى بان تحرق هذه الكتب أو تلقى فى ماء النيل .

هذه هى تعاليم المهدى ولم يترك حجرا الا قلبه لكى ينفذ أوامره . وكان فى الظاهر يبدو للناس أنه يحافظ كل المحافظة على لزوم تعاليمه ولكنه كان هو وخلفاؤه وقرابته اذا دخلوا منازلهم استسلموا للنهم فى الطعام والشراب واللهو وضروب اللذات الشهوانية المنتشرة فى السودان .

الفصل الحادى عشر

حكم الخليفة عبد الله

لم يحدث شيء ذو أهمية في دارفور منذ ان غادرتها . فان خالد درزريك كان قد رسخ حكم المهدى فى المديرية باجمعها وبعث الأمراء والجيوش لكى يقوى حكم المهدى فى الأنحاء . وقد تظاهر ضابطى القديم عمر واد دارهو بالولاء للنظام الجديد ولكنه عند وفاة المهدى قام في ذهنه أن يستقل فكاد له خالد حتى أوقع به وحمل الى دارفور حيث قطع رأسه .

وكان أبو أنجه في كردوفان وكانت هذه المديرية قد خضعت كلها للمهدى ماعدا الجزء الجنوبى فيها وأرضه جبلية فاعتبر أهل هذا الجزء عبيــدا لم يدفعوا الجــزية وطلب منهم الهجرة الى أم درمان .

ولما لم يجيبوا هذا الطلب دعى أبو انجه الى اخضاعهم والى احتلال بلادهم بجيشه واجبارهم على تموينه وارســال عدد منهم عبيدا الى المهدى . وتمكن أبو انجه بعد أن فقد مقدارا كبيرا من الذخيرة وعددا عظيما من رجاله من القيام بجميع ما أمر به تقريبا . وكان السودان الغربى باستثناء هذا الجزء الصغير منه خاضعا لسلطة المهدى من حدود وادى النيل الى الأبيض .

أما فى السودان الشرقى فقد ثبتت سنار وكسله ودافعت كل منهما المهديين ولما علمت الحكومة المصرية بالحالة الخطرة التى بات فيهـا الجنـود فى الحاميات الشرقية أرسلت الى يوحنا ملك الحبشة تستنجد به لكى ينقذ حاميات القلايات وجبره وسنهيت وكسله وينقلهم الى مصوع • ولكن حاكم كسله صرح بان الحامية مؤلفة من أولاد البلدة فهو لذلك لا يمكنه أن يجعلهم يتركون بلدتهم الى مصوع •

وأرسل المهدى كلا من ادريس واد عبد الرحيم وحسين واد صحرا بالامداد لكى يعجلا باسقاط المدينة . وفى هذه الأثناء كان الملك يوحنا قد أنقذ حاميات سنهيت وجبره والقلابات وأرسلهم الى مصوع وصار العرب المقيمون فى المثلث بين سواكن وبربر وكسله من أتباع المهدى الخاضعين له . وكان عثمان دجنه قد انتخب واليا على هذا القسم وأرسل محمد الخير الى دنقله لكى يحتلها بعد خروج الانجليز منها .

هذه اذن هى حالة السودان عند تولى الخليفة . ومن هنا نفهم السبب الذى دعاه الى أن يحث القبائل العربية الغربية على الاتحاد لأنهم أغراب فى البلاد التى يحتلونها . فانه كان يعرف أن « أولاد البلد » من برابرة وجعالين وسكان الجزيرة لا يستمرئون قدوم هؤلاء العرب الغربيين الذين يختلفون عنهم فى الأفكار والأخلاق الى بلادهم .

وكان أول ما عمله الخليفة أنه فصل حمد واد سليمان من منصب مدير بيت المال وعين بدلا منه ابراهيم واد عدلان وكان من عرب الكواحلة على النيل الأزرق ولكنه أمضى عدة سنوات يشتغل بالتجارة فى كردوفان وكانت له حظوة عند الخليفة .

وطلب من عدلان أن يجعل حسابا للوارد والمنصرف وأن يكون لهذا الحساب دفاتر تمكن مراجعتها في أي وقت وتعرف منها الحالة المالية . وأمره أيضـــا بأن يضع قائمة عن جميع أولئك الذين يتسلمون أي مبلغ من المال والذين يقبضون مرتبا .

وعند وفاة المهدي جاءت الأخبار بأن الغارة على سنار قد فشلت وان عبد الكريم قد صد عنها فأرسل الخليفة عبد الرحمن النجومي لكي يتولى القيادة وذلك في سنة ١٨٨٥ فسلمت الحامية لهذا القائد القوي . وحدثت الفظائع المعتادة بعد سقوط المدينة فان عددا من أهالي سنار أرسلوا الى الخليفة وكان بينهم بنات الموظفين الجميلات فاحتفظ الخليفة بأجملهن ووزع الباقي على الأمراء .

وشرع الخليفة في تأييد سيادته . وكان يعرف أن عبد الكريم مزاحم قوي فاستدعاه الى الحضور الى أم درمان بجميع جيوشه ثم دبر له هو والخليفة علي واد حاو مكيدة بحيث سلم عبد الكريم جميع ذخيرته وجنوده وكذلك سلم الخليفة شريف جميع جنوده السود لأخيه يعقوب وأصبح كل منهما مقام الظفر لا خطر منه .

وبينما كانت هذه الأخبار تشيع في العاصمة وصلت الاخبار بأن كسله سقطت وأن عثمان دجنه يقاتل الأحباش الذين يقودهم الرأس الوله . وقد انتصر الأحباش على عثمان دجنه واضطروه الى الالتجاء الى كسله ولكنهم اكتفوا بذلك ورجعوا الى بلادهم .

واتهم عثمان دجنه حاكم كسله السابق أحمد بك عفت بأنه فاوض الأحباش وحرضهم على مقاتلته . ولم يكن هناك أقل ما يثبت هذه التهمة ومع هذا فقد قبض على ستة موظفين في كسله وشدت أيديهم خلف ظهورهم وضربوا بالرصاص كأنهم مجرمون .

وكان الخليفة عبد الله يعرف أن جوره على سائر الخلفاء سيثير غضب قرابة المهدى الذين كانت علاقته بهم سيئة ولكنه لم يبال بذلك . فقد عقد عزمه على أن ينفذ أغراضه ولو احتاج فى ذلك الى استعمال العنف وقد كان مع ذلك يخشى الرأى العام ويعرف أن الأهالى كانوا يحبون المهدى وأنهم يعطفون على قرابته فلم يكن يظهر بمظهر العداء لهم . بل سار فى طريق مرضاة الجمهور الى أن أهدى الى الخليفة شريف طائفة من العبيد وبعض الخيول العتيقة والبغال الفارهة ووهب أتباعه أيضا عددا من العبيد . وقد اجتهد فى أن يجعل هذه الهبات والانعامات علنية حتى يعرفها جميع الناس وقد نال وطره فان الناس حمدوا له فعله وامتدحوا سخاءه فى قصائد كانوا يتغنون بها .

وكان واضحا أمام الخليفة أن ترك البلاد البعيدة فى أيدى قرابة المهدى مما يعود بالخطر على حكمه ، ولذلك لم يتوان فى ارسال قرابته هو الى دارفور وكردوفان لكى ياوا الحكومة .

وقد طلبنى الأمير يونس الدكيم لكى أرافقه الى سنار ولكنى قبل أن أغادر أم درمان قال لى الخليفة : « انى أحثك على أن تخدمنى خدمة صادقة . فانى أنظر اليك نظرة الأب الى ابنه وقلبى يعطف عليك . والله يعد المؤمنين بالمكافأة كما أن غضبه ينزل على الخونة . ويونس يحبك ويرجو لك الخير وسيسمع لنصائحك واذا شرع فى عمل يعود عليه بالأذى فيجب أن تحذره منه وقد أخبرته بأنى أعتبرك أحد أولادى وسيستشيرك فى كل ما يعمله » .

فقلت : « سأعمل بما تأمرنى . ولكن يونس رئيسى فهو لذلك سيستبد برأيه . فأرجوك ألا تنسب الى عملا لا يكون وفق هواك وتجعلنى مسئولا عنه » .

فقال : « ان لك أن تشير ولكن ليس لك أن تعمل . فاذا كان عمله وفق مشورتك والا فهو المسئول » .

ثم تحول الحديث الى مســائل دارفور وجهات أخرى من الســودان .

واستمر الحديث مدة ولكنني حين أوشكت آن آهم بالقيام هتف الخليفة بأحد الخصيان وهمس فى أذنه كلمة . وكنت أعرف مولاى معرفة جيدة وأعرف أن اشاراته نذير شؤم .

وقال لى : « لقد أشرت عليك بأن تترك أهلك لأنهم قد جاءوا بعد سفر شاق فهم فى حاجة الى الراحة . وسيعطيك يونس خادما وهأنذا أعطيك زوجة حتى اذا مرضت وجدت من يعنى بك » ثم تبسم وقال : « وهى جميلة وليست مثل تلك التى قدمها لك حمد واد سليمان » .

ثم أشار الى المرأة التى دخلت فرفعت نقابها ونظرت اليها فاذا بها جميلة على الرغم من سمرتها .

ثم قال الخليفة : « هذه زوجتى وهى طيبة صبور . وعندى كثير من النساء ، ولذلك أنا أعتقها فيمكنك أن تأخذها » .

فارتبكت وكنت طول الوقت أفكر فى طريقة أرفض بها مثل هذه الهدية . بدون أن أغضب الخليفة . فقلت : « اســمح لى يا مولاى بالكلام » .

فقال : « لا تخش شيئا . قل ما تريد »

فقلت : « هذه المرأة كانت يا مولاى زوجتك وأنت سيدى وأنا خادمك فكيف يجوز لى أن آخذ زوجتك ؟ ثم انك تقول يا مولاى أنك تنظر الى كأنى ابنك » . ثم أغضيت الطرف وقلت وأنا أنظر الى الأرض : « لا يمكنني أن أقبل هذه الهدية » .

فقال وهو يشير الى المرأة بأن تذهب : « لقد قلت حقا وأنا أوافقك » .

ثم هتف بالخصى قائلا : « يا ألماس · أحضر جبتى البيضاء » وذهب وأحضرها فسلمها لى وهو يقول : « خذ هذه الجبة التى لبستها أنا مرارا والتى باركها المهدى . وسيغبطك ألوف الناس عليها فاحرص عليها لأنها تأتيك بالبركات » .

فابتهجت بهذه الهدية وقبلت يديه وأنا مرتاح الى تخلصى من تلك المرأة التى ما كانت سوى حجر عثرة ونفقة لا أتحملها ووجدت فى الجبة بديلا طيبا منها · ثم استأذنت فى الخروج وأخذت هديتى الغالية معى .

وعين يونس يوم السفر ولكن قبل السفر طلبنى الخليفة وحثنى على الصدق فى الخدمة والأمانة أمام يونس .

وفى المساء برحنا أم درمان فى الباخرة « بردين » وفى اليوم الثالث بلغنا شاطىء النيل الأزرق وتراءت لنا سنار على بعد .

وقد اخترنا مكانا لخيامنا قطعة مستطيلة من الرمل شمالى وادى العباس لأن الأرض التى حولها منخفضة لا توافق الاقامة مدة فصل الأمطار . ولم يكن رأسى يفكر الآن بشىء سوى الفرار . ولكن

لما كان جميع الأهالى راضين عن الخليفة فانى كنت فى حاجة الى أن أحذر أشد الحذر فى اتخاذ واحد أثق به . ولم يمض على طويل زمن فى وادى العباس حتى جاءنى خطاب من الخليفة يقول فيه أنه جاءته أخبار بأن زوجتى قد وصلت الى كروســـكو وأنها ترتب الترتيبات اللازمة لفرارى ثم حضنى على أن أترك هذه الأفكار والزم الايمان . وتسلم يونس أيضا خطابا جاء فيه هذا المعنى ثم تعلل بأنه يريد أن يوقف الخليفة على الأحوال فى سنار وأمرنى بالسفر الى أم درمان . وعلى ذلك ذهبت تدبيراتى للفرار ضياعا ورأيت نفسى بعد أيام فى حضرة مولاى الخليفة .

وبدأ الخليفة الكلام عن الخطاب الذى جاءه من بربر فأكدت له بأنه اذا كان هذا الخطاب قد وصل بالفعل فانه لم يكتب الا بغية الأذى لى والا فقد يكون هناك خطأ وبرهانى على ذلك أنى لم أتزوج قط ، فليس لى زوجة تصبو الى لقائى . أما اذا جاء أحد الى أم درمان وأراد اغرائى بالهرب فانى لن أتأخر عن ابلاغ أمره للخليفة .

فأكد لى الخليفة بأنه لم يصدق هذه الاشاعة ثم سألنى هل أحب البقاء معه أو مع يونس وكنت أعرف قصده من هذا السؤال فقلت انى لا أعدل بالبقاء معه شيئا . وابتهج من تملقى له ولكنه قال بصوت جدى انه يذكرنى بالولاء والأمانة والا أحادث أحدا خلاف أهل داره . ثم أمرنى بلزوم مكانى كما كنت سابقا على باب الدار .

وعند خروجى لم أشك فى أن شبهات قد تأصلت فى قلبه وأنها ابتدأت فى النمو .

وكانت قوة الأبيض تحتوى فى هذا الوقت على مائتين من الجنود السود وقد زاد عددهم بما انضم اليهم من جنود داره السود

أيضا . وكان كثيرون منهم يقطنون جبل دبرو وهم على عداوة دائمة مع المهدى . وكان الدراويش قد أسروا بعضا منهم واستعملوهم فى بناء أكواخهم واستعبدوهم .

واغتاظ هؤلاء الجنود من هذه المعاملة وعزموا على أن ينالوا حريتهم . وكان الأمير سيد محمود غائبا لحسن حظهم فى أم درمان وتمكن المتمردون من الاستيلاء على الترسانة . فاخذوا منها السلاح ثم اقتتلوا مع سائر الجنود وخرجوا الى جبل النوبة .

وبلغت هذه الأخبار السيد محمود فى أم درمان فسافر فى الحال الى الأبيض وتولى قيادة الجند وسار الى جبل النوبة وحاول أن يهزمهم ولكنه فشل فى ذلك وقتل هو وعدد كبير من الجند .

ولم يكن الخليفة يجهل تزايد قوة خالد (زوجال) واستقلاله فى دارفور . وكان يعرف أنه لقرابته من المهدى يعطف على الخليفة شريف فتعلل بأنه يرغب فى أن يتوسط خالد بينه وبين الخليفة شريف فى ايجاد الصلح والوفاق ودعاه لذلك الى الحضور الى أم درمان مع جميع جنوده .

ولكن عندما وصل خالد الى باره وجد نفسه فجأة محوطا باتباع أبو انجه وكان الخليفة قد أمرهم بأن يأخذوا جنود خالد ويضموهم الى جيشهم ويذهبوا جميعا الى جبل النوبة لمقاتلة المتمردين . ولم يكن بد من أن يخضع خالد بعد أن وقع فى هذا الشرك فقيد بالسلاسل وأرسل الى أم درمان ثم صودر فى أملاكه وبقى سجينا عدة أشهر ولكن عفى عنه بعد ذلك وعين بدلا منه عثمان واد آدم ابن عم الخليفة .

ونجح أبو انجه فى هزيمة المتمردين فقتل جميع الزعماء وجعل معظم الجنود المتمردين عبيدا .

وعلمت من تاجر قدم الينا من كردوفان فى ذلك الوقت أن صديقى يوسف أوهر ولدر قد غادر الأبيض وأنه سيصل قريبا الى أم درمان . ومع علمى بأنى سأجد أكبر مشقة فى لقائه فقد فرحت بأن أحد بنى وطنى سيكون قريبا منى . وكنت طول الوقت على باب مولاى الخليفة أنفذ أوامره . وكان يخاطبنى أحيانا بلهجة الرأفة ويدعونى الى الطعام فآكل معه . وفى أحيان أخرى كان ينسانى نسيانا تاما أو ينظر الى نظرة الحقد والغضب بلا مناسبة أستطيع فهمها . ولكننى صرت أنسب هذه الأحوال الى مزاجه الشخصى وصرت أسوم نفسى على الرضا .

وكنت لا أبدى أقل اكتراث لما يحدث فى البلاد من الحوادث وذلك حتى لا يجدوا سببا فى زيادة شبهات الخليفة الذى كان على الدوام يتوجس منى شرا ويسأل عن مسلكى ولكن الحقيقة أنى كنت أرقب الحوادث بعين الاهتمام بمقدار ما يسمح لى مركزى وكنت أحاول أن أنقشها فى ذهنى حتى لا أنساها لأنه لم يكن يسمح لى بكتابة شىء . وكان الخليفة يقتر على فى مؤونة بيتى وقلما كان يأذن باعطائى بعض الارادب من الذرة أو منحى بقرة أو شاة .

وكنت أعرف ابراهيم عدلان مدة الحكومة السابقة فكان يرسل لى كل شهر مبلغا يتراوح بين العشرة والعشرين ريالا وكان بعض الموظفين والتجار يساعدوننى أيضا بالمال من وقت لآخر . وعلى ذلك يمكننى أن أقول ان حالى وان لم تكن فى يسر الا أنى لم أشعر بالحاجة الى ضروريات المعيشة أو كنت أشعر بها قليلا من وقت لآخر فقط . وعلى كل كانت حالتى تفضل حال صديقى لبتون الذى

وعده الخليفة بمساعدته ولكنه لم يف بوعده ، وكان لبتون يتمتع بشيء من الحرية يجول أينما شاء في أم درمان ويحادث الناس ولم يكن مضطرا الى حضور الصلوات الخمس في المسجد . ولكن حياته كانت مع ذلك مملوءة بالمتاعب والأحزان . وقد رجوت عدلان أن يساعده ويعطيه شيئا من المال ولكن هذا لم يكفه . وكان لبتون يجهل التجارة ولكن الحاجة اضطرته الى أن يربح شيئا باصلاح البنادق الفاسدة . ولما كنت أعرف أنه كان مستخدما في السفن الانجليزية قديما خطر في بالي أنه ربما يعرف شيئا عن الآلات .

والتقيت به في أحد الأيام في المسجد فشكا الى سوء حاله شكاية مرة فاقترحت عليه أن أبحث له عن وظيفة في البواخر يستعين بها على العيش فطرب لمقترحي ووعدته بأني سأعمل جهدي لكي أحقق له ذلك .

وبعد أيام بينما كان الخليفة في مزاج موافق ينظر الى بعين الرضا لأن أبا أنجه أرسل اليه جوادا عتيقا وبعض المال وعددا من عبيد خالد فعدت لتناول الطعام معه وذكرت له حال البواخر وانها يخشى عليها من التلف لأنه ليس فيها من يفهم آلاتها وكيفية اصلاح ما يفسد منها فقال لي انه لا يعرف شيئا عنها مطلقا وانه في حيرة ماذا يفعل لصيانتها فانها ضرورية . فاقترحت عليه في الحال بأنه يمكن أن نستخدم لبتون فيها لصيانتها واصلاحها وقلت له ان لبتون كان مهندسا في احدى البواخر الانجليزية . فوافقني الخليفة على اقتراحي وأمرني بالبحث عنه .

وفي اليوم التالي بحثت عن لبتون ودعوته للحضور . فحضر وأخبرته بما قاله الخليفة ولكني نصحت له بألا يعمل شيئا مفيدا للبواخر التي يملكها أعداؤنا . فأكد لي لبتون بأن معرفته بالآلات

سطحية جدا وأنها ستسوء بادارته وان الحظ السيىء هو الذى سيجبره على قبول هذه الوظيفة . وخاطب الخليفة عدلان فى هذا الشأن . وفى المساء أرسل الى لبتون يقول انه قد تعين فى هذه الوظيفة براتب قدره أربعون ريالا فى الشهر وفى هذا المبلغ كفاف المعيشـــة .

وأشيع فى ذلك الوقت فى أم درمان أن الأحباش سيغيرون على القلابات . وقيل أيضا أن من يدعى الحاج على واد سالم من الكواحلة كان يقيم فى القلابات . وقد تعين أميرا على قبيلته وكان يسيح فى تخوم الحبشة فأغار على جبطة وهدم كنيستها .

وكان من يدعى صالح شنجة وهو رجل تكرورى كان يقيم قبلا فى القلابات فلما أخلاها الجنود المصريون ذهب وأقام فى الحبشة ولكن ابن عمه أحمد واد أرباب عين أميرا فى ذلك القسم .

وكان حاكم (أمهرة) فى الحبشة الرأس عدل طلب قدمن « أرباب » أن يسلم له الحاج على الذى أغار على جبطة . فرفض طلبه فجمع جيشا وأغار به على القلابات .

وكان « أرباب » قد علم بنية الراس عدل على الهجوم فجمع جيشا يبلغ ستة آلاف ووقف ينتظره خارج المدينة . ولكن هجوم الأحباش الذين كان يزيد عددهم على عدد السودانيين بعشرة أضعاف كان عنيفا فأحدقوا بالدراويش وذبحوهم وقتل « أرباب » ولم ينج الا عدد قليل جدا . وقطع الأحباش أجسام القتلى ومثلوا بهم ما عدا جسم « أرباب » فانهم استثنوه احتراما لصالح شنجه .

وكان الدراويش قد خزنوا بارودهم فى منزل ووكلوا حراسته لمصرى . فلما طالب الأحباش هذا المصرى بتسليم البارود أبى وأشعل

البارود فانفجر وقتله هو ومن حوله من الأحباش . أما القلابات نفسها فقد أحرقها الأحباش وسووها بالأرض بحيث صارت خرابا لا يعيش فيها سوى الضباع .

ولما بلغ الخليفة خبر اصطلام جيش واد أرباب أرسل خطابا الى الملك يوحنا يعرض عليه افتداء الاسرى بمبلغ يعينه هو بنفسه . ولكنه في الوقت نفسه أمر يونس بأن يقوم بجيشه الى القلابات وينتظر أوامره هناك .

وعندما غادر يونس الخرطوم بجيشه عبر الخليفة النهر الى الخرطوم وشيعه ثم عاد الى أم درمان .

وحدث أن « كلوتز » اختفى فجأة من أم درمان وكان هذا على أثر فشله في الحصول على ما يعيش به ، وظننت أنه قد فر ونجا ولكني علمت من بعض التجار الواردين من غضارف أنه وصل الى هذه البلدة وقد بلغ به الأعياء حتى مات قبل هجوم الأحباش .

الفصل الثاني عشر

بعض الحوادث الأخرى

كان الأمير كرم الله قد تولى الحكم فى بحر الغزال بعد لبتون وذهب الى شقة وأقام فيها . ولكن صديقى القديم المادبو كان يحكم هذه الجهة فاصطدم الاثنان وتنازعا السلطة .

وانتهى النزاع بالشجار وفر المادبو بعد مقاومة غير مفيدة فقبض عليه وأرسل الى أبى أنجه وكان يحقد عليه لعلة سابقة . وذلك أن المادبو أسره أحد الأيام عندما كان يقاتل فى صف سليمان زبير ، وكلفه حمل صندوق كبير من الذخيرة فلما شكا اليه أبو أنجه جلده . ولما أحضر المادبو حاول أن يدافع عن نفســـه بقوله أنه لم يقاتل المهدى وانما كان يقاتل كرم الله . ولكن ما فائدة الدفاع فى هذه الأوقات ؟ .

وعرف المادبو أن الدفاع لا فائدة فيه فاستسلم لقضاء الله وقال : « ان الله هو الذى يقتلنى . وأنا لا أسأل الرحمة وانما أطلب العدل . ولكن كبير على عبد مثلك أن يكون شريفا . وها هى ذى آثار سوطى على ظهرك لم تزل واضحة . ومهما جاءنى الموت فانه سيجدنى رجلا هادئا مطمئنا لقبوله . فأنا المادبو والقبائل تعرفنى » .

وأمر أبو انجه برده الى السجن ولكنه لم يجلده وفى اليوم التالى قتله أمام جيشه وبر المادبو بوعده فانه وقف فى الساحة الفسيحة المعدة لقتله والسلاسل حول عنقه وكان يضحك فى وجه الجنود الذين كانوا يركضون الخيول ويلوحون بالرماح فى وجهه . ولما أمر بالركوع لكى يقتل صاح فى الناس أن يشهدوا عليه كيف مات وتحمل الموت بشجاعة . وبعد لحظة انتهى كل شيء . وهكذا ختمت حياة المادبو وكان من أقدر شيوخ العرب فى السودان .

ولما أحضر رأسه الى أم درمان حزن عليه جنود الرزيفات الذين كانوا قد هاجروا الى أم درمان . حتى الخليفة نفسه أسف على قتله . ولكن لما كان كل شيء قد انتهى لم يكن ثم مجال لأن يلوم أكبر أمرائه على شيء فات . ولكنه أخبرنى أنه لو عاش لكان فيه منفعة كبيرة .

وكان يونس قد غادر أبا حرز الى الغضارف والقلابات حيث أقام وكانت سلطته واسعة . وحدث أنه طلب من الخليفة أن يأذن له فى الاغارة على الحبشة ولم يكن الخليفة قد تسلم الجواب من الملك يوحنا على خطابه فاذن له . فأخذت جيوش يونس فى الاغارة على القرى المتاخمة ، وكان يقودها عرابى ضيف الله فكان يقتل الرجال ويسبى النســـاء والأولاد وكانت هذه الجيوش سريعة الحركة كثيرة الاغارة حتى لقد سارت مرة عشرين ميلا فى داخل البلاد تنهب وتقتل وتفتك . ولكن يونس كان فى القلابات وعلاقته بالاحباش على ما يرام يتاجر معهم فيأتونه بالبن والعسل والشمع والطماطم وريش النعام والخيول والبغال والعبيد وحدث مرة أن جاءت قافلة كبيرة من الجبارتة (وهم من مسلمى الاحباش) ومن المكاده ومعهم متاجر عظيمة فلم يقو يونس على كبح أطماعه فادعى أنهم جواسيس أرسلهم الرأس عدل وقبض عليهم وأخـذ سلعهم

واستحسن الخليفة عمله حتى سماه « عفريت المشركين » و « مسمار الدين » .

وكان يونس قد أرسل اليه جميع الفتيات الجميلات اللاتى سبين فى الغارات كما أنه أرسل اليه عددا من الخيول والبغال . وطمع الخليفة فى التوسع وكان أيضا مغتاظا من الملك يوحنا لأنه لم يجب على خطابه فعزم على أن يضم جيش يونس الى جيش أبى أنجه ويغير بهما على الحبشة . وطلب من يونس أن يبقى بجيشه ويتخذ خطة الدفاع الى أن تأتيه أوامره .

وأرسلت الأوامر الى أبى أنجه لكى يرسل ١٥٠٠ من جنوده المسلحين ببنادق رمنجتون الى عثمان واد آدم الذى عين أميرا لكردوفان ودارفور . وطلب منه أن يحضر هو بنفسه مع سائر جيشه الى أم درمان .

وقبل هذه الحوادث بمدة قليلة كانت قبيلة الكبابيش التى تقيم بين كردوفان ودنقله قد ظهر منها شىء من العصيان . فأرسلت اليهم تجريدة نجحت فى اخضاعهم وغنمت منهم مقادير كبيرة من الماشية والعبيد . ولجأ شيخ القبيلة الشيخ صالح الى أم بدر وهى بقعة بعيدة ومعه عدد قليل من أتباعه .

وأرسل الشيخ صالح الى وادى حلفا يستنجد بالحكومة المصرية فسلمت لوكيله مائتى بندقية وأربعين صندوقا من الذخيرة ومائتى جنيه وبعض المسدسات الملبسة بالمعدن .

وكان فى أسوان فى ذلك الوقت تاجر ألمانى يدعى شارل نيوفلد وكان يعرف ضيف الله أجيل شقيق الياس باشا الذى فر

حديثا من السودان . وعلم منه ان في كردوفان مقادير كبيرة من الصمغ لم يستطع التجار اصدارها بالنسبة للنورة وانه يمكن بمعاونة الشيخ صالح أن تنقل الى وادى حلفا . فأغراه الطمع في المال أن يذهب بنفسه الى الشيخ صالح . ويظهر أنه لم يجد صعوبة كبيرة في الحصول على اذن بالسفر الى السودان بعد أن وعد بكتابة تقرير عن الحالة في السودان . وفي أوائل ابريل ١٨٨٧ غادر وادى حلفا قاصدا الشيخ صالح .

وكان النجومى عارفا بقيام القافلة فوضع أناسا على الطرق لكى يخبروه بالطريق التى تسلكها القافلة . ومما زاد الطين بلة أن الدليل ضل في الطريق فقاست القافلة عذابا كبيرا من العطش . ولما وصلوا الى آبار الكاب وجدوا بضعة دراويش في انتظارهم فنشب قتال انهزم فيه رجال صالح لما كان بهم من الاعياء والعطش وأسر بعضهم . وكان بين الأسرى نيوفلد . وفي بدء القتال عزم نيوفلد على ألا يبيع حياته رخيصة فانه اتخذ مكانا وراء القافلة وكانت معه خادمة حبشية . ولكن القتال لم يبلغ اليه .

وعند انتهاء القتال عرض عليه الدراويش أن يعفوا عنه اذا سلم نفسه فرضى وأخذ الى النجومى في دنقله مع سائر الأسرى . وقتل النجومى جميع الأسرى ماعدا نيوفلد فانه حقن دمه لكى يرسله الى أم درمان .

وكنت قد سمعت أن أسيرا أوربيا سيرسل الى أم درمان . وفي أحد الأيام في شهر مايو رأيت جمهورا يسير نحو دار الخليفة وفي وسطه رجل أوربى قد ركب جملا . وكان الشائع على ألسنة الناس أنه الباشا حاكم وادى حلفا . وكان بين المسجد وبين دار الخليفة بناء يدعى رقوبة يجلس فيه الملازمون والى هذا البناء أدخل الينا نيوفلد .

فلما رأيته صمت لأني كنت أعرف أخلاق الخليفة وجواسيسه وتظاهرت بالمجانة. لا أكترث لما يجرى أمامى .

ولما سمع الخليفة بوصول نيوفلد بعث فى طلب الخليفتين والفاضيين طاهر المجذوب والأمير بخيت ونور انجره الذى كان قد وصل حديثا من كردوفان حيث كان يحارب مع أبى انجه . وأرسل أيضا فى طلب يعقوب أخيه . وعندما دخلوا همست فى أذن نور أنجره قائلا : « افعل جهدك لكى ينجو الرجل » .

وطلبنى الخليفة وأمرنى بأن أجلس مع المجتمعين معه . ثم أخبرنا بأن الرجل جاسوس انجليزى وطلب من الشيخ طاهر المجذوب أن يستجوبه . وطلبت أنا فى الحال أن يؤذن لى بأن أخاطبه بلغة أوروبية فأذن لى وذهبت أنا وطاهر الى الرقوبة حيث كان نيوفلد .

ولما ذكر اسمى قام نيوفلد وصافحنى وهو فرح . فنبهته الى وجوب مخاطبته الشيخ طاهر الذى وكلت اليه محاكمته وأنه يجب عليه الخضوع كل الخضوع لما يقال له . وكان يجيد التكلم بالعربية وأحدث استعداده للكلام أثرا سيئا فى نفوس سامعيه فطلبوا أن يرسل الى الخليفة وكان حكمهم أنه جاسوس يجب أن يقتل . ولما صرنا جميعا فى حضرة الخليفة قال لى : « وما رأيك أنت فيه ؟ » .

فقلت : « كل ما أعرفه أنه ألمانى أى أنه ينتسب لأمة لا تهتم بمصر » .

وسلم الى الخليفة أوراقا وطلب منى قراءتها ورأيت فى عينيه أنه يحدق النظر فى لكى يعرف ضميرى .

فوجدتها تحتوى على كشف أدوية مكتوب باللغة الألمانية . وخطاب بالانجليزية الى نيوفلد فيه أخبار عن الحالة بالسودان . كذلك خطاب طويل من الجنرال « استيفنسن » ينبىء فيه بانه منحه الاذن بدخول السودان مع القافلة القادمة . وفى الوقت نفسه يطلب معرفة أخبار وافية عن الحالة عموما .

ترجمت هذا الخطاب للخليفة غير أنى تكتمت ما طلبه الجنرال من معرفة الأخبار فقلت له أن ما يطلبه هذا الرجل هو السماح له فى دخول البلاد وهو يشتغل فى التجارة كما أخبر الشيخ طاهر . وقد رأيت الخليفة في تلك اللحظة يحـــدق النظر بى ! ثم أمرنا بالانصراف انتظارا لأوامره خارج الدار .

وقد اجتمع فى ذلك الأوان عند البناء المسمى « الرقوبة » آلاف الناس بقصد رؤية الباشا الانجليزى . وما هى الا هنيهة حتى جاء بعض الضـــباط الســـود وأوثقوا يدى نيوفلد وأمروه بمغادرة الرقوبة . فوقفت أنا والقاضى « نور أنجره » على كومة من الأحجار نرقب ما سيحدث .

وفى تلك اللحظة التى ظنها نيوفلد آخر حياته حدق بنظره الى السماء ثم خر ساجدا دون أن يطلب اليه ذلك . فأمروه بالنهوض ومن ثم تقدم رجل يحمل أرغونا وابتدأ يعزف أنغاما مطربة فوق رأس نيوفلد . ولقد دهشت لما رأيت ان ذلك لم يربكه قط واندفعت خادمته الحبشية بدافع الاخلاص لسيدها طالبة أن تقتل معه ولكنها أعيدت الى الرقوبة فى الحال . وقد تيقنت حينئذ أنا والقاضى بأن الخليفة يداعب نيوفلد كمـا يداعب القط الفأر وان الحـكم باعدامه لم يصدر بعد فحاولت أن أشير اليه ولكنه يظهر أنه لم يتنبه الى اشارتى .

ثم عدنا بعد ذلك فى حضرة الخليفة فبادر الشيخ طاهر بقوله « هل أنتم تصرون على اعدام هذا الرجل ؟ » ثم التفت الى نور أنجره وقال له ما رأيك وأنت الذى طلبت العفو عن نيوفلد وقلت أنه شجاع ثم التفت الى وقال « ما رأيك أنت يا عبد القادر ؟ » فقلت يا مولاى ان الرجل يستحق القتل ولو كان هناك أى حاكم غيرك ما تأخر عن قتله . ولكن علو نفس مولاى الخليفة ورحمته لا شك بأنهما سيشملانه خصوصا أنه اعتنق الدين الاسلامى وأن رحمة الخليفة به لا محالة ستقوم عقيدته . وقد عفا عنه القاضى أحمد من قبل كما أن الخليفة لم يكن فى عزمه فعلا أن يقتله كما ظهر لى .

وحينئذ أمر الخليفة باعادة نيوفلد الى الرقوبة بعد أن فكت أغلاله الا أنه أصدر الأمر بأن يعرض على أنظار الجمهور ثم أن يسجن بعد ذلك حتى صدور أوامر أخرى ثم التفت الخليفة الى وأمرنى بألا أختلط مع نيوفلد بعد الآن . فانسحبنا جميعا ولكنى لم أعدم الفرصة لأبلغ نيوفلد بما قضاه الخليفة من أنه سيعرض على أنظار الجمهور . وبعد ذلك نفذ الأمر وعرض على الأنظار .

وفى اليوم التالى استدعانى الخليفة وأبلغنى أن النجومى يقول ان نيوفلد أغرى بواسطة الحكومة ليتصل بالشيخ صالح الكباشى ويساعده على محاربة المهديين . فأوضحت للخليفة عدم صحة هذه الرواية اذ أن أوراق نيوفلد صحيحة مستوفاة وأن الحكومة على أى الحالات لا يعقل أن تعهد اليه بعمل كهذا . وقد تبادر الى ذهنى فى أول الأمر أنه صدق قولى فى هذا الصدد . ولكنى تيقنت من الضد بما أظهره لى من الاحتقار وعدم الثقة مدة من الزمن .

وبعد أيام قليلة عقد الخليفة استعراضا كبيرا أخذ اليه نيوفلد مكبلا بالحديد وراكبـا جملا • ولما التقى بالخليفة سأله عن آرائه فيما يختص بكتائبه فأجابه بأنها بالرغم من وفرة عددها لا تزال الجيوش المصرية أحسن نظاما منها وتدريبا • وعند ذلك أمر الخليفة برده الى « الرقوبة » سجينا •

ورغبة في الانتقام من السيخ صالح الذى لم يقدم ولاءه للخليفة أرسلت اليه حملة قضت على حياته وفرقت رجاله وبهذا قضى على حياة آخر شيخ مخلص للحكومة المصرية .

وفي أواخر يوليو وصل « أبو انجه » الى أم درمان مصحوبا بقوة تقدر بعشرين ألف رجل • وبعد أسابيع قليلة أرسل جزءا من هذه القوة تحت قيادة « زكى طومال » لاخضاع « أبو روف » شيخ قبيلة جهينة الذى لم يلب نداء الخليفة ويذهب الى أم درمان . فدحر زكى طومال معظم رجال تلك القبيلة وأرسل كثيرا من السبايا وأسرى الأطفال هدايا للخليفة وأحضر الباقى بعد ذلك الى أم درمان حيث اشتغلوا فى نقل الماء وعمل الحصر . وبيعت قطعانهم بأبخس الأثمان في الأسواق فبيع الثـور أو الجمل الذى قيمته ٤٠ أو ٦٠ ريالا بريالين أو ثلاثة .

وتلقى أبو أنجه الأوامر لكي يوالى السير من أم درمان الى القلابات بعد تشتيت شمل قبيلة جهينة . ويتولى هناك قيادة الجيوش • فعند وصوله جمع القوات المرابطة فى المراكز الجنوبية عند أبى هرر وأخذ ينظمها ويعد العدة للأخذ بثأر (واد أرباب) من الأحباش واجتمعت تحت امرته أكبر قوة جمعت من عهد الخليفة عبد الله اذ كان مجموع ما تحت قيادته ٤٥ ألفا من حاملى الرماح و ٨٠٠ من الخيالة و ٥٠ ألف بندقية فغادر القلابات بهذه القوة

مخترقا ممر (منتك) قاصدا (رأس أوال) ولست أعلم حتى هذه اللحظة لماذا لم يهاجم الأحباش أعداءهم أثناء اختراقهم هذه الممرات الضيقة والوديان السـحيقة التى كان يتعذر عليهم فيها استعمال نيران بنادقهم فاذا لم يتمكنوا من صد أعدائهم فانهم على الأقل يستطيعون أن يلحقوا بالدراويش خسائر تذكر . وكل ما أمكننى ادراكه هو أن الأحباش ربما تأكدوا من فوزهم النهائى وعملوا على جرهم بعيدا داخل المملكة حتى يقطعوا عليهم خط رجعتهم وبذلك يبيدونهم عن آخرهم . فابتدأ القتال على سهل « دبراش » وكان تحت قيادة الرأس « عدل » الفان من المحاربين واتخذ له موقعا يهدد به جناح أبو أنجه الشـمالى ولكن أبو أنجه كان لديه من الوقت ما يسمح له بالانسحاب من التلول وأن ينظم صفوفه وهو يتقهقر . فحمل الأحباش المرة تلو الأخرى على الدراويش الا أن هؤلاء تمكنوا من صدهم بعد أن حملوهم خسائر فادحة وأخذ أبو أنجه بعد ذلك فى الهجوم حتى انتصر فى معركة حاسمة .

وكان يتولى القيادة فى كسلا « أبو حرجه » وقد أمر باللحاق « بعثمان دجنه » ليعاونه فى القتال . وترك « أحمد واد علي » نيابة عنه فى كسلا . وعرج فى طريقه على أم درمان ليرفع الى الخليفة تقريرا عن حالة القبائل العربية النازلة بشرقى السودان . وزعم أنه وصل الى أم درمان فى ساعة متأخرة من الليل الا أن الخليفة قابله مقابلة طويلة خصوصية . وقد أبلغنى أثناء خروجه أن خطابا ورد لى من أهلى .

وبعد بضـع دقائق طلبت عند الخليفة وأبلغت بأن حاكم سواكن بعث بخطاب الى « عثمان دجنه » يظن أنه من عند أهلى . وأمرنى الخليفة بفتحه فى الحال واخباره عما يحتويه . فتصفحته بسرعة وأشد ما آلمنى خبر وفاة والدتى . وقد أخبرنى اخوتى بأنها

ما كانت تطلب في آخر حياتها وهى على فراش الموت الا أن يجمع الباريء بيني وبينهم .

ولما لاحظ الخليفة طول الوقت الذى استغرقته فى مطالعة الخطاب سألني عن اسم من أرسله لى وما هى محتوياته فأجبته بأن اخوتى هم الذين بعثوا به الى وانى سأترجمه اذ لم يكن هناك داع لكتمان أى شيء فيه فهو عبارة عن بضعة أسطر سطرها اخوة بؤساء الى أخ بعيد عنهم .

وقد أبلغتهم مقدار جزعهم على لطول غيابى عنهم وكيف أنهم على استعداد لعمل أى تضحية فى سبيل خلاصى واستردادى لحريتى . ولما وصلت فى الخطاب الى الجزء الخاص بوالدتى قلت للخليفة انه بسبب بعدى عنها كانت فى كل أوقات مرضها تتضرع الى البارى كى ترانى قبل موتها . كانت تتمنى ذلك ولكن أمنيتها لم تتحقق ففاضت روحها قبل أن ترانى وفى تلك اللحظة التى نضب فيها لعابى ولم أقو على الاستمرار فى الكلام . بادرنى الخليفة قائلا :

« ألا تعلم والدتك بأنى أرحم عليك من أى مخلوق كان ، وعلى كل حال انى لا أتصور أنها كانت على ما تذكر من الحال فعليك أن تحزن لوفاتها ولكن يجب أن تعلم أنها ماتت مسيحية ولم تعتقد فى الرسول والمهدى . وعلى ذلك هى لا تلاقى رحمة ربها » .

فهاجت أعصابى عند سماع قوله هذا ولكننى لم أفوه بكلمة ثم استرجعت قواى وصرت أتلو عليه ما جاء فى الخطاب عن زواج أخى هنرى وان « أودلف » واخواتى البنات بخير . وطلبوا الى فى آخر خطابهم أن أكتب اليهم عن الطريقة التى يمكن عملها لاسترداد

حريتي كما طلبوا الى الاسراع في الاجابة عليهم . فقال لى الخليفة أكتب الى واحد من أخويك كي يسرع في الحضـور الى هنا وأخبره بأنه سيكون موضع اجلال واحترام وسوف لا يحتاج الى شيء بالمرة ما مادام مقيما هنا . ومع ذلك سأتكلم معك في هذا الشأن مرة أخرى . وبعد ذلك أشار علي بالانصراف . فانصرفت وكان رفاقي الذين علموا بوصول هذا الخطاب ينتظرونني بفارغ الصبر ليسمعوا مني ما حواه وبمجرد أن تلاقوا معي وجهـــوا لى عدة أسئلة كنت أجاوبهم عليها بكل اقتضاب .

ولما ذهب الخليفة الى راحته اتكأت على سريرى « عنجريبي » فسألني خدمي عن الأخبار فكنت أطلب اليهم عدم محادثتي .

ثم أخذت أحدث نفسي قائلا : « واأسفاه عليك يا والدتي فانني أنا الذي كنت سببا في لحظاتك السيئة الأخيرة » وقد أخبرني اخوتي في خطابهم بآخر كلماتها التي كانت تفوه بها فعلمت أنها كانت تقول :

« اني على استعداد لملاقاة الخـــالق . اني على استعداد للموت . ولكنني ارجو أن أرى واقبل ردولف قبل أن تفيض روحي » وكانت تقول أيضا « انني كلما تذكرت أنه في قبضة أعدائه تزداد آلامي » .

آه . اني أتذكر جيدا كلماتها التي فاهت بها لما عولت على القدوم الى السودان لقد كانت تقول لى : « يا بني ان روحك المضطربة تدفعك الى المغامرة بحياتك في بــلاد بعيدة لا تعلم عنهـــا شيئا . وربما يأتي الوقت الذي تنتهي فيه من كل ذلك وتقبل على حياة هادئة » فما أصدق كلماتك يا والدتي وما أعظم الشقاء الذي سببته لك .

وبعد أن فكرت فى هذا كله صرت أنوح ثم أنوح لا بالنسبة لما أنا عليه من حال سيء بل من أجل أمى العزيزة التى فاضت روحها بسببى .

وفى صباح اليوم التالى أرسل لى الخليفة وطلب منى مرة أخرى أن أترجم له الخطاب وأمرنى أن أرد فى الحال على اخوتى لأخبرهم بأنى فى رغد من العيش . فنفذت ما طلبه وكتبت خطابا كله ثناء على الخليفة واعجاب بخصاله وكم أنا سعيد بجواره . ولكننى كنت أضع كل كلمات المدح والاطراء وحسن الحال داخل أقواس وبجوارها علامات استفهام . وكتبت فى ذيل الخطـــاب ما يشـــير الى ان تلك الكلمات الموضوعة بين الأقواس هى عكس الحقيقة .

وفى الوقت نفســـه طلبت الى اخوتى أن يكتبوا الى الخليفة خطاب شكر على حسن معاملته لى !!! وأن يرسلوا له كيس سفر كبير ويرسلوا لى مبلغ ٢٠٠ جنيه و ١٢ ساعة اعتيادية تستحق أن تكون هدايا لأقدمها الى أمراء الخليفة الذين يسرون بها كثيرا . وطلبت نسخة القرآن مترجمة الى اللغة الألمانية . ولكيلا يجزعوا قلت لهم أنى أرجو أن تسمح الظروف بملاقاتنا قريبا .

طلبت اليهم أن يرسلوا تلك الطلبات الى قنصل النمسا فى القاهرة الذى يرسلها الى حاكم سواكن وهذا يبعث بها الى عثمان دجنه ومنه تصل الى . وقد سلمت هذا الخطاب الى الخليفة فبعث به رسولا كان ذاهبا الى عثمان دجنه ليرسله الى سواكن .

وقد حزنت قبل وصول الخطاب المحزن بنحو شهر تقريبا لما أصاب صديقى « لبتون » الذى كان يشتغل فى جمرك الخرطوم

وأرغمته حالته الصحية على أن يترك عمله . وعاد بعد ذلك الى أم درمان يشكو الفاقة ولكن لحسن حظه كان قد عاد صديقه (صالح واد الحاج على) من القاهرة ومعه بعض النقود أرسلها اليه بعض أفراد أسرته من القاهرة مع صالح المذكور .

وكان واد الحاج على هذا طماعا في ابتزاز الأموال ، حرامها وحلالها ، فقد أعطى « ليبتون » قبل ذلك مبلغ ١٠٠ ريال وأخذ منه تحويلا على أخيه بالقاهرة بمبلغ ٢٠٠ ريال قبضها بمجرد وصوله ولما عاد الى أم درمان أعطى ليبتون ٢٠٠ دولار واغتصب لنفسه باقي ما أرسله أخو « ليبتون » وهو ما يقرب من ٨٠٠ دولار وقد ساعد هذا المبلغ الضئيل « ليبتون » نوعا على فك ضيقه . وهذا مع ما كان يؤمله من أن هناك مخاطبات دائرة بشأن اطلاق حريته كان سببا في تخفيف شيء من آلامه . وكان هذا المسكين قد حضر معي ذات يوم من المسجد عقيب الصلاة الى المنزل وأخذ يستشيرني في انتقاء شخص يضع عنده مبلغ الـ ٢٠٠ دولار بحيث يأخذ منه ما يريده كلما شاء اذ أنه يخشى اذا بقيت معه أن يندفع في الظهور بالبذخ والاسراف ومن ثم يفتضح أمره وتعرف صلاته بالقاهرة فيلاقي حتفه .

كنا نتحادث عن حالتنا وما نحن عليه وقد كان في تلك اللحظة منشرح الصدر أكثر من عادته رغم ما كان ينتابه من الآلام في ظهره والضعف العام في كل جسمه .

وقد تركته حوالى الظهر . وفي يوم الثلاثاء التالى أرسل لى خادمه يطلب أن أذهب اليه لأنه يشكو مرضا شديدا وأبلغني خادمه أن سيده مصاب بحمى شديدة وانه ملازم الفراش من ثلاثة أيام فوعدت الخادم بأني قادم اليه سريعا وفي المساء طلبت الى

الخليفة أن يسمح لى فى الذهاب . وفى صبيحة اليوم التالى ـ وقد حصلت على الاذن بقضاء عامة اليوم مع هذا المريض ـ ذهبت فى الحال الى منزله فوجدته فى حالة يرثى لها . وجدته يشكو الم حمى التيفوس وحالته شديدة لدرجة أنه لم يتمكن من معرفتى لما دخلت عليه فى أول الأمر وقد حدثنى بعد ذلك بألفاظ متقطعة موصيا بأن أعتنى بأخته . ثم تمتم كلاما عن والده .

الفصل الثالث عشر

حملة الأحباش

وما كان يدور بخلد أحد أن انتصارات المهديين يسبكت عليها من جانب الأحباش فقد أعد الملك « جان » عدته وجمع قواته بعد أن استتب له الأمر فى الداخل ببلاده . أعد العدة لغزو القلابات وبالفعل أحرزت قوات الأحباش نصرا في بادىء الأمر الا أن نصرهم انقلب هزيمة عندما أصيب الملك « جان » برصاصة قضت عليه لساعته فارتد الجيش الحبشى بغير نظام وتعقبه « زكى طومال » الذى تمكن من الاستيلاء على تاج الملك ومتاعه وأخذ جثته غنيمة .

وقامت على أثر ذلك فى بلاد الأحباش ثورة داخلية بسبب تطلع كثيرين الى العرش .

وكان الايطاليون يحتلون مصوع منذ بدء عام ١٨٨٥ وعلى ذلك مكنتهم تلك الثورات الداخلية من الاستيلاء على مناطق واسعة داخل حدود الحبشة بالقرب من مصوع . وقد قوى الاستيلاء عليها مركز الدراويش فى القلابات لأن الأحباش شغلوا باسترداد ما استولى عليه عدوهم الجديد .

وبينما كانت القوة المعسكرة في القلابات تحت رحمة الملك « جان » في بادىء الأمر كان « عثمان واد آدم » في حرب شديدة في غربي السودان وقد شتت شمل السلطان يوسف ودحر جيشه وجعل عساكره بدون مأوى في شرقي السودان وغربيه ، وقد حكم على أمرائه وأتباعه بأشد العقوبات وساق أتباعه من النساء والأطفال غنائم وأرسلهم مخفورين الى الفاشر . وانتشر الهرج والمرج في جميع الأنحاء حتى حدود « دار تاما » .

وكان في ذلك الوقت بتلك الناحية ساب هرب من أم درمان ينتسب الى قبيلة من القبائل النازلة على ضفاف النهر ويسكن في تلك الناحية مستظلا بشجرة جميز فلقبوه من أجلها بأبو جميزة . فوصل اليه بعض من هؤلاء الرجال الذين شتت شملهم « عثمان واد آدم » وانضموا تحت لوائه فجمع شملهم وتولى قيادتهم للأخذ بثأرهم ، وبالفعل تم له النصر في أول الأمر على قوة صغيرة من قوى الدراويش كانت في ذلك الوقت قريبة منهم ، وكان لذلك الانتصار صداه فانضم اليه كثير من الدارفوريين وكونوا قوة عظيمة تحت امرته وسار بها الى الفاشر الا أن المنية عاجلته في الطريق فقضى نحبه فانقض « عثمان واد آدم » على جيشه وكان على بضعة أميال من الفاشر ، وهزم هذا الجيش شر هزيمة .

أما الخليفة فكان في هذه الأثناء يسر في نفسه غزو الديار المصرية وقد استشار من أجل ذلك كثيرا من زعمائه فحسنوا له غزو مصر لما احتوت عليه من حدائق غناء وقصور فخمة وسيدات لونهن أبيض جميلات .

وبطبيعة الحال كان أكفأ قواد الخليفة في ذلك الوقت والذي يصح أن توكل اليه قيادة الجيوش الغازية هو « ابن النجومي »

لشجاعته النادرة ولأنه عرف مصر وخباياها لما كان تاجرا بسيطا . وفضلا عن ذلك انه كان من أشد أنصار الدعوة المهدية يعمل لنشرها بكل ما أوتى من حول وقوة .

وكانت الجيوش التى تحت أمره مكونة من أبناء القبـــائل النازلة على ضفاف النيل الذين عرفوا مصر جيدا ولهم صلات قرابة ونسب مع القبائل القاطنة فى مديريات الوجه القبلى الملاصقة .

فمن أجل هذا لما أصر الخليفة على غزو مصر لم يفكر فى اسناد قيادة الجيوش الفاتحة لغير ابن النجومى ..

وكان الخليفة يحسب حسابا كبيرا لهذا الفتح ويقدر نتائجه وكان يخشى الهزيمة والخسارة ، ولذلك تدبر فى الأمر وقرر أن يرسل مع ابن النجومى جيوشا من القبائل النازلة بقرب السودان التابعة له لا من القبائل التى تنتمى اليه حقيقة حفظا لهم ووقاية من الوقــوع فى الهزيمة فجهز جيش ابن النجومى من قبائل « الجالان » و « الدناجلا » و « النيفاريون » . وقبيلتا « الجالان » و « الدناجلا » من أتباع الخليفة الشريف . وقد كان الخليفة عبد الله ينظر اليهما دائما كما ينظر الى الأعداء .

وكان الخليفة يتمنى بكل جوارحه نجاح الحملة وما كان يخالجه شك فى قدرة قائده واخلاصه وكان يمنى نفسه بغزو الديار المصرية ليضيف الى ملكه بلادا جديدة الا أن المصريين انتصروا عليه والحقوا به خسائر فادحة وردوا جيوشه منهوكة القوى الى دنقله .

وان حوادث ذلك العهد التى انتهت بهزيمة جيش الدراويش فى واقعة توشكا فى ٣ أغسطس سنة ١٨٨٩ وموت ابن النجومى

معروفة لا تحتاج الى اعادة ايضاح هنا . ولكن بمناسبة نكوين الحملة السابقة الذكر من رجال القبائل التى قلنا أنها فى الأصل كانت معادية للخليفة وهو يوجس منها خيفة دائما أبدا أروى حادثة حدثت لقبيلة من تلك القبائل فقد حدث أن ترددت قبيلة « البتاهية » فى القدوم الى أم درمان لتقديم طاعتها الى الخليفة فجهز للهجوم عليها حملة هزمتها شر هزيمة وأسرت منها ما يقرب من ٦٧ رجلا بأهلهم . وكانت هذه القبيلة مشهورة بقوة رجالها أيام أن كانت الحكومة المصرية مستولية على السودان .

وأمر الخليفة بمحاكمة هؤلاء الأسرى بتهمة « العصيان » فلما سأل قضاته عن عقوبة العصيان أجابوه بلا تردد « الموت » وبعد ذلك أمر الخليفة باعادتهم الى السجن وأخذ يعد المعدات اللازمة لتنفيذ الحكم عليهم .

وبناء على ارادته أقاموا ثلاث مشانق فى ساحة السوق . وبعد صلاة الظهر دقت الطبول ايذانا بقرب ميعاد التنفيذ وجاء الخليفة متبوعا بحاشيته راكبا ولما اقترب من مكان التنفيذ نزل وجلس على سرير صغير وحاشيته من حوله ، منهم من هم ركوع ومنهم من هم وقوف ، ثم أحضروا أمامه أولئك الرجال مكتوفى الأيدى يحيط بهم رجال عبد الباقى بينما كانت النساء والأطفال تتبعهم نائحات نادبات .

وأمر الخليفة بأن يجعل النساء والأطفال فى ناحية والرجال فى ناحية أخرى ، وبعد ذلك جاء « أحمد الدليا » و « طاهر واد الغالى » و « حسن واد خبير » وهم الذين انتقاهم الخليفة لتنفيذ الحكم على هؤلاء التعساء وأمر ثالثهم بأن يذهب ويأمر الحراس بأن يأخذوهم الى المكان الذى نصبت فيه المشانق .

وبعد ربع ساعة قام الخليفة وتبعه جميع من كان حوله الى ساحة السوق حيث رأينا منظرا تقشعر منه الأبدان . وجدنا هؤلاء البؤساء قسموا الى ثلاث فرق قسم نفذ فيه حكم الشنق وقسم تحت التنفيذ والقسم الثالث قطعت أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى . ووقف الخليفة يشاهد هذا المنظر بنفسه . وقف يشاهد كومة من جثث الرجال . وقف يشاهد من قطعت أيديهم وأرجلهم . وقف يشـــاهد هذه الأيدى وتلك الارجل مبعثرة هنا وهناك . وقال « لعثمان واد أحمد » أحد القضاة ـ وقد كان من أعز أصدقاء الخليفة « على » وأحد أركان تلك القبيلة ـ وهو يشير الى تلك الجثث : « يمكنك الآن أن تأخذ ما بقى من أفراد قبيلتك » . قال ذلك بسـكل سخرية فارتعدت فرائص الرجل ولم يقـــدر على الاجـــابة .

وعاد الخليفة بعد ذلك وأخذ « أحمد الدليا » يتمم مهمته . فترك ٢٣ جثة هامدة ملقاة على الأرض هنا وهناك . والباقى ينفذ فيهم الحكم بأفظع حال .

وقد كان هؤلاء يلاقون الموت بشجاعتهم المعهودة فيهم ولم يجزع واحد منهم بل كان معظمهم يردد كلمات تنبىء عن البسالة كأن يقول أحدهم « الموت حق » أو « لابد لكل واحد أن يموت » أو « من لم ير فى حياته شجاعا يلاقى الموت فليقدم الى هنا ليرى بعينيه » وغير ذلك مما ينبت عدم اكتراثهم لما كانوا يلاقونه .

وبعد ذلك تمت ارادة الخليفة بأن أعدموا جميعا . ولما عاد الى داره أصدر أمره بأن يترك النساء والأطفال بدون مأوى حتى يباعوا بأرخص الأثمان .

وبالرغم من تلك المناظر التى كانت تقشعر منها الابدان كنت أشعر بسرور في نفسي لما وصلني من الأخبار بأن هناك خطابات ستصل الى قريبا من اخوتى وان فى الطريق صـــندوقين لى من النقود . وفى صباح يوم بينما كنت جالسا أمام الباب وصل جمل يحمل صندوقين وطلب الجمال مقابلة الخليفة شخصيا قائلا انه جاء ومعه رسائل من عثمان دجنه وأمر الخليفة بعد أن تقابل مع الجمال بأن يرسل الصندوقين الى بيت المال وكان قد دهش فى أول الأمر لما رآهما . وأمر أيضا بأن تعطى الخطابات الى كاتب سره . وضاق صدرى لطول الانتظار لأنى كنت أحب أن أعلم ما ورد لى . وكانت للخليفة لذة خاصة فى عدم ابلاغى أى شيء قبل غروب الشمس . فلما غربت ناولنى الخطابات وكانت كما لاحظت من اخوتى وهم يظهرون فيها سرورهم العظيم لما تسلموا منى خطابا وعلموا بأنى ما زلت على قيد الحياة .

وكان أحد تلك الخطابات باللغة العربية موجها الى الخليفة نفسه يشكرونه فيه على عنايته بى . والذى كتبه هو الأستاذ « واهر مند » فجعله كله آيات مدح فلما أطلع الخليفة عليها صار يترنم بذكر كاتبها وأمر بقراءة الخطاب فى المسجد عقب الصلاة ثم أمر بعد ذلك بأن يرد الصندوقان الى .

وترجمت اليه الخطابات التى وصلت الى وأبلغته ان اخوتى أرسلوا اليه كيس سفر هدية وانهم يلتمسون منه التنازل بقبول هذه الهدية الصغيرة التى لا تتناسب مع مقامه العظيم فقبلها وأمرنى باحضارها اليه فى صباح الغد . وأرسل معى تابعيه ليحضرا فتح الصندوقين فتوجهنا جميعا الى بيت المال حيث فتحناهما فوجدت فيهما المائتى الجنيه التى طلبتها وكذلك الساعات وأمواسا للحلاقة

ومرايا وجرائد وترجمة القرآن باللغة الالمانية وهدية الخليفة وقد تسلمت كل هذه الاشياء ثم توجهت الى حجرتى وأخذت أعيد قراءة خطاباتي واحتفظت بالصحف التى تحوى أخبار بلادى العزيزة !!!

وكانت تلك الصحف عبارة عن أعداد جريدة Neme Freie Presse وهى بطبيعة الحال فيها الكفاية لسد رمق من لم يعرف شيئا عن أخبار بلاده منذ ست سنوات وجاءنى الاب « أوهر والدر » خفية وآخذنا معا نقلب تلك الصفحات .

وفى صباح الغد قمت مبكرا وحملت الهدية وذهبت الى الخليفة فأمرنى بفتحها ولما رأى ما احتوت عليه من علب المعدن اللامعة والزجاجات والأمواس والفرش أظهر اعجابه الكثير ثم ابتدأت أوضح له فائدة كل شىء على حدة . وحينئذ أرسل فى طلب القضاة الذين كانوا فى ذلك الوقت يباشرون عملهم فلما جاءوه واطلعوا على ما احتوته الحقيبة دهشوا كثيرا ولو أنى كنت على يقين من أن كثيرا منهم رأوا مثل هذه الأشياء قبل الآن .

وبعد ذلك طلب الخليفة كاتب سره وأمره بأن يكتب فى الحال خطابا لاخوتى يبين فيه المركز السامى الذى أشغله عند الخليفة وثقته التى لا حد لها فى أخيهم وان يدعوهم للحضور الى أم درمان لزيارتى وان لهم الحرية التامة فى الرجوع بعد تأدية الزيارة .

وأمرنى بأن أكتب لهم مثل ذلك . وبالرغم من وثوقى بأنهم لا يجيبون هذه الدعوة كتبت اليهم بألا يجيبوها وبألا يحضروا .

وأرسلت المراسلات مع نفس الرسول الذى قدم من قبل عثمان دجنه . وأعطى الخليفه لعثمان التعليمات بان يبعث تلك الرسائل بنفس الطريقة التى سبق له أن بعث بها فيما مضى .

وكان الخليفة في هذا اليوم منشرح الصدر مسرورا . وكان سروره بسبب قدوم جميع أفراد قبيلته التعايشة الى أم درمان لأنه كان قد طلب اليهم ذلك ومهد لهم كل السبل التى تسهل عليهم القدوم . الا أنهم ظنوا أنفسهم أسياد الحرث والنسل واستولوا على كل شيء مروا به من ماشية بجميع أنواعها ونهبوا متاع الرجال وحلى النساء في طريقهم . مع أن الخليفة كما قدمت كان قد أمر بتشييد مخازن للمؤن فى طول طريقهم لتسد حاجتهم . وكانت المراكب والبواخر قد أعدت لنقلهم الى أم درمان .

ولما وصـــلوا الى الضفة اليمنى لأم درمان أمرهم الخليفة بالانتظار بعد أن قسمهم الى قسمين وبعد أن أمر بأن يلبس الرجال والنساء أزياء جديدة من بيت المال . ثم أخذ يستقبلهم جماعات جماعات في أم درمان واستغرقت مدة نقلهم من الضفة اليمنى الى أم درمان يومين أو ثلاثة أيـام حتى يلفت الأنظـار ويعلم الجميع أن أسيادهم قدموا الى المدينة . وأخلى لهم الجزء الواقع بين المسجد والحصن ليكون مقرا لهم وأعطى السكان الذين تركوا ديارهم أرضا بدلا منها كما أصدر أمره لبيت المال بأن يمد يد المساعدة لتشييد مساكن جديدة لهم .

ولكي يسهل على أفراد قبيلته سبل المعيشة ـ وكانت أسعار الغلال قد أخذت في الصعود ـ أصدر أمره بمصادرة جميع الغلال المخزونة وبيعها بأرخص الأثمان لرجال التعايشة وقسم الأموال التى جمعت بين أصحاب الغلال الذين عادوا فاشتروا غلالا بأضعاف أضعاف ما باعوا . ويمكنني أن أقول ان ثمن عشرة أرادب بيعت للتعايشة صارت بعد ذلك تساوى ثمن أردبين لما أراد أصحاب الغلال شراء بدل منها .

ولما نفد ما كان مخزونا في أم درمان أرسل الخليفة رسله الى الجزيرة ليصادروا كل ما يجدونه هناك ، ولكن تلك الأعمال التى عملها فى سبيل راحة أفراد قبيلته وما ارتكبه هؤلاء من سلب ونهب سببت كراهية أتباعه فيه .

والآن قد انتشرت المجاعة فى جميع أنحاء السودان حيث لم يسقط مطر .

ولما وقعت المجاعة وانتشرت في بربر قبل غيرها من نواحى السودان نقصت المحصولات لدرجة أنها أصبحت لا تسد حاجة السكان ، ورحل أغلب هؤلاء الى أم درمان التى كانت مزدحمة أشد ازدحام فاشتد الخطب وارتفعت أثمان المحاصيل حتى بلغ الاردب من الحنطة ٤٠ ريالا ثم ارتفع بعد ذلك الى ٦٠ ريالا . فمات الفقراء جوعا . وكانت الأشهر الأخيرة من عام ١٨٨٩ أشهر شقاء وبؤس وتعاسة وفتكت المجاعة فيها بالناس فتكا ذريعا . وانحطت حالة القوم الصحية حتى أصبحت أجسامهم هياكل عظيمة تحوى العظام وعليها الجلود البشرية فقط .

وصار الناس يأكلون كل شيء فأكلوا جلود الحيوانات القديمة ولم يتركوا حتى الجلود المصنوعة منها سررهم فقد كانوا يقطعونها ويغلونها فى الماء ثم يأكلونها ويشربون الماء . وانتشرت السرقات وعمت الفوضى فكان كل من فى قدرته ارتكاب السرقات فعل .

وانى أذكر حادثة وقعت أمامى فقد رأيت رجلا اختطف من غيره قطعة شحم والتهمها بكل شراهة فهجم عليه صاحبها محاولا اخراجها من فمه فأحاط عنقه بيديه وخنقه ولكن اللص لم يخرج فريسته من فمه وأخيرا وقع مغمى عليه .

وقد كنت تسمع فى ساحة السوق حيث يجلس النساء لبيع سلعهن نداء الاستغاثة فى كل لحظة من هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم السلب والنهب .

وكانت الساحة الواقعة بين بيت الخليفة وبيت يعقوب تزدحم كل ليلة بالذين يصرخون مطالبين بالخبز وكان بعضهم يتبعنى عند ذهابى الى منزلى محاولين اقتحامه وفى ذلك الوقت ما كنت أمتلك من القوت الا ما أسد به رمقى ورمق حاشيتى وأصدقائى الذين معى .

وفى ذات ليلة ـ وكان القمر بدرا ـ بينما كنت راجعا الى منزلى حوالى الساعة الثانية عشرة ليلا شاهدت بالقرب من بيت الأمانة « مخزن السلاح » شيئا يتحرك على الأرض فتوجهت شطره لأرى ما هناك ووقفت أرقب منظرا بشعا تقشعر منه الابدان · رأيت ثلاث نساء عاريات مسدلات شعورهن الطويلة على أكتافهن يتهافتن على أكل جحش صغير يخيل لى أنهن خطفنه من أمه . وقد رأيتهن يقطعن من لحمه بأسنانهن ويأكلن منه . وكان هذا الحيوان المسكين لايزال على قيد الحياة فهجم عليهن الذين كانوا يتبعوننى واختطفوا الفريسة منهن وحينئذ تركت هذا المنظر فارا الى دارى .

وفى يوم آخر رأيت امرأة يظهر لى أنها كانت فى يوم من الأيام جميلة ، رأيتها ملقاة على الأرض وبجانبها طفلها الذى قد لا يتجاوز من العمر عاما وهو يحاول الرضاعة ولكنه كان يحاولها من أم أصبحت للأسف جثة هامدة !! وبقى يتأوه ويتألم على ذلك الحال حتى مرت عليه امرأة أخرى فأخذته .

وفى ذات يوم مرت بدارى سيدة ومعها بنتها الوحيدة وكانت هذه المرأة على ما يظهر لى من قبيلة « الجالان » تلك القبيلة التى

يمكنني أن أقول أنهـا أحسن القبائل حالا • بجاءت هذه السيدة وبنتها معها على شفا حفرة من الموت تطلب مني مساعدتهما فجدت عليها بكل ما أمكنني أن أجود به وبعد ذلك عرضت على أن تسلمني بنتها وتتركها لى رقيقة لأحميها من الموت جوعا . وكانت تتلفظ بهذا القول ودموعها تنهمر من عيونها . فطلبت اليها مغادرتي ومعها بنتها وأعطيتها كل ما كان في وسعى أن أعطيه .

ووجدت امرأة أخرى تأكل طفلها فساقوها الى مركز البوليس لتأخذ جزاء ما فعلت ولكنها ماتت بعد يومين .

وكان الناس يبيعون أولادهم ذكورا واناثا لا لغرض الحصول على أثمانهم بل لحفظ حياتهم عند من يقدر على تموينهم . وبعد أن انقضت تلك السنة استردوهم بأثمان غالية .

وكانت جثث الموتى في الشـــوارع لا تحصى ولا يوجد من يحملها . وأصدر الخليفة أمره مكلفا كل شخص بأن يحمل الجثث التي توجد أمام داره ليواريها بالتراب ومن لم يفعل تصـــادر أملاكـه .

وكان لذلك بعض التأثير الا أن أصحاب المنازل كانوا يزيحون ما أمام منازلهم الى قرب منازل جيرانهم تخلصـا من العقاب فتسبب من ذلك وقوع المشاكل والمضاربات بين الناس وكنت ترى الجثث طافية في النيل آتية من البـــلاد الواقعة على ضفتيه وعددهـــا لا يحصى .

وكان جل الذين ماتوا في أم درمان من الذين وفدوا عليها من الخارج لا من ســـكانها الأصليين . اذ أن هؤلاء كانوا قد خزنوا

بما وقعت عليه أيديهم من غلال وكانت كل قبيلة تساعد جارتها اذا احتـاجت .

وكان الحال على عكس ذلك فى جهات السودان الأخرى . وكان ما أصاب قبيلة « الجالان » أشد مما أصاب أى قبيلة أخرى ولو أنها كانت أحسن قبائل السودان حالا .

وأما سكان دنقله فكانوا أحسن حالا من غيرهم وكان أسوأ السكان حالا سكان القضارف والقلابات . وكان (زكى طومال) قد أصدر أوامره فى أول المجاعة بأن تجمع كل الحبوب التى فى جهاته على أن يتمون منها جيشه فنجم من ذلك موت الكثير جوعا .

وكثرت حوادث السلب والنهب فى تلك الجهـات وأصبح الواحد من سكانها يخشى الخروج بدون سلاح يحمى به نفسه ممن يريد السطو عليه لا ليسرقه بل ليفترسه ويأكله كما حدث ذات يوم لأحد أمراء قبيلة الحمر فقد وجدت رأسه فى اليوم التالى ملقاة فى طرف من أطراف المدينة . أما جسمه فلم يوجد لأنه أكل بطبيعة الحـال .

وأبيدت بسبب تلك المجاعة قبائل « الحسابيا » و « الشكرية » و « العقالان » و « الحمرة » عن آخرها وبذلك خلت بقاع واسعة فى السودان من السكان .

وكان الحال فى دارفور أحسن منه فى القضارف والقلابات كما كانت القبائل الغربية كقبيلة « حمر » و « دار تاما » و «مزاليط» أحسن حالا من الفاشر نفسها اذ كانوا قد منعوا تصدير الحبوب اليهـا .

وقد يخيل الى أن هذه المجاعة حلت بهؤلاء القوم لينتقم بها البارىء جلت قدرته من هذا الخليفة الجبار وشيعته . وعلى اثر انتشارها جهز تجار أم درمان مراكبهم بالحبوب وذهبوا الى فاشوده فبدلوا غلالهم بأشياء أخرى كالنحاس والبلح وغيرهما وعمل مثلهم سكان جهات أخرى وصلوا بغلالهم حتى أعالى نهر السوباط .

وبعد ذلك ابتدأ فصل الامطار ونمت المزروعات ففرح الناس لازالة الخطب الا أن جيوشاً من الجراد حلت بالبلاد ففتكت بالمزروعات فتكا ذريعا .

ولما كان الخليفة لا هم له الا اغداق النعم على أفراد قبيلته والسعى لتوفير راحتهم أصدر أوامره الى السكان بألا يبيعوا النزر القليل من محاصيلهم التى جمعوها بعد فتك الجراد الا لأفراد قبيلته بأرخص الأثمان . ولما كان هذا القدر لا يكفى بطبيعة الحال لسد رمقهم أصدر أوامره الى ابراهيم عدلان لكى يتوجه الى الجزيرة ليرغم الأهالى هناك على تقديم ما لديهم من الذرة بدون مقابل . الا ان عدلان لم يوافق على هذا الطلب وعارض فيه بكل اباء وشمم .

ولقد بحث الخليفة عبد الله مع أخيه يعقوب فى هذا الشأن وغيره ، وكان يعقوب هذا من ألد أعداء عدلان الذى يروى عنه الناس أنه طيب القلب عالى الهمة لا يميل لاضطهاد الناس بتكليفهم ما لا طاقة لهم به على النقيض من ذلك كان يأخذ على عاتقه فى كثير من الأوقات ما يقع على غيره من المسئوليات . ولقد جمع ثروة طائلة ما كانت لتخفى على الخليفة .

وسمع الخليفة من يعقوب وأصدقائه أن نفوذ عدلان فى البلاد لا يقل عن نفوذه وقالوا انه دائما يتكلم فى المجالس ضده وضد

حكومته . وكان من أقواله للناس أن المجاعة لم تكن الا بسببه ارهاق الخليفة لهم فى سبيل راحة أبناء قبيلته وقد تسبب من هذه الوشايات أن أحيل عدلان الى المحاكمة فقضت عليه بأن يقبل الموت أو الفقر ففضل الأول فساقوه مكتوف اليدين الى صدره حتى ساحة السوق . وهناك نفذوا فيه الحكم وكان رابط الجأش لدرجة أنه هو الذى وضع رأسه بنفسه فى حبل المشنقة . ورفض أن يشرب الماء الذى قدم اليه طالبا الاسراع فى تنفيذ الحكم . وقد سقطت جثته وهو يشير بسبابته اشارة أنه يموت مسلما موحدا الله سبحانه وتعالى . وحزن جميع السكان على قتله الا أن الخليفة سر سرورا عظيما لأنه قضى على شخص كان يوجس منه ومن نفوذه خيفة وكان غير مطيع لأوامره . وأرسل الخليفة أخاه لبسير فى جنازة عدلان اشارة الى أنه لم يشنق الا تنفيذا للقانون لا حقدا عليه كما ظن النـــاس .

وولى الخليفة بدله خازنا لبيت المال المدعو « نور واد ابراهيم » الذى كان جده « تكرورى » وعلى ذلك هو ليس من القبائل النازلة على ضفاف النيل ولكنه نال ثقة الخليفة ورضاءه .

وأما بالنسبة لشخصى فقد تغيرت نظرات الخليفة الى ، وداخله الشك من جهتى .

ووصل رد خطابى الأخير الذى أرسلته الى أهلى غير مشتمل على شىء سوى الاغتباط لانتظام المراسلات بينى وبينهم . وكتبوا فى الوقت نفسه الى الخليفة يشكرونه على عنايته وعلى الدعوة التى وجهها اليهم بطلب الحضور الى أم درمان .

واعتذر أخى الأكبر عن عدم امكانه الحضـــور بأن حالته لا تساعده لأنه يشغل وظيفة كبير أمنــاء جلالة أمبراطور النمسا . واعتذر الآخر بأن وقته وهو ضابط فى الطوبجية لا يسمح له بالقيام برحلة طويلة كهذه .

ولما طلبنى الخليفة الى حضرته أمرنى بترجمة تلك الخطابات ثم قال لى : « كانت رغبتى فى أن تطلب الى واحد من اخوتك أن يحضر وبما أنهما يعتذران الآن بأعذار لا أقبلها فيتحتم عليك ألا تكتب اليهما بعد الآن ، فاذا أرسلت خطابا واحدا اليهما فان ذلك يكفى للقضاء على هدوئك وسكينتك . أفهمت ؟ فأجبته : « نعم يا مولاى . أوامرك مطاعة . وانى لا أجد داعيا للكتابة اليهما » فقال لى : « أين الانجيل الذى أرسل اليك ؟ » فاجبته : « انى مسلم يا مولاى وليس لدى انجيل بالمنزل وانما الذى أمتلكه هو ترجمة القرآن الذى رآه كاتم سرك لما فتحنا الصناديق سويا » فأمرنى بأن أحضره اليه فى صباح الغد وأشار الى بالانصراف .

وتيقنت بعد هذه المقابلة أن ثقة الخليفة بى زالت وعلمت أيضا أنه بعد هزيمة ابن النجومى أخذ يسر الى قضاته أن ثقته فى تغـــيرت .

وكنت فى هذا الوقت قد صرفت المبلغ الذى وصل الى من أهلى وجله منحته هبات الى زملائى الذين أخذوا يدسون لى الدسائس الآن لما علموا أننى أصبحت لا أملك شيئا وهم الذين قالوا للخليفة ان الكتاب الذى عندى هو الانجيل .

وفى صباح اليوم التالى توجهت اليه ومعى الكتاب وسلمته اليه وهو من ترجمة العلامة « المان » ففحصه جيدا .

وقال لى : « أنت تقول ان هذا الكتاب ترجمة القرآن وهو مكتوب بلغة الذين ليس عندهم عقيدة دينية . انهم ربما يكونون قد أخطأوا فى ترجمته » فأجبته بكل هدوء وسكينة : « انه يا سيدى ترجمة حرفية والغرض منه هو أن أتمكن من فهم الكتاب المقدس الذى نزل من عند الله سبحانه وتعالى على يد الرسول باللغة العربية وان شئت أن تتأكد من صحة ترجمته الحرفية » فأجابنى قائلا : « انى أعتقد فيك الصدق ولكن الناس هم الذين قالوا ذلك القول فيحسن بك والحالة هذه أن تحرقه » ولما أظهرت له الموافقة على طلبه قال لى : « ويجب أيضا أن ترد الهدية التى بعث بها اخوتك لى لأنه لا فائدة لها عندى وليعرفوا ان الأشياء الدنيوية لا قيمة لها فى نظرى » .

ثم أمر كاتم سره بأن يكتب خطابا باسمى الى أهلى يخبرهم فيه بأن لا داعى بعد الآن الى مكاتبتى . فوقعته بامضائى وأرسلته مع الهدية الى بيت المال ليرسلا من هناك الى سواكن كالمعتاد .

ومن هذا اليوم أصبحت شديد الحرص . وبعد موت عدلان استدعانى الخليفة مرة أخرى بحضور ضباطه وأخذ يقول لى : « انه يعلم انى جاســـوس وتجب مراقبتى بدقة ومراقبة الذين يحضرون لزيارتى وجلهم من أعدائه . ويجب على أن أعلمه بمحل نومى فى منزلى وأن أغير خطتى التى أنا متبعها والا لحقت بعدلان » !

فأجبته قائلا بكل هدوء وسكينة : « يا مولاى لا يمكننى الدفاع عن نفسى . وأنا أجهل خصومى الذين وشوا بى ولكننى أفوض أمرى للبارىء جلت قدرته . ولقد مضت ست سنوات بل أكثر وأنا الخادم الأمين فى خدمة مولاى أواصل الليل بالنهار على بابه تحت الشمس المحرقة وتساقط المطر الغزير . وتنفيذا لأوامرك يا مولاى قطعت

صلاتى مع كل أصدقائى . وفى كل هذه المدة التى أنا فيها فى خدمة سيدى لم أرتكب جـــرما . فأخبرنى يا مولاى عن الذنب الذى ارتكبته . ان طاعتى لك طول هذه المدة لم تكن عن خوف وانما كانت عن محبة واخلاص . وليس يمكننى أن أفعل أكثر من ذلك . وانى لرحمة ربى وعفو مولاى منتظر » .

فقال للملازمين ما رأيكم فى أقواله هذه ؟ فأجابوه بأنهم لم يلاحظوا شيئا يشين سمعتى .

وقد علمت بعد ذلك من هم هؤلاء الذين أوجدونى فى ذلك المركز الحرج . ثم قال لى أنت مسامح هذه المرة وعليك أن تحاذر فى المستقبل . ثم مد لى يده لأقبلها وأمرنى بالانصراف .

وفى اليوم الثانى طلبنى وحدثنى بكل لطف طالبا منى أن أحذر أعدائى وأن أجتهد بقدر المستطاع حتى لا يكون لى أعداء وأعلمنى بأن المهدية تتبع قواعد الاسلام فاذا ما شهد ضدى فى إى دعوى شاهدان وجبت ادانتى حتى ولو كان الشاهدان كاذبين وفى هذه الحالة يصبح العفو عنى غير مستطاع فكيف يحلو لى العيش والحالة هذه وحياتى أصبحت بارادة شخصين يريدان الايقاع بى . ولكنى على كل حال شكرته على نصيحته الغالية وقلت له يا مولاى انى أعمل دائما بقدر استطاعتى لارضائكم حتى أكون دائما محل ثقتكم .

ولما عدت الى منزلى وقد انتصف الليل كنت فى أشد حالات التعب راغبا فى الراحة فقابلنى خادمى سعدالله وأبلغنى أن تابعا من أتباع الخليفة جاء حالا ومعه سيدة مقنعة أرسلها لى وهى بدارى الآن . فسررت عند سماعى ذلك لا لشىء سوى أنى تيقنت من رضاء الخليفة وتحققت أن قد زال كل شىء من نفسه . ثم ذهبت مع

سعدالله الى المنزل فوجدت تحت القناع سيدة مصرية ولدت بالخرطوم، لا بأس بجمالهـــا فبعد أن تبادلنا التحيات بادرتنى بسرد تاريخ حياتها مدعية أنها ابنة ضابط مصرى وقد علمت بعد ذلك أنها ابنة جندى وقع قتيلا فى حرب الشلك وان زوجها الأول قتل فى الحملة التى أرسلت للاستيلاء على الخرطوم وان أمها حبشية لا تزال على قيد الحياة . ثم قالت أنها كانت احدى نساء أبو انجه العديدات وان الخليفة اختارها الآن لتكون زوجـــة لى خلفا لذلك البطل العظيم . وقالت لى انه سبق للاحباش أن أسروها وكان زكي طومال هو الذى أطلق سراحها . وقالت أخيرا أن لديها معلومات قيمة عن المعارك التى نشبت فى عهد أبو انجه .

وحكاية هذه السيدة هى أن الخليفة كان قد أصدر أوامره باحضار أرامل أبو انجه الى أم درمان فلما حضرن أخذ يوزعهن على أتباعه ، وقالت لى انها لمغتبطة جدا لوقوعها مع شخص من أبناء جلدتها فأجبتها فى الحال بأنى أوربى وان ما حصل من تغيير لونى انما كان بسبب ما أنا عليه من الحال واضطررت الى أن أقول لها أنها ستكون موضع عنايتى .

ولما كنت فى أشد الحالات والتعب طلبت اليها أن تتبع الخادم سعدالله الذى سيمهد لها كل سبل الراحة . وقلت فى نفسى ان الخليفة بدلا من أن يأمر خازن بيت المال بأن يمدنى بالمساعدة لقضـــاء حاجياتى الضرورية بعث لى بتلك الزوجة التى تزيد فى شقائى وتعبى .

وفى اليوم التالى سألنى الخليفة عما اذا كنت قد أعجبت بهديته وهل أنا راغب فيها . فأجبته بأنى سعيد لأنى شـــعرت برضـــاء مولاى عنى واننى أتمنى أن يجعلنى الله سبحانه وتعالى مشمولا دائما برعايته .

ولما عدت الى منزلى قبل صلاة الظهر وجدته مزدحما بالنساء اللاتى دخلنه بالقوة كما ابلغنى سعد الله مدعيات أنهن اقارب فاطمة البيضاء كما كانوا يسمون السيدة التى بعث بها الى الخليفة ووجدت ضمنهن امراة مسنة قالت لى انها والدة فاطمة وانها مسرورة لأن ابنتها أصبحت لى ورجتنى أن أحسن رعايتها • فأخبرتها بأن بنتها ستكون دائما موضع عنايتى وستعيش فى منتهى الهناء والسرور واعتذرت لهن بكثرة أشغالى ثم انسحبت بعد أن طلبت الى سعد الله أن يحسن وفادتهن على حسب عادات البلاد وأن يخرجهن بعد ذلك ولو أدى الأمر الى استدعاء من يساعده •

ومضت بضعة أيام ثم سأل الخليفة عن فاطمة مرة أخرى • وبما انى كنت أعلم جيدا أنه يريد دائما أن أعيش عيشة الوحدة ولا أخالط أحدا أخبرته بأنى لا أرى مانعا من أن تعيش معى غير ان لها عدة أقارب يترددون عليها طول اليوم وعلى ذلك قد تضطرنى الظروف الى مخالطتهم وهذا أمر يأباه مولاى وتأباه نفسى ولذلك فانى سآمرها بأن تخضع لأوامرى وتمتنع عن الاتصال بأهلها ومعارفها بقدر الامكان ، فاذا لم تخضع فانى أفضل تسليمها لأقاربها ، فارتاح الخليفة لهذا الاقتراح ارتياحا تاما الا أنه منذ طرد سعد الله الزوار فى أول مرة لم يعد أحد يقدم الى دارنا • ومخافة أن يسىء الخليفة الظن فى قصدى توانيت قليلا فى تنفيذ ما قررته •

وبعد مدة أرسلت فاطمة البيضاء الى أمها وكلفتها بالانتظار هناك حتى أبعث اليها • وعرف سعد الله دار أمها فبعد مدة أرسلت لها ولأمها ملابس ونقودا ورسالة أخبرتها فيها بأنها أصبحت طليقة غير خاضعة لأوامرى •

وأخبرت الخليفة بذلك قائلا له ان أمثال هؤلاء القوم الغرباء عنه وعنى لا يجوز أن يكون لى صلة بهم وانى دائما أبدا على استعداد تام لاطاعة أوامره .

وبعد مضى سنة تقريبا جاءتنى الأم تستأذننى فى زواج بنتها من أحد أقاربها فوافقت على ذلك بسرور تام وقد تركت فاطمة البيضاء فى أم درمان سعيدة بين أولادها .

الفصل الرابع عشر

تشتت وتفرق

قد عين حاكما لدنقلة عدوى خالد الذى كان مسجونا منذ بضعة أشهر وقد حل محل يونس الا أنه لم يتمض شهران على هذا التعيين حتي ذهب ضحية الدسائس التى كان يدسها له اثنان من أبناء عم الخليفة كانا قد ذهبا لمراقبة حركاته وأفعاله • وقد استدعاه الخليفة ثانية الى أم درمان ووضعه مرة ثانية فى الاغلال • فهذا العمل كان من شأنه أن زاد هياج أقارب المهدى وأنصاره وعقب ذلك اتفاق الخليفة محمد شريف واثنين من أولاد المهدى لم يبلغا العشرين من عمرهما مع كثيرين من الأقارب على أن يعملوا جميعا للقبض على ناصية الحكم وكبح جماح الخليفة عبد الله • وفعلا أخذوا فى اعداد الخطة اللازمة سرا فى أم درمان وبدأوا كذلك يستميلون الاصدقاء وأبناء القبائل وأرسلوا كتبهم الى « الدناجلة » القاطنين بالجزيرة يدعونهم للحضور الى أم درمان للانضمام اليهم • ولكن حدث أن أحد الأمراء الجعليين الذى كان قد أقسم بألا يبوح لأحد بشىء الا لأخيه وأعز صديق عنده خدع القوم وخانهم وذهب يطلع الخليفة على الأمر معتبرا اياه أقرب الأصدقاء • فلما وقف الخليفة عبد الله على سر هذه المؤامرة أخذ يعد المعدات لاحباطها الا أن جواسيس الأشراف عندما عرفوا أن مؤامرتهم انكشفت وعرفوا ما يدبره لهم الخليفة اجتمعوا

فى جزء من المدينة واقع فى شـمالى بيت الخليفة واسـتعدوا للمعركة .

وأما أنا نفسى فقد كنت مشتاقا لرؤية هذه المعركة فما أخشاه وحياتى كانت كل يوم فى خطر . وان امام ناظرى حدثة عدلان الذى كان الصديق الحميم للخليفة فقد شنقه ومثل به وقد تأكدت أن عبد الله ما كان يهتم البتة بأرواح أعز أصدقائه وأحبهم اليه وان هذه الحرب الداخلة لابد أنهـا ستضعف أعدائى « الخليفه وأنصاره » وربما كان لى من وراء ذلك الاضطراب المنتظر حدوثه أمل فى أن أسترد حريتي ويصبح فى مقدورى أن أستعمل نفوذى فى جيش الحكومة الذى ظهرت فيه نزعة الاستياء بسبب المعاملة التى كان يلقـاها .

وقد كان من المستحيل على الانسان فى مثل تلك الظروف أن يرسم لنفسه خطة واضحة وكل ما كنت أرغبه هو أن تقوم المعركة وأن يكون لى من ورائها أكبر قسط من الفائدة الشخصية .

بعد ذلك ابتدأ الفريقان بتبادل الطلقات النارية الا أن ذلك لم يكن الا ايذانا ببدء المعركة الحربية بين الطرفين .

وقد كان الفريقان فى حالة لا تسر ، فكانت الأسلحة من النوع الردىء . ولم يمض غير وقت قصير حتى انتهت تلك المعركة وقدرت الخسارة بخمسة قتلى .

بعد ذلك عرض الخليفة طلب الصلح وأن يعين الاشراف شروطهم وقد دارت المفاوضات طول اليوم بين الفريقين وفعلا عادت سيرتها فى اليوم التالى . ومن سوء حظى أن الطرفين وصلا الى حلول مرضية

اتفقا عليها ووافق الخليفة وحلف وتعهد بتنفيذها بعد أن عفا عن كل المتهمين •

وقد منح الخليفة محمد الشريف مركزا ساميـــا وأن يحضر جلسات مجلس الخليفة كأحد أقطابه وقد قرر منح كثيرين من أقارب المهدى اعانات من بيت المال •

وعلى ذلك سلمت الجنود أسلحتها الى الخليفة وبذلك تم توقيع الصـــلح •

وفى يوم الجمعة التالى حضر أمام الخليفة قواد الجيش ونالوا منه المكافآت التى كان قد أعدها وفى ظهـر ذلك اليوم نفسه اجتمع الخليفة الشريف وأولاد المهدى وعبد الله نفسه •

وبذلك وطدت الآن أركان الصلح بين الفريقين وأصدرت الأوامر الى رجال المدفعية والمشاة بأن يعودوا الى مراكزهم الأصلية غير ان الملازمين والجهادية كلفوا بالبقاء حتى يتم تسليم السلاح جميعه •

وفى يوم أحد بعد الظهر أرسلت خادما الى الأب « أوهرو الدر » لأسأل عنه فوجد بابه مقفلا وقد حاولت الاستفسار عنه من جيرانه الاغريق فلم أتمكن من الاستدلال على مكانه ولا مكان أفراد بعثته •

وقد خيل الى فى الحال أنه فى أثناء الاضطراب ربما يكون قد تمكن بمعرفة مخلصين له من اللياذ بالفرار •

وقبيل صلاة المغرب حضر رئيس الذين اعتنقوا الدين الاسلامى بدون رغبتهم والسورى « جورج استامبول » وطلبا أن يؤذن لهما بمقابلة الخليفة حالا لأمر مهم ولكن الخليفة ، وكان فى تلك اللحظة

مشغولا أمرهما بالانتظار فى المسـجد حتى يأذن لهما وبعد تأديه الصلاة طلبهما اليـه وسألهما عن مرغوبهما فقالا له : ان يوسف التسيس ومن معه من النساء هربوا جميعا ففي الحال طلب « نور الجرباوي » خازن بيت المال ومحمد وهبه حكمدار البوليس وطلب اليهما أن يعملا ما في وسعهما للقبض على الذين هربوا واحضارهم الى هنا أحياء أو أمواتا ٠

وكان من حسن حظ هؤلاء اليونانيين أن الخليفة كان مشغولا بأشياء مهمة ولولاها لكان وجه كل قواه للقبض عليهم والتمثيل بهم ٠

وعلى ذلك لم يتمكن الجرباوى ووهبـه الا من الحصول على ثلاثة جمال للحاق ب « اوهرولدر » الذى كان يعلم جيدا ان هروبه متوقف على السرعة ٠

وقد تمنيت من صميم قلبى أن يفوز هو ومن معه بالهرب فقد تعذبوا كثيرا ولو أنى حزنت فى الوقت نفسه حزنا شديدا لأنه كان الشخص الوحيد الذى يعرف لغتى الأصلية التى كنت أحن الى التحدث بها أحيانا معه ٠

وفى اليوم التالى استدعانى الخليفة وقابلنى بوجه مكفهر قائلا : « هو من أبناء جلدته وبطبيعة الحال انك كنت تعرف جيدا عزمه على الهروب فلماذا لم تبلغنى حتى كنت أعمل الاحتياطات اللازمة ؟ » فأجبته : « عفوا يا مولاى كيف كان فى استطاعتى أن أعلم عن هربه شيئا وأنا منذ قيام الحـركة الأخيرة لم أنتقل من مركزى بالليـل ولا بالنهار كما تعلم يا سيدى » فأجابنى بكل حدة : « لا شك فى أن قنصلكم هو الذى دبر لهم طريقة الهرب » ٠

وكان من بين الخطابات التى وردت أخيرا واحد منها جاء الى الخليفة باللغة العربية من القنصل العام لدولة النمسا والمجر المسيو « فون روستي » يشكره فيه على حسن معاملته للبعثة الكاثوليكية ويطلب اليه أن يسمح لهم بمغادرة السودان والعودة الى أوطانهم حيث انهم من رعايا الحكومة النمساوية وان لجلالة الامبراطور غاية خاصة بهم ومنذ هذا اليوم اعتقد أن أعضاء هذه البعثة من أبناء جلدتى وهو متيقن الآن بأن أمر هربهم دبر بمعرفة القنصل المشار اليه ٠

وهنا قلت للخليفة : « ربما يكون للقبائل النازلة على الحدود يد فى تدبير هربهم لغنيمة وعدوا بنيلهـــا فحضروا الى أم درمان وانتهزوا فرصة الثورة التى قامت ومهدوا السبيل « لاوهر والدر » ومن معه للهرب ٠ وقد اقتنع الخليفة بهذا الرأى ٠ وبعد أن طلب الى أن أكون دائما مخلصا أمرنى بالانصراف ٠

وبالرغم من الوعود التى قطعها الخليفة على نفسه للاشراف بألا يعكر صفو الود والاتفـــاق الذى تم بين الفريقين بلا مبرر ألقى القبض على ثلاثة عشر من زعمائهم بينهم أعمام المهدى نفسه وأرسلهم بمركب الى فاشـــوده حيث يوجد زكى طومال الامير المحلف الأمين للخليفة والذى كان قد ذهب الى هناك لاخماد ثورة « الشلك » ٠

ولما وصلوا الى فاشوده وضعهم زكى فى زريبة وتركهم بدون طعام الا القدر اليسير ثمانية أيام ٠ ولما جاءته التعليمات السرية لاعدامهم ضربا بعصى تقطع من أشجار الشوك نفذ ذلك الأمر بحضور رجال جيشه بعد أن عراهم من ملابسهم ٠

بعد ذلك عاد زكى طومال الى أم درمان ومعـــه غنـائم كثيرة اذ أحضر معه آلافا من الرقيق من النساء وقطعانا من الماشية باعها

بمبالغ عظيمة حصل عليها بالفعل • وقد شكا كثير من الناس زكى الى الخليفة من شدة ظلمه وطغيانه وكان بعض الناس يقولون للخليفة اذا اكتسب قلوب عدد كبير من أتباعه يمكن أن يستقل ويشق عصا الطاعة •

غير أن ما قدمه زكى اليه ولأخيه من الهدايا الثمينة من رقيق ومال وماشية حفظ له مركزه عندهما •

ولما كان زكى طومال بأم درمان قام الخليفة بعدة مناورات عسكرية تولى قيادتها بنفسه غير أن جهله بالحركات العسكرية وعدم النظام السائد بين الثلاثين ألف عسكرى جعل هذه المناورات تفشل فشلا تاما ، ولكن اللوم وقع على رأسى حيث كنت قائما بوظيفة أركان حرب ولما رأى ما وقع فيه من الارتباك قرر بأن هذا العمل كان مقصودا منى لأنى عدلت فى تنفيذ أوامره • وأخيرا صرف الجنود وبعث بزكى طومال الى القلابات وطلب الى كعادته أن أنفذ أوامره كما هى وأهدى الى جاريتين صغيرتين علامة الرضاء •

والآن وقد سمع الخليفة شريف بما حدث من قتل أقاربه أعلن استياءه الشديد وسخطه على الخليفة جزاء ما ارتكب ، وبذلك تمكن الخليفة عبد الله من ايجاد سبيل الى محاكمته فسرعان ما اتهمه بأنه خارج على القانون غير مطيع للأوامر وكون المحكمة لتحاكمه بتهمة عدم الطاعة •

وبالفعل قرر القضاة ادانة الخليفة شريف وأصدروا الأوامر بالقبض عليه •

وفى اليوم التالى ذهب الضباط لتنفيذ هذا الأمر فى منزله الواقع بين منزل عبد الله وقبة المهدى وهناك أبلغوه الأمر ونصحوا

اليه بأن يطيع أوامرهم ولا يظهر أى مقاومة • وفي الحال أصبح تحت تصرف الضباط الذين كان يرأسهم عرابى ضيف الله ولما طلب اليهم أن يسمحوا له بلبس حذائه رفضوا ثم ساقوه بكل عنف وشدة لدرجة أنه وقع على الأرض مرتين • ثم وصلوا الى السجن وهنـاك وضعوا فيه القيود الحديدية ومنعوا أيا كان من الاتصال به وجعلوا الارض العارية مقعدا له والسماء غطاء •

وقد أرسلوا أبناء المهدى الى جدهم « أحمد شوقى » وأمروه بأن يبقيهم عنده محبوسين لا يتصل بهم أحد ـ وقد كان جدهم يطيع الخليفة طاعة عمياء خوفا على ثروة طائلة اقتناها من أن يصادروها منه ـ فنفذ الأوامر الصادرة اليه كما صدرت •

وقد مرت بى بعد ذلك ساعات دقيقة للغاية فقد أرسل يونس رجلا من دنقله الى الخليفة ومعه معلومات مهمة من الحكومة المصرية • وقد قابله الخليفة بنفسه بحضور جميع القضاة وقد داخلنى الشك فى أن ما يدور عليه الحديث هو بخصوصى ، وقد حاولت استطلاع حقيقة الأمر من أحـــد القضـــاة وكان صـــديقى الا أنه أجابنى بألا أجعل للأمر أهمية عظمى • وبعد الصلاة اجتمع القضاة والرسول بالخليفة مرة ثانية ولم تمض غير برهة حتى رأينا الرسول قد كبلت يداه بالحديد وأرسل الى السجن ولقد اندهشنا عندما رأينا ذلك المنظر •

وفى اليوم التالى لما ذهبت الى منزلى لبرهة قصـــيرة طلبنى الخليفة الى حضرته فتوجهت حيث كان مجتمعا ببعض القضاة وبناء على أمره أخذت مكانى بينهم ثم ابتدأ يقول وقد وجه نظره الى قضاته : « ولطالما نصحته بأن يكون مخلصا لى وانى دائما أعامله معاملة الأب لابنه وما كنت أصدق ما يصل الى من الوشايات بخصوصه ولطالما عفوت عنه » • أخذ يقول كل ذلك عنى لقضاته ثم التفت الى قائلا :

ان المثل العربى يقول : « لا يوجد الدخان اذا لم توجد النار » وأنت يحوم حولك دخان كثير ٠

وقد قال الرسول امس أنك جاسوس الحكومة وأن مرتبك يدفع شهريا الى مندوبك فى القاهرة حيث يرسله اليك هنا ٠ وهو يوقن بانه رأى توقيعك فى ديوان الحكومة هناك ٠ وأنت الذى مهدت الى يوسف العسيس الهرب وقد قال أيضا أنك تعمل لتسهيل الاستيلاء على أم درمان بواسطة الانجليز وانك ستشعل النار فى مخزن البارود الموجود بقرب منزلك حينما يبدأون بالزحف ٠ فماذا تقول دفاعا عن نفسك ٠٠ ؟ فأجبته :

« مولاى ! ان الله لا يظلم أحدا وأنت رجل الحق والعدل وانى اقول بأنى لم أكن قط جاسوسا ولا صلة لى بالمرة مع الحكومة المصرية وانى لم أستلم قط نقودا هنا ٠ وان ضباطك لعلى يقين من أننى فى أشد حالات البؤس والشقاء وان احترامى الشديد لشخصك هو الذى يمنعنى من أن أطلب اليك مساعدتى ٠ وبما أنه روى لمولاى بأنه اطلع على امضائى هناك فانى أتهمه بالكذب وأنا موقن بأنه لايعرف لغة أجنبية واذا أردت ياسيدى أن أكتب على قطعة ورق عدة امضاءات ثم نعرضها عليه ليستخلص منها امضائى التى يقول عليها بأنه رآها هناك بالقاهرة لفعلت ٠ وهنا يتضح لك جليا ان كان حقيقة يعرف اللغات الأجنبية أو لا يعرفها وأنت تعرف يا مولاى أن يوسف القسيس هرب فى وقت ما كان فى استطاعتى الاتصال به ٠ ولو كان لى اتصال بهؤلاء الذين يمهدون الهرب فلم لا أمهده لنفسى ٠ ومن السهل جدا على الانجليز أن يعلموا أن منزلى بجوار مخزن البارود لأن الرجل الذى جاءنى بالخطابات التى بعث بها الى اخوانى رأى منزلى فلربما يكون هو الذى حدثهم بذلك ٠

ومن الجائز أن أقاربي الذين قطعت كل صـــلاتي بهم بناء على أمر مولاى يسألون عني وعن مرتبي في دواوين الحكومة المصرية ظنا منهم أن السودان لا يزال جزءا من مصر أو يسألون التجار الذين يفدون منه الى القطر المصرى وبطبيعة الحال يعلم هؤلاء التجار جيدا موضع منزلى بالنسبة لمخزن البـــارود . واني لموقن بأن الحكومة المصرية لا تفكر مطلقـــا في الكر عليـــك وأنت هذا الخليفة القوى البطش . واذا سلمنا جدلا بأن الحـكومة تفكر في هذا الغزو فمن أين جاءني التأكيد بأنني سابقى في مركزى.وأتمكن من تنفيذ الخطة التي يقول عنها ؟ هذا فضلا عن أني كما تعلم يا مولاى كنت الخادم ولا زلت الأمين المخلص واني أتمنى بأن أكون دائما في طليعة جيوشك الغازية لنصرتك على أعدائك .

« اني يا سيدى بعد كل هذا الايضاح الذى أوضحته لا أعتمد الا على أنك لا تظلم أحدا » .

ثم قلت : « وهل يحق لك أن تضحي بمخلص أمين لك من أجل وشاية « دنقلاوى » ! فبادرني بقوله من أين علمت بأنه « دنقلاوى » ؟ فقلت له منذ مدة رأيت هذا الرجل ببابك مع عبد الرحمن واد النجومى الشاهد ، ونظرا لسخافته والحاحه طردته بالقوة فهو يريد لنفسه الآن الانتقام فأنت يا مولاى وقد منحك الله العدل والانصاف ستحكم لى بطبيعة الحال بالبراءة » .

فقال لى : « ما طلبتك هنا للمحاكمة ولا شككت لحظـــة فى اخلاصك ولو كان الأمر فيه شيء يشينك ما كنت أمرت بسجنه واني لعلى يقين من أن أعداءك كثيرون وهم يحـــاولون دائما الايقاع بك لأنهم يغارون من وجودك بقربي . ولكن يجب عليك أن تحاذر وأعتقد دائما أبدا في المثل القائل : « لا يوجد الدخان الا حيث توجد النار » .

وبعد ذلك أمرني بالانصراف ومن ثم انصرف الجميع •

ولقد سألت أحـــد أصـدقائي عما قاله الخليفة بعد خروجي فأخبرني بأن الخليفة اعتبر الرجل كذابا ولكن لا يخلو الحال من أن يكون في دعواه بعض أشياء حقيقية وقد قال لي أيضا لا بد أن يكون لك أعداء بالقاهرة وهذا الرأي سـبق أن طرأ لي • ولكن ما الحيلة وما العمل وأنا أرى أن خصومي يوقعون بي كل يوم ويجعلون مركزي من أحرج المراكز فصرت أفكر دائما في هذه المواقف وصرت أفكر أيضا في علاقاتي مع الخليفة وكيف أنها ستتأثر بهذه الوشـــايات بطبيعة الحال •

وان ضيقتي من أنه أصبح بعد كل هذا يتحين لي فرصة للانتقام لأني على ما أعتقد أصبحت في نظره العدو اللدود في ثوب الصديق الحميم ، ولكن على كل حال أحمد الله ومن يعش ير •

وقد قابلت في اليوم التالي وأنا عائد الى المنزل بعد تأدية الصلاة « القـــرباوي » وهو الذي خلف « عدلان » في بيت المال • فحادثني بكل لطف قائلا لي ــ بعد أن قلت له أنك تزورنا نادرا ــ لقد جئت لأقلقك بطلبي اليك بأن تخلي منزلك اليوم • وسأعطيك بدلا منه في جنوب شرقي المسجد حيث يستقبل زوار الخليفة وهو ولو انه يقل عن مساحة منزلك الا أنه بقرب المسجد ويصـــلح لرجل عابد مثلك •

فقلت له اني أوافق على ذلك بكل سرور ولكن أرجوك أن تقول لي بصفة خاصة من الذي أرسلك : الخليفة أم يعقوب ؟ فأجابني وهو يضحك قائلا : « آه • هذا سر • ولكن من حديثك أمس مع الخليفة يمكنك أن تعلم حقيقة السبب وهو إن مولانا الخليفة يريد أن يجعلك

فى مكان قريب منه حتى تكون تحت رقابته مباشرة حيث ستكون على بعد ٢٠٠ خطوة منه » •

ثم قال لى اذن متى أحضر لاستلام منزلك فقلت له سأنتهى من النقل فى مساء هذا اليوم ولربما كان نقل مؤونة حصانى وبغلى هى التى تستغرق منى وقتا أطول • وهل المنزل الذى سأذهب اليه غير مسكون فأجابنى : « نعم بطبيعة الحال » وقد أصدرت الأوامر بأن ينظف وتعمل الاصلاحات اللازمة له • ولكن يحسن بك أن تبتدىء فى مغادرة هذا المنزل حالا وآمل أن تكون سعيداً فى منزلك الجديد أكثر مما أنت عليه من السعادة هنا •

ولقد وضح لى الآن جليـــا أن ثقـة الخليفة بى قد تزعزعت وأصبح لا يثق بى لأن أكون بجوار مخزن البارود • وعلى ذلك حزمت أمتعتى وأمرت الخدم بنقله الى المنزل الجديد فتأثـر الخدم وأخذوا يطلبون الى المولى أن يوقع كل اللعنات على الخليفة حيث نترك منزلنا الذى أصلحناه وغرسنا فيه الأشجار وحفرنا فيه الآبار • ولكننى على كل حال غادرت المنزل مؤملا فيما قاله القرباوى من أنى ســـأكون بمنزلى الجديد أسعد حالا منى فى المنزل الذى أنا فيه •

وقد أصبحت حالى بعد ذلك مضطربة وأصبح مركزى مزعزعا •

ولقد تقابلت اتفاقا مع تاجر من دارفور جاب الديار المصرية والبلاد السورية وعرف كثيرا من أجناس البشر المختلفة وقد عرف لأول وهلة أنى نمساوى الأصل وأخذ يحدثنى ــ وعلم بأنى أسـير من مدة طويلة ولا صلة لى بأى مخلوق ــ عن الأحـوال فى القطر المصرى وأعطانى بعض الجرائد المصرية القديمة • وتحتوى احدى تلك الصحف على أخبار من النمسا • ولما توجهت الى المنزل وابتدأت

اقلب صفحاتها علمت أول ما علمت أن ولى عهدنا الأمير رودلف قد توفى • ولا يمكنك أيها القارىء أن تتصور مقدار الحزن الذى حل بى • فقد خدمت معه فى الجيش وقد كان بودى أن أرجع الى وطنى وأبلغه بعد طول الأسر أن أشرف ساعات قضيتها فى حياتى هى تلك الساعات التى كنت فيها تحت امرته وأعظم شرف لى أن أنتمى الى الفـرقة الامبراطورية • ولقد فكرت طويلا فيما عساه أن يكون قد أصاب امبراطورنا العظيم بفقد ولده •

فقد حلت بى الأحزان فى هذا الوسط المزعج الذى أنا موجود بينه وقد كان زملاءى وهم لا يدرون أسباب حزنى يطلبون الا أظهر أسفى لا بالنسبة لتركى منزلى الأول حيث أن الخليفة أصدر أمره الى جواسيسه بأن يراقبونى جيدا فابتدأت أظهر عدم اهتمامى بأى شىء مطلقـا •

وقبل ذلك بمدة وجيزة كان المصريون قد استولوا على طوكر وهم لا محالة زاحفون ، ومن أجل ذلك استدعى الخليفة « أبو جرجه » وولى بدله قيادة الجيوش واحدا من أقاربه اسمه « مسعود » وقد أرسل « أبو جرجه » ببابخرتين الى الأقاليم الاستوائية ليلحق بعمر صالح الذى كان قد ذهب الى الرجاف ليقيم هناك مركزا لجيوش الدراويش لصد حملة « ستانلى » و « أمين باشا » •

وبعد مضى أيام قليلة لسفر هذه البواخر مرض الخليفة بالحمى التيفوسية ، وكان عموم سكان أم درمان يستطلعون أخبار هذا المرض أولا فأولا •

وأصبح جميع سكان أم درمان يرقبون أخبار مرض الخليفة بفارغ الصبر وكانوا يتوقعون أن موت الخليفة يغير نظام كل شىء • وبطبيعـة الحـال اذا مات فسـيخلفه الخليفة « على واد الحلو »

حسب ما تقتضيه القوانين المهدية وكان هذا يترقب وفاته بكل سرور وقد أظهر أتباعه الرغبة الشديدة في الاستيلاء على الحكم ، بعد ذلك ابتدأت حالته الصحية تتحسن وقد خيل الى أن الله سبحانه وتعالى لم يهيىء بعد لهؤلاء القوم النجاة فيقضى على حياة هذا الطاغية ٠

خرج الخليفة بعد ثلاثة أسـابيع من مرضه لأول مرة فقابله رجال قبيلته بالتجلة والتعظيم والغبطة والسرور بينما أظهر له بقية السكان سرورا مصطنعا وعلى ذلك لم يعرف شعور الناس نحوه حق المعرفة ٠

وحيث كان يقطن بين النهرين في الجزيرة قبائل « الجالان » و « الدناجالا » وغيرهما من الاعراب الذين يعرف الخليفة عنهم أنهم ألد أعدائه فكان دائما يراقبهم عن كثب ويدعهم عزلا من السـلاح مصادرا كل ممتلكاتهم وكان ينتخب من بينهم آنا بعد آخر عددا يرسله لتعزيز حامية دارفور والقلابات والرجاف ٠

وكان يعتقد دائما أن الخليفة على وأتباعه يحقدون عليه ولو أنهم كانوا يظهرون له غير ما يخفون الا أنه ما كان يتوقع قط أن يعلنوا العداء كما أعلنه من قبل الاشراف ٠

والآن وقد أصبحت أقطن على بعد خطوات منه أخذ يسأل عنى كثيرا زملائى ويطلب اليهم ابلاغه هل أنا مسرور من مكانى الجديد أو لا ٠ وكان يترقب بفارغ الصبر وقوع هفوة منى ولكن من حسن الحظ كان الملازمون يعطفون على وبينى وبينهم صـداقة وكانـوا يسرون لى بين آن وآخر أن الخليفة أصبح شديد الحقد على ٠ ويجب أن أكون شديد الحذر ٠

وفى ذات يوم من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٢ لما حصلت على اجازة قصيرة لأستريح فيها من عناء العمل طلبنى أحد الملازمين الى الخليفة وبعد أن ذهبت وجدته ينتظرنى فى حجرة الاستقبال محاطا بقضاته • ولقد صدقت ما قيل لى من أول وهلة حيث لم يرد تحيتى وأمرنى بأن آخذ مكانى بين قضاته •

وقال لى بكل حدة هذا الشىء وانظــر الى ما يحتويه • فقمت واستلمت الشىء المشار اليه ثم جلست فاذا به قطعة مستديرة من النحاس على شكل علبة صغيرة قطرها يقرب من أربعة سنتيمترات مغلفة بقطعة من المعدن متينة كقبضة « المسدس » فحاولت فتح هذا الشىء وبعد أن تمكنت وجدته يحتوى على قطعتين من الورق •

وبطبيعة الحال كنت فى هذه اللحظة فى أشد حالات الاستغراب وقلت فى نفسى لعله خطاب من أهلى أو من الحكومة المصرية استحضره الرســول •

ولما مسكت قطعتى الورق حاولت قراءة ما تحتويانه فوجدت مكتوبا فيهما باللغات الألمانية والفرنسية والانجليزية والروسـية ما يأتى :

« هذا العصفور نشأ وتربى بضيعتى فى « اسكانيا » فى مقاطعة « فوريدا » بجنوب الروسيا فمن يمسكه أو يقتله فالمرجو منه أن يكتب لى ويخبرنى عن مكانه » •

فرفعت رأسى بعد تلاوة هذا الخطــاب فقال الخليفة ما هو المدون بهذه الأوراق فاجبته قائلا : يا سيدى لابـد وأن تكون هذه القطعة كانت معلقة فى رقبة عصفور قتل وان صاحبه الذى يسكن فى أوروبا يطلب الى من يقتله أو يمسكه أن يكتب اليه ويخبره عن المكان الذى مسك فيه أو قتل •

فقال لى لقد قلت صدقا فحقيقة قتل هذا العصفور بالقرب من دنقله ووجدت هذه القطعة برقبته ، وقد أخذه من قتله الى الأمير يونس الذى عجز كاتبه الخاص عن تفسير ما هو مدون به . وبعد ذلك بعثوا به الى فخبرنى بترجمة ما هو مكتوب فيه .

فترجمت الجملة كلمة كلمة كما أراد الخليفة وبينت له موضع البقعة التى جاء منها هذا العصفور وكذلك المسافة التى قطعها ـ فقال الخليفة هذه خرافات يضيع بها الذين لا عقيدة لهم أوقاتهم ، فبعيد على محمدى أن يجهد نفسه فى خرافات كهذه .

بعد ذلك أمرنى بأن أسلم العلبة الى سكرتيره وأمرنى بالانصراف غير أنى تصفحت الورقة مرة ثانية بكل سرعة وعلقت منها كلمات « اسكانيا ـ نوفا ـ فوريدا بجنوب الروسيا » وأخذت اكرر تلك الكلمات حتى علقت بذاكرتى . وقد كان الملازمون فى انتظارى خارج الباب وهم فى غاية الشوق الى سماع أخبارى ولما راونى خارجا وعلى وجهى علامات السرور فرحوا لفرحى .

وقد صرت أكرر وأنا فى طريقى الى منزلى تلك الكلمات ونذرت اذا منحنى الله سبحانه وتعالى حريتى لابد من أن أذهب الى هذا الرجل وأبلغه ما طلب وماذا حدث للعصفور . والآن عاد محمود أحمد ـ وهو الذى حل محل عثمان واد آدم لما توفى ـ الى أم درمان بجيوشه البالغة خمسة آلاف بدوى ولم يترك بها غير ما يكفى لحفظ النظام وعسكر بهذه الجيوش عند عين يونس فى جنوبى المدينة .

وقد أمر الخليفة باستعراض جميع الجيوش النازلة فى أم درمان وبطبيعة الحال ستكون نتيجة هذا الاستعراض كنتيجة سابقة وقد كنت أركان الحرب وكل هفوة تقع على مسؤوليتها .

بعد ذلك أمر محمود احمد بالعودة الى الفاشر بعد أن جدد عساكره يمين الاخلاص للخليفة . وقد وجه الخليفة نظره الآن الى

الجهات الاستوائية فبعث بباخرتين أخريين بهما ٣٠٠ رجل تحت امرة قريبه عرابى ضيف الله . أسلمها الى الرجاف ولدى عرابي الأوامر بالقبض على « أبو حرجه » وأن يكبله بالحديد . وقد ظهر جليا أن هذا الأخير لم يرسل الى الرجاف الا خدعة .

وجاء بعد ذلك دور زكي طومال فحقد عليه يعقوب فأمروه أن يعود حالا الى أم درمان حيث زجوه في السجن ووضعوا على جسمه أكبر كمية ممكنة من الحديد تعذيبا له . بعد ذلك وضعوه في مغارة وقطعوا صلاته بكل الناس ولم يسمحوا له حتى بالخبز الضروري لغذائه فمات بعد ٢٠ يوما جوعا وعطشا .

وقد حل الآن بدله في قيادة الجيوش أحمد واد علي فأصدر له الخليفة الأوامر بغزو القبائل النازلة بين كسلا والبحر الأحمر وكانت خاضعة للايطاليين ولكنه تلقى أوامر بألا يغزو جيوشا محصنة في حصون . ولما توجه على رأس جيشه في نوفمبر سنة ١٨٩٣ من القضارف لحق بالقوة المعسكرة في كسلا وهناك توجه الى « أجردات » فواجه القوات الطليانية وكانت قليلة العدد الا أنها متحصنة . وبالرغم مما أمره به الخليفة هاجمها لقلتها في نظره فهزم شر هزيمة وقتل هو نفسه وقتل قائدان من قواده .

وفي أثناء هذه اللحظات الدقيقة واذا بباخرتين تفدان من الرجاف تحملان كميات هائلة من العاج وآلافا من الأسرى وبعد ذلك بقليل وصلت أخبار غير سارة من دارفور وقد روى محمود أحمد أن المسيحيين دخلوا مناطق بحر الغزال وقد اتحدوا مع القبائل النازلة في هذه الجهات وقد وصلوا بالفعل الى حضرة النحاس . وقد وقعت تلك الأخبار على الخليفة كالصاعقة .

ولما كانت مصر تحكم السودان جند المصريون من أهالى اقليم بحر الغزال الكثير ، منهم من قبل برغبته ومنهم من اجبر على الدخول فى سلك العسكرية • ولما كانت مناطق بحر الغزال أعلى بكثير من غيرها من مناطق السودان ومزروعاتها كثيرة ، ومواشيها وفير • ولما كانت القبائل الساكنة فى تلك الجهة متفرقة الكلمة • سهل كل ذلك على أى أجنبى يريد الاستيلاء عليها ، وهذا هو ما قد حصل • وكان فى نظر الخليفة أن من يستولى على هذه المناطق فقد استولى على مفتاح السودان بأجمعه • ومما زاد الطين بلة أن العبيد يكرهون العرب كراهة لا مزيد عليها •

وقد أمر الخليفة فى الحال محمود أحمد بأن يجند من جنوبى دارفور ويزحف جنوبا الى بحر الغزال ليكسح الأجانب الذين دخلوا هذا الاقليـم •

وقد استدعانى الخليفة ذات يوم وسلمنى بعض أوراق مكتوبة بالفرنسية وطلب الى ترجمتها وهى تحتوى على خطابين من اللفتنانت دى كنيل الى مساعديه يشملان أوامر أصدرها اليهم • وسلمنى أيضا نص معاهدة موقع عليها من مندوب حكومة الكنغو الحرة والسلطان حامد واد موسى تاريخها ٤ أغسطس سنة ١٨٩٤ والشاهدان فيها « سلطان ريميو » و « سلطان تيجا » وهما موقعان بالافرنجية • فترجمت هذه الأوراق بكل سرعة شفويا للخليفة • ولقد أراد أن يظهر لى عدم اكترائه فقال : « لم أطلب اليك ترجمة هذه الأوراق — لأن فى الأمر شيئا خطيرا — كلا فقد أصدرت أمرى الى محمود أحمد ليطرد هؤلاء النصارى الذين اخترقوا الحدود ولكن هناك أمر يهمنى أن أصرح لك به وهو بما أننا نعتبرك كواحد من عائلتنا فانى أود أن أشعرك بحقيقة هذا الحال وعلى ذلك قررت أن أزوجك واحدة من بنات أعمامى • فماذا ترى ؟ » •

وبطبيعه الحال لم تدهشنى هذه المنحة فقد عودنى الخليفة أمثالها من قبل وتيقنت من حقيقة ما يقصده فهو يريد أن يبعث لى بمن تكون رقيبة على أحوالى بمنزلى • هو يريد أن يعلم حقيقة أسرارى • يريد أن يعرف اذا كانت هناك صلات بينى وبين أى مخلوق آخر • فقلت له يا مولاى اننى أدعو لك بالنصر على كل أعدائك • ان هذا الذى تريد أن تولينى اياه باقترانى بابنة عمك شرف عظيم • وانى اقول لك يا مولاى ان ابنة عمك هذا لم تكن من بيت الملك فقط بل هى من سلالة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام • وعلى ذلك يجب أن نكون موضع كل عناية ومشمولة بكل رعاية ولما كان من سوء الحظ أنى مصاب بداء الحماقة ، والحماقة أعيت من يداويها وقد لا يمكننى أن أحكم عواطفى عند حدوث أى حادث ولا تخفى نتيجة هذا بين الزوج وزوجته وقد يؤدى هذا الى نفور قد يحصل لا سمح الله بينى وبين مولاى فأرجو معذرتى اذا رجوت سيدى أن يترك هذا الرأى •

فقال لى : الآن وقد عشت بين ظهرانينا عشرة أعوام خبرناك فيها وعرفنا خصـــالك وعاداتك فلم أســـمع عنك الا كل طيب وكل ما يخيل لى من أمرك هذا أنك لا تود تغيير العادة التى ورثتها من قبيلتك الأصلية بأنك لاتريد الا زوجة واحدة (والخليفة يقصد من كلامه هذا أنه باعتبارى مسيحيا فلا أتزوج الا واحدة ولذلك أرفض أن أتزوج بابنة عمه) فقلت له : لا يا مولاى فانى لا اتبع عادة بلادى مطلقا وان كنت أتبعها فلماذا تزوجت بثلاث نساء قبل الآن • فأجابنى فهمت على كل حال فانت ترفض زواج ابنة عمى !! فقلت له : كلا يا سيدى فانا لا أرفض ولكنى أريد قبل الاقدام على أى شئ أن أوضح لك حقيقة أخلاقى • وبذلك أضمن العواقب • وبطبيعة الحال أنه لما يشرفنى الانتساب الى قبيلتكم • الا انى أود قبل كل شئ أن تكون مولاى على علم تام والآن وقد تيقن أن محاولاتى هذه كلها علامة الرفض أمرنى بالانصراف •

وقد وضعت نفسى بعدم القبول هذا فى مركز حـــرج للغاية وهذا مما جعلنى أزيد فى جهدى لتدبير أمر الهرب ٠

وقبل هذه الحادثة ببضعة أشهر كنت قد كلفت تاجرا سودانيا بالذهاب الى القاهرة ومقابلة القنصل النمساوى ليطلب اليه أن يعمل غاية جهده على تمكينى من الهرب ولكن متى تتحقق هذه الآمال ٠ ؟

الفصل الخامس عشر

ملاحظات متنوعة

سأحدث القراء الآن عن شخص الخليفة وعاداته وأخلاقه فأقول هو السيد عبد الله ابن السيد محمد ينتمى الى قبيلة التعايشة من أولاد أم سار من أسرة الجبارات . وقد اتصل بالمهدى وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره وكان فى ذلك الوقت قوى البنية الا أن الشواغل قد أنهكت قواه الآن فأصبحت تراه كهلا اشتعل رأسه شيبا ولو أنه لم يتجاوز ٤٩ عاما . أصبح سريع الانفعال . ولما تنتابه تلك الحال يصبح من غير المتيسر على أعز عزيز لديه الدنو منه ومحادثته حتى ولا أحد اخوته .

وكان يعتقد دائما أن الصدق والأمانة لا وجود لهما مطلقا عند أى مخلوق وكل ما يظهره الانسان من ملق ومداهنة انما هو لقضاء الحاجات والمآرب دون سواها .

وكان بطبعه محبا للملق والمداهنة لذلك كنت ترى القوم يكيلون له الملق جزافا حتى أن أحدهم لا يجسر أن يذكر اسمه دون أن يقرنه بصفات الحكم والقوة والعدل والشجاعة والكرم والصدق . وكان من جهته يقابل ذلك الرياء بسرور وارتياح تام ويا شقاء من كان يمس كرامته .

ولكي يكون لدى القـــارىء فكرة عامة عن طباع هذا الرجل اسرد الحكاية الآتية :

كان من بين قضاته قاض اسمه « اسماعيل عبد القادر » تعلم جيدا في القاهرة ونال حظوه كبرى عند المهدي لأنه كتب تاريخا قيما عنه يشمل جميع انتصاراته وتاريخ حياته • ولما مات المهدى أمر الخليفة ، اسماعيل هذا ، أن يتمم عمله ويكتب عن الانتصارات ويكيل ألفاظ الملق والمداهنة للخليفة • فقال اسماعيل عبد القادر ضمن أقواله مقارنا الحالة في السودان بها فى مصر فشبه الخليفة بالخديو اسماعيل باشا وشبه نفسه باسماعيل باشـــا المفتش ولما وصل هذا القول الى مسامع الخليفة أمر القضاة فى الحال ليجتمعوا لمحاكمة اسماعيل على هذا القول الذى اعتبره الخليفة ذما في شخصه وقال : « كيف والمهدي خليفة النبي وأنا خليفته يشبهني هذا الرجل بالخديو الذى هو من أصل تركى • كيف أشـــبه بهذا الرجل وأنا خليفة المهدى والمهدى خليفة النبي الذى هو أعظم مخلوق ظهر على ظهر الأرض وطلب الى القضاة أن يحاكموه فقضوا بادانته وكبل بالأغلال وأرسل الى الرجاف • وقال الخليفة ما الذى دعاه الى التشبيه بين مصر والسودان فاذا كان يود أن يشبه نفسه بباشا مصرى فأنا خليفة النبي لا أقبل على نفسي مطلقا أن أشبه بتركى •

ولم يقف به غروره عند هذا الحد بل أصدر أوامره فى الحال بأن تجمع كل النسخ مؤلف هذا القاضي وتحرق وبالفعل تم ذلك الا نسخة واحدة كما بلغنى احتفظ بها سكرتير الخليفة ولو وجدت هذه النسخة الآن وترجمت الى اللغات الافرنجية لظهر الشيء الكثير مما كانت عليه الحركة المهدية منذ نشأتها •

وكان هذا الخليفة مغرورا جدا بقوة جيوشه معتقدا أنه فى وسعه أن يعمل كل شيء ويغزو أى بلاد وكانت أخلاقه خليطا من

اللين ولتشدة وما كان يسير الا اذا أحدث آلاما لآخرين كمصادرته أموالهم أو تعذيبهم • وكانت تلك خصاله حتى أيام حياة المهدى نفسه فعبد الله نفسه هو الذى سبب مذبحة الخرطوم التى قتل فيها النساء والأطفال بلا شفقة ولا رحمة •

ولما أرسل عثمان واد آدم الى ام درمان أختى سلطان دارفور البرنسيسة مريم عيسى وبخيته منحهما الخليفة حريتهما ولكنه حجز غيرهما من أقاربهما النساء وأخذ لنفسه كثيرا منهن وأعطى توابعه أخريات • ولما علم بأن هناك من أهل دارفور من يقطن أم درمان ويريد مساعدة البرنسيستين قبض عليهما وأعطاهما لاثنين من أمرائه هما حبيب وخليل وكانا على أهبة السفر الى الرجاف • وقد حاولت أم بخيته وهى ضريرة أن تتبع بنتها فرفض طلبها ومنعت بأمر الخليفة بالقوة من متابعة بنتها حتى أنها ماتت بعد أيام قليلة وقلبها يتحرق على بنتها • ورمت بخيته بنفسها فى النهر والباخرة لم تقلع من مكانها ولما نجوها من مخالب الموت ماتت من التعب والبؤس بعد قليل •

وكان أحمد غراب مصرى الجنس مولودا بالخرطوم ولكنه قبل حملة هكس باشا سافر فى تجارة تاركا وراءه زوجته وهى سودانية وبنته وقد عاد ليراهما الا أنه فى يوم عودته وقبل أن يرى أسرته أحضر أمام الخليفة فأوضح الأسباب التى حملته على الرجوع مظهرا رغبته فى الدخول فى خدمة الخليفة فقال له انى أقبل ذلك بكل سرور فلتذهب فى الحال الى الرجاف • وجاهد فى سبيل الله • وعبثا حاول هذا المسكين أن يقنع الخليفة فى أن يستأذنه السماح له برؤية أولاده فأمر الخليفة حرسه فى الحال بأن يأخذوه الى المركب المسافر على أن يراقبوه جيدا •

والخليفة عبد الله هذا هو الذى سبب هلاك آلاف الناس • وهو الذى كان يعذب الآدميين بأن يقطع أيديهم وأرجلهم تعذيبا • ولم ننس له حادثة قتله وشنقه أفراد قبيلة « البتاهين » فى ساحة السوق • ولقد ذكرت كثيرا أن أصدقاءه كانوا أشد خوفا من أعدائه على حياتهم منه • وهل هناك دليل يثبت فظاعة هذا الرجل أقوى من حادثة سفكه دماء الأشراف بعد أن اتفق معهم وعقد التحالف المعروف •

وكان كل من يدخل عنده يقف مكتوف اليدين مسبلا عينيه الى الارض ينتظر أمره بالجلوس • وكان هو يجلس دائما على عنجريب مفروش بحصير عليه فرو فاذا أمر أحدا بالجلوس فانما يكون جلوسه على الأرض مقعيا كما يقعى عند الصلاة لا يتحرك حتى يؤذن له بالانصراف وكان لا يسمح لأى مخلوق بأن يتشخص ببصره نحوه وقد حدث مرة أن سوريا اسمه محمد سعيد جمعه سوء الحظ ــ وهو بعين واحدة لا يرى بالأخرى ــ بالخليفة بالمسجد فلاحظ الخليفة أن عين هذا السورى ترمقه فدعانى وأمرنى بأن أبلغه أن الخليفة لا يحب أن يراه مرة أخرى يرمق اليه •

وكانت حالته فى منزله على عكس ما هو عليه من طباع اذ كان لين العريكة يطيع أمر ابنه حتى أنه فى ذات يوم لما قال الولد لأبيه أنه أتم دروسه سرعان ما أمر المعلمين بالانصراف • وقد زوج ابنه عثمان هذا بابنة عمه بنت يعقوب ولم يتجاوز من العمر سبعة عشر عاما • وأقام له أفراحا لم يسبق لها مثيل فقد مدت موائد الطعام ثمانية أيام حتى تمكن كل فرد من سكان أم درمان من أن يأكل • كما أنه زين المنزل المبنى بالطوب الأحمر والموجود تجاه بيت يعقوب بأفخر الرياش لكى يكون محل سكن ولده •

وبعد ذلك بقليل زوج ابنه هذا باثنتين من أقاربه وقدم له جوارى اختارهن هو بنفسه لابنه • وكان يحرم على ابنه الاتصال

بالغير كما كان يصرح دائما بأنه لا يسمح له أن تجمعه صلة نسب مع أي قبيلة اخرى ٠

ولما رأى أن لابنه علاقات مع الآخرين سرعان ما جعله يسكن في منزل داخل السور بجوار منزله ليشدد عليه الرقابة ٠

وقد زوج بنته لابن المهدي « محمد » وكان محمد هذا غير راغب في هذا الزواج لأنه لا يحب ابنة الخليفة مطلقا ٠ وكان يرغب في الزواج بقريبة له ٠ الا أن الخليفة عبد الله وهو صاحب الحول والقوة وولي أمره والرقيب عليه أرغمه على ألا يتزوج بمن يريد فتزوج بابنة الخليفة مرغما وعاشا عيشة مرة ٠

وكان للخليفة ما يقرب من ٤٠٠ امرأة ٠ وبحكم الشرع كان من بينهن أربع زوجات شرعيات والباقيات كن من بنات القبائل التي ارغمت على اتباع المهدي أي بمعنى آخر أسيرات وكان كلما أحب واحدة وأراد الاقتران بها اقترانا شرعيا طلق واحدة من زوجاته الشرعيات ليستبدل بها من يريد ٠ وقد جمع في زوجاته بين البيض والسود وقد قسمهن الى أقسام بعضها مكون من ١٥ والبعض من ٢٠ يرأس كلا من هذه الأقسام رئيسة وكل قسمين أو ثلاثة اقسام منها تحت اشراف سيدة الأحرار المحظيات عند الخليفة وكان يمنحهن حبا ونقودا وهبات أخرى تمكنهن من قضاء حاجاتهن ويعطيهن أيضا الملابس بنسبة جمال وأخلاق ومركز كل منهن عنده ٠ وتتكون تلك الملابس عادة من نسيج قطني يصنع في البلاد السودانية ملون الحواشي أو من حرير لامع وشيلان صوف مستوردة من مصر وكان هو نفسه الذي يباشر توزيع هذه الأشياء عليهن وفي بعض الأحيان يوزعها اغاه الخاص ٠

ولما كانت المجوهرات الفضية قد حرمها المهدى كن يتزين عادة بالخرز والصدف وكن يضفرن شعورهن • الا أنه فى الأيام الأخيرة لبست زوجات العظماء حليا من ذهب وفضة ولبست زوجة الخليفة الأصلية أكثر ما يتصوره انسان من حلى •

وكان يشرف على حالة نسائه الصحية نسوة مخصوصات لا يتأخرن عن اخطاره بكل ما يحدث من الاصابات •

ولما كان يريد اختيار واحدة منهن ليجتمع بها كان يستعرضهن جميعا ويختار منهن من يشاء • وكان لا يختلط بنسائه الا اغواته ولا يحرسهن الا الملازمون السود وقلما كان يسمح لواحدة منهن أن تتصل بأى كائن كان من أهلها أو أقاربها وقد تمضى السنة دون أن ترى الواحدة أى فرد من عائلتها •

وكان اسم زوجته الأولى « سـارة » وهى من قبيلته شاركته السراء والضراء • وهى أم أولاده عثمان وخديجة • ومع أنها أصبحت زوجة الخليفة الآن الا أنها كانت تحافظ مظاهرها وعاداتها الأصلية فكانت تعمل بنفسها أو تحت اشرافها طعامهم البسيط المكون من العصيدة وبعض الفراخ • ولما أراد الخليفة أن يترقى فى معيشته واطلع على أنواع الطعام المصرى وأصناف المأكولات التركية وأراد ادخالها فى مطبخه تسبب عن ذلك شقاق بينه وبين زوجته كان سيقضى حتما الى فراقهما لولا تداخل يعقوب وبعض افراد أسرته •

وكان عنده اغا رئيس يسمى « عبد القيوم » وكان هذا هو المشرف على تمدين بيت الخليفة ويتناول من بيت المال المصاريف اللازمة ويتولى صرفها • كما كان تحت يديه الهدايا التى كان يمنحها الخليفة لمن يشاء يساعده فى أداء هذه المهام رهط من الكتبة

والمساعدين تحت امرته كلهم أغوات حيث أن الخليفة كما قدمت ما كان يسمح لغير الاغوات بالدنو من منزله ·

وأما لباس الخليفة فكان عبارة عن الجبة البيضاء وعلى رأسه عمامة من حرير وعلى كتفه حرام · وكان يلبس فى رجليه فى أول الأمر صندلا الا أنه غير ذلك بعد قليل واستبدل به لبس « بلغة » صفراء · وكان دائما يحمل فى يده اليسرى عندما يسير سيفا وفي يده اليمنى حربة يتوكأ عليها كأنها عصا · ويتبعه فى سيره ١٢ صبيا خدما خصوصيين له · جاءهم من الأحباش الذين أسرهم أبـو انجه وزكى طومال · وكان واجبهم أن يكونوا دائما على مقربة منه ليكونوا رسله عندما يرى أى شىء · ولما يبلغ الواحد منهم السابعة عشرة من عمره يترك خدمة الخليفة الخصوصية ويندمج فى حرس الخليفـة النظامى · ويحل محله آخر من الصبيان ·

وكان الخليفة يعتقد أنه باستخدام صغار السن يكون دائما فى مأمن من اذاعة أسراره وبطبيعة الحال لا يخطئه واحد مطلقا فى رأيه هذا ·

وأما فى داخل منزله فكان بطبيعة الحال يحل الاغوات محل هؤلاء الأولاد اذ كما قدمت ما كان يسمح لغيرهم بدخول داره ·

عرضت على الخليفة منذ ثلاث سنوات فكرة من جانب مشيريه الحربيين فارتاح اليها وعزم على تنفيذها · وتتلخص هذه الفكرة فى ضم أفراد من حرس الخليفة الى صفوف الضباط فى الجيش العام · ولم يكد يعلن موافقته على ذلك الرأى حتى اختار بنفسه عددا من المجاهدين البارزين فى جيش محمد أحمد وزكى طومال ·

ثم يقف الخليفه عند هذا بل أصدر أمره لأمراء القبائل الغربية حتى يحضروا المئات من الجنود الجدد ليدمجوهم تحت ألوية ضباطه ولكن تلك الأوامر لم تلق الطاعة الاجتماعية من ناحية الأمراء . وفي كل خطوة من خطواته التنظيمية الأخيرة كان معنيا باضطهاد الدنقليين والمصريين واخراجهم من دائرة حرسه لأنه لم يكن يثق بهم ولم يمل اليهـــم .

جد الخليفة في سبيل ذلك الانشـــاء الحربي حتى تمكن من تكوين قوة تتراوح بين أحد عشر ألفـــا واثنى عشر ألفا من الجند ونظم لذلك العدد الكبير أراضي تشبه القطائع سكنها أولئك الجنود مع نسائهم وهي على مقربة من مساكن الخليفة ودور أبنه وفي حدود السور الحربي الجديد .

وقسمت هذه القوة الجديدة الى ثلاث كتائب يقودها على التتابع ابنه عثمان وأخوه هارون أبـو محمـــد (الذى لا تزيد سـنه على الثامنة عشرة) وابن عمه ابراهيم خليل . أما الثالث فلم تطل مدة قيادته لكتيبته حيث حل محله رجل حربي حبشي اسمه رابح كان في حاشية الخليفة في بيته الخاص . وانه لمما يجب ذكره أن عثمان كان موضـع احترام صفوف الجيش بقسميه الأعلى والأدنى فلقبه الجنود بممثل الخليفة . وتنقسم كل كتيبة الى أجزاء منتظمة يحتوى كل منها على مائة جندى يرأسهم ضابط ويلقب برأس المائة ولذلك فالضباط مساعدون مدربون .

اذا عدنا لأنواع الجنود وجدنا الســـود منهـم مندمجين في الأقسام المتفرعة من الكتائب وهم في ذلك ليسوا من الجنس العربي الحر ولكنهم تحت رقابة الأمراء الذين يصدرون أوامرهم المطاعة لكل من الفريقين على حدة لأن السود لا يخضعون للنظـــم العســكرية كما يخضع العرب .

وانا لا نغالى فى التقدير اذا قلنا ان جميع أولئك الجنود مسلحون ببنـادق رمنجتون ولكننـا نظهر أمام الحقيقة أكثر دقة وصدقا اذا قلنا ان البنادق المذكورة محفوظة فى المخازن لا فى أيدى الجنود حيث لا تسمح ادارة الجيش العليا باخراج البنادق من مكانها الا فى أعياد خاصة فى كل عام • أما فيما يختص بمرتب الجندي فانه لا يتجاوز نصف ريال درويشى شهريا مضافا اليه ثمن ($\frac{1}{8}$) أردب من الذرة فى كل أسبوعين • وفى الحق لا يظفر الجنـدى بأكثر من تلك الذرة • أما نصف الريال فيكاد يكون مرتبا اسميا •

يجيء بعد ذلك ذكر مرتب كل من رأس المائة والأمير وكل من المرتبين عال بطبيعة الحال اذا قسناه الى مرتب الجندى • هذا الى أن كلا منهما (رأس المائة والأمير) يظفر بمنح متتالية من النساء والعبيد الخاضعين لنفوذ الخليفة •

اذا أنعمنا النظر فى مهمة الجنود والحرس وجدناها محصورة فى حماية شخص الخليفة واذن فأولئك جميعا مضطرون لمرافقته فى جولاته الحربية على أن يحميه حرسه الخاص أيام استعراض الجيش العام • ومن العجب أن يسير ذلك الحرس فى ركاب الخليفة الى أى مكان سار وفى أية بقعة نزل مما يدل على رغبته الشديدة فى الاحتفاظ بحياته • ولما كان أمر الحرس كذلك اضطر الخليفة أن يقيـم له ميدانا خاصا فسيحا أمام منزله ليكون لاصقا به مدى حياته •

يذكر القراء أننا أشرنا فى السطور السالفـة الى كراهيـة الخليفة للمصريين واتساع دائرة الكراهية الى حد أنه يمقت سماع أنغامهم ومع ذلك كان يستصحب فى رحلاته أفرادا ليسمعوه الأنغام المصرية وغير المصرية الا أنه لم يقلع عن فكرة الكراهية فبدلا من سير اثنين من المصريين للنفخ فى البوق وتوقيع النغم كان يرافقه اثنان

من السود . وكان الخليفة يلقب رأس المائة بكلمة « قبطان » ولقب الأمير عنده « بكباشى » أما القائد « أميرالاى » .

لا ينسى المتكلم عن الخليفة أن يقول : ان عبد الله كان فى أكثر الاحايين يفتش ويراقب جنوده ليلا حتى يثق من بقاء كل رجل من رجاله الحربيين فى المكان الذى عينه له وقد كان أكبر هم الخليفة موجها الى مركز طليعة الجيش . وازاء هذا التدقيق الشديد وتلك اليد القاسيه ىان رءوس المائه والأمراء يدعون المرض فى كثير من الليالى فيذهبون سرا الى بيوتهم وفى نفوسهم غصص وآلام فيفرجون عنها باظهار استيائهم لذويهم .

تشتمل أعمال الخليفة العامة على ترديد الصلوات الخمس يوميا فى الجامع الكبير فعندما يبدو السحر يؤدى الخليفة صلاة الفجر وبعد ذلك يقرأ المحتشدون بعض الآيـــات القرآنيـــة فى حضرة المهدى ويستغرق ترديد القــرآن وبعض الصلوات الخاصـــة مدة تقرب من ساعة .

وبعد ذلك يعود الخليفة الى مخدعه الخاص ولكنه فى بعض الأحايين يخالف ذلك الترتيب فى المسجد ليتحقق بنفســـه مبلغ اذعان سكان أم درمان لأوامره الدينية الخاصة بحضور الصلوات الخمس حضورا منظما . أما صلاة الظهر فيقوم بها الخليفة حوالى الساعة الثانية مساء وبعد ســـاعتين أخريين يؤدى صلاة العصر التى يذكر فيها المصلون بعد تأديتها بعض أقوال دينية ولا تكاد تغرب الشمس حتى يؤدى الخليفة صلاة المغرب ثم ينتهى بعد ثلاث ساعات الى الصلاة الخامسة وهى صلاة العشـــاء . وفى كل من الصلوات الخمس يصلى الخليفة فى محرابه القائم أمام صفوف المصلين . وذلك المحراب بناء جميل رباعى الشكل مكون من أعمدة رفيعـــة مخروطة الشكل يعلو كلا منها طبقة حديدية صلبة ولا ريب فى أن الخليفة

يستطيع ان يشاهد كل ما يحيط بمحـــرابه وهو فى حـالة هادئة ومكان امين ٠

هذا هو المحراب الذى يجلس وراءه مباشرة ابن الخليفـــة فالقضاة فاشـــخاص قلائل يختـــارهم الخليفة من أخصـــائه ٠ أما الجنود الذين يحرسونه فيجلسون على جانبى المحراب ويظل الجنود السود فى الجوانب التى تحيط بالمسجد ملازمين سورا ضخما يفصل بين المسجد والميدان ٠ والى جانب الضباط أماكن مخصصة للأمراء وأغلب رجال القبائل الغربية .وقد عينت لأولئك الجهة اليمنى ٠ أما الناحية اليسرى فيجلس فيها بعض الاتباع وقليلون من العرب المنتمين الى الخليفة (على واد هلو) ثم أنصار الجمليين والدنقليين ٠ ووراء أولئك جميعا يجلس المصلون من المسلمين فى صفوف تتراوح بين عشرة واثنى عشر حتى اذا ما بدأ الخليفة تلاوة صـــلاته رددها المصلون ٠

وعلى أية حال فان المصلين لايقلون عن بضعة آلاف ٠ وبما أن الخليفة محـــدود الدائرة من موقفه بالمصلين فان الأمراء الظاهرين وبعض ذوى النفوذ من رجال القبائل مضطرون الى معاونة الخليفة فى تأدية الصلاة ٠ ولئن كان فى صدر الخليفة غل أو حقد على شخص من الأشخاص فانه لا يتردد فى الاقتصاص منـــه والزامه بحضور الصلوات الخمس فى المسجد بحيث يراقبه هو وغيره (من المغضوب عليهم من الخليفة) بواسطة أشخاص معينين لهذا الغرض ٠

السبب أن الخليفة ــ فى كل هذه التحرجات وذلك التقييد الدينى ــ مدفوع بعامل صيانة الدين ولكنه لا يرمى الى ذلك فحسب بل يبغى الى جانب ذلك الاحتفاظ بسـيادته ونفوذه على أتبـاعه جميعا ٠ وانه لواجب علينا فى هذا الصدد أن نقول بأن الكثيرين من المصلين يسكنون فى جهات بعيدة عن المسجد الكبير فمن الشـاق

عليهم أن يذهبوا من منازلهم الى المسجد ويعودوا اليه خمس مرات يوميا وكل ما يستطيعون عمله هو أن يجتمع بعض الناس فى منازل أصدقائهم وهذا ما يمقته الخليفة مقتا شديدا لأنه يخشى ما يسمونه « حياة الجماعة » وقد كان الخليفة عبد الله على اعتقاد ثابت فى أن هذه الاجتماعات المذكورة البعيدة عن رقابته لابد أن تنتهى الى المسامرات والتكلم فى شئون الجماعات ومثل ذلك الكلام يصل الى بحث أعمال وشئون الخليفة فهذا ينقدها باللوم والتجريح وذلك يرضى عنها خائفا وآخر يمتدحها فلا عجب أن نرى من الخليفة جهدا شديدا مبذولا فى سبيل تأييد فكرة اجتماع المسلمين تحت رقابته هو وحرسه الخاص .

نرى من الأقوال السابقة الخاصة باقامة الفرائض الدينية أن الخليفة عبد الله أول من يصلى بالناس فى المسجد الكبير ولكننا لا ننسى أن كل انسان معرض للمرض الذى يحول دون قيامه بما تعود تأديته يوميا واذن فالخليفه عرضه لذلك المرض أو لأى عذر طارىء يمنعه من السير خمس مرات يوميا الى المسجد الكبير وبالفعل تغيب عبد الله فى بعض الأيام عن القيام بعمله الدينى الكبير فكان يخلفه فى الامامة أحد القضاة أو ضابط من قبيلة تكرورى على أن يكون ذلك الضابط مشهورا بين الناس بصلاحه وتقواه . وعلى أى حال لا يسمح مطلقا للامام الذى يقوم بعمل الخليفة أن يقف فى المحراب بل يكون فى قيادته الدينية قائما فى أول صف مجاور لذلك المحراب العظيم . ومع أن القانون الدينى يحتم على الخليفة (على واد هلو) أن يمثل الخليفة عبد الله فى تأدية الفرائض الدينية أثناء غيابه (عبد الله) فان (على وادهلو) لم يكن يمثله فى أغلب الأحيان .

كان الخليفة عبد الله فى حياته اليومية يتلقى بين صلاة العصر وصلاة المغرب عدة تقارير ويستمع الأنباء الخاصة بشئون الأمة ويطلع على الخطابات الواردة له ويقابل القضاة والأمراء الذين سمح لهم

الخليفة قبل يوم المقابلة بالتحدث معه والى جانب أولئك كان يسمح الخليفة فى ذلك الميعاد من كل يوم بمقابلة الأشخاص الاخصاء الذين يرغب التحدث اليهم •

أما مراسلاته البريدية الخاصة فمحدودة وسائرة فى سبيل طبيعية وهو يحتفظ لذلك بما يتراوح بين ستين وثمانين جملا لحمل البريد العام على أن يتولى رقابته أشخاص مخصوصون بصفة عمال بريد • ولا يذهبن تصور القارىء الى أن أولئك محصورو العمل فى بلد الخليفة وانما هم موزعون فى جميع أنحـــاء أمبراطوريته حيث يتلقون أوامره وتعليماته فينفذونها عاجلا •

ومما يذكر فى هذا الصدد ان ابراهيـم عدلان اقترح عليـه انشاء محطات خاصة للبريد على طول الخطوط الرئيسية المعروفة •

ولكن الخليفة رفض قبول هذا الاقتراح بشىء من الضجر بعد أن قال لابراهيم بأنه عنى قبل كل شىء بالأوامر الشفوية التى يلقيها (الخليفة) على الاخصاء من رجال البريد الذين لم يتأخروا مطلقا فى تنفيذ أوامره باخلاص وأمانة علاوة على أن الخليفة كان يتلقى من أولئك المقربين اليه تقارير وافية عن أعمال الحكام التابعين له •

لم يقتصر أمر البريد الخاص على الخليفة بل تعداه الى الأمراء كل فى منطقته حيث كان للأمير رجـال مخصوصون وعدد معين من الجمال لحمـل البريد مع تعليمـات خاصـة لاولئـك المتجهين الى أم درمان • ومهما يكن الأمر فلم تكن هناك طريقة للمراسلات البريدية العامة أى للمراسلات بين الأشــخاص من عامة الشعب السودانى ولكن على رغم ذلك كان الحمالون يحملون رسائل من بلد الى آخـر بطريقة سرية •

لم يكن الخليفة فى جميع أيـــام زعامتــه واثقا بغريب عن دائـرته فدعاه ذلك الى التشــديد على الرجـّـال ُالمحيطين به حتى انه لم تكن تصدر رساله من أحدهم الى الخارج الا بعد أن تمرْ على كاتب سر الخليفة • ومما يذكر عن الخليفة عبد الله أنه كان يجهل القراءة والكتابه فحدا به دلك الى الشـك فى كثير من الكتابات الواردة من الخارج الى الأمراء القريبين منه وتبعا لذلك كان يصدر أوامره المشددة بمرور الرسائل على سكرتيريه الخصوصيين ، ومن أهم أولئك فى نظره اثنان هما قاسم ومدثر اللذان كانا مضطرين دائما لشرح محتويات الخطابات لسيدهما الخليفة على أن الخطابات الواردة لمركز الخلافة ذاته لا يرد عليهـــا السكرتيرون من ذواتهم بل يتلقون أوامر الخليفة فى كل ما يكتبونه • ولم يكن جهــــل الخليفة القراءةوالكتابة مانعا له من الوصول لبغيته بواسطة المفتشين الذين يراقبون تلك الردود البريدية •

أما هذان السكرتيران فقد عاشا مع الخليفة حياة تعسة مملوءة بالأوامر التى تنم عن ريبة عبد الله فيهما وقد كان ذلك الرجلان على ثقة تامة من أن الخليفة لن يغتفر لهما أصغر هفوة والويل كل الويل لأحدهما أو لاثنيهما فى حـــالة اذاعة سر مـــن أسرار الخليفـــة حتى لو كانت تلك الاذاعة غير مقصـــودة بســوء نية من جانب السكرتيرين ، ولم يكن الخليفة يقصر فى حالة من تلك الحالات عن معاملة ذينك الرجلين بما عامل به الأحمدى وأشقاءه الأربعة الذين نفذ َفيهم حكم الاعدام بعد أن اتهموا باتصالهم بالاشراف •

اذا خلا الخليفة الى نفسه ونزع الى شيء من الراحة أو التحدث للناس فانه لم يكن يرتاح لشيء أكثر من التحدث مع القضاة الذين لم يكونوا – فى أغلب الأحيان – غير آلات صماء فى يديه بحيث لم يكونوا يترددون فى اصدار أقسى الأحكام الاستبدادية ضد من يمقتهم الخليفة أو يرتاب فيهم • فانك كنت ترى أولئك القضـــاة

يجلسون أمام الخليفه فى وقت راحته فى شكل نصف دائرة على الأرض العاريه من كل فراش • ولم يكن يتجاسر احـــد أولئك على رفع رأسه أمام الخليفه فاذا جلسوا أرهفوا آذانهم وصمتوا انتظارا لاوامر الخليفة المطاعة • وقد كانت الأوامر المذكورة فى أغلـب الأحيان تلقى بصوت خافت هادىء • والعجيب فى الأمـر أنهـم لم يكونوا بحال من الأحوال يستطيعون رفع أصواتهـم وبطبيعة الحال لم يتوقع شخص معارضـــة أو اقتراحا من جانب أي قاضى وسواء أكان الخليفة مصيبا فى رأيه أم غير مصيب فان القاضى ملزم بالاذعان للأمر والتأمين على ما سمع •

الى جانب أولئك القضاة كان الخليفة فى كثير من الاحايين يجتمع بالامراء وبعض الأشخاص ذوى النفوذ الموثوق فيهم عنده • وكان الخليفة على وجه عام يقف على شئون الرعية وأحوال البلاد بواسطة أولئك الأشخاص القريبين ، ومما يذكر عن عبد الله أنه كان ماهرا فى بث الفتنة بين أولئك المقربين منه حتى لا تتم الصـــلة بينهم وحتى يصـــل كل منهم الى اذاعة ما عنده اذاعة دقيقة لمولاه الخليفة •

وكانت مناقشات الخليفة ومباحثاته عقب صلاة العشاء كل يوم ، وتلك المباحثات الخاصة مع يعقوب وبعض أقربائه الاقربين ، وكانت تستغرق مباحثاتهم في كثير من الأحيان بضع ساعات • وفى أيام خاصة تظل الى ما بعد منتصف الليل • وعلى وجه عام كانت الاجتماعات العائلية البحتة خاصة بالبحث فى أنجع الطرق للتخلص من الأشخاص غير المرغوب فى وجودهم أمام الخليفة بصفة خاصة وأمام ابنه وبعض أقربائه بصفة عامة • وانه لمما يجدر بنا ذكره أن أولئك الأشـــخاص كانوا لا يتطلعون ــ فى ذلك الحقـد على المكروهين ــ الى مصالح عامة بل الى ما قد ينجم عنه ضعف لقواهم أو التقليل من أثرهم البارز فى الدولة •

كان الخليفة فى كثير من الأحيان يقوم برحلات صغيرة داخل المدينة او فى الجهات المجاورة على أنه فى أيام خاصة من الشهر كان يقوم ببعض زيارات لاخصائه فى أم درمان • وليس هناك ما يدعو الى بذل جهد من الشعب خارج أو داخل المنازل لتعرف ميعاد مرور الخليفة فان الأصوات المرتفعة من الحشم ودق الطبول والنفخ فى الأبواق أمام ركب الخليفة ، كل ذلك كاف لأن يسمع الناس ذلك الصوت الخاص على بعد مئات من الأمتار فيهرع السكان لتقديم التحية لمولاهم الكبير •

كان الى جوار بيت الخليفة مكان فسيح للحرس ودار مسقوفة بقش يظل فيها الخيل بعد أن ينظفها الحرس فاذا ما قال الخليفة أنه يعتزم الجولان فى المدينة أسرع حراسه الى خيولهم وأسرجوها • فاذا ظهر الخليفة فى رحبة داره الخارجية خرج الضباط والحرس الخاص من كل النواحى المحيطة وأسرعوا لحماية سيدهم وكان النظام المتبع فى تلك الرحلة أن يتقدم الضباط وحرس الخليفة ثم يتبعهم عبد الله ممتطيا جواده الخاص ، وحوله من النواحى الأربع دائرة من الحرس الموثوق فى اخلاصهم له وانك لتكاد تظن الناس الخارجين من منازلهم لمشاهدة الخليفة مجموعات متتالية من الكتائب الحربية • أما الجنود فكل فصيلة تسير على انفراد مكونة من اثنى عشر متجاورين • ووراء أولئك جميعا يسير الموكب اللاحق والمؤلف من الأمراء والاخصاء على ظهور الخيل ثم آخرون من الأقرباء •

نضيف الى ذلك أن رجلا عربيا مسلما اسمه « أبو دخيبة » كان يجاور الخليفة الى يساره وكل ما كان لهذا الرجل من شرف هو أن يرفع الخليفة الى جواده الخاص ثم يظل ملازما له أثناء نزوله من الجواد • هذا الى أن الذى كان يشغل الناحية اليمنى من الخليفة

أثناء سير موكبه هو كبير الخصيان ورئيس فرقة العبيد فى حاشيه الخليفة ٠

كان أمام الخليفة مباشرة فى كل رحله من رحلاته ستة من النافخين فى الأبواق ايذانا بمرور الركب العظيم ٠ أما السائرون وراء جواد الخليفة مباشرة فهم الضاربون على طبول خفيفة ترمى الى تحسين صوت البوق فى أذنى الخليفة الذى كان شـديد الميل لسماع الأنغام ٠ ومن اختصاص الأخيرين (الضاربين على الطبول) اصـدار اشـارات معروفة فى المدينة لسير الركب أو وقوفه تبعا لأوامر ورغبات الخليفة ٠ فاذا ما انتهينا من أولئك جـاء صف الحشم الخصوصى الذى كان يحمل أفراده محافظ جلدية فيها أوراق دينية وعالمية (خاصة بشئون الدولة) ٠

وبعد أن ننتهى من صف القارعين على الطبول قرعا خفيفـا نصل الى صفوف خصيان الخليفة وصغار خدمه وبين أولئك من يحمل آنية كبيرة فيها ماء للوضوء ويحمـل غيره سـجادة فاخرة لصلاة عبد الله ويسير الآخرون حاملين الرماح ٠ وفى بعض الأحايين يتقدم الموكب أو يخلفه ركب موسيقى مكون من خمسين سـودانيا تتكون آلاتهـم الموسيقية من مستخرجات قرون الوعـول وتغطى الجلود طبولهم المصنوعة من تجاويف جذوع الأشجار الضخمة ٠ وانه لمن الميسور لك أن تميز أنغام أولئك السودانيين بما فيها من تنافر قبيح وبما اشتهرت به من ابتعاد عن كل توقيع مطرب ٠

تعود الخليفة القيام برحلاته بعد صلاة الظهر على أن يرجع الى داره قبل الغروب وفى أثنـاء كل من الرحلات المذكورة يبذل الضباط أقصى مجهوداتهم لاظهار شجاعتهم وفروسيتهم أمام مولاهم الخليفة ٠ فمن أمثلة تلك الشجاعة تقدم أربعة من الضباط متجاورين

الى ناحية الخليفة بحيث يرمون رماحهم المدببة فى الهواء ويسرعون من صـــهوات جيادهم الى البقعـة الممتـدة أمام الخليفة ليحيوه واقفين فاذا ما انتهوا من ذلك اسرعوا لركوب جيادهم وعادوا الى الصف الذى كانوا فيه دون اخلال بنظام الموكب ٠

كان الخليفه في السنوات الأولى من حكمه يحضر الى سباحة الاستعراض العســكريه كل يوم جمعه حيث تجرى حفـــله عرض الجنود على اختلاف درجاتهم ولكنه اكتفى فى سنى حكمه الاخيرة باستعراض الجيش اربع مرات فى السنة هى على التعاقب يوم ذكرى الميلاد النبوى ويوم المعراج واول ايام عيد الفطر ثم يـــوم عيـد الأضحى ٠ وكان مما يذكر عن عنـــاية الخليفـة عبد الله بحفلة عيد الاضحى أنه كان يجمع فرق جميع البلاد المجاورة مع جنـــود دارفور والمضارف للقيام بالاستعراض العام وسط دق الطبول والنفخ فى الأبواق ٠ أما الصلاة في ذلك اليوم فكانت تقدم منه ومن جنوده الى الله الرحمن فى ساحة الاستعراض حيث يصلى عبد الله اماما بالجند وهو واقف فى غرفة مدببة الحواجز ــ كأنما هو فى محراب المسجد الكبير ــ وفى ذلك الحين يحيط به خارج غرفته كثير من ضباطه الاخصاء وبعض أعيان السودان المتمتعين بثقة الخليفة وحبه ٠ أما بقية الضباط والجند وعامة الجمهور فيوزعون أنفسهم فى صفوف متلاصقة فاذا ما تمت الصلاة صـــعد عبد الله الى منبر خشبى لالقـــاء خطبة يستظهرها بعد أن يقرأهـــا له من كتبها من السكرتيرين ٠ وفي نهاية الحفلة يطلق بعض الضباط رصـــاص بنادقهم سبع مرات ايذانا بانتهاء الاحتفال المقدس ٠ وعقب ذلك يتقدم واحد منهم لذبح خراف الضحية لارسالها الى السوق العام بواسطة الجنود وتوزيعها صــــدقة على الفقراء ٠ ولكننـــا لا ننسى ذكر ما كانت عليه شئون الدولة من الفقر والاضطراب بحيث لم يكن يتسنى ذبح العدد الكافى من الخراف لتقديمها للفقراء فكان ذلك داعيا الى استعاضة الفقراء عن لحم الخراف بقصاع الثريد ٠

اعتاد الخليفة تخصيص اليوم الأول من أيام العيد الأضحى لذلك الاستعراض المصحوب بتأدية فريضة الشكر المقدسة للعزة الالهية ازاء ما آسبغته على السودان من خير طول العام • ولم تكن تجرى فى ذلك اليوم أية معاملة رسمية • أما المقابلات «التشريفات» فكانت فى الأيام الثلاثة التالية لليـــوم الأول حيث يسير الى دار خلافة عبد الله قبل مشرق الشمس فى كل يوم من الأيام الثلاثة أمراء أم درمان والجهات المجاورة حاملين راياتهم ومن خلفهم أتباعهم المتفائلون خيرا بالعيد فاذا جمع كل أمير أتباعه سار بهم الى الناحية المعدة له فى ساحة الاحتفال (وهى عبارة عن أرض رملية تتخللها أحجار صغيرة) ومن تلك الجهة كانوا يسيرون الى دار عبد الله الا اذا بدت الرغبة من الخليفة فى التوجه الى دار الاستعراض • حتى لا يتعب الأمراء وأتباعهم وصفوف الجند • وفى كل حال من تلك الأحوال يعيد الجنود السير الى حيث الخليفة لتقديم التحية للمهنئين بالعيد وهم فى سيرهم هذا يولون وجههم شطر المشرق •

أما يعقوب ابن الخليفة وصاحب أكبر مكانة فى السودان بعد أبيه فكان يحمل العلم الرئيسى وهو عبارة عن قطعة كبيرة منتظمة الشكل من القماش الأسود توضع مباشرة أمام الحاجز المدبب القوائم الذى اعتاد الخليفة الجلوس فيه فى ساحة الاستعراض • على أن الخط المستقيم الواصل بين العلم والحاجز يبلغ امتداده أربعمائة قدم • وبعد أن يتركز لواء يعقوب يضع الأمراء المختلفون على جانبيه راياتهم المميزة لقبائلهم وقد يكون أكبر بيرق ظاهـــر بعـــد لواء يعقوب بيرق الخليفة على وادهلو الذى يرتكز فى البقعة الشمالية من الميدان ممتازا بلونه الأخضر وبقيام بعض ألوية على جانبيه • هذا الى أن الناحيتين اليسرى واليمنى من مركز الجيش معـــدتان لطوائف خاصـــة ففى الأولى يتوزع راكبـــو الخيول والجمال وفى الثانية يقف ضاربو النار الذين يتكونون من بعض المجاهدين وأتباع

بعض الأمراء . على أن الخليفة لا يسمح مطلقا لضاربي النار أولئك بحمل بنادقهم الا في هذه الأيام الثلاثة من السنة .

لا تكاد الشمس تغرب في كل يوم من الأيام المذكورة المقدسة عند المسلمين حتى يخرج الخليفة عبد الله من تلك الغرفة المدببة القوائم فيركب جواده يحيط به ضباطه وحرسه الخاص . وفي هذه الأثناء يسـير الجيش بصفوفه الكاملة أمام الخليفة حيث يوزع الجبب والعمائم على المرضى عنهم من رجاله .

كان المتبع أن يمتطي الخليفة صهوة جواده في ذلك الميدان ولكنه في بعض الأوقات كان ينزع الى ركوب جمل خاص مزخرفة حمائله . وقد تخطى هذا التقليد مرة واحدة ـ على ما أذكر ـ في سني حكمه فركب عربة أسرها السودانيون في الخرطوم من حاكم عام سابق وبقيت بعد ذلك ملكا للمسلمين ومحفوظة في بيت المال . وبما أن ركوب هذه العربة كان أمرا شاذا غريبا فلنذكر طريقة مرور الخليفة بالناس وهو فيها فنقول : انها خرجت من بيت المال فكانت أعجوبة لناظريها من الدراويش وكان يجرها جوادان وتسير بخطى متئدة جدا . والداعي لذلك خوف الخليفة من انقلاب العربة في حالة عدو الجوادين وليس ذلك غريبا على من لم يعتد غير ركوب الخيل والجمال . ومهما يكن الأمر فان الخليفة لم يرتح الى فكرة ركوب العربة فارجعت الى بيت المال واستمر على عادته المألوفة في المواكب والرحلات وهي الخروج على ظهر الجواد مباشرة من المسجد الكبير الى الطريق القريبة حيث راية يعقوب السوداء فاذا ما وصل اليها تأمل فيها واظهر احترامه لمقامهـا . وبعد الانتهاء من تقديم التحية للراية اليعقوبية يولي عبد الله وجهـه شطر الحاجز المدبب القوائم حيث يجد الى جانبه مكانا مسقفا مصنوعا من سيقان الأشجار المتراصة بعضـها الى بعض المغطاة بحصائر النخيل فاذا ما انتهى

الى ذلك المكان نزل عن جواده واستند الى عنجريب حيث يحيط به القضاة والمقربون اليه .

اقتضت التقاليد الدينية في السودان أيام الأعياد الكبرى خروج الخليفة من داره الى الناحية الغربية من المدينة حتى يصل الى ثكنات جنوده ومن الأمور المقررة في مقابلات العيد وقوف الجنود حاملين دروعا مغطاة من الطرازين الأوربي والآسيوى وعلى رءوسهم خوذات ثقيلة وأغطية قطنية غريبة الشـــكل من مختلف الألوان وأعظم ما يميز هذه الأغطية لفائف مخصوصة شبيهة بالعمائم .

أما الخيول فمسرجة بأقمشة مبطنة وقد يكون هنـاك شبه بين تلك الأغطية المبطنة وبين ما كان يضعه الفرسان على خيولهم وقت المبارزة في العصور القديمة . ولا نكون مغالين اذا قلنا أن المتفرج يوم استعراض الجند على خيولهم يظن أنه في حفلة من حفلات القرون الوسطى أو ما قبلها .

عندما تنتهي « التشريفات » بنهاية اليوم الثالث من أيام العيد يعود الجنود مع ضباطهم الى ثكناتهم في البلاد المجاورة .

★★★

سأعرض على القراء الآن صـــورة موجزة للرأى والأغراض السياسية التى كان ينزع اليها الخليفة عبد الله . فأكرر ما قلته أكثر من مرة بأن المهدى عنـــدما أعلن نفسه هاديا للمسلمين فى السودان منح حق الخلافة بعده الى ثلاثة أشخاص فى السودان هم عبد الله وعلى وادحلو ومحمد شريف على أن يخلفه بعد موته أولهم ثم يعقبه الاثنان الآخران عبد الله بعد موته فى حالة بقائهما على قيد الحياة بعده .

نفذ القضاء في المهدي فتولى الخلافة بعد موته أول الثلاثة عبد الله ولكن الخليفة الجديد (عبد الله) لم يفتأ ــ من اللحظة التى تولى فيها الحكم ــ يدس للاثنين الآخرين باذلا جهده في تقوية نفوذه واعلاء كلمته وجعل الخلافة وراثية في أسرته فلم يرض ذلك النوريين من طبقة الاشراف الذين عدوا أنفسهم أكبر السودانيين قدرا وذلك راجع الى صلتهم بالمهدى • ومع ذلك قدموا التحية لعبد الله خوفا من السقوط الذى يصيبهم من جراء اشهار العداء للخليفة • الا أن عبد الله كان واقفا على حقيقة نيات منافسيه فضم الى حاشيته الكثير من قبائل السودانيين التابعين قليلا لعلى وادهلو ومحمد شريف حتى يعينوه باخلاص له على مصادمة منازعيه فى الخلافة •

ليس بدعا أن يشاهد السياسى كل ذلك الجزع من جانب عبد الله فانه غريب عن أم درمان ولم يكن فى حياته سوى رجل غامض الأسرار من قبيلة غربية واذن هو غريب جدا عن البلاد الداخلية وكان ــ بذكائه وبما يصل اليه من تقارير أتباعه ــ على ثقة أنه لن يستطيع الاستناد الى تأييد الجعليين والدنقليين وسكان الجزيرة وغيرهم من قبائل وادى النيل واذن اضطر لارسال مندوبين سريين الى القبائل الغربية فى الناحية الغربية ليغريهم بالحج الى قبر المهدى والمهاجرة الى وادى النيل •

سعى مندوبو عبد الله ورسله فى الجهات المجاورة لأم درمان سعيا حثيثا فى سبيل الوصول الى اغراء الناس بالمهاجرة الى قبر المهدى والبقاء فى الأرض التى تقل جثمانه فدعوا الناس الى التمتع بخيرات الأرض الجديدة التى ينزحون ليها ذاكرين لهم بأنهم عبيد الله المختارون وأنه من مصلحة أولئك المدعوين أن يذهبوا لامتلاك الأرض الجديدة التى يتمتع سكانها الأصليون بثروة كبرى من مال

وماشية وعبيد ، وقد ذهب المندوبون فى اغرائهم سكان الجهات المجاورة الى حد أن وعدوهم بامتلاك كل ما فى الأرض الجديدة ٠

اثر أولئك المندوبون بدعوتهم الحماسية تأثيرا منتجـــا فى نفوس السذج فرحل الكثيرون من أفراد القبائل المختلفة الى أم درمان وكانوا فى ذلك مدفوعين برغبة خالصة فى التمتع بالغنى الذى سمعوا عنه . الا أن عدد القادمين لم يكن كافيا لتعمير وانبـاء أم درمان فعمد الخليفة عبد الله الى اصدار الأوامر لاميرى دارفور وكردوفان حتى ينفذا أوامره بالقوة وتبعا لذلك تدفق سيل المهاجرين سواء أكانوا طائعين أم مرغمين وانتهى الأمر الى نقص عـددهم بعـد أن سمعوا الشيء الكثير عن الشدة التى يقاســيها من سبقوهم الى أم درمان ٠

كانت النتيجة المنطقية لذلك احاطة الخليفة بالجمع الغفير من قبائل الرحل الغربيين عنه وعن أتباعه على أن أولئك المهاجرين الجدد لم يألوا جهدا فى اقصاء أصحاب الحق الأصليين واعداد أنفسهم لأن يكونوا الأسياد المسموعة أوامرهم ٠

لم يمر زمن على أولئك المهاجرين لأم درمان حتى امتلأت بهم وظائف الحكومة الرئيسية وكان أصحاب القسم الأكبر من هذه الغنيمة رجال التعايشي ٠ وانك لتكاد ترى جميع الأمراء السابقين فى جهة مجهولة بحيث لم تسمع لأحدهم كلمة بعد ذلك وقد تستثنى من ذلك الحكم الأمير عثمان دجنة ٠ ويرجع ذلك الى أن قبائل العرب الشرقية التى يحكمها عثمان يتكلم أفرادها بلهجة لا يعرفها عرب القبائل الغربية ٠ وعلاوة على ذلك أصبح الكثيرون من أفراد تلك القبائل خاضعين للنفوذين المصرى والايطالى وليس من ســببه الى اتصال القلائل الباقين بعثمان دجنة سوى كونه واحدا منهم ٠

وعلى أية حال فان قبيلة التعايشى تمكنت من الحصول على السلطان والنفوذ الكاملين فى جميع الجهات التى يضرب رجالهم بأرجلهم فى أرضها • ولم يكن لهم غرض سوى ملء جيوبهم بالايراد الضئيل التى يحصل عليه السودان الفقير •

مما يذكر عن أوامر الخليفة عبد الله قبل عام ١٨٩٥ أنه أعطى تعليماته لأميرى دنقلة وبربر باضعاف نفوذ وقوة رجال مديريتيهما الى أقصى حدود الضعف فدعا ذلك الى تجريد السكان من أسلحتهم النارية وجمع ما لديهم من معدات القتال بحيث ينقص مقدار الموجود من تلك الأسلحة الى حد لا يخشى معه اى خطر •

لم يكتف الخليفة بذلك بل أصدر أمرا جديدا بالتشديد فى معامله رجال نوشكر وطوكر فاغرى المأمورين فى تشديدهم بحيث قتلوا كثيرين من الجعليين والدناقله ورحلوا اخــــرين الى دارفور والقلابات رغبة فى استئصالهم نهائيا فى تينك الناحيتين • واذن استطاع الخليفه اتقاء شر سكان تلك النواحي وضمن التغلب على اية قوة معارضة هناك •

تنطبق مثل هذه المعاملة على سكان الجزيرة الذين أقصوا بأمر الخليفة الى جهات نائية من السودان أو الذين اضطروا الى الحضور لام درمان هم وأفراد أسرهم حيث قاســـوا الأمرين من الاضطهاد والفاقة • ومما زاد فى أثقال كواهلهم صدور الأمر بتسليم مايزيد عن نصف محصول إراضيهم الزراعية التى كانت موزعة على عرب القبائل الغربية وما زال الخليفة مستمرا فى التضييق على أولئك حتى توصل عام ١٨٩٠ الى تفريق الأراضى على أقربائه وأصــحاب الحظوة عنده • وقد بلغ الضيق بأصحاب الأرض الأصليين حدا التزموا عنده حراثة الأرض وتفليحها لأسيادهم الجدد الذين وزعوا على أراضيهم كل ما يملكون من خدم وعبيد وماشية •

نجم عن ذلك التعسف اهمال أرض الجزيرة القابلة للانتاج الوافر فبعد أن كانت أوفر أرض السودان غلة وأكثرها سكانا تضاءل هذان الخيران وكان ذلك التضاؤل مصحوبا بهرج ومرج سادا جميع المناطق التى كان الخليفة مضطرا فيهـــا الى الانحياز لناحية الأهالى الذين عوملوا معاملة سيئة ونزل بهم العسف وحاق بهم الطغيان الى حد لا يكاد يصدقه العقل ٠

اكرر الآن ما قلته سابقا عن تفضيل افراد القبائل المنتمية الى الخليفة عبد الله عن جميع القبائل الأخرى فى جميع الأحوال والظروف فانهم لا يتمتعون بأسمى الوظائف الحكوميه والمراتب الشعبيه فحسب بل يتمتعون بما هو أسمى من ذلك ماديا فان القسم الأكبر من الأمـــوال والغنائم التى ترد الى بيت المال من مديريات دارفور والقلابات والرجاف يصل الى أيدى أولئك الافراد ولا يجد من يحاسبهم عليه ٠ ومن غريب أمر أولئك الطامعين أنهم ـ رغبة فى ملء جيوبهم بأكبر قيمة من المال ـ دعوا الخليفة الى فرض ضريبة خاصة على الخيول غير مبال بالشكوى العـــامة من جانب السكان الأصليين فلا ريب اذن فى حصول فرقته على نصيب الأسد من الغنيمة ٠

اشتهر الخليفة عبد الله أيام حكمه بتوسيع نفوذه بواسطة الدسائس وبث الفتن فلا يكاد يتصل به زعماء قبائل غريبة عنه حتى ينشر الفتنة بينهم ليقوى جانبه ويضعفهم ومن أمثلة ذلك أنه عند هزيمة وموت النجومى (الذى كان تابعا للخليفة الشريف الذى سحب منه عبد الله كل نفوذ على غيره من الأمراء) وضـــم عبد الله فلول الجيش المهزوم تحت قيادة الأمير يونس وبدلا من رجال الجيش المقتولين عين عبد الله أفرادا من الجعليين وزجـــال أم درمان حتى يكون واثقا من حصوله على نفوذ جديد ٠

وقد وضع الخليفة أولئك في بادىء الأمر تحت امرة مواطنهم بدوى واد العريق ولكن بدلا من ارسالهم الى دنقلة بعث بهم عبد الله الى القضارف ومما يذكر عن ســوء نية الخليفة عبد الله نحوهم أن عذرا قهريا منعهم عن الرحيل الى القضارف فى الميعاد المعين فاسرع (عبد الله) الى اتهامهم بالعصيان ثم أصدر أمره بنفى بدوى وستة من أمرائه الى الرجاف واحلال ستة آخرين بدلا منه تحت امرة حامد واد على ابن عم الخليفة .

خلق الانسان وفي طبيعته البشريه نزوع الى طلب الوفايه من القوى ورغبته فى التمنع بسند الاقوى فليس بدعا أن نرى حركه جديدة فى صفوف انباع الأمراء لأن آنترهم فضلوا السير تحت لواء الخليفة مباشرة أو تحت أسرة أخيه يعقوب حتى ان اشياع على وادهلو آنفسهم اسرعوا الى تنفيد هده الرغبه ويجمل بى فى هذا الصدد أن أذكر شيئا عن سعى حامد واد جار النبى الذى كان عاملا رئيسا فى هدم التباهين . كان حامد هذا منتميا لقبيلة حسابات التى يراسها على وادهلو وبما أن حامدا هذا كان على بينة مما يجرى وراغبا فى تنفيذ فكرة الاستناد الى ذراع الأقوى لم يال جهدا فى بث فكرة انضواء أتباعه تحت لواء يعقوب ولكنه (حامد) كان فى الوقت نفســـه قصير النظر غير مبال بما يجرى ازاء تصريحاته فأفضى برغبته الى أقرباء على وادهلو ولم يكتف بذلك بل تجاوزها الى التصريح فى اجتماع عام بأن الذىسيخلف الخليفة عبد الله بعد موته هو أخوه يعقوب أو ابنه الخليفة عثمان . فاذا ما استقر الأمر بين يدى يعقوب أو انتهت السطوة الى عثمان تلاشى نفوذ على وادهلو وأصبح رجلا عاديا لا شأن له .

عندما سمع الواقفون هذه التصريحات العلنية أجابه بعضهم بأن المبدى أوصى الخليفة عبد الله قبل موته (المهدى) بأن يخلفه

فى الحلافة على وادهلو فقال له حامد بأن الأحـــوال تغيرت وأن عبد الله من القوة بحيث لا يبالى بوصيه المهدى الذى سبقه ٠

لم يكد حامد يدلى اقواله هذه حتي أسرع بعض المتشـــائين بالنميمة الى تبليغ الحادث الى على وادهلو فاتهم الامير حامدا بتهمه التحريض وبث الفتنه وعندما قدم حامد الى القاضي وسمع الاخير شهادة الشهود لم يبق مجال للشك فى صحه ما ادلى به محبرو على فانتهى الحادث الى تأثيم حامد بتهمة الزندقه لأنه شك في قدسية أوامر المهدى وتعاليمه ومع أنه كان من المتوقع جدا أن يتدخل الخليفة عبد الله لنصرة حامد وتبرئة ساحته لم يستطع الخليفة اظهار تدخله علنا فان ذلك التدخل دليل قاطع على جلاء رغبة عبد الله فى حرمان على وادهلو من الخلافة بعده واثبات جديد لصحة ما قاله حامد ومع ذلك لم تكن الحقيقة خافية على الشعب السودانى عموما وسكان أم درمان خصوصا ٠

قضى الأمر وصدر حكم القضاة باعدام حامد ورغم كون عبد الله بذل أقصى ما فى وسعه لحمل على وادهلو على ارجاء ميعاد التنفيذ فان ذلك لم يخفف من غلواء على وشدة حنقه وقد عرف واد هلو أن تنفيذ الحكم فى حامد انتقام مباشر من الخليفة عبد الله ٠ واذن ظفر على واد هلو بتحقيق رغبته فنفذ حكم الاعدام فى حامد جار النبى علنا فى ميدان السوق الكبير بعد أن ألصقت به تهمة الزندقة والتحريض على الثورة ٠

لا ريب فى أن ذلك التنفيذ مؤلم جـدا للخليفة ولأخيـــه يعقوب وبما أن خروج الخليفة علنا على الحكم دليـــل على رفضـــه الأحـــكام التى ضـــد الزنادقة كان من المنتظر أن يحرض الخليفة

اتباعه سرا على اظهار سخطهم من ذلك الحكم القاسي وهذا وقع فعلا فقد وصلت الأوامر من يعقوب الى رجال جميع القبائل الخاضعة له وصدرت الأوامر من الخليفة الى اتباعه المقربين بان يظهروا جميعهم سخطهم العام وامتعاضهم من تنفيذ الحكم وسبيل اظهار ذلك الشعور هو الامتناع عن حضور التنفيذ .

كان الخليفة في اى نزاع قائم بينه وبين خصومه يعتمد أولا وأخيرا على جنوده فان أولئك كافون جدا لارغام أية قوة معارضة له في الداخل مهما كان شأنها سواء أكانت هذه القوة في أم درمان ذاتها أم في أية ناحية أخرى من الجهات المجاورة . واذن فهو السيد المتسلط صاحب القوة التي لا تنازع في داخل السودان . أما اذا خرج الأمر عن الدائرة الداخلية فهو عاجز عن صد جميع الغارات التي تبدو طلائعها من الخارج فان قواد جيشــــه ليسوا من القوة والدربة بحيث يستطيعون مهاجمة قوة خارجية هجوما يكفل لهم النصر على أعدائهم ، كما أن رجال جيشه ليسوا من الولاء والوفاء . في آخر سني حكمه ــ بما كان يعتقده الخليفة في أول أيامه ، ويرجع ذلك الى انطفاء جذوة الحماسة الشديدة الأولى وهم الى جانب ذلك على قليل من الثقة أو الايمان بالقضية التي يحاربون من أجلها ، وأخطر من هذا وذلك تسرب الشك الى رؤوس المحاربين في قدرة الخليفة وأتبـــاعه على مناوأة أية قوة خارجية ترمي الى احتلال الســـودان .

يرغب القراء بطبيعة الحال بعد أن اطلعوا على الكثير من تصرفات الخليفة الدينية والسياسية أن يقفوا على ما لديه من القوى الحربية ولئن كان من العسير ذكر تقدير دقيق عن رجال الحرب السودانيين ومعداتهم فلا مانع من نشر بيان تقريبي عن الموجود لدى أولئك المحاربين .

قبيل وأثناء عام ١٨٩٥ تنقسم النواحي السودانيه التي يشرف الخليفة الى أربعة أقسام رئيســية هي على التتابع ام درمان رجاف والسودان الغربي والسودان الشرقي وسنذكر فيما يلي المحاربين ومقدار معداتهم في كل من الأقسام المذكورة ٠

القسم الأول : يتولى امرة الجيش فيها (أم درمان) اميران عثمان شيخ الدين ويعقوب ، أما أولهما فيتكون جيشه من أحد ألف جندي من المشاة في أيديهم احدى عشرة ألف بندقية ولكل نية ماسورة ملساء ويتالف جيش الثاني (يعقوب) من أربعة آلاف المشاة وثلاثة آلاف وخمسمائة فارس وخمسة وأربعين ألف من لى الحــراب والرماح هذا الى أن مخزن هذا الأمير يحتوى على مدفعا وأربعة آلاف بندقية ٠ كما توجــد في مخازن جيش درمان ست آلاف بندقية ٠

القسم الثاني : أمير جيش الرجاف هو عرابي واد دفلة الذى مر يأمره أربعة آلاف وخمسمائة من حملة الحراب وألف وثمانمائة المشـــاة وتوجد في مخزن ثلاثة مدافع وألف وثمانمائة بندقيه ساء الماسورة ٠

القسم الثالث : ينقسم (الســودان الغــربي) الى الفاشر بيض وشاكا وبربر وأبي حمد وللجهات الثلاث الأولى أمير واحد مه محمود (يعينه اثنان من أتباعه) تحت امرته ستة آلاف من ساة مثالا وثلاثمائة وخمسون فارسا وألفان وخمسمائة من حملة اريق والرماح وفي مخزنه أربعة مدافع وست آلاف بندقيــة الناحية الرابعة (بربر) فتحت امرة زكي عثمان الذى يقود ا وستمائة من المشاة وخمسمائة فارس وألفا وثلاثمائة من حملة ماح وفي مخزنه ستة مدافع وألف وستمائة بندقية وبذلك ننتهى

الى الناحية الخامسة (أبو حمد) التي يقود جنودها الامير نور عنو وتحت ارشاد هذا الرئيس اربعمائة من المشاة ومائة فارس وسبعمائة من حاملي الرماح · وفي مخزنه أربعة مدافع واربعمائة بندقيـــة ·

القسم الرابع : ينقسم (السودان الشرقي) الى احنارااما والقضارف والفاشر واسوبرى والقلابات ودنقلة وسواردا ، وسنذكر محتوياتها تباعا تحت حروف أولية .

(أ) ينضوى جنود أضارايا تحت لواء الأمير عثمان دجنة الذى يقود أربعمائة وخمسين من المشاة وثلاثمائة وخمسين من الفرسان وألفا من حملة الرماح وفي مخزنه أربعمائة وخمسون بندقية من طراز الماسورة الواحدة الملساء ·

(ب) امير جيش القضارف هو أحمد فضيل الذى يصدر أوامره الى أربعة آلاف وخمسمائة من المشاة وستمائة فارس وألف من حاملي المزاريق والحراب وفي مخازنه أربعة مدافع وأربعة آلاف وخمسمائة بندقية ·

(ج) يتولى امرة الفاشر ـ الى جانب امارة القضـــارف ـ أحمد فضيل السابق ذكره ويتكون جيش هذا الأمير من ألف جندى من المشاة ومائتى فارس وخمسمائة من حاملي الحراب وفي مخزنه الف بندقية ·

(د) القائم بادارة شئون أسوبرى العسكرية هو الأمير حامد واد على وتحت ارشاده تسعمائة من المشاة ·

(هـ) الأمير في جيش القلابات هو عين نور (وهو أقل أمراء جنود السودان شأنا) الذى يأتمر بأمره خمسون من المشاة ومائتان من حملة الرماح والحراب • هذا الى أن البنادق التى في مخزنه خمسون بندقية لا غير •

(و) يقود جيش دنقلة الأمير يونس الدغيم ، ولهذا الامير ألفان وأربعمائة من المشاة وخمسمائة فارس وخمسة آلاف من حاملي الرماح وفي مخزنه ثمانية مدافع وألفان وأربعمائة بندقية .

(ز) آخر الأمراء السبعة للقسم الرابع هو ســـورادا وأمير الجيش هناك زعيم ســـوداني اسمه حموده تحت قيادته مائتـــان وخمسون من المشاة ومائة فارس وألف من حملة الرماح وفي مخزن الأمير مائتان وخمسون بندقية . وباحصاء ما تقدم احصاء عاما نجد الأقسام الأربعة متفرعة الى خمسة عشر معسكرا حربيا فيها اثنا عشر أميرا ومجموع الجنود المشاة في دوائر نفوذ الخليفة المذكورة آنفا أربعة وثلاثون ألفا وثلاثمائة وخمسون ومجموع الفرسان ستة آلاف وستمائة وعدد حاملي الرماح أربعة وستون ألفا والموجود من المدافع في المخازن خمسة وسبعون وعدد البنادق ألف وثلاثمائة وستون .

هذا هو مجموع ما في البيـــان ولكن في الحقيقة لا نجد من البنادق المذكورة أكثر من اثنتين وعشرين ألف بندقية صالحة للحرب (والبنادق المذكورة من طراز رمنجتن) أما الباقى فعبارة عن بنادق من ذات الماسورة أو الماسورتين وغير ذلك من النماذج القديمة غير المنتجة • ومهما يكن أمر الأسلحة النارية المذكورة فقد أصدر الأمراء أوامرهم بقطع أجزاء مختلفة الطول من أنابيب (مواسير) رمنجتن والغرض الرئيسى من ذلك تخفيف ثقل البندقية ولم يبال الجنود بما قد يلحق بالبنادق من الضرر في حالة ذلك القطع غير المنتظم •

ذكرنا في البيان السابق أن مجموع حاملي الحراب والرماح أربعة وستون ألفا ، وانه لمن الواجب علينا بعد ذلك أن نقول ان ربع أولئك - على أقل تقدير - طاعنون في السن أو صغيرو الأسنان أي أنهم في كلتا الحالتين غير صالحين لنزول المعركة نزولا يضمن لهم الفوز .

اما المدافع الخمسة والسبعون فتشتمل على ستة من طراز كروب ذات الفوهة الواسعة القطر (ولكن لا توجد جبخانة كافية للمدافع الستة السالفة الذكر) ثم ثمانية مدافع من أنواع ونماذج مختلفة ويتبقى بعد ذلك واحد وستون مدفعا نحاسية مختلفة الأشكال والأحجام على انها تعبأ جميعا بواسطة الفوهة ومن المعروف عن ذخيرة المدافع الأخيرة أنها تصنع في أم درمان بصفة خاصة وهذه (الذخيرة) من صنف رخيص غير فعال بحيث لا يبعد مدى طلقة المدفع عن ستمائة أو سبعمائة ياردة .

لنتأمل الآن قليلا في حدود نفوذ الخليفة وبعد ذلك نرى أن سلطان الدراويش امتد في السنوات القليلة الماضية (قبل عام ١٨٩٥) من وادي حلفا الى الجنوب الشرقي حيث أبو حمد ثم سار شرقا الى سواكن وما جاورها (بما في ذلك طوكر وضور بركه) واتجه بعد ذلك جنوبا (بما في ذلك كسلا والقلابات والانحدارات الجنوبية الشرقية لبني شانقول وجبال جوبى) ثم مال من تلك الناحية الى الجنوب الغربي مقابل النيل الأبيض (بما في ذلك فاشودة وبوهر والرجاف) .

امتدت ذلك النفوذ الدرويشي من الغرب في تجاه جنوبي غربي داخل الصحراء الليبية الجنوبية (بما في ذلك سليمة مديريات دنقلة وكردوفان ودارفور الى حدود وادای ثم سار جنوبا

مخترقا بحر العرب ومارا بدار رنجا (بما فى ذلك دار فرتيت وبحر الغزال وقسم من منطقة خط الاستواء ·

بعد أن انهزم النجومى اضطر اتباع المهدى الى الجلاء عن القسم الشمالى من مديرية دنقلة وأصبح مركز طليعة جيشهم الآن (عام ١٨٩٧) فى ناحية سواردا التى تبعد ثلاثة أيام ــ سيرا على الأقدام ــ عن دنقلة وانه ليجمل بنا أن نذكر خبر التجريدة التى تمكنت عام ١٨٩٦ من اخراج الدراويش من مديرية دنقلة وتأسيس حكومة ذات نفوذ مصرى ممتد جنوبا لغاية مروى ·

انتصر المصريون فى طوكر وهندوب فساعد ذلك القبائل الداخلية على استرجاع ما كان لها من مناطق فى الجهات المجاورة مباشرة لسواكن وطوكر ، كما انتهى لاستيلاء على كسلا الى امتلاك الايطاليين جميع الأقسام الواقعة شرقى كسلا · وازاء هذا وذاك أصبح نهر عطبرة حد الخليفة الشرقى فى أواخر القرن التاسع عشر ·

حدث تغيير ظاهر فى مراكز الجنود فانتقلت القوة الرئيسية التى كانت معسكرة فى القلابات تحت امرة أحمد فضيل الى جهة القضارف ولم تبق فى ثكنة القلابات سوى قوة ضئيلة · وقد انتهز رؤساء مناطق بنى شانقول وطور الغورى ثم كثيرون من مشايخ الجهات القريبة هذه الفرصة فأعلنوا استقلال مناطقهم وسرت العدوى الى الناحية الغربية القاصية ، فبعد أن اعتاد رجال قبائل مسالت وناما وبنى حسين وجمر دفع الضرائب ثاروا على حكومة المهدى ، وأخيرا أعلنوا استقلالهم واشتركوا عقب ذلك فى محالفة دفاعية هجومية مع يوسف سلطان واداى ، فاعتزم الخليفة عبد الله ارسال مندوبين لاحضار أولئك العصاة واجبارهم على تقديم الطاعة والولاء له ، ولكنه عدل عن ذلك بعدما ظهر النفوذ الأوربى الجديد

في بحر الغزال ووقف بخاتم موسى أحمد فواد عبد الله في دائرة نفوذه دون تمكن من التقدم .

اكتفى عبد الله باصدار تعليماته الى خاتم - بعد أفول نجم الدراويش - بعدم التقدم الى الجنوب قبل وصول مدد جديد له من أم درمان .

الفصل السادس عشر

ملاحظـات متنوعة

أشرت فى الفصل السابق اشارة عامة الى موقف الخليفة عبد الله من القضاء والقضاة والآن أفصل قليلا ما أجملته فأقول : ان القضاة هناك آلات صماء فى يدى سيدهم الماكر النبيه فلم يكن الخليفة يسمح لهم بالفصل فى القضايا الكبرى وكل ما يمكنهم من بحثه هو ما يختص بالمنازعات العائلية وقضايا الارث وتوزيع الأملاك وما شابه ذلك ، وعلى أية حال فهم فى جميع أحكامهم الكبرى فى القضايا المهمة كانوا ملزمين بالرجوع الى الخليفة قبل اصـــدار الحكم النهائى ولا حاجة بنا الى القول بأن الخليفة كان فى كل ما يدلى به من آراء الى أولئك القضاة لا ينظر الى شيء خلاف مصالحه الشخصية وأهوائه وأغراضه ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يجتهد — بما أوتيه من حنق ودهاء — من الظهور أمام الشعب بمظهر المدافع عن الحق والراغب فى اتباع نصوص القانون ، واذن فالقضاة أمام مهمة شاقة جدا فهم من ناحية مضطرون الى ارضاء أهواء الخليفة وتنفيذ أوامره التى لا تتفق — فى غالب الأحيان — مع العدالة فى شيء ومن الناحية الأخرى مضطرون الى صوغ أحكامهم فى قوالب قانونية تبعث الشعب على الاعتقاد فى تمسك الخليفة بالحق ومهما يكن الأمر فان تسعين فى المائة من أحكام أولئك القضاة لم تنطبق حتى على أبسط مبادىء العدالة . أما الدين فى السودان حسبما

ارشدنى الاختبار الى استنتاجه ـ فيتمشى على المبدأ القائل « الغاية تبرر الواسطة » ومما أذكره فى مدة اقامتى أن الدوائر الدينية كانت بين آن وآخر تصـــدر اعلانات ورســائل صغيرة تحض فيها المسلمين على التقيد بأوامر الدين وتأدية الواجبات الدينية ـ وفى مقدمتها الصلاة ـ على الوجه الأتم ثم الابتعاد عن جميع الملذات العالميـة والتوجه الى عالم الخير الأعلى ولم تكن الأوامر الدينيـة المذكورة مقصورة على السودان بل تعدته الى جميع نواحى أفريقيا وبلاد العرب وبورنو ودار فلاته ومكة والمدينة ٠

اعتبر الخليفة شخصه قدوة للمسلمين عموما فى السودان فكان ـ ما دام فى صحته الكاملة ـ يشهد الصلوات الخمس يوميا ليظهر أمام الناس متمسكا بأهداب الدين مع أنه فى الواقع كان أبعد المسلمين عن التمسك بأوامر الدين ، ففى جميع السنوات التى كنت فيها على اتصال وثيق جدا بالخليفة لم أشاهده على الاطلاق يصلى الى ربه فى داره الخاصة ، ولم أسمعه يكرر ـ ولو بصوت خافت ـ بعض التعاليم الدينية التى يعرفها المسلمون جميعا سواء أكانوا ممن يقرأون ويكتبون أم من الجاهلين ٠

لم يكن ادعاء عبد الله التقــوى من الاحــكام بحيث يصــدقه البعيدون لأنه رغم ظهوره بالتقى كان لا يتردد فى اصــدار أمره بالغاء حفلة دينية وعدم تأدية فرض مذكور اذا كان فى تأدية الفرض ما يحول دون تحقيق غرض أو طمع من أطماعه الشخصية ، وهنا نعود فنقول ان الخليفة كان يتذرع فى مثل هذه التعديات بالقضاة حتى يجيء الالغاء من الجانب القانونى ، وفى ذلك الموقف الحرج لا يتردد القضاة فى اعلان أن ذلك الالغاء لازم فى سبيل الاحتفاظ بالدين فى حالة خاصة فاذا ما صدرت تلك الفتوى ارتاح الخليفة واطمأن ، الا أن القضاة فى بعض الاحايين يقفون من أطماع الخليفة أمام حالات لا يستطيعون معها بحال من الأحوال أن يصدروا أمر

الالغاءواذن فيضطرون الى التمويه فيدعون بأن الالهام الدينى أمرهم بالقيام بهذا العمل الشاذ لحكمة قد تغيب عن أذهان البشر •

اعتاد الخليفة عبد الله مخاطبة أتباعه من منصة المنبر فى المسجد الكبير ولكن بما أن عبد الله يجهل الفقه الدينى الاسلامى ويعرف الشيء القليل من قواعد الدين وأصوله فان مدى خطبه الدينية محدودة ، وبمعنى آخر لا يتعدى تلاوة جمل كتبها له أحد سكرتيريه •

ألغى عبد الله الحج الى مكة واستعوض عنها بدعوة المسلمين الى الحج لقبر المهدى ممتل النبى الكبير وأنا على الرغم من مشاهدة كراهيـة السودانيين لهذه البـدعة الجديدة نراهم مضطرين الى الخضوع لأمر عبد الله ومازال أولئك السودانيون على نظامهم الجديد حتى أصبحوا الآن (عام ١٨٩٧) ساعين من غير قصد الى تحقيق رغبة عبد الله راغبين فى الحج دائما الى قبر المهدى وقد ذهب بهم حبهم فى التقليـد الجديد الى حـد أنهم يسخرون ممن لا يوافقهم فى طريقة الحج هذه • وانه لمن النزاهة والعدل أن نقول بأن السودانيين فى تشبثهم هذا لا يعبرون عن عقيدة ثابتة بل يرمون الى تحقيق رغبة مولاهم عبد الله •

أما فيما يختص بالتعليم والأوامر الدينية فمن الحق أن نقول انها فى حيز العدم من الوجهة العلمية الواقعية ، وكل ما فى الأمر أن بعض الأولاد والبنات يتلقون معا آيات قرآنية وبعض جمل من الحديث المقدس لدى المسلمين ويكون ذلك الالقاء بواسطة شيوخ دينيين فى معاهد صغيرة مجاورة للمسجد ، ولئن قلنا ان الشيوخ يلقون الآيات على أولئك الصغار فانا لا ننسى بأن نذكر الى جانب ذلك أن الذى يحفظ من الآيات قسما صغيرا والمتبع فى زمن الخليفة عبد الله أن يرسل عدد قليل من أولئك الأولاد الى بيت المال بعد

اتمام دراستهم الأولية فى المساجد فاذا ما ساروا الى ذلك البيت أصبحوا تلاميذ تحت التمرين لموظفى الحكومة الأقدمين وهنـاك يتعلمون مقدارا محدودا من المراسلات الكتابية العامة ٠

نتدرج الآن الى التجارة فى السودان فنقول بأن ذلك العهد الذى كان زاهرا والذى امتدت فيه الطرق التجارية فى السودان قد اضمحل فأصبحت الطرق ـ التى كانت تجتازها القوافل الكثيرة العدد ـ شبيهة بالصحراء المقفرة حيث محت الرمال المكومة معالمها أو حلت بقايا جذور النبات فى بعض نواحيها ٠ وفى صدد ما نذكره يحسن بنا أن نضع بيانا للطرق التجارية الرئيسية الأربع ٠

أولا ـ الطريق الأربعينيـة من دارفور الى أسـيوط أو من كردوفان عن طريق بيوضة الصحراوية الى دنقلة ووادى حلفا ٠

ثانيا ـ الطريق من الخرطوم الى أسوان من ناحية بربر الى كروسكو عن طريق أبى حمد ٠

ثالثا ـ الطريق من الخرطـوم الى سـواكن من ناحية بربر أو كسـلا ٠

رابعا ـ الطريق من القلابات للقضارف فكسـلا فمصوع ٠ الطريق الحالية (عام ١٨٩٧) التى تجتازها جمال القوافل فمن بربر الى أسوان وسواكن ٠

بعد أن تم الاستيلاء على الخرطوم جلب التجار السودانيون الى أسوان مقادير كبرى من الحلى الذهبية والفضية وما زال التجار فى عملية النهب والتصدير الى جهات خارجة من السودان حتى اضطر الخليفة الى اصدار أوامره المشددة للتجار بعدم حمل ذهب

أو فضة معهم الى مصر مهما كان يعوزهم الانفاق وكل ما سمح به الخليفة لأولئك التجار الخارجين عن السودان هو مقدار من المال يعينه بيت المال حتى لا تضيع حلى الشعب السودانى وكنوزه فى سبيل انفاق غير مشروع فى نظر الخليفة • ولم يكتف عبد الله بتحديد مقدار ما يأخذه التجار معهم بأمر بيت المال بل جعل العمله التى يحملونها من الطراز القديم على أن تحدد قيمتها فى جواز سفر التـاجر •

أدت القيود والتشديدات التى أجراها الخليفة عبد الله مع التجار الى تضـاؤل شـأن التجارة بين السودانيين ولكن ذلك لم يستمر طويلا فانتعشت التجارة ونهضت بعد كسادها فعادت الى السودان حياته بتبادل أصناف تجارته الرئيسية كالصمغ وريش النعام والتمر الهندى وأوراق نبات الســـنامكى وما شاكل ذلك ، وقد كانت العـادة المتبعـة فى هذا التبـادل التجارى جمع هذه الأصناف فى بيت المال الى جانب ما فيه من العاج المخزون على إن تقدم جميعها للبيع فى سوق المزاد العلنى تبعا للسعر المحلى ولكن بما أن الأصناف المذكورة تستورد من جهات السودان الغربيـة التى أصابت أهلها الحروب الداخلية والفاقة والأمراض فمن المعقول فهمه أن مقدار المستورد يقل بقلة عدد السكان المنتجين •

لا شك فى أن الصمغ السودانى احتكار لسكانه ، وهذا الصنف يختلف فى أثمانه باختـلاف أنواعه المتعددة وانما نذكر ذلك لندل به على فائـدته فى المبـادلة علما بأن التبـادل التجارى بين مصر والسودان لا يتم بالمال بل بالبضائع والذى نعرفه عن المصريين أنهم يقدمون بدل ما يأخذونه من السودان بضـائع جـاهزة من مانشستر لأن الحاجة اليها فى السودان كبيرة جدا •

فى حال التعامل بالنقد فى السودان يشترى بيت المال أى صنف تجارى بعشرين ريالا من العملة الجديدة مثلا فيبيعه للشارى

السوداني بثلاثين ريالا حتى يبقى المكسب في بيت المال وعندما تتم المبايعة بين الطرفين الرسمي والشعبي في السودان يسمح رجال الخليفة لأولئك التجار السودانيين بالسفر الى مصر لبيع تجارتهم وقبل سفرهم توضع بضائعهم في موازين الشحن لتقدير ثقلها بالضبط وفرض ضريبة خاصة عليها بعد ذلك هي في الغالب ريال على ما زنته قنطار ؛ فاذا رغب التاجر شحن تجارته الى سواكن أو أسوان اضطر الى دفع ريال آخر على كل مائة رطل ولكن الريال في هذه الدفعة يكون من العملة الجديدة ، واذن قد أصبحت الضريبة الاضافية سدس الثمن الأصلي .

يرد العاج الى السودان من أقاليم خط الاستواء بكميات كبرى مرة واحدة كل عام وفي الغالب تمر تجارته بسواكن وبما أن المناطق المذكورة خارجة أو تخرج تباعا عن دوائر نفوذ المهدي فقد كان من الظاهر جدا لدى عبد الله أن الكميات المذكورة تتناقص في السنوات التي تعقبه .

أما ناب الفيل فلم تكن الدوائر الحكومية لتظفر به كثيرا لأن الوارد منه قليل يجلبه بيت المال من مناطق دارفور الجنوبية ومن الحق أن نقول بأن الدراويش ما لم يعودوا الى احتلال بحر الغزال بالقوة مرة أخرى ـ لا يستطيعون الاحتفاظ بتجارة العاج احتفاظا يضمن لهم مقدارا مذكورا من الشراء .

لا يستطيع السودان جلب البضائع من مصر الا عن طريقين هما أسوان وسواكن ، وقد كانت الحكومة السودانية فيما سبق تجلب مقدارا من تجارتها القادمة من مصر أو ما جاورها عن طريق سواكن الى كسلا أو من كسلا الى مصوع . ولكن حال دون استعمال ذينك الطريقين احتلال السودان الشرقي بواسطة الايطاليين فليست البضائع المستوردة سوى أصناف من قيمة مالية طفيفة

وتتكون فى غالبيتها من مواد خاصة بجلابيب النساء وجبب الرجال ومهما يكن الأمر فان ذلك شيء غير جوهرى لدى سكان السودان الذين اعتادوا التعلق بكل ما له رونق خارجى زاه وما فيه التزاويق الكثيرة بغض النظر عن تناسب ذلك مع الذوق السليم وبدون اهتمام بالقماش المتين • وفى الحق يكاد يكون من العسير جدا أو من المستحيل وجود مشترين من طبقة عالية أو متوسطة فى نواحى السودان •

بين الأصناف المستوردة الى السودان الروائح العطرية من جميع الأصناف كزيت خشب الصندل والقرنفل والحبوب ذوات الرائحة الطيبة والسبب فى استيراد ذلك النوع التجارى بكثرة هو استحسان السودانيات اياه ولئن كنا أشرنا أخيرا الى عدم رواج البضائع الغالية القيمة بين أهل السودان فان ذلك لا يمنعنا من القول أن السكر والارز والأنواع العادية من الحلوى والفواكه المجففة تجد جميعها شارين بين أكثر السودانيات ثراء وقد يجمل بنا أن نذكر فى صدد التجارة أوامر الحكومة المصرية سابقا بمنع الحديد والقصدير والنحاس بنوعيه الأصفر والأحمر من دخول السودان حتى أصبح عسيرا على الأوربى فى عام ١٨٩٧ أن يحصل على مقص أو موسى لحلق الذقن وقد كان من جراء هذا المنع ارتفاع أسعار أوانى الطبخ النحاسية الى حد كبير من الغلاء لأنه علاوة على منع التصدير استولت الثكنات العسكرية على النحاس القديم القابل للتصليح فاستخدمته فى صنع الخراطيش للبنادق • واذن اضطر السودانيون المعوزون الى الاستعاضة عن الأوانى النحاسية بأوان خزفية فى تحضير الطعام •

كان مفروضا على صاحب كل تجارة واردة للسودان أن يدفع ضريبة عبارة عن عشر قيمة الوارد وقد ألزمت الحكومة أصحاب التجارة المستوردة بدفع الضريبة اما نقدا واما بضاعة مبادلة وقد

كانت الضريبة تؤخذ أكثر من مرة على طول طريق القافلة . فاذا ما وصلت التجارة الى أم درمان أخذت الى بيت المال ووضع عليها ختم الحكومة ومن ذلك الوقت تجبى الحكومة عشرا جديدا . واذن وقف التجار أمام ضرائب ثقيلة متعددة كما التزموا تقديم ما يشبه الرشوة الى رؤساء أماكن الحكومة السودانية التجارية فى المحطات المختلفة أى أن التاجر كان يدفع من جديد ما يقرب من نصف ثمن البضاعة الذى دفعه أولا للبائع . وهم ازاء ذلك مجبورون على رفع قيم البضائع وعلى الرغم من ذلك كله تجد مكاسبهم فى النهاية قليلة بالنسبة لغيرهم من التجار فى مختلف الجهات المجاورة للسودان .

ان كثيرين من التجار الأغنياء فى السودان نزحوا الى مصر وغرضهم الأول ليس جلب التجارة منها أو بيع تجارة لها ولكنهم رموا قبل كل اعتبار آخر الى التخلص من جو السودان بضعة شهور يكونون فيها بعيدين عن سلطان الخليفة الشديد فان كل الذين قاسوا الأمرين من ظلم هذا الحاكم لم يجدوا وسيلة للحصول على جواز يهربون به من السودان سوى التجارة فلم يكن مسموحا للحكومة السودانية أن تعترض أى راغب فى بيع أو جلب تجارة للخارج أو منه .

كان الكثيرون من التجار مقيدين بأسرهم وزوجاتهم وبنيهم ولا يخالجنى أى شك أو ريبة فى أنهم لو كانوا خالصين من تلك القيود لما رجعوا مطلقا الى السودان ولفضلوا العيش فى مكان هادىء كمصر — خارج وطنهم الأصلى — عن البقاء تحت نير العسف الشديد والاستبداد المطلق فى السودان .

لئن أصيبت التجارة بكساد عظيم فى السودان فثم تجارة لقيت الرواج الكبير والتأييد الكلى من جانب المهدى والخليفة

عبد الله ، وأعنى بذلك تجارة الرقيق وبما أن تصدير العبيد الى مصر لبيعهم أصبح أمرا محظورا ومعاقبا عليه فالخليفة بطبيعة الحال معنى بتوسع تلك التجارة فى جميع المديريات والنواحى الداخلية فى دائرة نفوذه • ولم يغب عن خاطر الخليفة بعد منع تصدير العبيد ـ أن يحول دون استئثار مشيريه بالأمر على حسابه •

كان من المستحيل بطبيعة الحال ـ رغم صدور الأوامر المشددة من حكومة مصر بمنع تصدير الرقيق ـ أن يحول الخليفة عبد الله دون تجارة الرقيق فى مصر وبلاد العرب ولكن القوافل التى كانت فيما مضى تقل المقادير الوافرة من عبيد السودان قد وقفت وقوفاً يكاد يكون كليـا •

كان فى السـنوات التى بين ١٨٩٠ و ١٨٩٧ يرسل العدد الكبير من عبيد الحبشة بواسطة أبى النجا ومن فاشودة بواسطة زكى طومال ومثل ذينك المقدارين كان يرسله عثمان واد آدم من دارفور وجبال النوبة وكان أولئك المرسلون الى السودان يباعون علنا فى سوق المزاد العلنى على أن تودع أثمانهم فى بيت المال أو فى خزانة الخليفة الخاصة • وبمثل الشدة والقسوة التى كان يعامل أولئك الرقيق أثنـاء شرائهم كانوا يعاملون وقت تسـفيرهم الى الجهات •

عرف الجميع عن أبى النجا أنه استولى فى بلاد الحبشة على الآلاف من المسيحيين لبيعهم فى سوق الرقيق فى السودان وكان أغلب أولئك من النسـاء والأولاد وقد بلغت القسـوة بأبى النجا ورجاله مبلغا دعتهم لسوق أولئك بالسياط أثناء مسيرهـم على الأقدام من بلاد الحبشـة الى أم درمان فاذا ما عرفنـا أنهم كانوا يؤخذون قهرا من عائلاتهم ويحرمون من الطعام الكافى لسد رمقهم فى هذه المسافة الطويلة ويسيرون على أقدامهم العارية عرفنا أنهم

كانوا اشبه بقطيع من الاغنام فليس بدعا أن يعرف القراء أن العدد الاكبر من اولئك العبيد كانوا يلهكون جوعا أو مرضا قبل الوصول الى أم درمان وان الباقين منهم ـ أثناء وصـــول أبى النجا بهم الى أم درمان ـ كانوا فى حالة سيئة ضعيفة يتعذر معها وجود الشارين وازاء ذلك كان الخليفة فى كثير من الأحيان يتبرع بعدد من أولئك العبيد لبعض أخصائه ٠

بعد أن هزمت قبيلة الشلوك سعى زكى طومال فى الاستفادة من ضعف رجالها ونسائها فحمل العدد الكثير من صنادل ـ كانت معـــدة لنقـــل رجاله الحربيين ـ ونقلهم الى سـيدى عبد الله فى أم درمان ٠ وقد سمعنا فى تلك الأثناء الشىء الكثير عن اختناق المئات من جراء ازدحام الصنادل البحرية بهم فاذا ما وفق الباقون للحياة أخذ الخليفة بعض صغار السن منهم لضمهم الى حرسـه الخاص بصفة احتياطى ، أما النساء فكن يبعن مع الأولاد فى سوق المزاد العلنى الذى كان يستغرق عادة بضعة أيام فى أم درمان ٠

كان أولئك المنكودو الحظ يجلســون فى غالب الأحيان عراة خاوى البطون أمام ببت المال فاذا ما قدر لبعضهم أن يسدوا رمقهم أعطاهم عمال الخليفة أعوادا قليلة من الذرة دون تسوية ، فكان من الطبيعى أن يصاب المئات منهم بالمرض مما يعرضهم الى عدم عناية اسيادهم الشارين بهم وقت العرض ٠

فى كثير من الأحيان كان يبلغ الضجر والتعب بعشرات أولئك التعساء حدا يفضلون معه ألقاء أجسامهم فى ماء النيل حتى يريحوا أجسامهم العارية وبطونهم الخاوية من عذاب لا يعرفون مداه ، فكانوا يموتون هناك وبما أنه لم يوجد من يعنى باخراج جثثهم فان النتيجة المنطقيـــة هى اكتســـاح الجثث بقوة التيار الى الشـــاطىء ٠ فاذا

ما ظهرت جثه الفيت خارج الشـاطىء مما يدعو الى نشر رائحة كريهة فى الجهات المجاورة ٠

هذا فيما يختص بالفريبين من شاطىء النيل أما الذين كتب عليهم الشقاء الأكبر فكانوا يدفعون فى الصحراء ٠ حيث لا ماء ولا زرع ٠ على طول الطريق بين دارفور وأم درمان وقد كان أولئك البائسون تحت امرة رجال غلاظ القلوب يدفعونهم الى أم درمان نهارا وليلا دون المن عليهم بشىء ولو قليلا جدا ٠ من الراحة ٠ وقد أكون عاجزا الآن عن وصف ما يرتكبه أولئك الرجال المتوحشون المفترسون أثناء سيرهم بالنساء الى سوق العبيد فى أم درمان ٠

كان من عادة أولئك المتوحشين الهمج أن يقطعوا آذان من يعجز من الأولاد أو الرجال أو النساء عن السير الى أم درمان ٠ بمناسبة ما نزل بهم من الكلال ٠ ليقدموا الآذان المقطوعة للخليفة علامة على مقدار من ماتوا من سباياهم وسط الطريق وقد أخبرنى احد أصدقائى أنه شاهد فى مرة من المرات احدى النساء مقطوعه الأذنين ولكنها لم تكن قد فارقت الحياة بعد ، فدب دبيب الشفقة فى قلبه فأحضرها الى الفاشر وبعد أيام من الله عليها بالشفاء فى حين أن أذنيها قدمتا الى الخليفة دليلا على موتها ٠

وقف تيار القوافل المملوءة بالعبيد الى أم درمان لأن القسم الأكبر من الأجزاء الموردة للعبيد ٠ كدارفور ٠ قد هجرها ساكنوها وفى أحيان أخرى كان يقدم رجال القبائل ٠ كقبيلتى تاما ومسالت٠ فروض الخضوع الى الخليفة ليعفيها من خطر الأسر ٠ ومع ذلك استمر لغـاية عام ١٨٩٥[1] ورود الكثيرين من الرقيق الأسود من الرجاف الا أن بعد المسافة بينهما وبين أم درمان كان يحول دون وصول الكثيرين أحياء الى بيت المال ٠

اضطر الخليفة عام ١٨٩٦ - حيال نقص أو انعدام المأسورين من الرقيق الأسود فى القلابات وكردوفان ودارفور - الى اصدار أوامره للأمراء التابعين له ببيع ما يصل الى ايديهم من العبيد لزعماء القبائل المتجولين بحيث يضطر كل من أولئك الزعماء الى كتابة ورقة يذكر فيها اسم العبد ومقدار ما دفعه الأمير ثمنا له . وقد كان يسمح لهم الخليفة باعادة بيع من اشتروهم من العبيد بالطريقة ذاتها .

لا ريب فى أن بيع الرقيق فى أم درمان ذاتها يجرى يوميا ولكن من المحرم رسميا الآن (١٨٩٧) بيع رقيق الجهات والقوافل والسبب فى السماح ببيع النوع الأول هو اعتبارهم ملك الخليفة ونظرا له على أن جميعهم أو أغلبهم كانوا يعتبرون ضمن الجنود . واذا سلمنا بأن شخصا خارج أم درمان جلب معه سرا أحد العبيد السذج فقد كان من الميسور أن يبيعه بيعا اسميا لبيت المال على أن يورده الى صفوف الجند مقابل قيمة مالية لمن جلب العبيد وذلك فى حالة تمتع الرقيق بالصحة أما اذا كان الأخير غير لائق للخدمة فيبقى فى دائرة نفوذ سيده على أن يعمل فى أراضيه الخاصة .

أما فيما يختص ببيع النساء والأولاد فأمر مسموح به فى أية ناحية من نواحى السودان بشرط أن يمضى على ورقة البيع اثنان من الشهود ، ويحسن أن يكون أحد الاثنين قاضيا ، وفى تلك الورقة يقر الاثنان بأن المرأة التى بيعت حق مكتسب للسيد السودانى الذى اشترى والسبب فى تنفيذ ذلك العمل والسماح به هو أن كثيرا من العبيد كانوا يهربون من بيوت ساداتهم فيمسكهم آخرون ويبيعونهم لغير ساداتهم الأولين مما أدى الى انتشار فكرة سرقة العبيد فى أم درمان وكان أولئك العبيد فى كثير من الأحيان يؤخذون بواسطة أشخاص ظاهرين لضمهم الى منازلهم

أو كان يغريهم أولئك بترك الحقول والأراضى التى يعملون فيها وبعد ذلك كانوا يقيدون بالسلاسل لترحيلهم الى جهات نائية حيث يتم بيعهم بأثمان بخسة جدا .

تنص الشريعة الاسلامية على عدم الاعتراف بشهادة العبيد الذين تتم المساومة على بيعهم فى سوق الرقيق فكان أولئك البائسون واقفين على حقيقة حالتهم المزرية فاذا علمنا بأن بعضهم عوملوا من أسيادهم معاملة حسنة فان ذلك لم يكن ليرضى الرقيق على وجه عام .

أنشأ الخليفة فى أم درمان ذاتها فى ساحة فسيحة على مسافة قريبة من الجنوب الشرقى لبيت المال بيتا عاديا مبنيا بالطوب وتعرف الساحة المحيطة بهذا البيت بسوق الرقيق وقد كنت فى كثير من الأحيان أدعى بأنى أرغب فى شراء أو استبدال بعض الرقيق وبهذه الحجة وحدها كان يسمح لى الخليفة بالتوجه الى سوق الرقيق فسنحت لى بذلك فرص متعددة للوقوف بنفسى على كيفية اجراء عملية المساومة .

فى تلك السوق كان يقف الاختصاصيون بتلك التجارة لبيع ما لديهم من سلع بشرية بحيث يقف حول سور البيت الطينى عدد كبير من النساء والأولاد ويجلس البعض الآخر ، فهناك ترى العاجز والعارية والمزخرفة والمسرورة ، وبطبيعة الحال أسعد المذكورات حظا هن المحظيات اللاتى يبعن بثمن طيب ، وبما أن تجارة الرقيق أمر جائز ومشروع جدا فى السودان فمن حق الباعة والشارين أن يفحصوا رقيقهم فحصا دقيقا من هامة الرأس الى باطن القدم بدون أقل تقيد كما لو كان هذا الرقيق من طبقة الحيوانات الدنيئة .

فكان الشارى يفتح فم المرأة ليرى أسنانها وأضراسها ثم يأمر البائع برفع ما عليها من غطاء فى النصف الأعلى من جسمها ليفحصها الفحص الدقيق ويعنى فى ذلك عناية خاصة بتفحص ذراعيها وبعد ذلك يطلب الشارى من المبيعة أن تمشى الى الأمام أو الخلف بضع خطوات ليتعرف كيفية مشيها ثم تلقى بعض أسئلة من الشارين على النساء والأولاد للوقوف على مقدار ما يعلمونه ويعلمنه من اللغة العربية وفى الحق يظل كل من أفراد الرقيق خاضعا لرحمة الشارى كل ما يلقيه عليه من أسئلته •

ذكرنا قبلا أن بين الرقيق نسوة يسمين بالمحظيات فنعود الى القول بأن أثمانهن تختلف اختلافا كبيرا ، وهذا لا يمنع دخولهن فى دائرة الأسئلة العامة الموجهة للرقيق فان ذلك أمر عادى جدا ولم يكن يخطر فى بال واحدة منهن أن تعترض على طريقة البيع المذكور رغم ما فيها من شدة فى كثير من الأحيان • وكل ما فى الأمر أن بعض النساء أو البنات يشعرن بأنهن لدى أسعارهن فى كثير من الأحيان أفضل مركزا من الرقيق ، وبعبارة أخرى يجدن أنفسهن خادمات ، وقد يذهب بالواحدة حظها السعيد الى درجة تشعر معها أن مركزها لدى سـيدها كمركز أفراد الأسرة التى تخدمها بعد أن كانت فى حالة سيئة عند سيدها الأول الذى كان يعاملها معاملة وحشية قاسية • وبعد أن ينتهى الشارى من استقصاءاته يتساوم مع البائع فيسأله عن ثمنها ثم يردف هذا السؤال بالاستفسار عن امرأة أحسن من التى أمامه ليبيعها له ، وقد كان الشارى فى كثير من الأحايين يشكو للبائع عدم تمتع المبيعة له بجمال كاف وعدم ظهور مخايل الحسن على جسدها بوجه عام ، كما كان يشكو أحيانا من جهلها اللغة العربية جهلا تاما الى غير ذلك من الشكوى التى لم يكن يقصد منها سوى تخفيض ثمن السلعة الآدمية التى تباع له بينما ترى البائع من الناحية الأخرى باذلا أقصى ما فى وسعه لاظهار محاسن

تلك المرأة المنكودة الحظ والاطناب فى جمال أخلاقها مما لا داعى الى تفصيله فى هذا المقام •

هناك نقائص فى المرأة أو البنت أو الولد تضطر البائع الى تخفيض الثمن وفى مقـدمة النقائص المذكورة الغطيط والسرقـة والكذب ومهما يكن أمر البيع فالذى نعرفه أنه عند الانتهـاء من المساومة والوصول الى اتفاق يخرج البائع ورقة يوقع عليها هو والشارى الذى يدفع الثمن فى الساعة التى أصبح فيها سيدا للسـلع البشرية التى اشتراها وكان الدفع دائما بالعملة المحلية السـودانية (عملة الريالات الجديدة) ويمكن على وجـه الاجمال تقدير الثمن بما يأتى :

كان ثمن العبـد الشـامل الكبير السن يتراوح بين خمسين وثمانين ريالا وثمن المرأة المتوسطة العمر بين ثمانين ومائة وعشرين ريالا ، أما البنت ما بين الثامنة والحادية عشرة من عمرها فكان يقدر ثمنها تبعا لمنظرها وهو على وجه عام بين مائة وعشرة ريالات ومائة وستين ريالا • ويجدر بنا أن نشير الى أن الأثمان الأخيرة ذاتها تختلف باختلاف سعر السوق أو باختلاف الطلب لفئة خاصة من الرقيـق •

لا توجد من الوجهة العملية صناعات خاصة فى السودان ومع استثناء المواد التى ذكرتها فى الصحائف السابقة لا تجد بضائع مصدرة من السودان •

كان فيما مضى (قبل عام ١٨١٧) يرسل العمل المزركش بالذهب أو الفضة الى مصر ولكن بعد أن قل ورود ذينك المعدنين النفيسين ـ بتضاؤل الأيدى العاملة من الرقيق ـ وبعد أن أصدر المهدى أوامره المشددة ضد لبس الجواهر والحلى نقص أو وقف

التصدير للنواحي المجاورة عامة ولمصر خاصة • ومع ذلك لدى السودانيين تجارة رابحة في الحراب الطويلة والقصيرة والحدايد المستعملة لسروج الخيول والحمير والمدى القصيرة التي توضع على الإذرع • هذا الى ما اكتسبه السودانيون من بيع الآلات الزراعية • ولم يكتف السودانيون بذلك بل شتركوا في عمل السروج الخشبية للخيول والجمال والبغال وصنع (العنجريب) والصناديق الخشبية لشحن الملابس ثم اعداد الأبواب والشبابيك والغرف البسيطة •

كان السودانيون في السنين السابقة لانقضاء القرن التاسع عشر يعملون عملا جدياً في بناء المراكب ولكن حال دون الاستمرار في ذلك العمل المنتج تدخل الخليفة ومصادرتا جميع المراكب الموجودة في النيل ومع ذلك نهضت هذه الصناعة ، يلا عام ١٨٩٦ بعد أن أذن الخليفة بتسيير المراكب • ومهما يكن ا ُمر فان الرغبة في بناء السفن قد ضعفت ضعفا كبيرا بعد أن ف ض بيت المال الضرائب الثقيلة على كل مركب جديد •

من الصناعات التي عنى بها السودانيون عم الأحذية الصفراء والحمراء والسروج المختلفة الأنواع والأحجب ة الجلدية لصغار الأولاد والبنات وأعمال السيوف وقرابات المدى أ الكرابيج فتصنع بمقادير وافرة جدا من جلد فرس البحر •

علينا ألا ننسى زراعة القطن وتجارته في السنين الأخيرة في القرن التاسع عشر في السودان . فقد كان مصرحا لكل امرأة أو بنت أن تغزل لحسابها الخاص والى جانب هذا العمل الخاص وجدت في كل قرية أما ً صغيرة للغازلات اللاتي يقمن بمختلف أنواع النسيج • أما أرض ، جزيرة ففيها ناسجات وناسجون لأنواع مختلفة من الملابس القطنية الأثواب والدمور والجنجس التي يبلغ

طول كل قطعة جزئية منها عشر ياردات فاذا ما تم نسج الأقمشة المذكورة جلبها أصحاب المحال الصغيرة الى الأسواق بكميات كبيرة على أن يشتريها أفراد الطبقة العامية من رجال ونساء • ولا شك فى أن أعلى نوع من الغزل ينسج فى مديرية بربر ففى تلك الناحية تنسج النساء أغطية وجلاليب من الحرير الملون ويغزلن قطعا حريرية تستعمل كعمائم للأغنياء وبعض الأحزمة التى يلفها لابسو العمائم الأغنياء فوق كساواتهم الحريرية والقطنية ، وفى هذا الصدد نذكر الشيلان الحريرية التي تروج فى مختلف الأنحاء رواجا عظيما •

تقوم مديرية دنقله بمقدار كبير من نسيج القطن ولكن هذه الدائرة مشهورة شهرة خاصة بصنع أغطية المراكب وانه لواجب علينا في صدد تقرير الحق أن نشهد لرجال كردوفان بمتانة نسيجهم بغض النظر عن بعد ما يصنعونه عن الجمال فى المنظر •

الى جانب غزل القطن تجد النساء والبنات عملا آخر رابحا هو ضفر الحصر من جميع الأشكال والحجوم من أوراق شجر الدوم التى تباع بكثرة فى جميع نواحى السودان ولا مشاحة فى أن أمتن نوع من هذه الحصر هو الذى يضفر من الخيوط الضيقة من الأوراق المذكورة ومن قش الشعير والقطع الجلدية الرفيعة • ولا تستعمل الحصر المذكورة فى فرش الغرف فحسب بل تحت أطباق الأكل أيضا بحيث تكون الحصيرة فى السودان غطاء للمائدة بدلا من أغطية القماش المستعملة فى الغرب •

وقد تبلغ جودة عمل الحصر حدا ترسل معه مقادير كبيرة الى مصر كتحف وطرائف للأوروبيين الذين يقصدون القطر المصرى فى شهور الشتاء •

ان نساء دارفور على مهارة خاصة فى صنع الحصر المذكورة التى توضع بين ثناياها بعض الخرزات الزجاجية مما يؤدى الى اكتسابها رونقا جميلا جدا •

★★★

اجتهدت فى الصحائف السابقة أن أصور للقارىء حياة الخليفة العامة وشئون السودان فى عهده ولكن ذلك التصوير لا يأخذ شكله الدقيق بدون الاشارة الى حالة السودانيين الخلقية فاقول ان المهدى سعى جهده فى ترك التعاليم والعوائد الدينية الرئيسية وانشاء نظم دينية جديدة فبث أوامره فى صفوف الشعب ودعا ذلك بطبيعة الحال الى افساد الأخلاق لأن الناس اضطروا فى الظاهر الى مجاراة المهدى بينما هم فى الواقع متمسكون بتعاليم الدين الأصلية ، وفى هذا الاختلاف بين ما يعتقده المرء وما يدعى أمام الخليفة لاحترامه اغراء على الكذب ، وهذا الاغراء الجزئى ينتهى الى شر خلقى مستطير • وعلينا أن نذكر بان الناس خافوا بطش الخليفة من ناحية وتمسكوا بمصالحهم وشهواتهم من الناحية الأخرى فدعا ذلك الى فساد خلقى عظيم لا أستطيع وصفه للقراء • ومهما يكن الأمر فقد كان أغلب سكان السودان غير مرتاحين الى الحالة العامة فى السودان عامة وفى أم درمان ـ حيث يقيم عبد الله ـ خاصة لأنهم أشفقوا على حرياتهم الشخصية من تعسف رجال الخليفة عبد الله ففضلوا حينذاك الانصراف الى أهوائهم وملذاتهم والاسراف فيها بقدر ما تسمح لهم أجسامهم •

نستطرد الآن الى نقطة حيوية مهمة وهى عدم وجود حياة اجتماعية أو تبادل بين النفوس ، فكان الحل الوحيد الذى أجمع عليه السودانيون أمرهم هو الاغراق فى بحار الشهوات والميل الى حب النساء حبا بهيميا لا ينتهى عند حد ففكر حينئذ كل سودانى فى

الحصول على أقصى عدد من النساء كزوجات له الى جانب محظياته وسراريه فكان الخليفة – من هذه الناحية – مشجعا لرعاياه على السير فى طريق اللذة المفسدة ، ومن دلائل ذلك التشجيع أنه أمر بتخفيض مصاريف الزواج الرسمية تخفيضا ظاهرا ، فبعد أن كان صداق البنت عشرة ريالات أصبح خمسة وصار صداق الأرملة أقل من ذلك ومعه لباس عادى ورداءان وبعض روائح عطرية •

اذا رغب السودانى فى الاقتران ببنت وجب على والدهـا أو ولى أمرها أن يعلن مصادقته وفى العادة لا يحول دون هذا القبول سوى مانع قوى جدا • وعلى أية حال فالآباء وأولياء الأمور مسئولون دائما عن زواج بناتهم أو من يتولون رعايتهم بحيث يصبحن زوجات متى بلغن عمرا مناسبا •

ذكرنا قبلا اغراق السودانى فى لذته واذن فلا عجب أن نرى بأن حصول السودانى على أربع زوجات –وهو أقصى ما صرح به القرآن من عدد للزوج – أمر عادى جدا حتى أن السودانى فى ذلك الحين عد الحصول على الزوجة حصولا على متاع بسيط • هذا الى أن السودانيات كن يرغبن رغبة شديدة فى هذا الزواج ، اما للحصول على بعض ملابس وكمية صغيرة من المال • واما للرغبة فى نظام جديد من الحياة لم يكن يعرفنه فى منازل آبائهن وأولياء أمورهن وفى الوقت ذاتـه كن على علم بأنهن – تبعا لنصوص الشريعـة – يستطعن الانفصال عن أزواجهن بدون عناء كبير •

فى حالة الطلاق تستبقى السودانية صداقها الا فى حالة واحدة هى كراهيتها لزوجها فيتحتم اذ ذاك رد الصداق الى الزوج وقد عرفت فى بعض الأحيان أن الزوج كان يترك المهر لزوجتـه المطلقة بمحض اختياره ، وانى أقرر عن ثقة واطلاع أن من السودانيين من يتزوج فى بحر عشر سنوات بأربعين أو خمسين سودانية (مع

مراعاة أن هناك طلاقا مستمرا فى حياة مثل ذلك السودانى) كما أن من النساء من تزوجت فى هذه الفترة الخمسة عشر أو العشرين زوجا على أن قانون الزواج الاسلامى ينص على انقضاء فترة بين الطلاق والزواج الجديد لا تقل عن ثلاثة شهور • أما فيما يختص بالمحظيات فيبيح القانون السودانى الدينى تمتع السودانى بأى عدد يزيد منهن ، ولا ريب فى أن اباحة التمتع بالمحظيات أدت الى انتشار الفساد الخلقى مع انتشار الأمراض السارية الخطرة •

قلنا ان المحظيات السودانيات خطر على الأخلاق وجالبات للأمراض الخبيثة ، ولنفصل ذلك نقول أنهن لا يعشن جميعا فى المنزل الذى يعيش فيه سيدهن ما لم يكن الذلك السيد أولاد من احداهن فانها (المحظية) تضطر للبقاء فى منزل قانيها ولا يجوز مطلقا بيعها لآخر ، ولكنهن فى أغلب الأحيان يبعن لأسيادهن على أن يبقين فى حوزاتهم فترات قصيرة جدا على أن يبعن بعد ذلك لغيرهم بأرباح جديدة ولا ريب فى أن هذا الانتقال المستمر من بيت الى آخر يعرض الأخلاق والصحة لخطر جسيم والى جانب ذلك تذبل زهرة شباب المحظية وتضيع معالم جمالها ، فاذا أضفنا الى ذلك أن المحظية تباع لسيدها فى أول مرة وهى فى سن صغيرة عرفنا ما تقاسيه من الآلام الحقيقية التى لا تخفف منها لذة بهيمية غير منتجة •

من المعروف عن تجار الرقيق فى السودان أنهم فى سبيل الحصول على مكسب نقدى لا يبالون بما يصيب النساء والبنات من ضعف فى القوة وفساد فى الخلق وتعرض لأخبث الأمراض فكانوا يشترون البنات الصغيرات ويسمحون لهن بالحرية المطلقة فى اختيار المنزل الذى تعيش فيه البنت والحياة التى تحياها ولم يقف الفساد عند حد أولئك التجار بل تعداه الى الشارين أنفسهم

ففي كثير من الأحيان كانوا يسمحون للتجار ببيع محظياتهن لغيرهم على أن يتعاطى أولئك الأسياد مقدارا معينا من الربح الجديد .

لا ريب في أن شر ما ينتج من فساد خلقي تجده في دوائر الضباط السودانيين وجنودهم حيث يغرى أولئك الحربيون الكثيرات من النساء والبنات للعيش معهم في تكناتهم بصفتهن زوجات لهم فاذا ما دخلن الثكنات وأصبحن كالسلع يتبادلهن جميع الضباط بلا استثناء وبحرية مطلقة ولم يكن الخليفة عبد الله ضد هذه الفكرة الأخيرة ، بل على النقيض من ذلك كان يشجعها اعتقادا منه أن انهماك الضباط في اللذة وتماديهم في ارضاء شهواتهم يجعل مكانا للخليفة في نفوس ضباطه فوق كل مكانة ، وبذلك يضمن ولاء رجال الحرب له ورغبتهم في عدم ترك سيادته عليهم :

لا حاجة بنا الى القول بأن السماح بتلك الاباحة المنكرة قد أدى الى انتشار أخبث الأمراض بين جميع طبقات الأمة سواء في ذلك الأحرار والرقيق الرجال والنساء . فاذا ذكرنا حرارة السودان وأثرها السيء في أى مرض سارى خبيث استطعنا ادراك الانحطاط الخلقي الذي هوى اليه السودان في ذلك العهد . وعلينا ألا ننسى أن السودان كان محروما من جميع الأدوية التي تعالج تلك الأمراض مما أدى الى تعريض الصحة على وجه عام لخطر عظيم .

وجد في السودان في أوائل حكم الخليفة عبد الله قوم أمعنوا في ضروب الفساد وأطلقوا العنان لشهواتهم فعاقبهم الخليفة في مبدأ الأمر بنفيهم وتشريدهم الى الرجاف ، ولكنه عدل عن ذلك بعد قليل من الزمن وانتهى الى حل حاسم في نظره وهو ظهور سهولة كبرى — في معاملة شعب بعيد عن الأخلاق القويمة — في استعمال التعسف والشدة وصعوبة الجور مع شعب متمسك بأهداب الأخلاق القويمة وتبعا لذلك كان الخليفة عبد الله في آن واحد

يكره ويخشى الجعليين الذين سكنوا على شاطيء النيل بين حجر العسل وبربر لأن أولئك كانوا العرب الوحيدين فى السودان الذين مقتوا الفساد والرذائل الخبيثة واحتفظوا بالأسر الفاضلة البعيدة عن الشهوات الشائنة • كما اعتاد أولئك الجعليون النظر الى الأخلاق بصفتها حجر الزاوية فى بناء الحياة القومية والركن الأساسى فى تأسيس صحة قوية •

كان تشديد المهدى على نسائه (زوجاته) بالغا أقصى حد ولم يقف أمر صيانتهن عند حد الخوف من المهدى فى حياته بل تعداه الى الاحتفاظ بالشرف بعد مماته فكان محرما عليهن وهن أرامله (بعد وفاته) أن يسرن سيرة المحظيات وأن يعشن عيشة الفجور وقد ساعد عبد الله على ذلك فبلغ احترامه لذكرى المهدى حدا دفعه الى انشاء بيوت خاصة للأرامل المذكورات حيث تحيط بالمنازل أسوار مرتفعة على مقربة من ضريح المهدى وقد عين عبد الله على ذلك عددا من الخصيان لمراقبة الأرامل المذكورات آنفا •

شدد الخليفة على زوجات ومحظيات سلفه المهدى بعدم الزواج وسن قانونا حرم به عليهن أى زواج جديد ، فكان ذلك ضد رغبتهن ولم يكتف بذلك بل حرم البنات (وأغلبهن من بنات موظفى حكومته السابقين) من طلب الزواج بعد أن بقين فى منزله اعدادا لاقترانه بهن فى المستقبل • ومما يذكر عن عسف الخليفة عبد الله فى معاملتهن أنه لم يكن يسمح بمقابلة رجل اياهن حتى ولو كان من ذوى قرباهن ، وكل ما من به عليهن هو السماح لقريباتهن من النسوة بزيارتهن مرة واحدة فى السنة • ومع كل ذلك التقييد لم يكن يفسح عليهن فى العيش فكان يقدم لهن ما يكفيهن بالجهد من القوت واللباس فلا عجب اذا عرفنا أنهن كن يتطلعن دائما الى التحرير من ربق عبودية الخليفة •

أدرك عبد الله أن عسفه وجوره يؤديان بلا نزاع الى زيادة الحاقدين عليه والساعين الى الفتك به فكان تبعا لذلك كثير الخوف على حياته فطرد بعنف وقساوة جميع السكان النازلين فى منازل صغيرة مجاورة لبيته وأحل محلهم حرسه الخاص الذى استمر فى تنميته يوما بعد يوم • وبعد ذلك بنى سورا ضخما حول مسكنه والمساكن الصغيرة المجاورة وجمع اليها كل أقربائه على أنه عاد بعد ذلك فاظهر ريبة وخالجه الشك فى بعض أقربائه فآثر ابقاءهم خارج مسكنه المسور والعدم الظهور دفعة واحدة بهذا الشك جعلهم الى جانب منازل الحرس الخاص ورغم ذلك لم يكن الساكنون فى دائرة الخليفة على وفاق وفى ارتياح تام لأن أوامر عبد الله كانت شديدة على حرسه الخاص مما أدى الى تبرمهم واستيائهم الشديد كما أنهم تذمروا من مرتباتهم الضئيلة وشكوا لرؤسائهم مرارا من تضييق الخليفة على حريتهم الشخصية وكان عدد المحيطين بالخليفة بضعة آلاف ينتمى أغلبهم الى العرب الخلص ولم يكن مسموحا لهم على الاطلاق الاقتراب من ذويهم كما أن الخليفة حرمهم من ترك مساكنهم ولم يكن يصفح عن هفواتهم الصغيرة فكان ينزل بهم العقاب الصارم •

عنى عبد الله عناية خاصة بحياته وكان شديد الرغبة فى الاحتفاظ بها من عبث الحاقدين عليه فكان لا يخرج فى النهار أو الليل والا وفى معيته أفراد معينون من حرسه الخاص واثنان وثلاثة من خدمه الأمناء له ، وفيما عدا ذلك لم يكن يرافقه أى شخص آخر ـ حتى أقرب أقربائه ـ ولم يكن يسمح الخليفة لأحد ـ خلاف الحرس والخدم ـ بمرافقته •

كان من المقرر أن كل من يسمح الخليفة بمقابلته اياه يتجرد من سلاحه (الذى يحمله السودانى دائما) ثم يفتشه أحد رجال الحرس قبل دخوله الى غرف الاستقبال الرسمية ، فكان ذلك العمل

من جانب الخليفة دليلا على سوء ظنه في رعيته فاذا أضفنا الى ذلك كراهية الشعب له استطعنا بسهولة ادراك ما كان يتحدث به الناس عن ظلم الخليفة وتعسفه وعن مخاوفه الشديدة •

على الرغم من هذه الشدة النادرة وتلك القسوة المؤلمة لم يوفق الخليفة فى اكتسابت جانب أية قبيلة حتى أن أفراد قبيلته الخاصة فروا منه ، وهذه بطبيعة الحال نتيجة منطقية معقولة •

عند انتقال أفراد قبيلة عبد الله الى أم درمان بعد القـــاء مقاليد الخلافة اليه ـ مضوا فى الاعتداء على أصحاب الأرض فأخذوا غلالهم واغتصبوا نساءهم ونكلوا بأولاهم فاشتد الكرب اشتدادا اضطر الخليفة لاصدار أوامره بعدم خروج التعايشى من أم درمان الا باذن خاص ولكن أوامره تجوهلت ثم دب دبيب العصيان فى قلوب السكان حتى انتشرت فكرة التمرد انتشارا لم يكن معروفا من قبـل •

أما فيما يختص بأخلاق أولئك العرب فحميدة فى ذاتها ولكنهم فى الوقت نفسه بالغوا فى الكبرياء والاعجاب بأنفسهم فحسب ، وذلك راجع الى صلتهم وقرابتهم بالخليفة فكانوا يدعون دائما أنهم أسياد البلاد وأصحاب الشأن الأعلى فيها الشيء الذى سوأ صلتهم بالخليفة •

وقد انتهى بهم ذلك التعسف الى وضـع أياديهم على خيرات الأرض وغلالها وماشيتها وخيولها فكان هذا الاستئثار مدعاة الحسد فى القبائل الغربية السودانية حيث الأفراد الذين لم ينظروا الى التعايشى ورجاله نظره ود •

كل ذلك الاضطراب سبب من أهم الأسباب فى حذر الخليفة وخوفه مما يجرى حوله ، ولكنى لا أعتقد أنه على علم دقيق بمقدار كراهة الشعب اياه وحقده عليه وعلى أية حال فقد كان هم الخليفة

متجها الى ارضاء أمراء القبائل بارسال الهدايا المالية والعبيد سرا اليهم فى أوقات الليل من الأيام المختلفة • أما الأمراء فلم يكونوا يترددون فى قبول الهدايا المذكورة وهم على ثقة من أنها جمعت ظلما وعدوانا • وقد يكون من دواعى الاشفاق على الخليفة أنه لم يكن متمتعا بولاء الأمراء الحقيقى رغم ما يبعثه اليهم من الهدايا •

من أعجب ما يروى عن الخليفة عبد الله أنه لم يفارق أم درمان الى الضواحى مرة واحدة فى أكثر من عشر سنين ، لأنه كان يخشى ترك تلك العاصمة التى استجمع فيها كل ما لديه من قوة وذخيرة ووضع تحت رقابته فيها جميع الذين خاف شرهم بعد أن اضطرهم الى القيام بالصلوات الخمس يوميا فى حضوره وسماع خطبه الدينية •

صرح الخليفة بأن أم درمان هى مدينة المهدى المقدسة وقد يكون غريبا على القراء أن يسمعوا عن أم درمان قبل عام ١٨٩٠ بأنها كانت مدينة صغيرة ضئيلة الشأن يسكنها بعض قطاع الطرق وكل ما لها من شأن أنها واقعة تجاه الخرطوم • غريب عليهم أن يسمعوا ذلك فى الوقت الذى علت فيه كلمة هذه الجهة وأصبحت أضخم وأعظم شأنا من الخرطوم وقد سبقه اليها المهدى • فبعد أن كانت الأرض حقيرة غير منتظمة مدت اليها الأشجار الوارفة الظلال وأسس الجامع الكبير وبيوت الخليفة عبد الله والخليفتين محمد شريف وعلى واد هلو • أما عبد الله فقد وضع يده على جميع الأراضى الواقعة جنوبى المسجد ، وأما القسم الشمالى فاقتسمه الخليفتان محمد شريف وعلى واد هلو •

مما يذكر عن المهدى فى حياته أنه صرح علنا فى المسجد الكبير بأن أم درمان محلة وقتية لأن رؤيا النبى التى ظهرت له فى احدى الليالى أمرته بنقل الخلافة الى الشام بعد التغلب على مصر وبلاد

العرب ولكن موته المبكر قد شتت جميع مشاريعه وقضى على آماله وآمال أتباعه •

بعد أن نقلت العاصمة الى أم درمان تم تنظيمها وتخطيطها وقد بلغ طولها السطحى من الشمال الى الجنوب ما يقرب من ستة أميال انجليزية وقد أصبحت نهاية الحد الجنوبى مقابل الطرف الغربى للخرطوم •

اتجهت الرغبة من بادىء الأمر الى المسكنى على مقربة من شاطىء النيل أملا فى تسهيل الحصول على الماء الكافى ، فنجم عن تلك الرغبة ازدياد فى ناحية وقلة فى لناحية الأخرى فلم يبق مكان خال واحد فى مسافة ثلاثة أميال عرضا مع خلو أميال ممتدة طولا •

أنشئت فى بادىء الأمر فى تلك الناحية آلاف من الأكواخ المصنوعة من القش فلم يكن ظاهرا منها سوى المسجد الكبير الذى أحاط به حائط من الطين طوله أربعمائة وستون ياردة وعرضه ثلاثمائة وخمسون ياردة ولكن ذلك لم يرق فى عينى الخليفة فاستعاض عنه ببناء من الطوب المحروق الذى تم تبييضه بعد ذلك بمعرفة بنائين من العرب • وبعد ذلك أقام الخليفة لنفسه ولأخيه وأقربائه بيوتا من الطين ثم حذا الأمراء حذوهم وتبعهم فى ذلك أغنياء أم درمان •

ذكرت فى فصل سابق وصفا لضريح المهدى ولكننى لم أذكر أنى شاهدت ـ قبل مغادرتى الأخيرة لأم درمان ـ ضياع لون القشرة البيضاء التى على الضريح ولا بأس من العودة الى التفصيل فأقول بأن فوق قبة الضريح ثلاث كرات نحاسية فارغة الواحدة فوق الأخرى ويربط هذه الثلاث رمح مقوس فى آخره حلية رئيسية تزين الضريح • ومن أغرب ما سمعته من السودانيين أن الخليفة

وضع هذا الرمح حول الكرات الثلاث ليعلن استعداده لمحاربة الطبيعة اذا حدث ما يحول دون تحقيق رغباته •

كان عبد الله في كثير من الأحيان يقضي ساعات من النهار منفردا داخل ذلك الضريح (مزار المهدى) والمعروف أن غرضه الأساسى من ذلك هو تلقى الوحى الخاص منه ولكن قلت عنايته بهذه الزيارات الدينية بعد أن قتل الكثيرين من أقرباء المهدى وزعماء أتباعه ، وبطبيعة الحال كان من العسير بل من المريب أن ينقطع عبد الله هذا الانقطاع الفجائى فاضطر الى انتحال المعاذير وتبعا لذلك أوعز الى رجال حرسه الخاص أن يذيعوا بين الناس أن السبب الحقيقى لانقطاع عبد الله عن زيارة سيده المهدى هو خوفه من البقاء بمفرده داخل الضريح ، وقد كان منتظرا أن يرد بعضهم على ذلك بأن يستصحب الخليفة معه من يذهب عنه الفزع ولكن عبد الله لم يعجز عن الرد فكان يقول انه من غير المرغوب فيه أو من الأمور غير المسموح بها بقاء أى شخص خلاف الخليفة داخل ضريح المهدى •

هذا ما كان يعتذر به عبد الله الى الشعب السودانى فى حين أنه (عبد الله) خالف وصايا سيده المهدى لا بالقول فحسب بل بالفعل أيضـــا •

كان من المتبع فتح جميع الأبواب المؤدية الى الضريح يوم الجمعة للسماح للشعب بالحج الى ضريح المهدى ، وبما أن القانون الدينى كان يحتم على كل رجل من أتباع المهدى أن يردد صلوات الترحم على جثمان المهدى وروحه ، فقد كان من الميسور على المشاهد أن يرى الآلاف من الناس متفقين فى الغرض ومختلفين فى طريقة تلاوة الصلوات والأدعية ، ولم يكن قصدهم محصـورا فى الصلاة للمهدى ولكنه تعداه الى طلب الحماية والرحمة من الله الرحمن

بشفاء الشهيد (؟) الذى قد رقد فى قبره الأخير ، ولكننى فى الحقيقة كثير الريبة فى أن الصلوات المذكورة خارجة للترحم فانى أقرر — وفى قولى على ما أعتقد كثير من الحق ان لم يكن الصدق كله — أن أغلب الصلوات الصادرة من قلوب أولئك المتحمسين الى مقام العرش الالهى تتطلب من الله انقاذ الشعب السودانى من ظلم وعسف عبد الله المستبد النتن خلف ساكن الضريح الطيب فى نظر السودانيين •

يقع بيت الخليفة الرئيسى فى الناحية الجنوبية من الضريح وعلى اتصال بالمسجد الكبير ويحيط بهذا البناء الرئيسى حائط ضخم مبنى بالطوب الأحمر ومقسمة نواحيه الى مبان صغيرة متلاصقة وبطبيعة الحال أقرب المبانى الى المسجد هى التى يسكنها هو وأفراد بيته المقربون ، وفى الناحية الشرقية من مسكنه بيوت زوجاته وأماكن الخصيان ومخازنه الخاصة • ومما يسترعى الأنظار فى الجهة الشرقية من مسكنه المركزية للمسجد الكبير قيام باب خشبى ضخم (لا توجد أبوابه فى داخل المسجد من النواحى الثلاث الأخرى) يجتازه المسموح لهم بالوصول الى غرف الخليفة الخاصة ومكان الاستقبال الرسمى •

اذا ما رغب انسان فى اجتياز الممر الرئيسى كان عليه أن يمر بما يشبه الدهليز ومن ثم يسير الى ردهة صغيرة فيها غرفتان لا يوجد على جانب أيتهما ما يمنع من ظهور الناس للخليفة الذى يستقبل الناس فى هذه البقعة • يوجد فى الجهة الجنوبية من غرفة الاستقبال باب خاص يقفل بين تلك الغرفة وبين غرفة المخدع ولا يسمح لأحد باجتيازها سوى الشبان من حرس الخليفة •

. أما المساكن التى سبقت الاشارة اليها فمكونة على شكل قاعات متصلة بين كل واحدة والأخرى رواق صغير • وقد تمكن

الخليفة من انشاء دور ثان على سقف مجموعــة من تلك المساكن ووضــع فى ذلك الدور المبنى على الطراز الجديد (عام ١٨٩٥) منافذ يتمكن الناظر من احداها من مشاهدة منظر عام واضح لأم درمان ٠

امتازت غرف استقبال الخليفة بالبساطة الكلية والبعد عن الزخرفة وكل ما فى الغرف من زينة هو أعمدة العنجريب الممتدة فى كل غرفة وعلى الواحد منها حصيرة من أوراق النخيل أما غرف الخليفة فمزخرفة بكل ما يستطيع الحصول عليه من زينة وتزويق فى السودان ٠ ففى كل الغرف الداخلية أسرة نحاسية وحديدية تعلوها ناموسيات (للوقاية من الناموس الذى يعد نكبة السودان وبلاءه) كما أن أراضى الغرف مفروشة بالسجاجيد وفوق المراتب النظيفة أغطية حريرية ووسائد موشاة أطرافها بالحرير الخالص وفوق الأبواب والنوافذ ستائر من الألوان والأنسجة ولا ريب فى أن ذلك أقصى ما يطمع اليه الخليفة من زخرف وأبهة فى السودان اما الأروقة فممتلئة بالحصر المصنوعة من أوراق شــجر الدوم ثم بمقاعد العنجريب ٠ فاذا قارنا ذلك بما كان عليه الخليفة عبد الله فى أول سنى حياته الرسمية وجدنا أنه شديد الميل الى الزخرفة ما استطاع الى ذلك سبيلا ٠

تكلمنا كثيرا عن بيت الخليفة ومساكن رجاله والمقربين اليه والآن نذكر شـيئا موجزا عن بيت ابنــه عثمان فنقول انه يقع فى الناحية الشرقية من تلك المساكن ويكاد يكون هذا البيت مفروشا بالفراش والأثاث الموجود فى منزل أبيه ولا نغالى اذا قلنا أنه أفخم وأكثر نزوعا الى الثروة من مسكن أبيه ٠ فقد يمتاز هذا البيت عن بيت الخليفة بالنجفات النحاسية المدلاة من سقوف الغرف والتى أحضرها عثمان خصيصا من الخرطوم ٠ هذا الى أن بيت عثمان واقع وسط حديقة كبيرة يمتد اليها طمى النيل ويشتغل فيها يوميا مئات

من الرقيق الأسود وقد عنى أولئك عناية فائقة بعرض الحديقة فى أحسن وأجمل منظر لسيدهم عثمان الذى كان طول حياته مولعا بكل ما هو جميل • ومن الغريب فى أمر أولئك العبيد أنهم كانوا واجتهدوا فى ذلك راضين مختارين رغم التعب الذى لاقوه ورغم القوت الذى لم يكن يكفيهم فى عملهم الشاق

صرف الخليفة عبد الله وابنه عثمان أغلب أوقاتهما فى البناء وتجديد نظم ما أقاماه قبلا وقد بذلا أقصى ما يستطيعان من جهد فى سبيل البقاء فى حياتهما على الأرض متمتعين بأقصى ما تنزع اليه نفساهما من بهجة وسرور •

وقد حذا يعقوب أخو الخليفة حذوهما فلم يكن غريبا والحالة هذه أن يتدفق يوميا مئات من العمال (وأغلبهم من الرقيق) الى بيتى الخليفة وابنه حاملين الحجارة والطوب وكل ما يتعلق بالبناء• أما بيت الخليفة على واد هلو فصغير من ناحيـة وبعيد عن معالم الزينة والزخرف من ناحية أخرى •

كان لعبد الله ـ الى جانب بيت الخلافة الرئيسى ـ بعض منازل فى الناحيتين الشمالية والجنوبية من أم درمان ولكن المنازل الأخيرة مبنية بناء بسيطا عاديا لا شىء من الزخرفة فيه والغرض من بنائها هو استعمالها كأماكن استراحة له وللمقربين اليه عندما يرسل بعثات من جنوده الى الجهات المجاورة لأم درمان أو عندما يخرج لاستعراض الجنود القادمين حديثا الى أم درمان ، ولم يكن يستطيع (عبد الله) البقـاء فى منزل من المنـازل المذكورة أكثر من يوم أو يومين فى المرة التى يخرج فيها •

بنى عبد الله خلاف المنازل المذكورة منزلا على مقربة من نهر النيل مجاورا لحصن الحكومة القديم بعد أن ردم الخنادق التى

كانت متاخمة للحصن المذكور • وقد كان يذهب الى هذا المنزل عندما تشرع السفن البخارية فى مغادرة أم درمان الى الرجاف وغرضه الرئيسى من ذلك الوقوف بنفسه على كيفية سير السفينة ومقدار سرعتها •

الى جوار بيت الامانات (الترسانة) المكون من بناء ضخم حجرى جمعت فيه المدافع والبنادق والذخيرة وكل ما يختص بالحرب والى جوارها (فى البناء نفسه) خمس عربات كانت ملك الحكام السابقين والبعثة الكاثوليكية وقد عنى عبد الله عناية فائقة بحراسة ذلك البيت فوزع على مسافات قصيرة حراسا خصوصيين (ديدبانات) وأعد لكل واحد كشكا صغيرا ومهمة أولئك هى منع جميع الخارجين عن هيئة الجيش من الدنو الى الترسانة •

وجد فى الناحية الشمالية للترسانة مباشرة بناء لحفظ رايات الأمراء المقيمين فى أم درمان والى جانب ذلك البناء محل نصف دائرى (يبلغ ارتفاعه نحو عشرين قدما ويصعد اليه الصاعدون بسلالم مدرجة) لحفظ أبواق وطبول الخليفة الحربية • فاذا ما سرنا الى الناحية الشرقية قليلا وجدنا مخزن الخراطيش والأسلحة الصغيرة •

ذكرنا فى الفصول السابقة شيئا عن بيت المال فنقول الآن أنه يقع فى شمال أم درمان على مقربة من نهر النيل ويمتاز هذا البناء بضخامته وانقسامه الى أجزاء بارزة تكاد تكون أروقة متساوية الحجوم وفى تلك الأروقة تجمع البضائع الواردة لأم درمان من جميع نواحى السودان ومن مصر كما أن فيه (بيت المال) مكانا لخزن الحبوب وآخر لجمع الرقيق • ويقع على مسافة قريبة جنوبى بيت المال بناء واسع لبيع الرقيق يسمى (سوق النبيذ) وقد أنشأ عبد الله فى جوار البناء الأخير بيتا سماه (بيت المال الحربى)

بعد أن استقرت خلافة عبد الله وسلفه المهدى فى أم درمان تم تنظيم المدينة وهى على العموم قائمة فوق أرض مستوية ولكنا نجد فى بعض النواحى هنا وهناك تلالا صغيرة تعترض ذلك المستوى .
أما تربة أم درمان فمجموعة طبقات صلبة حمراء تكاد تكون حجرية فى مجموعها وتتخللها فى أجزاء متفرقة أراض رملية . ومما يذكر عن تعسف عبد الله أنه ــ فى سبيل راحته والتمتع بما يرضى شخصه ــ أنشأ الطرق والشوارع الجديدة وهذا العمل حميد فى حد ذاته الا أن الخليفة فى سبيل هذا البناء قد هدم بيوتا كثيرة ولم يدفع لأصحابها المنكودى الحظ قرشا واحدا ، فدل بذلك على أنه يرمى من وراء تنظيمه الحميد فى ذاته الى منفعة خاصة هى لذة النظر الى شوارع نظيفة بغض النظر عما يصيب الناس من هدم منازلهم دون تعويض .

علا شأن أم درمان ونقص قدر الخرطوم فى زمن خلافة عبد الله فأصبحت الخرطوم عبارة عن أنقاض وخرائب ولم يبق فيها من المبانى الظاهرة سوى المرفأ وقد ظلت المواصلات بين أم درمان والخرطوم بواسطة الرسائل التلغرافية التى أحسن استعمالها موظفو ادارة التلغراف فى الحكومة السابقة .

أبقى عبد الله قسما كبيرا من السور المحيط ببيت المال والمؤدى اليه (لم يكمل هذا البناء فى زمن عبد الله) وعلى طول هذا البناء امتدت حوانيت لبيع المواد التجارية المختلفة والى جوارها حوانيت منفصلة وأماكن صغيرة مستقلة للحلاقين والنجارين والقصابين والخياطين ومن شابههم . هذا الى أن عبد الله عنى بنظام المحتسبين الذين كانوا مسئولين عن حفظ النظام فى المدينة . وانه لما يفزعنى أن اذكر المشانق وآلات الاعدام التى كانت موزعة فى جميع نواحى أم درمان فقد كانت اكبر دليل على حالة المدينة وموقف السودانيين من حكومتهم .

كان سكان أم درمان موزعين فى مساكنهم تبعا لقبائلهم فكان العرب التابعون للقبائل الغربية يسكنون غالبا فى المحلات الجنوبية أما القسم الشمالى فكان مخصصا لسكان وادى النيل ورغم وجود المحتسبين والمحافظين الرسميين على نظام المدينة كان مفروضا على كل قبيلة أن تعين من بين رجالها من يقومون بحفظ الأمن والسلام فى القبيلة ذاتها على أن يبلغ أولئك عن أى اضطراب أو خلل فى القبيلة الى رجال الحفظ المعينين من قبل الحكومة .

اذا استثنينا الشوارع المنتظمة التى أنشأها وخططها الخليفة عبد الله ارضاء لراحته ومزاجه فحسب وجدنا المدينة عبارة عن منحدرات وعطفات مملوءة بقاذورات وبطبيعة الحال أجد شخصى عاجزا عن وصف الأضرار الصحية المنبعثة من تلك القاذورات الكريهة الرائحة فى الأماكن الوبائية التى تجمعت فيها كل أوساخ أم درمان • ويكفينى القول بأن جثث الخيول الميتة ترمى فى تلك النواحى وأن الجمال والحمير والماعز تزحم الطرق الضيقة وتملأها بأوساخها وقاذوراتها وكل ما يعمله الخليفة هو أن يصدر أوامره قبل أيام أعياد مخصوصة فى كل سنة باكتساح هذه الأوساخ وتنظيف الطرق الضيقة فلا يتعدى التنظيف حد القاء الجيف المنتنة فى زوايا الحارات ، فاذا ما جاء فصل الشتاء الممطر حمل الهواء (المشبع بالروائح الكريهة المنبعثة من تلك الأوساخ والجيف) بعض أمراض وبائية تعمل على قتل المئات من السكان المساكين •

كانت المدافن قبل عهد الخليفة عبد الله قائمة وسط المدينة ولكن تبرم الأحياء وتذمرهم من الروائح التى أصيب بها السكان من ذلك النظام اضطر عبد الله الى انشاء مكان فسيح خاص واعداده لدفن الموتى وقد وقع اختياره على الصحراء الواقعة شمال مكان استعراض الجنود •

سهل على القارىء أن يتصور انتشار الأمراض فى السودان بعد أن عرف الشىء غير القليل عن الروائح الكريهة وأوساخ البهائم فى جميع نواحى أم درمان تقريبا الا أن ذلك الانتشار لا يمنعنا من تخصيص الأمراض الخطيرة السـائدة هناك ، فنقول ان الحمى والدوسنطاريا هما شر ما يبلى به ساكنو أم درمان ولا تكاد تنقطع حمى التيفوس الوبائية بين نوفمبر ومارس من كل عام ٠

نتكلم الآن قليلا عن مياه أم درمان فنقول : ان الآبار المفيدة والينابيع المعدة لجلب المياه الصـحية أنشئت قبيل عام ١٨٩٥ وتلك العيون الصحية أقيمت فى الناحية الشماليـة من المسجد الكبير ٠ أما الآبار المحفورة فى نواحى أم درمان الجنوبية فماؤها أجاج فى غالب الأوقات ٠ وهى فى مجموعها تختلف فى العمق بين ثلاثين وتسعين قدما ، وقد تم حفرها بواسـطة المسجونين تحت رقابة الحراس الغليظى القلوب ٠ ومما يذكر فى صدد السجن والحراس أن المرء فى أم درمان يسمع كثيرا من المارة قولهم (لقـد أخـذوا صاحبنا الى السعير) ومعنى السعير عندهم هو السجن الذى يلاقى فيه المغضوب عليـه عذابا شـديدا ٠ ان مجرد لفظ هذه الكلمة (السعير) يولد الاضطراب والفزع فى نفوس جميع سامعيها ٠ أما السجن فقائم فى الناحية الجنوبية الشرقية من أم درمان على مقربة من نهر النيل وهو مسيج بحائط ضخم وللسير الى السجن يمر الانسان بردهة خارجية فسيحة يحرسها نهارا وليلا جنود من السودانيين المخيفين فاذا ما عبر المرء تلك الردهة وصل الى ساحة داخلية مكونة من غرف طينية صغيرة لاقامة المسجونين المنكودى الحظ الذين اعتادوا ـ وهم فى السلاسل والاصفاد الثقيلة ـ قضاء سحابة اليوم فى ظل ذلك البناء وهم فى سـكون وجمود كاملين لايتخللهما من الأصوات سوى رنين السلاسل والأوامر القاسية الصـادرة من الحراس الغـلاظ القلوب وصراخ وتأوهـات بعض المسجونين المضطهدين من جراء ما ينزل على أجسامهم من سياط

الجلد والتأديب والويل كل الويل لمن تعرض لسخط الخليفة ومخالفة أمره فأمثال أولئك يرسفون فى أثقل الأغلال بعد أن يحتم عليهم مراقب السجن البقاء فى أصغر الغرف والامتناع عن الاختلاط بباقى المسجونين ٠

وفى الغالب كانوا يأخذون من الطعام ما يكفى لبقائهم أحياء أى أن أمر مراقب السجن كان صادرا ببقائهم دائما فى حالة الجوع الشديد التى لا تعرضهم للموت مقابل الكمية القلية التى يتناولونها للغذاء ، أما المسجونون العاديون فلا يتناولون مقدارا منظما من الطعام ومن المسموح لهم جلب الطعام من منازلهم وقد حدث فى كثير من الأحيان أن الحراس السلابين النهمين التهموا الجزء الأكبر من الطعام الوارد من منزل أحد المسجونين قبل ايصاله الى غرفة المسجون، وفى أحيان أخرى كان أولئك المسجونون التعساء يحرمون من كل ما يرد اليهم من بيوتهم الخاصة عند حلول الليل ٠

كان السجانون يقودون المسجونين كقطيع من الغنم الى غرفهم الحجرية التى كانت خالية من النوافذ خلوا كليا ، وبالتالى كانت محرومة من الشمس والهواء النقى ولم يكن أولئك السجانون القساة يسمعون تضرعات أو توسلات من المسجونين فكانوا يسوقونهم ليلا الى الغرف الحجرية شذر مذر ، وفى الحقيقة كان أولئك المنكوبون يساقون الى قبور لا فرق بينها وبين قبور الموتى سوى أن النازلين فيها أحياء أشقياء يجور قويهم على ضعيفهم رغم كونهم فى المصاب سواء ٠ وقد كان الحراس فى كثير من الأحيان يذهبون فى الصباح المبكر الى تلك الغرف السوداء المظلمة فيجدون بعض المسجونين التعساء قد ماتوا مختنقين لعدم وجود ذرة من الهواء فى غرفهم المغلقة من جميع نواحيها ولعدم تمتعهم بالغذاء الكافى من الناحية الأخرى ٠ وانه لمن المفزع حقا أن يشاهد المرء عشرات من أولئك الموتى فى أجسام الأحياء خارجين من كهوفهم الى

فضاء السجن كل صباح بعد أن قضوا ليلتهم منهوكي القوى غير قادرين على النوم فى ذلك الوسط المخيف المضر بالصحة ٠

اذا ما بزغ نور الصباح خرجوا من غرفهم الصغيرة وهم أقرب الى الموت منهم الى الحياة ـ واستظلوا بظل حيطان السجن وقضوا بقية النهار فى السعى على راحة أجسامهم من ألم الليلة السابقة وعملوا الى اكتساب قوة جديدة يستطيع بها كل مسجون مواجهة ما ينتظره فى يومه من أتعاب وآلام ٠

من المعقول جدا أن كلا من أولئك الأحياء التعساء كان يفضل الموت على تلك الحياة الشاقة المؤلمة ولكن الواقع خلاف ذلك فقد سعى كل الى البقاء فى الحياة مهما قاسى من ألم وضنك وقد كانت دعواتهم الى الله محصورة فى انقاذهم من الشدة التى انتابتهم ومع أن السجن كان مزدحما ومعرضا المسجونين للاختناق ومع أن المسجونين كانوا يلاقون من العسف أهوالا ومصائب وآلاما مبرحة ـ مع ذلك لم أسمع مدة اقامتى فى السودان أن واحدا من المسجونين سعى الى الانتحار ٠

وأذكر الآن تشارلس نيوفلد الذى قضى بضع سنوات فى ذلك السجن السودانى معرضا للمرض والعسف والاضطهاد فقد كان من المتوقع موت هذا الرجل بين آن وآخر ولكنه بقى على قيد الحياة بواسطة المساعدات التى وصلت اليه بواسطة خادمه الأسود الأمين الذى أحضره معه من مصر ، والى جانب تلك المساعدة كان الأوربيون المقيمون فى أم درمان يقدمون ما يستطيعون من عون الى هذا المسجون الأوربى البائس ٠

فضل تشارلس البقاء على قيد الحياة رغم كونه كان راسفا تحت سلاسل ثقيلة حول رقبته وقدميه ومما نذكره عنه أنه رفض

فى ليلة من الليالى البقاء فى غرفة حجرية وصفها بأنها « آخر مرحلة مؤدية الى نــار الجحيم » فجوزى على تعنته هذا بالجلد بسـياط السودان الموجعة ومع ذلك تحمل آلام الجلد بصبر مدهش فلم يشك لحظة واحدة حتى اضطر الجلادان الى سؤاله فى دهشة وذهول « ما الذى يدعوك الى عدم التذمر وما الذى يمنعك عن طلب العفو ؟ » فأجابهما نيوفلله بجرأة غريبة (وقلب حديد) نالت احترام واعجاب السجانين (هذا التذمر وذلك الطلب الذى يذل يصدران من الآخرين أما أنا فلن أذل نفسى بشىء من ذلك) ٠

بعد أن قضى هذا البائس ثلاث سنوات فى السجن خففت السلاسل التى كان يرسف فيها ثم نقل الى الخرطوم ولم يبق من الأغلال الا ما كان حول الساقين ٠ وعندما وصل الى سجن الخرطوم أمر بتكرير وتنقية ملح البارود المعد لعمل البـارود وكان ذلك التكرير تحت مراقبة واد حامدين الله وفى ذلك الحين تحسنت حالته كثيرا وقد كان يمنح مكافآت شهرية ضئيلة مقابل هذا العمل فكانت تلك المكافأة مساعدة له فى الحصول على حاجاته الضرورية للحيــاة ٠

كان معمل تكرير ملح البارود مجاورا لبناء الكنيسة التابعة للارسالية الدينية فى الخرطوم فساعد ذلك التوفيق زميلنا تشارلس على النجــاة من مخالب الضـنك والتعب حيث كان مسموحــا له (نيوفلله) بعد الانتهاء من عمل النهار الشاق المؤلم أن يقضى ليلة فى حدائق كنيسة الارسالية ٠ وليس من شك فى أن أفكاره حينئذ كانت متجهة الى أسرته فى انجلترا ولا ريب فى أنه كان فيما بينه وبين نفسه يلعن ذلك اليوم الأسود الذى أغراه هواه فيه بترك مصر الى السودان حيث وقع فى قبضة الخليفة عبد الله ٠

كان من العسير جدا على هذا الرجل أن يذوق الموت ويلقى حتفه دون اثم ارتكبه وقد يكون من توفيق هذا الرجل فى وقت قريب أن يجتمع بأصدقائه وأقربائه الذين تاقوا الى رؤيته حرا طليقا من الأسر المفزع ولئن كان من اليسير وجود العدد الكبير من الأصدقاء (الذين يريدون مساعدة تشارلس) فى أوربا فان الحقيقة هى أن تخلص هذا الأسير البائس من يد الخليفة العـاتى لا يتم الا بعون الله وحده ٠

ان قلبى ليتوجع وليكاد يتمزق حزنا وألما كلما شرعت فى كتابة شيء عما يقاسيه المسجونون فى سجن (سبيه) أم درمان ورغم ذلك سأذكر شيئا عن الرجل البائس الشيخ خليـل الذى أرسل من مصر ومعه رسائل خاصة الى الخليفة عبد الله فيها بيان عن عدد أسماء الأسرى الذين سلموا فى واقعة توشـكى والذين عوملوا معاملة حسنة لم يكن الخليفة يجهلها كما أنه لم يجهل قرب الافراج عنهم وقد ورد فى احدى الرسائل المذكورة طلب من أولى الأمر الحربيين فى مصر تسـليم سيف ومداليـات الجنرال غوردون للشيخ خليل لأن أصحاب الشأن فى مصر لم يشكوا فى أن الأشياء المذكورة موجودة عند عبد الله ٠

كان يرافق خليلا هذا شخص مصرى اسمه بشارة فبعد أن اطلع سكرتير الخليفة الخاص على الرسائل وقرأها لعبد الله أمر الأخير بعودة بشارة لمصر دون اجابة على الرسائل أما خليل البائس (وهو مصرى المولد) فقد قيدت يداه ورجلاه بالسلاسل الثقيلة بعد أن اتهمه الخليفة بتهمة الجاسوسية ٠

أسيئت معاملة خليل الى أقصى حدود الاساءة وحرم من الغذاء الكافى فأصبح هزيل الجسم الى حد لم يسـتطع معه القيام من الأرض وقد بالغ معذبوه فى اهانته حتى أنهم لم يسمحوا له بماء

للشرب وأخيرا نفذ قضاء الله وحكم الموت الهادىء فى خليل فتلقاه بسرور وهو على ثقة من أن موته أعظم منقذ له من آلامه المبرحة .

نتكلم الآن عن بائس آخر اسمه صالح وهو تاجر يهودى من تونس فقد جاء هذا البائس الى كسلا باذن من أبى حرجه فلم يكد يصل اليها (كسلا) حتى صدر أمر الخليفة باعتقاله وترحيله الى أم درمان حيث ظل معذبا فى السعير (السجن) لغاية كتابة هذه السطور (عام ١٨٩٧) وهو عبارة عن هيكل عظمى لا أمل له فى الحياة الا بمساعدة زملائه ورجال فرقته الذين اضطروا الى اعتناق الدين الاسلامى للتمكن من ايصال كميات قليـلة من الطعام الى صالح هذا .

بين المسجونين اثنان من العرب العبابده اتهما بحمل رسائل الى الأوربيين فى أم درمان فاعتقلا وماتا فى السجن بعد أن هلكا جوعا فليس بدعا أن يضطرب الأوربيون المقيمون فى أم درمان ازاء سوء معاملة الخليفة معهم من ناحية غير مباشرة ولكن من حسن الحظ اتضح أن الرسائل واردة الى رجل قبطى من أقربائه فى مصر .

كان عبد الله كثير الميل الى الوشايات وتصديقها ومما نرويه فى هذا الصدد أن عسكر أبا كلام شيخ قبيلة جمعه الكبيرة كان مشهورا بصداقته للخليفة عبد الله ولأبيه من قبل ولكن تلك الصداقة لم تجده شيئا عندما وصل الى أذنى الخليفة أن عسكرا هذا تكلم بشدة ضـد الحالة فى السودان ، ففى ذلك الحين أمر عبد الله بالقاء عسكر فى السجن راسفا فى الاغلال الثقيلة تأديبا له وزجرا لغيره . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل نفى الى الرجاف وحملت زوجته « التى كانت مشهورة بجمالها الرائع » من بين ذراعى زوجها « أثناء تودبعه قبل نفيه » الى دار عبد الله لتكون واحدة من حريمه .

سبق فى الفصـــول السابقـة ذكر الشىء الكثير عن الأمير السودانى الشهير زكى طومال ، وهنا نقول : انه عندما صدرت أوامر الخليفة باعتقال هذا الأمير عومل معاملة سيئة جدا تدل على الغلظة القاسية والانتقام الشنيع فقد بنيت له غرفـة من الطين شبيهة بالقبر وأغلق بابها على من فيها ولم يســمح له بشىء من الطعام على الاطلاق وكل ما من به الخليفة هو مقدار صغير من الماء سلم له من كوة صغيرة فى الغرفة الحجرية وقد تمكن زكى طومال الشجاع من البقاء ثلاثة وعشرين يوما حيا بواسطة الماء الا أن الجوع أنهكه لدرجة الموت ، ومع ذلك لم يشك طومال لحظة واحدة ولم يطلب عفوا من عبد الله رغم بقائه فى ذلك القبر الشنيع . فقد كان زكى طومال من ناحيته شديد الاباء بعيدا عن التذلل ، ومن الناحية الأخرى كان واثقا من عبث السعى الى هذا العفو من رجل اشتهر بانتقامه المريـع وقســاوة قلبه وقد ظل على تلك الحال الى اليوم الرابـع والعشرين من سجنـه حتى حمله الموت الى مقره الأخير ليرتاح من قساوة معذبيه فى السجن وانتقام عبد الله فى الخارج .

فى فجر اليوم الرابع والعشرين سمع بعض الحراس الغلاظ القلوب زفرات الموت من غرفة زكى طومال وعندما سكن الصوت وتحقق أولئك الطغاة من موت الأمير أسرعوا لزف البشرى الى سيدهم عبد الله ، فأمر الأخير بحمل جثة الأمير (زكى طومال) الى الناحية القريبة من أم درمان وهنــاك دفن على كومة من الخرق البالية وظهره مقابل مكة (دفن زكى على هذه الصورة يرمى الى تحقيره بابعاد وجهه عن القبلة) فان الخليفة عبد الله لم يكتفـ بتعذيب غريمه طومال فى الحياة بل أراد مواصلة التعذيب والانتقام منه فى موته بابعاده عن مكة ليحرمه من السلم والراحة فى العالم الثانى .

كان عبد الله شديد الخطر على الجميع حتى أنه لم يتأخر عن الشك فى القاضى أحمد الذى يعد أقرب الملتصقين به اتهمه

بخيانته فأمر الحراس بالقائه فى الغرفة التى القوا فيها زكى طومال من قبل وبعد يومين من سجن أحمد هذا دخل اليه فى غرفته قاضيان بأمر من الخليفة وهناك سالا زميلهما البائس أحمد عن المكان الذى خبأ فيه أمواله فأجابهما أحمد بجرأة « أخبرا سيدكما عبد الله الخليفة أنى زهدت الدنيا ولا أعرف مكانا أجد فيه الذهب أو الفضـــة » ٠

تحايل القاضيان كثيرا على زميلهما السابق وسعيا جهدهما فى الوصول الى معرفة المكان الذى يوجد فيه ماله وعندما فشلا عادا أدراجهما مطأطئى الرأسين الى الخليفة ، وقد كان ذلك الأمر كله قبل مغادرتى أم درمان ببضعة أيام ٠ وقد تأكدت عقب رجوعى الى مصر أن القاضى أحمد توفى بعد أيام فى سجنه على الصورة التى توفى بها زكى طومال ٠

ان المرء يستطيع ملء مجلد كامل بفظائع وقسوة الخليفة ضد المسجونين فى السعير (السجن) ولكن من العبث اتعاب القارىء بذكر فظائــع وحشــية ارتكبت بأمر هذا الظالم المستبد الغليظ القلب عبد الله ٠

الفصل السابع عشر

وســـائل النجــاة

كنت أرمى من وراء بقائى الى جانب الخليفة عبد الله والتصاقى به الى غرض مزدوج الفائدة فقد رغبت فى تعرف طباعه من ناحية ومن تعرف أحوال السودان من الناحية الأخرى بطريقة تكاد تكون رسمية ، أما الخليفة عبد الله نفسه فكان بتقريبه اياى يقصد شيئين متقاربين ويرمى الى فائدتين ، فقد كان على ثقة من أنى الموظف المصرى الأجنبى الوحيد الملم بشئون السودان الماما كليا دقيقا وأنى جئت البلاد السودانية ودرستها وأصبحت على معرفة كاملة بلغة التخاطب الداخلية وسأذكر الغرض الثانى بعد قليل .

كان عبد الله على جهل فاضح بالشئون السياسية وقد ذهب به فكره الى أن خروجى من السودان خطر داهم عليه هو شخصيا لأنى اذا وفقت الى النجاة فمعنى ذلك أنى أتمكن بسرعة من اغراء الحكومة المصرية أو أى حكومة أجنبية عن السودان الى دخول تلك البلاد واسقاط نفوذ عبد الله ، وفى ذلك الحين أتمكن من ايجاد صلة متينة ورابطة وثيقة بين الحكومة الجديدة وبين أفراد وزعماء القبائل الذين يكرهون حكم عبد الله أشد كراهة واذن ينتهى الأمر الى انشاء حكومة نظامية فى السودان .

قلت ان غرض عبد الله الأول من بقائى هو الماى بشئون السودان أما الغرض الثانى فيرجع الى نزعة نفسية فقد رغب عبد الله فى ارضاء كبريائه باستخدام الرجل الذى كان فيما مضى حاكم اقليم دارفور بأكمله وحاكم قبيلته ، ففى استخدام الرجل الذى تمتع فيما مضى بهذه السلطة يعد عظمة لعبد الله فى عيون السودانيين خصوصا اذا بقى الرجل المذكور (مؤلف الكتاب) كأسير بين يدى الخليفة ، ومن المدهش أن عبد الله لم يتأخر لحظة واحدة عن الظهور بهذه العظمة الكاذبة فكان بين آن وآخر يقول لرجال القبائل الغربية « انظروا هذا الرجل الذى كان فيما مضى سيدنا وحاكم قبيلتنا والذى قاسينا الآلام تحت حكمه الجائر انظروا اليه اليوم تجدوه خادمى وسامع أوامرى والملتزم تنفيذ ما أشير به اليه فى أية لحظة . انظروا الى الرجل الذى انغمس فى بحر الشهوات وكان منقادا وراء تيار المعاصى تجدوه اليوم لا يسا جبته القذرة وسائرا حافى القدمين فلا ريب اذن فى أن الله رءوف رحيم » .

كان عبد الله كثير الحذر والخوف منى ، ولم يعن كثيرا بغيرى من الأسرى الأوروبيين الذين عاشوا عيشة بسيطة قوامها الاتجار فى المواد المختلفة فى حى قريب من ميدان سـوق أم درمان حيث بنوا غرفا خاصـة لتجارتهم ظلوا فيها آمنين لا يعكر صفوهم أى تدخل من الأهالى .

كان الأب أوهر والدر نساجا يعيش هو وأهله مما يكسبه من نسيج القطن وعاش الأب روزينولى وبيوروجنتو (وكلاهما من طائفة الارسالية الدينية المسيحية) بياعين للساعات فى الدائرة المركزية للسوق ، وقد عاشت السيدات الأوربيات الى جانب أولئك الأوربيين حتى نجون معهم وقت تدبير الهرب مع استثناء الأخت تريزه جريجولتى .

ينبغي بعد ذلك جوست حويزى احد الكتاب الاجانب ثم طائفه أخرى من اليونانيين والسوريين والمسيحين والاقباط ويبلغ مجموع أولئك خمسة وأربعين رجالا ونسـاء تزوجوا وتزوجن من مسيحيين ولدوا فى السودان أو مصريين ومصريات ٠

تسمى المنطقة الداخلية لاولئك المسيحيين المسلمانية (تطلق على المتناسلين من غير المسلمين بوجه عام وقد أطلقها أتباع المهدى عربيا مماثلا لاسم الخليفة عبد الله ، ومهما يكن الأمر فلم يكن على كل من لم يدينوا بالاسلام) وقد اشـتغل اولئك بأمورهـم وانتخبوا من بينهم أميرا ائتمروا بارشاداته وأوامره وقد كان ذلك الرئيس المسيحى مسئولا لدى الخليفة عن كل ما يجرى فى دائرته وعن كل شخص غير مسلم فى أم درمان واسـم الأمير الحالى (فى عام ١٨٩٦) نيكولا وهو رجل يونانى يطلق عليه السودانيون اسما عربيا مماثلا لاسم الخليفة عبد الله ، ومهما يكن الأمر فلم يكن مسموحا لأى شخص من أولئك المسيحيين بمغادرة أم درمان وقد كان مفروضا عليهم أن يضمن الواحد منهم الآخر ومن نتائج ذلك أنه عندما سافر الأب روزينولى صدرت الأوامر بالقاء زميله وضامنه بيبو فى السعير (السجن) وقد زادت المراقبة واشتد الاضطهاد على أولئك المنكوبين بعد فرار الأب أوهر والدر ٠ فقد أنشأ الخليفة خصيصا مكانا حصينا لحجزهم فيه من الناحية الشمالية الشرقية من المسجد الكبير حيث كان مفروضا عليهم أن يحضروا الصلوات الخمس يوميـا وقد كان الخليفة عبد الله داهية فى ذلك الأمر فانه أمر بأن يذهب الشخص من أولئك (غير المسلمين عامة والأوربيين بصفة خاصة) مرة فى اليوم للمسجد ، وعين للاحصاء مراقبا يقدم بعد نهاية الصلوات الخمس يوميا تقريرا الى عبد الله يتمكن بواسطته من معرفة المتغيب واذ ذاك يرتاح ضميره لأنه يثق من بقاء جميع أولئك المحجوزين فى ناحيتهم الجديدة ٠

كانت مساكنهم الصغيرة متلاصقة وتبعا لذلك كان من اليسير جدا اتصال الواحد بالآخر مما خفف عنهم آلام الوحشة والاضطهاد أما أطفال أولئك الأشخاص وأولادهم الصغار فكانوا ملزمين بالبقاء في التكايا السودانية حيث يتعلمون القرآن ٠

وقد وصفت فيما مضى كيفية سكنى وما أحاط به في الحياة السودانية وبقى على أن أضيف لما تقدم أنه كان مسموحا لى أن أتكلم مع قلائل من الجرس الخاص الذين كانوا – مثلى – اما تحت الرقابة واما – وهذا خلافى طبعا – كجواسيس للخليفة يراقبون الأجانب ويكتبون التقارير الوافية عن أقوالهم وحركاتهم ثم يرفعونها كل مساء الى دار الخليفة أما دخول المدينة (أم درمان) فكان غير مسموح به الا فى النادر هذا الى أنى منعت منعا كليا من زيارة المنازل أو زيارة الناس لبيتى الصغير ٠

ومما أرويه عن ميول الخليفة الشخصية أنه كان مولعا جدا بالساعات الصغيرة وساعات الحائط على اختلاف حجومها ، وقد وضع على الخليفة – فيما وضع من مهمات – مهمة تنظيف الساعات الكبيرة واصلاح ثلاث ساعات للجيب يتناوب حملها وقد تمكنت بواسطة هذه المهمة من زيارة ساعاتى أرمنى يدعى أرتين بدعوى أن ساعة من ساعات الحائط فى دار الخليفة تحتاج الى الاصلاح ٠

كان بيت الخليفة عبد الله قائما على مقربة من ميدان سوق أم درمان حيث كنت أتقابل بين حين وآخر مع أفراد مخصوصين كنت أرغب رغبة صادقة فى مقابلتهم والتحدث معهم ٠ أما فيما يختص بموقفى مع أرتين بائع الساعات فلم أكن أثق فيه على الاطلاق ، وكل ما دعانى الى التوجه اليه فى أوقات مختلفة هو نزوعى الى الالتقاء بالأشخاص المعينين ، ولئن اضطررت الى الكلام معهم فلم يكن أرتين يسمع ما يدور بيننا من حديث ٠

كان أغلب وقتى مقضيا فى الفسحة الكبرى المواجهة لدار الخليفة حيث يتلى القرآن ولم يكن مسموحا على الاطلاق كتابة أى شيء لأن عبد الله كان يرى من العار أن أعمل شيئا أن أتعلم جديدا لم يكن هو يعرف عنه قليلا ولا كثيرا . ورغم ما أبداه عبد الله من حذر وريبة كان يضطر الى دعوتى لاصطحابه فى المسجد الكبير أو فى بعض الرحلات الداخلية الخاصة ، وكانت وظيفتى معه شبيهة بوظيفة مستشار حاكم الدولة . وازاء أتعابى هذه كلها لم أكن ممن يتناولون مرتبا من الدولة فكنت تبعا لذلك على خفض من العيش فكان طعامى عاديا جدا يتكون غالبا من العصيدة والبقول الحقيرة وفى يوم أو يومين من الأسبوع كنت أتناول قطعة صغيرة من اللحم بعد شرائها خصيصا من السوق .

تأكد عبد الله من رغبتى فى الحرية وتطلعى الى الفرار من قيد الأسر ورغم ما بذلته لتحويله عن ذلك الفكر لم أستطع نفى ما فى مخيلته من شكوك وريب وفى الوقت نفسه كان يخشانى ويتملقنى. فقد وهب لى الكثير من العبيد وعرض على الزواج من بنات أسرته واجتهد فى تقديم هدايا كثيرة لى ليحول بينى وبين الفرار بطرق لطيفة ، ولكنى أصررت على الرفض اباء فزاد ذلك من مخاوفه وشكوكه وتأكد أنى أتطلع لأول فرصة أتمكن فيها من مغادرة أم درمان الى الخارج وفى ذلك العمل خطر عظيم عليه خاصة وعلى بلاده عامة .

بعد سقوط الخرطوم سعى أفراد أسرتى فى أوربا جهدهم للوصول الى معرفة أخبارى الوثيقة ولكنهم تأكدوا أن الظهور بهذا المظهر خطر داهم على ازاء عسف الخليفة وشكوكه .

لم يدخر فون جسلر (قنصل النمسا والمجر فى القطر المصرى) جهدا فى استقصاء أخبارى ، وقد وجد هذا الشخص الكبير المقام تعضيدا ظاهرا من جانب الضباط الملحقين بالجيش المصرى

وغيرهم من الموظفين • ومما أذكره عن أولئك الأخيرين أنهم كانوا الواسطة في وصول الأخبار الى أفراد أسرتي عن طريق حاكم سواكن عام ١٨٨٨ فاني شخصيا لم أكن أستطيع ايصالها الى الضباط لأني ـ كما قلت في الصفحات السابقة ـ كنت محروما من الاختلاط بأي شخص أجنبي والتزاور مع أي موظف رسمي •

مما تقدم يقف القارىء على مقدار فزع الخليفة وسوء ظنه وقد زاد ذلك الريب وصول خطاب من الهرفون روستي (الذى خلف الهر فون جسلر في القنصلية النمساوية في القطر المصرى) الى الخليفة يطلب منه فيه التصريح بقبول قسيس يعظ الرعايا النمسويين المقيمين في السودان • وأظن أن أكبر ما أثر في الخليفة وحول وجهته ضدى هو ورود خطاب من القنصل النمساوى يستعلم فيه عن الحالة في السودان • ومن المدهش أن الخليفة عبد الله استطاع كظم غيظه فطلب مني كتابة بيان عن الموقف الأخير في أم درمان خاصة والسودان عامة • وبطبيعة الحال لم يبال الخليفة بخطاب الهر فون روستي وكل ما عنى به هو اتهامى بالخيانة من ناحية والكذب من الناحية الأخرى لأني كنت أخبرته قبلا أن جميع الرعايا الأوربيين في السودان من الايطاليين مع استثناء الأب أوهر والدر النمساوى فقد جاء طلب القنصل النمساوى مخطئا ومكذبا لبياني • ومن الحق لم أرم من وراء ادعائي أن الأجانب فيأم درمان جميعهم غير نمساويين الا الى شيء واحد هو الخوف مما قد يحيق بهم من سوء عبد الله في حالة غضبه على شخصى ، فقد يخيل اليه في اليوم الذى يريد فيه الاقتصاص مني أن يهلك جميع الأوربيين لانتمائهم الى الجنسية التى أنتمي اليها في حين أني كنت أسعى جهدى لحملهم على النجاة •

كان الخطاب الوارد من الهر روستي ضربة قاضية على جميع تدبيراتي التى قمت بها لصالح اخواني • ومع ذلك سعيت الى اقناع

الخليفة بأن الغرض من كتاب روستى هو ضم جميع الأوربيين المقيمين فى السودان تحت الشعار النمسوى ، ولكنى عبثا حاولت اقناعه فقد عمد الى مواجهتى بعد أن كان مكتوما من قبل ثم اتهمنى بالكذب الصريح ومحاولة غشه •

وضع أفراد أسرتى مقدارا من المال تحت تصرف قنصل النمسا الجنرال ليستعمله وقت الحاجة لمساعدتى وقد تمكنوا من ايصال مقادير مالية مختلفة لى بواسطة العرب وذلك بعد التسهيلات الشديدة التى تفضل بها على كثيرون من الضباط الملحقين بالجيش المصرى مع سعادة الماجور ونجت مدير الادارة الحربية ولا أنسى فى هذا الصدد أن أقول للقراء بأنى فى كثير من الأحيان كنت أستلم مقادير أقل من المذكورة فى الرسائل التى سلمها الى أولئك العرب ولكنى كنت مضطرا الى تقرير حصولى على المبالغ كاملة ومهما يكن الأمر فقد كنت شاكرا لمن أرسلوا لى المال بمقدار شكرى لمن أوصلوه الى يدى لأن الأخيرين ساعدونا مساعدة كبرى فى حمل رسائل وتقارير سرية الى أفراد أسرتى دون وصول الجواسيس اليها •

كنت شديد الحيطة فى صرف المبالغ فقد اجتهدت فى الظهور بمظهر البائس الذى لا يجد ما ينفقه حتى لا تتطرق الريبة الى نفوس العسس وحتى لا يقف الخليفة على حقيقة أولئك الأعراب الذين تفضلوا بمساعدتى ، وتبعا لذلك عشت أبسط عيشة ودفعت ما وفرته لأصدقائى المعوزين •

وثق أصدقائى المقيمون فى القاهرة ـ بعد أن حرمنى الخليفة من أى اتصال بالخارج ـ أنه من المستحيل عليهم العمل على انقاذى ، ولذلك فكروا مليا فى الطريقة التى أتمكن بها عند سنوح الفرصة من الفرار والنجاة من عسف عبد الله • وفى الحق كنت عارفا من اللحظة الأولى التى وقعت فيها فى الأسر أن نجاتى لا تتم

الا بواسطة الفرار في الفرصة المناسبة ، وعلى الرغم من قضاء اثنتي عشرة سنة في عذاب وتحت نير الاضطهاد لم يذهب الأمل لحظة واحدة من خاطرى فقد كنت على ثقة من الفوز بأمنيتى فى النهاية بعد صبرى العجيب •

قضيت السنين ولم يعلم انسان حقيقة ما فى نفسى وما اعتزمت تنفيذه ، ولكنى ذكرت عرضا عرض لابراهيم عدلان وقد وعدنى الأخير وعدا صادقا بأنه سيبذل أقصى ما فى وسعه لانقاذى •

ولكن من سوء الحظ قد وقع غضب الخليفة على ابراهيم عدلان هذا بعد أيام من وعده الشريف فنفى من أم درمان ، وخسرت أنا بذلك النفى صديقا مخلصا وحاميا شجاعا نبيلا •

عندما مات ابراهيم عدلان أفضيت بسرى الى شخصين أثق ثقة كلية فى أمانتهما وقدرتهما على كتمان السر ، ورغم كونى على ثقة — بالنسبة الى ميلهما لى من ناحية والى كراهيتهما الشديدة للخليفة من الناحية الأخرى — من رغبتهما الشديدة فى تخليصى من قبضة عبد الله لم أوفق فى سعيى ، ولم تصل مفاوضتى معهما الى نتيجة ، ولم يكن ذلك لقلة وجود المال الكافى لانقاذى واستعماله فى هربى وانما يرجع الى خوف ذينك الشخصين من افتضاح أمرهما وظهور اسميهما بعد فرارى وبما أنهما صاحبا عائلتين فى السودان فلم يكونا يرتابان فى أن العمل الوحيد الذى يعمله الخليفة اقتصاصا منهما هو نفيهما ثم حمل زوجة كل منهما الى دار حرم عبد الله ثم تشريد أولاد كل من الرجلين ، وهذا بلا ريب قصاص فظيع وعقاب لا تحتمله النفس •

فى الوقت نفسه لم يكن أفراد أسرتى ساكتين بل كانوا يدبرون كل الوسائل الممكنة لانقاذى ودعاهم حبهم اياى الى بذل كل

ما يستطيعون من عون وتعضيد وبما أنهم كانوا على جهل كلى بما يجرى في السودان وعاجزين عجزا مطلقا عن مد أيدى المساعدة من فينا الى فى أم درمان لم تكن أمامهم وسيلة سوى دفع قيم مالية تستخدم لحسابى عند قنصل النمسا فى مصر وقد كانت تصدر الى الأخير تعليمات من وزير خارجية النمسا باستعمال الاموال المذكورة على أحسن صورة ممكنة لانقاذى وانه لمن الواجب على أن أذكر بالثناء البارون هدلر فون اجبرج (سفير النمسا المفوض فى احدى دول أوربا الآن عام ١٨٩٥ ــ والذى كان فيما مضى قنصلا للنمسا فى مصر) فقد سعى جهده لانقاذى فى الفرصة الملائمة وبطبيعة الحال لم يكن من الحكمة التوصل لمساعدتى بواسطة أى شخص فأمر الهرب خطير يستدعى الاستناد الى الوثوق منهم ثقة تامة ولذلك عمد القنصل النمساوى الى اختيار أفراد مؤتمنين يسعون لى من جانب موظفى الحكومة ، فانتدب القنصل لهذا الغرض الكولونل شيفر بك وبعد مدة غير كبيرة استعان بالماجور ونجت الذى أظهر فى ظروف كثيرة عطفا كبيرا ولا ريب فى أنى مدين بتحريرى لكل من الماجور ونجت والبارون هولر فبدونهما لم يكن ميسورا الحصول على أشخاص أمناء من العرب يوصلون الى المقادير المختلفة من المال ، وسأظل طول حياتى شاكرا لذينك الرجلين الكبيرين جهودهما المتواصلة فى سبيل نجاح مسعاهما وتسهيل أمر الفرار على شخصى العاجز أمام الخليفة الشديد السطوة • ومع أن الجميع فشلوا فى مساعيهم وبدا منهم لمساعدتى ما أدخل الريبة فى قلب الخليفة وفى قلوب جواسيسه المنتشرين حوله فانى لا أزال أذكر تلك المهارة الفائقة التى بدت من جانب الرجلين الفاضلين الأخيرين حتى أن عبد الله لم يبد فى خلده حولهما أى شك •

فى الأيام الأولى من شهر فبراير عام ١٨٩٢ وصل الى أم درمان من مصر الشيخ بكار أبو زبيبة رئيس فرقة جمال دنقله وقد كان هذا الرجل من العرب العبابدة فلم تكد تطأ قدماه أرض السودان

حتى أحضر أمام الخليفة وهناك قال لمولاه انه فر من مصر وقدم عن طريق أسوان طالبا عفو الخليفة والسماح له بالاقامة فى بربر وقد سهل له مهمته هذه جملة خطابات توصية الى زكى عثمان أمير بربر ، ولم يكد هذا الرجل يمر فى ساحة المسجد الكبير ويلتقى بى حتى أسر لى فى أذنى « أنى أتيت لمساعدتك فاجتهد فى مقابلتى » فأجبته « ان المقابلة تكون غدا بعد صلاة المغرب فى هذا المسجد » وبعد النهاية من جوابى اختفى عن نظرى وعلى الرغم من وثوقى فى النجاة وارتياح ضميرى الى أنى سأنجو يوما من ذلك العش فانى لم أكن شـــديد الايمان بذلك القول الاخير لأنى اختبرت أقوال الســـودانيين والعرب فوجدتها فى غالبيتها وعودا كاذبة وأقوالا لا ترمى لغير تبرير موقف قائلها وقت وقوفه أمامى وتبعا لذلك قضيت اليوم التالى كما أقضى كل يوم عادى فلم أفكر فى المقابلة أو نتيجتها لأنى لم أكن آمل تحقيقها وفى حين حدوثها لم يكن يذهب بالى أن نجاتى ستتحقق بعدها مباشرة .

بعد الانتهاء من صلاة المغرب فى اليوم التـالى مر بكار فى طريقه الى الخارج بباب المسجد الذى تقابلنا فيه اليوم السابق . فتبعته بحذر شديد ثم دخلنا معا الى القسم المحجوب عن الأنظار فى بناء المسجد ، وعندما غابت عنا عيون الناس وبعدت عن مجلسنا آذان السامعين سلمنى بكار صندوقا من الصفيح يبدو من رائحته أنه يحتوى على كميـة من البن وقد قال لى صـاحبى العربى « لهذا الصندوق قاع مزدوج فافتحه واقرأ الأوراق الموجودة فى آخر القاع الثانى وسأقابلك هنا غدا فى الباب نفسه » .

أخفيت الصندوق تحت عبـاءتى ثم رجعت الى مكان وكان مقدرا لى أن أتناول العشاء فى تلك الليلة مع الخليفة فارتجف قلبى عندما سمعت تلك الدعوة لأنى كنت أحمل صندوقا كبير الحجم الى حد ما بحيث يمكن ظهوره تحت ملابسى بكيفية بارزة ومن سوء

الترتيب أنى وضعت أمام الذى كان يحدق فى طول وقت العشاء ولكن من حسن حظى ـ الى جانب ذلك ـ أن الخليفة كان شديد التعب طول يومه فدار كلامه حول مواضيع عامة ، وهذا كله لا يمنع استمرار ريبتــه وعدم تردده فى انزال العقاب الصــارم بى وقت سنوح الفرصة • الا أنى لم أتردد فى كل مرة أقابله فيها فى اظهار ولائى واخلاصى له وبطبيعة الحال كررت ذلك فى ليلة العشاء ومن الغريب أنى استطعت بعد أخذ قطع صغيرة من اللحم وكمية من الذرة المسلوقة ادعاء المرض فأذن لى الخليفة بالانصراف الى حيث أقضى ليلتى كل يوم • فأسرعت الى المنزل وهناك أشعلت المصباح الزيتى الصغير وفتحت الصندوق بمديتى فوجدت ورقة صغيرة كتب عليها بالفرنسية الكلمات الآتية :

« بكار واد أبو زبيبة رجل مخلص أمين »   الامضاء

(الكولونيل شيفر)

جعلنا (أنا وأحمد) نتساءل عما أصاب الرجال المرسلين لانقاذنا وأغلب ما اتجه اليه ظن كل منا هو أن الدراويش قابلوهم فقبضوا عليهم بعد أن شكوا فى أمرهم وارتابوا • ومهما يكن الأمر فقد وصــــلنا الى حيث كنا ممتلئين مخاوف وآلاما مبرحة وعندما فارقت أحمد عند ساحة الاستعراض طلبت منه أن يخبرنى فى المساء عما يحدث وفى الوقت نفسه أكدت له أنى مستعد لمحاولة الفرار فى أية لحظة •

لم يكد يبدو السحر حتى وصلت الى كوخى الذى تركته منذ ساعات قليلة وأظن أنه من الخير أن أترك للقارىء تصور شعورى وحالتى بدلا من السعى الى وصفها فهذا الوصف مما لا أستطيعه ومن حسن الحظ أنى وصلت قبــل قدوم أحد الضباط (واسمه عبد الكريم) برسالة من الخليفة يسألنى فيها عن سبب تغيبى عن

صلاة الفجر فأجبته بأنى كنت مريضا وفى الحق كانت ملامحى كافية لاغراء الضابط بوقوعى فى قبضة المرض الموجع ٠

عبثا انتظرت الأخبار من أحمد فى ذلك المساء ولم اعلم منه الا بعد يومين عن العرب الذين كانوا معينين لانقاذى ، فقد رأى أولئك أنه من العسير جدا تخليصى من الأسر ومن المجازفة الخطيرة التقدم لانقاذى فعمدوا الى الرجوع من حيث أتوا وعدم الوفاء بوعدهم ٠ واذن عجزنا عن تنفيذ خطتنا وقد حمدنا الله حمدا عظيما ازاء منه علينا بالرجوع الى أماكننا دون مراقبة أحد ودون وقوف الخليفة وجواسيسه على سر تغيبنا فى الساعات القلائل المذكورة سالفا ٠

بعد أن رجعت سالما لمكانى فى أم درمان كتبت الى صديقى فى مصر شارحا لهم كل ما وقع لى فلم يقنطا واستمرا فى تدبير وسائل المساعدة وهنا اتجهت أنظارهما الى الأب أوهر والدر الذى عندما كان فى مسينا زار أفراد أسرتى وأخذ منهم أقراصا من الأثير تقوى الانسان على احتمال السفرالطويل وتطرد النوم من المرء ٠ وقد جهز الأقراص المذكورة أوتو كارشيارى وبعد اعدادها وصلت لى كاملة آمنة وقد وضعت تلك الأقراص فى زجاجة صغيرة تمكنت من دفنها بعناية تحت التراب فى بقعة لا يعرفها أحد غيرى ٠

أصبحت واثقا الثقة كلها فى عبد الرحمن واد هرون الذى أرسلته الى مصر برسالة الى البارون هدلر ليعين له (عبد الرحمن) الوسائل التى يراها نافعة ومثمرة فى طريق فرارى ٠ وقد تم للمرة الثانية اتفاق بين السفارة النمساوية فى مصر وبين هذا التاجر — وقد تدخل فى هذا الاتفاق الماجور ونجت وملحم بك شقير ونعوم أفندى شقير — على أن يأخذ عبد الرحمن ألف جنيه تعطى المكافأة (١٠٠٠ جنيه) لعبد الرحمن فى حالة واحدة هى وصولى الى القطر المصرى سالما ، وقد سلمت السفارة النمساوية هذا الرجل مائتى جنيه لاعداد الأشياء اللازمة قبل الشروع فى الفرار ٠

فى ذلك الوقت عين الماجور ونجت حاكما لسواكن وقد خشى عدم نجاح عبد الرحمن فأجرى اتفاقا شبيها بالسالف مع رجل عربى اسمه الشيخ كرار ، وكان المتفق عليه معه السعى الى الفرار بى عن طريق طوكر أو كسلا .

فى يوم من الأيام سلمنى تاجر فى أم درمان (قدم ذلك التاجر من سواكن) ورقة كتب عليها ما يأتى :

« مرسل الكيم الشيخ كرار الذى سيسلمك بعض ابر الخياطة كدليل على أن الذى يكلمك هو الشيخ ، وتأكد أنه رجل أمين وشجاع فثق فيه ثقة تامة وتقبل أصدق التحيات من ونجت »

الامضاء : (أوهر والدر)

عرفت بعد ذلك بقليل من أحد أقرباء عبد الرحمن واد هرون أن الأخير وصل الى بربر من مصر وأنه بدأ يجرى المعدات اللازمة لفرارى ولكنه اعتزم ـ فى سبيل ابعاد الريب والشكوك عنى ـ عدم العودة الى أم درمان فكان هذا القرار من جانبه سبب كدر لى .

بدأ اليوم الأول من شهر يناير عام ١٨٩٥ بعد أن قضيت سنوات شدة واضطهاد الى جانب عبد الله المستبد الظالم ، فهل يمر ذلك العام كما مر أسلافه ؟ وهل نأمل فى خير جديد تحصل عليه فى عامنا الجديد ؟

على أية حال كنت فى مستهل ذلك العام شديد النقة وقد جال بخاطرى هاتف دينى بقرب الافراج عنى من ذلك الأسر فكان قلبى يحدثنى بأن أصدقائى المخلصين الكثيرين فى الخارج سيوفقون لا محالة الى انقاذى وانهم سيكسرون أغلال الأسر ويمكنوننى بفضلهم وكرمهم من مشاهدة أفراد أسرتى مرة أخرى على الأقل قبل

موتى وأنى سأنعم بالعودة الى الوطن ومشاهدة رفاق الصبا وأماكن سرورى القديم ·

فى ليلة من اليالى النصف الأولى من شهر يناير عام ١٨٩٥ مر بى فى الشارع شخص لم تقع عليه عيناى من قبل وقد أشار لى هذا الرجل اشــارة فهمت منها أنه يقصــد سيرى حيث يسير فخشيت أن يكون جاسوسا فأظهرت له علامة التــذمر والاستياء فأجابنى بعد ذلك « انى الرجل الذى يحمل الأبر الصغيرة » فلم أكد أسمع ذلك حتى عمنى البشر والسرور فقدت الرجل الى زاوية مظلمة صغيرة مجاورة لكوخى وهنــاك رجــوته أن يسرع فى شرح مهمته لى · فبدأ بتقديم ثلاث ابر صغيرة وورقة صغيرة ثم قال لى بعد ذلك « ان الفرار مستحيل فى الوقت الحالى » · وأضاف الى ذلك قوله « قد أتيت بعد أن اعتزمت عزما أكيدا حملك معى الى كسلا ولكن الفرار الى تلك الناحية أصبح فى الوقت الحالى عسيرا بعد انشاء محطات حربية فى كل من الفاشر واسوبرى وخور رجب والعطيرة المتصلة بعضها ببعض اتصالا مباشرا الى كسلا » وزاد على ذلك قوله بأن أحد جماله قد مات وأنه خسر كثيرا من ماله بالنظر الى كساد الشئون التجارية واذن ليست لديه وسائل كافية لانقاذى فى الوقت الحالى وتبعا لذلك طلب منى أن أعطيه خطابا للماجور ونجت أسأله فيه تسليمه (الرجل المذكور) مقدارا جديدا من المال وقد وعدنى هذا الشخص وعدا أكيدا بأنه سيرجــع الى فى بحر شهرين ·

أما أنا شخصيا فقد وثقت أن الرجل لن يسمح بتعريض حياته للخطر فى سبيل انقاذى وبما أنه أخبرنى بعزمه الأكيد على السفر وعدم تمكنه من التأخير طلبت منه بالحاح أن يقابلنى فى المسجد الكبير مساء اليوم التالى · وعندئذ افترقنا فرجعت الى مكانى العادى عند باب الخليفة ·

أما الورقه التى سلمها الى الرجل من سواكن فتحتوى على توصية ومدح فيه (الرجل) من الأب أوهر والدر وقد أجبت على هذه الورقة اجابة مختصرة شرحت فيها كل ما وقع لى وعندما تقابلنا فى الليلة التالية سلمت شيخنا هذا خطابى فأسرع فى ضمه الى جيبه أملا منه أن فيه ما يضمن له الحصول على مقدار جديد من المال حسب طلبه • وفى الحق كنت شديد الفزع كثير القنوط وعلى هذه الحالة عدت الى منزلى حيث مررت فجأة بمحمد ابن عم صديقى عبد الرحمن • وكأنما قدرت الاتفاقات أن يسير الى جانبى فى تلك اللحظة حيث همس فى أذنى « نحن على استعداد » وأضاف الى ذلك « اشترينا الجمال وأحضرنا المرشدين فى الطريق والوقت المعد لنجاتك هو الربع الأخير من القمر فى الشهر القادم • فكن مستعدا » ولم يضف الى ذلك شيئا • وقد شعرت هذه المرة شعورا صادقا بأنه من الواجب الابتعاد عن اليأس الذى يتخلل الأمل فى فترات مختلفة •

. . . .

قبل أن ينتهى شهر يناير من عام ١٨٩٥ وصل الى أم درمان حسين واد محمود مزودا بتعليمات وتوصيات البارون هيدلر والماجور ونجت ، وقد أخبرنى هذا الرجل العربى الجديد أنه على أهبة الاستعداد لحملى على الفرار وقد رجانى حسين هذا أن أكتب لأصحاب الشأن فى مصر بحقيقة ما عمله (حسين) وان يحمل ما أكتبه الى مصر أحد أشقاء حسين أثناء رحلته للقطر المصرى • وبما أنى كنت مقيدا باتفاقى مع عبد الرحمن اضطررت الى الانتظار للوقوف على ما يعمله لعله يوفق الى النجاح ، ففى حالة فشل مساعيه (عبد الرحمن عولت على الاستناد الى حسين هذا • وحتى لا أصدم الأخير — بدلا من تقديم الشكر له على الأقل — أخبرته بأنى فى الوقت الحالى أرى صحتى غير قادرة على موالاة رحلة كبيرة وانى سأخبره بعزمى النهائى فى آخر شهر فبراير • وفى الوقت نفسه أعطيته خطابا لأصدقائى فى مصر ذكرت لهم عامة والهيدلر خاصة

بأني عولت على الفرار مع عبد الرحمن متمنيا فى سعيى هذا توفيقا تاما •وفي حالة فشلي ـ وقد دعوت الله الرحمن أن يحول دون هذا الفشل ـ لا أجد غير (حسين) وسيلة لفرارى • وانى لا اكتم القارىء حقيقة ما دار فى نفسي بعد أن كثر عارفو سرى والواقفون على رغبتى فقد خشيت أن يفتضح السر عند الخليفة واذ ذاك تنزل على صواعق عسفه وغضبه فانى لم أكن أتردد لحظة واحدة في الثقة بأن الخليفة فى حالة ريبة جزئية وشك بسيط فى مسعاي سيقدمنى الى أشق صنوف الموت بعد أن يلقينى فى السعير (السجن) وبطبيعة الحال كان عبد الله يتلمس أى ظرف للفتك بى لأنه كان فيما بينه وبين نفسه يخافنى كثيرا •

أخبرني محمد يوم الأحد ١٧ فبراير سنة ١٨٩٥ فى كلماته القليلة أن الجمال المعدة للفرار ستصل فى اليوم التالى على أن تستريح من تعبها يومين وفى ليل ٢٠ فبراير نتمم مشروعنا الخطير وزاد على ذلك أنه في مساء الثلاثاء ١٩ فبراير سيشير الى اشارة أفهم منها أن كل شيء قد انتهى على أحسن صورة وأدركت أنا سنقوم بالرحلة الطويلة الشاقة التى تحتاج الى صبر طويل وعزم ثابت •

ظللت أنتظر بأمل وخوف فالأمل يدفعنى اليه ما قضيته من أعوام طوال فى عيش مرير قد ينتهى بعد يومين الى حرية مطلقة وأما الخوف فمما قد يعترضنا فى سبيلنا ، وعلى أية حال كنت شديد الشوق الى مساء الثلاثاء حتى جاء ذلك الليل والتقيت بمحمد على باب المسجد الكبير حيث همس فى أذنى بسرعة داعيا الى الاستعداد للسفر ثم افترقنا على أن نتقابل الليلة القادمة •

انى أعترف للقراء أنى قضيت القسم الأكبر من تلك الليلة فى حالة اضطراب شديد ، فكنت بين آن وآخر أقول « هل يفشل ذلك

التدبير كسابقه ؟ » وما زلت اردد القول « هل يعترض سبيلنا حادث غير منظور يقضي على كل ما لدى من آمال ؟ » وازاء ذلك الاضطراب الفكرى لم أستطع النوم لحظة واحدة حتى بدا الفجر فمن شدة التعب أغرقت في النوم العميق ساعتين أو ثلاث ساعات تمنيت بعدها أن أكون في نشاط يمكنني من الابتداء في رحلتي الخطيرة ٠

حان صبح اليوم التالى الذى كان معدا لعملنا الخطير. فبدأت في تنفيذ المشروع بالحيلة الوحيدة المعقولة وهي ادعاء المرض فوقفت لدى باب الخليفة وهناك ظهرت بمظهر الضعيف المريض وطلبت من رئيس ضباط حرس عبد الله السماح لى بالتغيب عن صلاة الفجر في يومنا هذا بعد أن أخبرت هذا الضابط المذكور أنى تناولت مقدارا من الشاى والتمر الهندى لتخفيف ما بى من ألم على أن أبقى هادئا في منزلى في اليوم التالى ٠ وقد حمدت الله لأنى تمكنت من الحصول على الاذن بالتغيب عن الصلاة وزيادة على ذلك وعد عبد الكريم بأنه سيعتذر عنى لدى الخليفة في حالة سؤال الأخير عن تغيبى ، ولم أكن في شك من أن الخليفة عندما لا يرانى في صلاة الفجر سيسأل عنى بطريقة ماكرة يريد بواسطتها الوقوف على حقيقة عملى والتثبت من وجودى في المنزل الا أنه سيدعى طلب الاستفسار عن صحتى بارسال من يرانى من قبله ، واذن فالمسألة خطيرة ومهما يكن الأمر فلم تكن أمامى أية وسيلة خلاف هذه للاعتذار عن الامتناع عن صلاة الفجر ٠

قبل غروب شمس ذلك اليوم جمعت خدمى وبعد أن أقسم أولئك على الاحتفاظ بالسر وعلى عدم ذكر ما أقوله لهم لأى شخص آخر أخبرتهم أن شقيق الرجل الذى أحضر لى رسائل ونقودا مالية وساعات صغيرة من أقربائى منذ سبع سنوات قد وصل أخيرا بأشياء أخرى جديدة وبما أنه وصل بدون علم الخليفة فقد اضطررت الى عدم افشاء سر مجيئه الأخير حتى لا تحوم حوله أية شبهة بدون

وجه حق وعلاوة على الكلمات السابقة قلت لخدمي اني اعتزمت زيارة الرجل المذكور في تلك الليـلة لأني اعتزمت الافضاء اليـه بأقوال يذكرها لاقربائي بعد عودته الى مصر ومقابلة قنصل النمسا في القطر المصري ، وللاسراع في تنفيذ الرغبة وابتعاد الرجل عن عيون الرقباء فضلت الافضاء اليه بما عندي في أقرب ساعة ممكنة من الليل • وبطبيعة الحال صـدق الخدم أقوالى لأنهم اعتادوا في السنوات الطويلة التي قضوها معي سماع الأقوال والأنباء الصادقة مني ، وعلاوة على ذلك طمع أولئك الخدم في الحصول على أشياء من الطرائف التي أحضرها الرجل معه من الخارج • واذن اضطروا الى الاحتفاظ بما سمعوه وعدم اذاعة سر ذلك الرجل •

في سبيل تنفيـذ مشروعي الخطير طلبت من خادمي الأمين (أحمد) مقابلتي في صباح اليوم التالى في الطرف الشمالى من أم درمان على مقربة من ميدان فير على أن تكون بغلتي مع هذا الخادم في الوقت المحدد • وزدت على ذلك أن نصحت له بعدم الاضطراب أو القلق في حالة تأخيري عن الميعاد لأن العمل الذي رغبت في انجازه يقتضي بطبيعة الحال وقتا كبيرا وعلى أية حال ألححت عليه (أحمد) بعدم مغادرة مكان المقابلة حتى أسلمه المال الذي آخذه من الرجل العربي الذي — حضر من الخارج وبعد أن يستلمه أحمد يوصله الى منزلي ويأخذ مكافأة على ذلك •

أما الخدم الآخرون فقد شددت عليهم في الاحتفاظ بالسر والتزام الصمت الكلي لئلا يصيبني خطر جسيم من جراء افتضاح الأمر المكتوم •

افهمت كلا من خدامي على حدة أنه في حالة استفســار أحد الضباط عني من أيهم (الخادم) يكون جوابه على الضابط بأني قضيت ليلة شاقة جدا اضطررت ازاءها الى مغادرة فراشي (المؤلف)

ليلا فى صحبة خادمى أحمد لسماع نصيحة طبية من شخص لا يعرف أحد مقره • ولكن الذى يعرفه جميعنا (الخدم) هو ذهابه الى شخص خبير بالمرض وملم بوصف الأدواء الناجعة •

رغبت بعد كل ذلك التضاليل أن أسبك حيلتى وأحسن تمثيل روايتى الخيالية فأفهمت خدمى بأنى « مضطر للحصول على مقدار كبير من المال فى صباح اليوم التالى فلا حاجة بى الى قسم كبير مما معى لذلك أرى أن أحسن وأفضل مكان يفرق فيه ما معى هو أيدى خدمى الأمناء » وحققت القول بالفعل فنفحت كلا منهم بعض ريالات ، وكل ما رميت اليه من تضليلى هو تأجيل الميعاد الذى يذاع فيه خبر فرارى ، فقد كنت على ثقة من أن سر تغيبى سيعرف لا محالة سواء أذكر خدمى حقيقة عملى أم لم يذكروها ولكنى الى جانب ذلك عرفت أن تكتم أولئك الخدم سيؤخر انتشار الخبر بضع ساعات تساعدنى فى الابتعاد مسافة جديدة عن المكان الذى فررت منه • أما الخدم الذين أكثرت لهم الوعود فعلى انتظار المال الجديد الذى يوزع عليهم بسخاء !!

ادعيت واختلقت من الأقوال كل ما يستطيع العقل التحايل به على أمثال أولئك الخدم السودانين ولكنى وجدت ــ الى جانب ما قلته ورتبته ــ الحاجة ماسة الى حساب تدخل الخليفة واستفساره عنى ، فادركت أن الخليفة سيسأل عنى فيلقى من خدمى اجابة تدعو الى الريبة والشك وحينئذ يأمر الخليفة أحد الخدم للبحث عن أحمد وهذا البحث يستغرق زمنا بطبيعة الحال ، فاذا ما وصلوا اليه ذكر أحمد للخليفة حكاية الشخص المنتظر قدومه لتسليم ما هو خاص بى (المؤلف) وتلك العملية الجديدة تستغرق وقتا آخر يعقبه فشل الباحثين ، وعندئذ فحسب ينقب عنى العسس والجنود والضباط بعد أن أكون فى الواقع اكتسبت الوقت المساعد للفرار •

بعد أن أدركت ذلك عدت الى افهام خدمى بما ينطقون به عند الخليفة فى فترات مختلفة .

بعد أن أديت صلاة العصر عدت الى منزلى فجمعت خدمى مرة أخرى وشددت عليهم بالاحتفاظ بالسر المهم ثم وعدتهم الوعـود الكثيرة بما سأقدمه لهم من هدايا وأموال وبعد ذلك خرجت من عتبة البيت الذى سكنته أكثر من عشر سنين وقبل خروجي توسلت الى الله تعالى أن يحفظنى فى رحلتى الشاقة وأن يحمينى من حياة الأسر والعبودية .

الفصل الثامن عشر

فــرارى

بعد ثلاث ساعات من غروب الشمس أدينا فريضة صلاة العشاء مع الخليفة فى المسجد الكبير وبعد ذلك عاد (عبد الله) الى مخدعه فى بيته الخاص ثم مرت ساعة لم يحدث فيها أى تدخل من أى جانب فى سير الأمور سيرها العادى وفى نهاية تلك الساعة ذهب سيدى ومولاى الخليفة عبد الله الى فراشه ولم أكد أثق من ابتعاد الخليفة عن حركاتى حتى حملت الفروة النظيفة التى تعودت استعمالها فى الصلوات الخمس يوميا ثم ارتديت معطفا صوفيـا لوقايتى من البرد ثم سرت فى طريق المسجد الى الناحية الشمالية من أم درمان • ولكننى سمعت صوتا خفيفا فخشيت وقوف من يعوق فرارى الا أنى تبينت الصوت بعد ذلك فعرفت أنه صادر من محمد الذى عينته الظروف الحسنة واسطة لفرارى •

عند ذلك الصوت وقفت فوجدت الى جانب محمد الهادىء الصامت حمارا معدا لركوبى فامتطيت الدابة وأسرعت فى مسيرى الخطير فى ذلك الليـل البهيم • ومن أحسن ما أذكره من دلائـل توفيقى فى هربى الأخير أن الريح الباردة الشمالية اشتدت الى حد اضطر معه كل الآدميين الى الانزواء فى بيوتهم الصغيرة اتقاء خطر البرودة القارصــة •

سرنا في طريقنا (أنا ومحمد) فلم نصادف من الناس أحدا حتى وصلنا الى الطرف الأخير من أم درمان وفي قسم من ذلك الطرف وجدنا بيتا صغيرا مخربا قائما على زاوية من الطريق الشمالية ومن تلك الدار الصغيرة خرج رجل عربى ومن ورائه جمل معد للسفر فلم تكد تقع عينا الرجل على حتى بادرنى بقوله « سيعينك ذلك الجمل فى رحلتك وسأرشدك فى الطريق الى مصر » ٠

قال لى محمد بعد ذلك : « اسم هذا الدليل زكى بلال وسيسير معك أولا الى الجمال المعدة لاجتياز الصحراء بالراكبين فى بقعة خاصة فأسرع تلق النجاة وانى شخصيا أتمنى لك سفرا سعيدا وأسأل لك من الله الوقاية والأمن » ذكر زكى بضع كلمات للجمل دعته (الجمل) الى البروك على الأرض فامتطى زكى صهوته ودعانى الى الجلوس على جزء من السرج وراءه مباشرة لعدم وجود جملين فى تلك اللحظة وبعد ساعة من رحلتنا وصلنا الى بقعة اختبأ فيها بعض الجمال تحت الأشجار الصغيرة وعلى أية حال كان كل شىء على استعداد تام وكنت أنا شخصيا خاضعا لأى أمر يصدر لى من زكى مرشدى فى تلك السبيل الخطيرة واذن سمعت كلامه عندما أشار على بركوب جمل خاص ٠

قلت لزكي قبل متابعة رحلتنا « هل أعطاك محمد الدواء » فأجابنى (زكى) لم أستلم شيئا ٠ وأى دواء تعنى ؟ فأجبته بأن الدواء الذى أعنيه هو ما يسمونه أقراص الأثير التى تمكن المسافر من مطاردة النوم وتمنحه قوة على مواصلة السفر الطويل الشاق ٠

ضحك زكي بعد ذلك وقال لى « النوم !! النوم لا تفكر فى هذا الموضوع فان النوم لا يجد الى عينى سبيلا وان الله من فوقنا رحيم قدير يمكننا من مطاردة النوم دون الاستعانة بدواء انسانى » ٠

لم اجد جوابا على ذلك سوى قولى « لقد أصبت أيها الصديق الصواب وانى مشترك معك فى الدعاء الى الله بمد العون الأعلى » •

واصلنا السير فى طريق شمالية وقد كان من الممكن أن تسرع بنا الجمال فى طريقنا الا أن أمرين حالا دون ذلك هما شدة ما فى الليل من حلوكة وبرودة من ناحية وانتشار أعشاب الحلفا وشجر الميموسا فى طريقنا من الناحية الأخرى • وعلى أية حاله لم يقف بنا جملانا طول الليل وظللنا ندعو الله أن يمن علينا بالسلامة حتى أشرق نور الصباح البهيج فوجدنا أننا (أنا وزكى) عند أول وادى بشره حيث يجد المسافر واديا ممتدا الى ما لا يقل عرضه عن ثلاثة أمياله • وتلك الناحية مزروعة ببذور الدخنة من فصل الشتاء حيث يجد أفراد قبيلة الجعليين الساكنون على شاطىء النيل ريا كافيا من مطر السماء •

انضم الينا بعد أن غادرنا طرف أم درمان الشرقى قائد آخر صغير السن اسمه حامد بن حسين واذن وصلت الى وادى بشره فتمكنت فى ضوء الصباح من مشاهدة زكى بلال فاذا به شاب صغير السن مسترسل اللحيــة والى جواره حامد بن حسين وهو شاب فى مقتبل العمر • عندما وقفت الجمال الثلاثة صباحا سألت الرجلين قائلا « من أية قبيلة أنتما ؟ » •

فأجابا متضامنين « نحن من جبال جيليف أيها السيد ولتكن واثقا أن ارادة الله وحدها هى التى تساعدنا على ارتياحك الينا » •

طال الحديث بيننا نحن الثلاثة بعد أن اطمأننت الى ذينك الرفيقين وانتهز أكبر المرشدين سنا ما لقيه فى من صراحة وبساطة

فقال لى « الى أى مدى بعدنا عن أعدائنا وبعد كم من الزمن نصل الى الجهة التى يضل فيها أعداؤنا عن الوصول الينا ؟ » ٠

اجبته على الفور « سيبحث عنى رجال الخليفة بعد الانتهاء من صلاة الفجر ولكن ثق أنهم سيبدأون أولا بالشك فى فرارى يعقب ذلك البحث عن الجمال التى يركبها الجنود للبحث عنى وكل ذلك يستلزم وقتا فثق أن لدينا ما لا يقل عن أربع عشرة ساعة » ٠

فرد على حامد قائلا « ليس هذا بالشيء الكثير جدا ، ولكن اذا ساعدنا الله وقوى جمالنا فى مسيرها فان لدينا اذ ذاك أملا قويا فى قطع شوط بعيد أمين » ٠

اضطررت عندئذ الى القاء السؤال الآتى على حامد « هل لا تعرف قوة جمالنا على السير وهل لم تختبرها قبلا ؟ » فوجلت عندما أجابنى قائلا « انى فى الحق لا أعرف عن تلك الجمال الثلاثة شيئا لأنا اشتريناها على عجل فى الوقت الذى سمعنا فيه خبر رغبتك فى الفرار ، ولكن الذى نثق منه هو أن الذى اشترينا منهم الجمال قوم مشهورون بأمانتهم من ناحية وبمتانة جمالهم من الناحية الأخرى » ٠

ومهما يكن من شيء فقد تابعنا فرارنا بأسرع ما نستطيع وقد عدونا بالجمال عدوا لا نتصور فى الأرض سرعة لحيوان كتلك التى قامت بها جمالنا الأمينة ، على أنا فى الحق أشفقنا على تلك المخلوقات غير الناطقة لما انتابها من شدة وتعب ومما خفف الأمر انبساط الأرض وسهولة تربتها رغم ما تخللها من آكوام وحفر وبعض التلال الحجرية الصغيرة ويمكننى التصريح دون مبالغة أنا والينا العدو دون وقوف الى ظهر يومنا ذاك حيث نادانى مرشدى فجأة قائلا :

« قف حالا !! ولنبرك جمالنا فى تلك اللحظة ولكن سريعين فى عملنا هنا » .

خضعت للأمر فوقفنا وبركت الجمال . الا أنى دهشت جدا وتولانى الفزع لوقوف الجمال فى حين أنى أشاهد الجمال وجوادين فى مسافة بعيدة ولم أكن أشك فى أن الأعداء قادمون للانقضاض على وعلى المرشدين اللذين معى . فأعددت مسدسى » من طراز منجتون) للدفاع عن نفسى وعمن معى وقت الهجوم وعند ذلك قلت لمن معى « اذا كنا الآن مكشوفين أمام عيون أعدائنا فلنسر فى متابعة الهرب بهدوء ونظام لأن بروك جمالنا ووقوفنا متجاورين بما يبعث الشكوك والرعب الى أولئك الجنود الذين يتعقبوننا واذن ففى أية طريق هم سائرون ؟ » .

أجابنى حامد بن حسين « انك على حق فى كل ما تقول أما الطريق التى يسيرون فيها فهى الشمالية الغربية » .

تيقظنا بعد ذلك من غفلتنا وغيرنا طريق سيرنا فجعلناها الشمالية الشرقية وكنا مطمئنين كثيرا وواثقين بأنا سرنا غير منظورين من أولئك المراقبين . ولكنا فزعنا جدا عندما شاهدنا على بعد ألفى متر تقريبا أحد الجنود التابعين للخليفة مسرعا امتطاء جواده ومتجها الى ناحيتنا .

قلت لحامد بعد ذلك « أخبرك يا حامد بأنى سأسير جنبا مع زكى فهل تستطيع ايقاف ذلك الرجل القادم الينا واجابته عما يلة من أسئلة ؟ وعلى أية حال فاطلب منك أن تمنعه » .

لم يكد يصل حامد الينا حتى قال بصوت مرتفع « أشكر فضله شكرا جزيلا على نجاتك فان الرجل الذى كان يتعقبنا صديق

خاص لى اسمه الشيخ موضال وقد كان سائرا في طريقه الى دنقلة ليحضر كميات من البلح الى أم درمان وقد استفسر منى الرجل عن سبب مرافقتى للرجل المصرى الأبيض صاحب العينين الشبيهتين بعينى الصقر » ٠

عندما انتهى حامد من كلامه أجبته (المؤلف) على الفور « ماذا كان جوابك على سؤال ذلك الشيخ ؟ » ٠

فقال حامد بأنه طلب من ذلك الشيخ بصفته صديقا مخلصا له أن يحتفظ بالسر وأعطاه في سبيل ذلك عشرين ريالا من عملة ماريه تريزه ، ثم أردف ذلك بقوله لى « نحن العرب ميالون كثيرا الى اقتناء المال فلم يكد يحصل منى صديقى على ذلك المبلغ حتى أقسم لى قسما غليظا بأنه لن يفشى سرنا بحال من الأحوال وأنه سيمسك لسانه عن الكلام فى حالة التقاء متعقبينا به » أما فى ما يختص برفاق صاحبى الشيخ فمن الغباوة بدرجة لا يميزون معها بين الأبيض والأسود ولا يعرفون الفرق بين العربى السودانى والأوربى الأبيض ما دام المطلوب تمييزهم مقنعى الوجوه ٠ هذا الى أن الوقوف مع أولئك مكن زكى ومكننى (المؤلف) من قطع مسافة بعيدة عن الأنظار ٠

عندما غربت الشمس تجاوزنا تلال هوبيجى ثم نزلنا عن جمالنا للاستراحة في الخلاء وبقينا هناك نحوا من ساعة وتلك الناحية التى عسكرنا فيها تبعد مسير يوم غربى شاطىء النيل ولم نكن فى راحتنا الصغيرة نرمى الى راحة أجسامنا بل كنا أولا وأخيرا نقصد استراحة جمالنا صاحبة الفضل فى حملنا الى حيث نتمتع بالحرية ٠ وأظن أنه لم يكن ميسورا لنا الاستمرار فى العدو بعد أن واليناه احدى وعشرين ساعة دون انقطاع منذ غادرنا طرف

أم درمان الشمالى . ولم نأكل طول يومنا وكل ما تمكنا من تغذية أجسامنا به هو قليل من الماء لكل من الثلاثة العاديين .

فى تلك الساعة التى ارتحنا فيها وأرحنا جمالنا كنا شديدى التعب ولكننا على الرغم من ذلك أكلنا بلذة وشهية مفتوحة مقدارا من العيش القفار وكمية من البلح .

بعد أن أكلنا قال لى مرشدى حامد « لنقدم الأكل لجمالنا وبعد ذلك نوالى السير السريع أما أنت فأظنك فى أشد حالات التعب » .

أجبته بسرعة « لست أشعر بشىء من ذلك التعب الذى تعبته لأنا فى أوربا نعد الوقت من ذهب فاذا كنت فى صغرى تعلمت ذلك فانى أزيد عليه فى حالتى هذه بأن الوقت حياة كاملة فلنسرع بجد فى عملنا » .

تولانا الجزع عندما رفض كل من الجمال الثلاثة تناول شىء من الأكل . لأنا قدرنا فى الحال أن الجمال لن تستطيع السير وأن المانع لها من الأكل هو شدة ما انتابها من تعب الاجهاد فى العدو وعلى أية حال عمدنا فى تلك اللحظة بعد أخذ مشورة حامد الى ايقاد نار قليلة الكمية فوق مقدار كبير من الخشب المحروق وصببنا على الخشب والنار جزءا من الراتينج .

بعد الانتهاء من تلك العملية وضع حامد الخشب والنار فوق قطعة خشبية مستطيلة ومر بها حول الجمال ذاكرا بعض كلمات لم أفهم منها شيئا .

تساءلت عندئذ بشيء من الدهشة ماذا تصنع يا حامد فأجابنى « انى أخشى جدا أن يكون فقهاء وقضاة الخليفة عبد الله قد رقوا جمالنا بما يعرقل سيرنا وينجح مقاصد الخليفة ، وهذا الخوف يدفعنى الى استعمال الترياق العربى الذى يفسد سم الحاسدين » .

أما ذلك القول فلم يجد مكانا فى خاطرى بالطبع وكل ما أجبت به عليه هو « أنى أخشى أن تكون الجمال من الفئة النانية فى السوق ، وأخشى الى جانب ذلك أن تكون قد تعبت وينبغى أن يترك قسط آخر من الراحة لها عسى أن تتقوى وتنهض بعد ذلك » .

انتظرنا نصف ساعة فى مكاننا ظنا بأن الجمال ستأكل بعد ذلك ، ولكنها امتنعت عن تناول أى طعام فخشينا ضياع الوقت وتمكن أعدائنا من الوصول الينا فاضطررنا الى اعداد جمالنا للركوب وبالفعل قمنا على ظهور جمالنا لمواصلة العدو . أما الجمال فامتنعت عن الجرى وكل ما سمحت لنا به هو سير عادى جدا فالتزمنا مطاوعة الجمال فى رغبتها فى سيرنا البطىء هذا حتى وجدنا أنفسنا وقت شروق الشمس عند الأرض المرتفعة شمال غربى متمه .

شعرنا عندئذ بضعف الجمال وتضاؤل قوتها فولد ذلك فى نفوسنا جزعا مستمرا وأصبح من المؤكد لدينا أن الجمال لن تستطيع الوصول الى المكان الذى نريد الانتهاء اليه . ــ وهذا المكان هو الواقع على مسير يوم شمالى بربر فى طرف الصحراء ــ حيث اقتضى الاتفاق السابق تغيير الجمال .

عندما أقبل الظهر أرحنا جمالنا فى ظل شجرة باسقة واتفقنا على السير الى ناحية جيليف ــ الواقعة على مسير ما يقرب من يوم فى الطريق الشمالية الغربية ــ حيث أظل مختبئا فى التلال غير

المسكونة وغير المطروقة حتى يتمكن مرشداى زكى وحامد من احضار جمال صالحة لاتمام الرحلة .

عند غروب الشمس كانت الجمال صالحة للسير السريع بعد أن ارتاحت قسطا وافرا من الزمن فركبنا الجمال ذاتها ووصلنا فجر اليوم التالى الى سفح جبل جيف حيث لا ساكن من بنى آدم على الاطلاق .

شكرنا الله فضله عندما بلغنا تلك البقعة ثم نزلنا عن جمالنا وسقناها أمامنا فى رحلة شاقة سرنا فيها على الأقدام ما يقرب من ثلاث ساعات فى وادى لا تتخلله غير الصخور المرعبة المنظر .

ينتسب مرشداى زكى بن بلال وحامد بن حسين الى قبيلة كبابيش ، فجبل جيليف معروف لديهما حيث ولدا الى جواره فهما اذن على معرفة تامة بكل ممر فى ذلك الجبل فاستحسن رفيقاى فى تلك البقعة خلع السروج عن الجمال ووضعها على صخرة بجانبنا .

قال لى حامد بن حسين عندما بلغ ثلاثتنا هذه الصخرة « لقد وصلنا الى وطننا ولا ريب فى أن الوطن يحمى ابنه الذى يلوذ به فاطمئن أيها الضيف وكن واثقا أنه لن يصيبك أى أذى ما دمت فى أرضنا . فاسترح هادئا ولازم تلك البقعة حيث لا يشاهدك متعقب أو مراقب خارجى . وها هى على بعد أقل من مائة متر عين الماء الشهيرة المتفجرة بين الصخور فسأذهب اليها بالجمال لأسقيها منها وسيحضر لك زكى قربة صغيرة مملوءة من ماء تلك العين وفوق ذلك سأخفى الجمال فى مكان أمين بحيث لن يستطيع الجن ذاته الوصول الينا والى جمالنا واذن فلتنتظر هنا حتى انتهى من التفكير فيما سنتبعه بعد ذلك » .

بقيت وحدى ولا أكتم القارىء حقيقة اضطرابى ووجلى فى ذلك القفر الموحش وعلى أية حال استسلمت الى المقادير ودعوت الله أن ينقذنى ففكرت فى السير السريع الى الحدود المصرية وأخذت أفكر وتتساورنى الهواجس من كل ناحية وبقيت على تلك الحال ساعتين كاملتين جاء بعد انتهائهما صديقى زكى بن بلال حاملا قربة الماء على كتفه ولم يكد يصل الى فى وحشتى حتى نادانى قائلا :

« ذق طعم ماء وطنى العزيز نقيا خالصا هنيئا للشاربين ولتثق أيها الضيف العزيز أن وطنى الذى حملك سالما سيودعك سالما حتى تصل الى الأرض الأمينة حرا ، وتأكد أن كل شىء سيجرى فى أحسن صورة بعون الله ولطفه وأن النهاية ستبدد جميع ما حاق بك من آلام ومصائب لا فى تلك الرحلة فحسب بل فى السنوات الماضية الطوال التى قضيتها أسيرا فى أم درمان » .

شربت مقدارا قليلا من الماء فوجدته شهيا جدا مصداقا لقول زكى الذى أعجبنى منه حبه الشديد لوطنه رغم ما هو الوطن فيه من فقر ووحشة على النازحين اليه .

قلت لزكى « انى واثق من الفوز ولكننى أخشى التأخير » فأجابنى على الفور « معلهشى » كل شىء بارادة الله وعسى أن يبعث الله لنا الخير فى هذا التأخير واذن فلننتظر حامد بن حسين صابرين واثقين فى لطف الله .

وصل الينا حامد بعد مرور بضع دقائق على ظهر اليوم المذكور وبعد مجيئه تناولنا نحن الثلاثة حامد وزكى وأنا طعامنا البسيط العادى المكون من الخبز والتمر وبينما نتناول طعامنا استصوب زكى ركوب جمله والوصول الى الأصدقاء الواقفين على سر نجاتى

على أن تستغرق تلك الرحلة يومين متواليين يتمكن زكي بواسطتها من الحصول على جمال جدد ٠

قال لى زكى قبل رحيله سأركب الجمل بشارن لأنه أقوى الجمال الثلاثة ، ولم يصب بعد بالكلال الذي يحول دون مواصلة الرحلة الجديدة ٠ وها نحن فى مساء السبت فسأواصل رحلتى طول الليل وسحابة يوم الأحد حتى اذا أحيانى الله الى صباح يوم الاثنين وصلت الى البقعة التى اتفقت مع أصدقائى على الالتقاء فيها ٠ وقد اضطر الى البقاء هناك يوما أو يومين فى حالة عدم وجود جمال مستعدة لمواصلة الفرار وعلى أية حال ـ ما لم يعقنى مانع قهرى جدا ـ سأرجع الى مكانى هذا ـ الذى أنا فيه الآن ـ يوم الخميس أو يوم الجمعة على أكثر تقدير ٠

أجبت صاحبى زكى بن بلال قائلا أرى الخير فى تأجيل المواعيد المذكورة وتأكد أنا فى انتظارك هنا لغاية يوم السبت ، أما اذا وصلت الينا قبل ذلك فلا مانع وعلينا أن نضاعف الشكر لله فى تلك الحال ولكن الشيء الوحيد الذى نرغب دائما فى أن تذكره هو أن مصيرنا بين يديك بعد اذن الله فلا تمهل فى شيء على الاطلاق ، وأطلب اليك الى جانب ذلك أن تكون حذرا أشد الحذر فى احضار الجمال بحيث تنتقى أجودها وأقدرها على مواصلة السير حتى لا يصيبنا فى المرة الجديدة ما أصابنا فى سابقتها ٠

وضع زكى يده فى يدى بعد سماع أقوالى وودعنى قائلا « ثق فى حظنا الحسن ثم اعتمد على نيتى الحسنة واخلاصى الشديد » ٠

فأجبته شاكرا وقلت له « الله وحده قادر على أن يحميك ويرجعك الينا عاجلا فى سلم وعافية » • وضع زكى بعدئذ قليلا من التمر فى قطعة من القماش ليأكل وقت جوعه أثناء رحلته الصغيرة ثم حمل سرج الجمل على ظهره ثم وصف له حامد المكان الذى اختبأ فيه الجمل يتسارن الذى استعان به صاحبنا زكى فى سيره وقبل عدوه شدد علينا فى أن نضلل أفكار الناس — اذا وجد اناس فى.. ذلك القفر — عنه وما هى الا دقائق حتى اختفى زكى عن انظارنا • ثم عمدنا بعد ذلك الى ابعاد الأحجار الصغيرة عن الأرض التى قررنا قضاء ليلتنا نائمين عليها حامد وأنا وقد وفقنا فى عملنا هذا توفيقا عظيما » •

بقينا حامد وأنا صامتين فترة طويلة شغل فيها كل منا بالنظر الى الطبيعة والتفكير فيما راق له أن يفكر فيه وبينما أجول ببصرى فى ذلك القفر الواسع قال لى حامد « عندى اقتراح أود عرضه عليك ويتلخص ذلك الاقتراح فى أن لى قريبا اسمه ابراهيم باشا له النفوذ الكلى على منطقتنا الجبلية هذه بصفته شيخها ولهذا الشيخ منزل فى سفح التل على مسافة أربع ساعات من مكاننا الذى نحن فيه الآن ، ولئن كنا الى الآن محجوبين عن أنظار الآدميين فمن الخير أن نعلم شيخنا ابراهيم بوجودنا حتى يكون على بينة ويدلى الينا بما يراه ملائما لنا فى عزلتنا هذه ، وسأذكر له موقفنا بالضبط بدون ذكر اسمك ، وهو مضطر أدبيا على الأقل — بما لى عليه من حق النسب — أن يؤوينى ويجد لى ولك مكانا أمينا وينصح لنا بالمغادرة فى الوقت المناسب وذلك فى حالة تمكن دارس الأثر ومتعقبه من اقتفاء خطواتنا عند سفح التل — وهذا بعيد جدا — فاذا وفقت على رأيى فانى أسير اليه فى جنح الليل حتى أراه وأنا فى أمن من عيون المراقبين ، وبعد مقابلته أرجع اليك قبل صباح اليوم التالى » لا أكتم القارىء حقيقة ما جال فى خاطرى من سرور يداخله شىء من الخوف وعلى أية حال أجبته بالموافقة قائلا له «ان المشروع حسن ويحسن

بك ان تحمل معك عشرين ريال تقدمهـــا هدية لصـاحب المنزل ولا أزيدك توصية فى الامتناع عن ذكر ذلك لأحد كائنا من كان » ٠

تركنى حامد عند غروب الشمس فبقيت وحدى هدفا للأفكار المتضـــاربة والهواجس المختلفة فتذكرت أفراد أسرتى وأصدقائى العـديدين « فى أوربا ومصر » وذكرت بصفة خاصـة أصدقائى العرب والسودانيين الذين لم يحل اختلافهم فى الجنسية والدين دون اعترافى لهم بالشكر الخاص وتقديرى ما قاموا به فى سبيل راحتى ونجـاتى وانى لن أنسى جهاد أولئك الاصـدقاء الذين لم يرهبهم رجوعهم بعد نجاتى الى حيث يقاضيهم أعدائى ويحاسبونهم حسابا عسيرا ٠ تذكرت فى عزلتى القصـيرة هذه أعز من لى فى الدنيا وأقصد بهن شقيقاتى وأصدقائى المقربين وكنت أسأل الله فى كل لحظة أن يمن على بنعمة العودة الى وطنى العزيز ومازلت على حالتى هذه حتى غلب على النوم فالقيت بجسمى الضعيف على الأرض المتربة ولم أستيقظ من نومى اللذيذ ـ رغم خشونة الأرض التى نمت عليها ـ الا قبل الفجر وبعد قليل من صحوى سمعت صوت قدمين فتأكدت أن مرشدى حامد هو القادم وبالفعل وصل حامد وقال لى « تسير الأمور فى أحسن أحوالها فان نسـيبى الشـيخ ابراهيم يرحب بضيفه الذى لا يعرفه ويسأل له الوقاية وعون الله فلتتذرع أيها الصديق بالصبر لأن هذا كل ما تملكه الآن ولعله خير ما يملك الانسان فى محنته » ٠

جلس حامد بعد عودته من منزل الشيخ ابراهيم على حجرين كبيرين قاتمى اللون بحيث أصبح من العسير ايجاد فارق فى اللون بين بشرته والصخر الذى يحمله ٠ أما غرض حامد الأساسى من جلسته هذه فهو مراقبة الناس بطريقة تبعد أنظارهم عنه ٠

بقى حامد فى مكانـه هذا وأما أنا فجلست على الأرض الى جواره مستظلا بشجرة ممتدة الفروع تصادف وجودها بين الصخور

السوداء ولم يكن لنا حديث في تلك الفترة سوى ماضي وحاضر البلاد الصحراوية التي ظللتنا وقد سعى حامد جهده في شرح حالة وطنه الذي كان يذكره بالاعجاب ويعطف عليه عطف المخلص للأرض التي وله فيها ٠

بعد أن مر وقت الظهر بساعات قلائل سمعت من الخلف وقع أقدام فأدرت وجهي الى ناحية الصوت فرأيت على بعد مائة وخمسين ياردة رجلا يتسلق المنحدر المقابل لمكان جلوسنا عاملا على وضع فروة مستطيلة في يده على جزء من ذلك المنحدر وفي الوقت نفسه شاهدته وهو يضع عمامته على رأسه وقد أدركت في الحال ـ بعد التيقن من الجهة التي كان قادما منها ـ أنه يقصد الوصول الينا من ناحية وأنه رآنا من الناحية الآخرى ٠

كنت في حالة اضطراب فبادرني حامد بقوله « مهما يكن الأمر فان القادم أحد أبناء وطني فقد سمعت صوته ووقع نظري على سحنته وعلى أية حال فانى أفضل التقدم اليه والتكلم معه فهل توافق على رأيي هذا ؟ » فأجبته « لا ريب في أني معضدك في كل ما تراه ملائما لنا في تلك الحال فأسرع لمقابلته واذا اقتضى الحال تقديم شيء من المال لا تتأخر عن ذلك » ٠

ترك رفيقي حامد مقعده الصخري وسار الى الرجل بخطى سريعة متلاحقة ثم وصل الى قمة التل واختفى عن بصري ولم تمر بعد ذلك بضع دقائق حتى شاهدتهما كليهما (حامد والرجل الآخر) قادمين الى مكاني بثغرين باسمين وقبل أن يصل حامد الى قال بأعلى صوته وهو في حالة بشر واغتباط « انا موافقان سعيدا الحظ فالرجل واحد من أنسبائي الأقربين لأن والدته ابنة خالة والدتي » ٠

أقبل الرجل نحوى وقدم يده للسلام على فصافحته مغتبطا ثم قال لى عندما جلس على الحجر المجاور لمكانى « السلام عليكم أيها الصديق ولتكن واثقا أنك لن تصاب بأذى من ناحيتى » •

أعطيت هذا الصديق السودانى الجديد كمية من البلح وطلبت منه فى رفق وأدب أن يذوق هذا الطعام البسيط الذي أعاننا على الجوع فى رحلتنا الشاقة ثم سألته بعد ذلك عن اسمه فأجابني قائلا « يدعونى الناس على واد فيض وأظن أنه من الوفاء لك أن أخبرك الحق » •

أسرعت بعد ذلك فى استيضاح الحقيقة فأجابنى بمنتهى الصراحة « لم أكن متجها الى الخير فى تصرفى معك ولولا الالتقاء بقريبى لكان الشر لاحقا بك لا محالة وتفصيل ذلك أنى غيرت الأرض التى كانت ترعى فيها ماشيتى فوصلت منذ أيام قلائل الى سفح التلال التى تراها الآن منحدرة الى الجنوب وبعد ذلك اتجهت الى الشقوق القائمة بين الصخور عسانى أجد ماء وفيرا نقيا أشرب منه كما ترتوى منه جمالى وبقية ماشيتى لأن الماء الذى كان لدينا قبل ذلك غير كاف لمن يعيش الأسابيع والشهور مع عدد قليل من الماشية • ولم أكد أصل الى تلك الشقوق حتى شاهدت آثار خطوات جمل فتعقبت الأثر وبعد مسافة مئات من الياردات وجدت آثار قدمى رجل أبيض مبتدئة من مكان بعيد عن الأنظار فتحققت أن رجلا غريبا دخل تلك الأرض واختبأ بين صخورها رغبة فى الفرار دون شعور المراقبين بمروره فعدت أدراجى مصمما على العودة ليلا ومعى بعض رفاقى لنسهل عليك رحلتك الباقية بالانقضاض عليك واراحتك من الدنيا وما فيها من تعب ومشقة فالحمد لله الذى حال دون اتمام عملى الاجرامى حيث أرسل الى ابن خالتى ــ حامد الذى أفهمنى الأمر كله فى وضح النهار وأكرر الشكر لله لأنى لقيته فى

الصباح فلو أن ذلك كان ليلا لما عرفت حامدا ولانتهى الأمر شر انتهاء » .

أنصت حامد لكل ما قاله ابن خالته باهتمام وسكون وبعد الانتهاء قال حامد « سأخبرك يا علي واد فيض قصة صغيرة فأنصت ! كان والدي منذ سنوات طويلة وقت أن كنت شابا صغير السن وأيام حكم الأتراك لهذه الجبال - شيخ المنطقة التي نحن فيها وكان المحتكمون اليه من الرعايا كثيري العدد . وفي ليلة من ليالي ذلك العهد وصل الى بيت أبي رجل هارب طلب منه الأمان وقد كان هذا الرجل مطاردا من جنود الحكومة لأنه اتهم باللصوصية والاعتداء على حياة بعض التجار فتمكنت الحكومة من أسر زوجاته ، أما هو فوجد عضدا قويا ونصيرا أمينا حيث أظله أبي واحتفظ بالسر .

مرت بعد ذلك الحادث سنوات انتقل في خلالها والدي الى منطقة بربر فتمكن بعد دفع المال وتقديم ضمانات متنوعة من اصدار العفو عن هذا الرجل المطارد الذي لم يستطع متهموه ايجاد جريمة معينة يحاكم بمقتضى ارتكابها ولم يكتف والدي بذلك بل ذهب الى الجهات المختصة وقدم نفسه كفالة عن زوجات ذلك الرجل وبذلك حصل على أمر ثان باطلاق سراح زوجاته بعد أن قاسين في السجن الكثير من الآلام والأتعاب وبعد كل ذلك يسرني أن أخبرك بأن الرجل المذكور اسمه فيض » .

بينما يتابع حامد أقواله قاطعه علي واد فيض قائلا « وأضيف الى أقوالك بأن الرجل المذكور هو أبي الذي ولدني ورباني » ثم تغيرت ملامح وجهه واستمر في قوله « ولدت في زمن متأخر وسمعت هذه القصة يا حامد من والدتي العزيزة قبل موتها وازاء ذكر تلك الوالدة الطيبة أطلب من الله الرحمة لها . وبعد وفاة

والدتى قال لى شقيقى الأكبر ان خير ما أعمله فى الحياة هو القيام بالجميل نحو ابن الرجل الذى أدى جميلا لوالدى واذن فأنا مدين لك بالشكر يا حامد حتى أوفى ما على أبى نحو أبيك فثق أنى حاميك وحامى من معك بغض النظر عما تقومان به من خير أو شر لأنى اذكر شيئا واحدا هو أنى مدين لك بالجميل فاتبعنى حتى أرشدك الى أحسن مكان أمين تختبىء فيه مع صديقك الأبيض » .

رجعنا بعد ذلك جنوبا الى ناحية التلول مسافة لا نقل عن ألفى ياردة ثم انتهينا الى بقعة شبيهة بالكهف تتخللها ألواح صخرية تحجب من وراءهـا عن الأنظار ولا ريب أن البقعة المذكورة كافية لاختفاء اثنين بالغين من ضخامة الجسم ما بلغا . .

أخذ على واد فيض يسدى الينا نصائحه وتعليماته بعد ذلك فقال « عندما يحين المساء احضرا أمتعتكما الى هذا المكان بالرغم من عدم وجود ما يدعو الى الخوف فى أية ناحية مجاورة لأن التلول التى أمامنا بعيدة عن أقدام الآدميين الا أن الحذر الشديد يدعوكما عندما يجن الليل أن تختارا بقعة آمنة هادئة ملساء لتقضيا ليلتكما عليها بعيدين حتى عن رقابة الجن وقد تدعونى أمانتى الشديدة لكما الى القول بأن من المستحيل أن تكونا واثقين الثقة كلها فى أن بعض الأنظار لم تقع عليكما وأن بعض الناس ما اعتزموا ما كنت معتزما تنفيذه قبل ملاقاة حامد وأعنى بذلك انتهاز فرصـة ظلام الليل للانقضاض عليكما » .

بعد أن انتهى على من قوله الصادر عن اخلاص شديد قال « لقد أطلـت فى حديثى وقضيت وقتـا طويلا بعيدا عن مكانى فسأضطر الى العودة لتسقط الأخبار واستماع ما قد يدور حولكما من نبأ على أن أعود اليكما غدا فى ساعة من ساعات الليل المظلمة

وستعرفاننى بصوت خفيف يشبه الصفير فالى الوداع حتى ألقاكما فى خير غدا » ٠

اصغينا الى نصيحة على واد فيض فاخترنا مكانا للنوم وفى فجر اليوم التالى قبل شروق الشمس عدنا الى كهفنا ثم صعد حامد ابن حسين قبل الظهر الى قمة أحد التلول لمراقبة الناس وكان عمله هذا شبيها بالضابط الذى يقف فى أعلى القلعة لمشاهدة طلائع العدو ٠ ظل حامد ساعات فى مكانه هذا ولم يأت الى المغارة الا عندما أحس بالجوع الشديد وقد قدر لنا أن ينتهى ما معنا من خبز فى ذلك اليوم فلم يبق فى جرابنا سوى مقدار من البلح ٠

بعد أن غربت الشمس بساعتين سمعنا صوتا خفيفا أشبه بالصفير فتأكدنا ان صاحب الصوت هو على واد فيض وقد تحقق ظننا لحسن الحظ حيث وفى صاحبنا بوعده ووصل الينا فى الميعاد المضروب من قبل ٠ ولم يكن على وفيا فى وعده فحسب بل كريما أيضا حيث أحضر لنا فى عزلتنا هذه كمية كبيرة من اللبن فى قربة من جلد الغزال (اعتاد العرب السودانيون دبغ جلود الغزلان الصغيرة واعدادها أوانى للبن) والى جانب ذلك مقدار من الخبز المصنوع من الذرة ٠

قال لنا على عندما وصل الينا وبعد أن سلم علينا « قلت لزوجتى انى خارج لمقابلة ركب الحجيج السائر الى أم درمان لزيارة قبر المهدى ولى الرغبة فى اظهار شىء من الكرم العربى لأولئك المسافرين فى رحلتهم الشاقة وفى الحق لم يمنعنى عن ذكر الحقيقة لها الا خوفى من انتشار الخبر لأن امرأتى ثرثارة » ٠

ابتسمت فى وجه على وقلت له « يظهر أن الأمر واحد فى جميع البلاد فان الكثيرين من الرجال فى بلادنا الأوربية يشكون

من نقل الحديث بواسطة زوجاتهم » فارتاح كل من حامد وعلى الى قولى هذا وبعد الانتهاء قال على « جبت الوادى الضيق وسرت الى مجالس الكثيرين من العشائر ليلة الامس وصباح اليوم فلم أسمع ما يخيفكم فكلا واشربا مرتاحين مسرورين لانى على ثقة تامة فى حظكما الحسن » •

قبل أكل الخبز الشبيه بالكعك وشرب اللبن قدمنا الشكر الجم لعلى ازاء هديته الثمينة ثم طلبت منه بعد ذلك أن يرجع الى بيته حتى لا يثير الريب والشكوك فى نفوس أبناء عشيرته بعد تغيبه الطويل عنهم ، ثم أسرت الى حامد أن يمنح عليا خمسة ريالات قبل رجوعه الى بيته •

عندما استأذن صاحبنا على فى الانصراف قلت له « نود أن نراك دائما ايها المخلص الوفى ولكن الخير فى أن ترتاح فى بيتك وأن تبتعد عما يثير اى شك لأن ذهابك وايابك يثيران الريبة بين رجال قبيلتك وقد تترك خطواتك أثرا بارزا على الرمال يستطيع بواسطته متعقبونا أن يهتدوا الى مكان اختبائنا هذا ، ولا نطلب منك العودة الا فى حالة سماع أخبار غير سارة تستدعى هروبنا الى مكان جديد ، واذن فالوداع من أخ يشكر لك جزيلا ما قدمته له من ولاء واخلاص » •

سار حامد بن حسين بعد ذلك مع صديقه على واد فيض بضع دقائق وبعد رجوعه قال لى « رفض على قبول الريالات الخمسة رفضا باتا ولم أستطع التغلب عليه واقناعه بقبول الهدية البسيطة الا بعد أن أكدت له بأن رفض المبلغ يكدر خاطرك ــ المؤلف ــ » •

بعد أن سافر على الى بيته وعاد حامد الى الكهف قضينا (حامد وأنا) فترة صغيرة فى الكلام ثم سرنا الى مكان النوم الهادىء

حيث قضينا ليلتنا الى صباح اليوم التالى دون أن يعكر صفو النائم قلق أو اضطراب ، وعند اشراق الشمس عدت الى الكهف وسار حامد الى قمة التل لمراقبة الناس كما عمل فى اليوم السالف ، ومما أذكره عن ذلك اليوم أنه مر ساكنا دون وقوع اى حادث مزعج ولكنني أذكر الى جانب ذلك أنه كان طويلا علينا حتى خيل لنا أن ساعاته أطول من الساعات اليومية العادية . فكانت كل ساعة من ساعاته يوما كاملا حيث مرت الأفكار المتعاقبة وأخذت أذكر سنى الأسر وحوادث العسف والاضطهاد وفى الحق كنت صبورا جدا على ذلك المضض وســـواء أصبرت أم لم أصبر فلم يكن أمامى ما يعزينى فى نكبتى وما يفرج عنى بليتى سوى اعتقادى الراسخ فى لطف الله وفضـــله وثقنى فى قرب تمتعى بحرية دائمة صحيحة هى تلك التى خلق الناس ليتمتعوا بها فى الحياة .

قبل انتهاء كمية الماء التى فى قربتنا ذهب حامد الى الشقوق القائمة بين الصخور المجاورة ليملأ القربة وفى الوقت نفسه فكر فى احضار الماء للجملين اللذين أنهكهما التعب من قبل والأكل الرديء الآن لأنهما لم يجدا من الطعام سوى أوراق الأشجار والاجمات . قال لى حامد قبل ذهابه للشقوق « سأرجع بعد أربع ساعات تقريبا فالتزم السكون والهدوء فى مكانك واذا ظهر فى مدة غيابى القصيرة أى مخلوق آدمى ــ وأسأل الله ألا يظهر فى تلك الفترة أحد ــ فأخبره أن حامد واد شيخ حسين قادم بعـــد قليل من الزمن لأن الشخص الذى يظهر سيكون من أبناء وطنى بلا جدال فان الشخص الغريب يخشى المجيء الى ناحيتنا ومهما يكن الأمر فلا تخض مع الشخص ــ الذى يظهر لك ــ فى الحديث وأول ما أحذرك منه هو سفك الدماء فلا ترق دم أحد مهما ارتبت فيه وانتظر حتى أعود اليك » .

أجبته على الفور « سأنفذ نصيحتك مهما تكن الحال وعلى أى حال فأنا واثق أنك ستجدنى فى هدوء وأمن عندما ترجع الى » .

بعد ان غاب حامد عنى بضع ساعات عاد وقربته مملوءة بالماء ثم قال لى « لقد سرنى وجود الجمال فى حالة أحسن بكثير من الحالة التي كانت عليها وقت وصولنا الى ناحيتنا وعلى الأقل هي في راحة كافية » وبعد ذلك أظهر لى أنه فى جوع شديد ولم يكتم حاله حيث قال لى « أعطنى كمية من البلح لأنى جوعان وسأضطر الى العودة لقمة التل لمراقبة الناس » .

مر ما تبقى من يومنا فى هدوء وأمن ولكنه كان بطيئا علينا كيومنا السابق وعندما جن الليل سحب كل منا شخصه الى مكان النوم وبعد أن تحدثنا بصوت خافت جدا بعد أن دعونا الله أن يبقى لنا نعمة الصبر نام كل منا ملء جفنيه حتى صباح اليوم التالى .

ذهب حامد صباح الخميس الى مكان المراقبة المعروف وقبيل الظهر شاهدته نازلا بسرعة من قمة التل فأسرعت الى تجهيز بندقيتى .

قبل وصوله الى سألته عن الخبر فأجابنى « انى أشاهد رجلا متجها بسرعة الى مكاننا الأول الذى كنا فيه قبل مجيء على واد فيض فلا بد أن يكون هناك شيء مهم فانتظر فى مكانك لأنى سأذهب لملاقاة ذلك الرجل على أن أرجع اليك بعد ذلك » .

جلست فى مكانى وانتظرت مدة خيل الى — رغم قصرها — أنها الأبد الطويل ثم رفعت بصرى بحذر فاذا بى أشاهد رجلين من مسافة بعيدة قاصدين مكانى . وقد تمكنت عيناى من تقرير أن القادمين هما حامد بن حسين وزكى ابن بلال . فخرجت من مغارتى وحينذاك أسرع زكى قائلا بأعلى صوته « السلام عليكم يا سيدى فابتهج بالا لأنك ستسمع ما يرضيك ويسرك » وبعد أن سلم على يدا بيد

قال « حضرت ومعي جملان جديدان كاملا القوة وقد خبأتهما فى مكان أمين مجاور لبقعتنا هذه وسأرجع الآن لاحضارهما » .

لم تمض ساعة حتى أحضر زكي الجملين . فقلت له بسرور كلي « انك سريع جـــدا فى عملك العظيم فأخبرنى قصـــتك منذ غادرتنا » .

أجابني زكي « غادرتك مساء السبت الفائت فركبت جملي طول الليل وسحابة اليوم التالى ـ الأحد ـ وقد كان جملي بشارن موفقا فى سيره السريع رغم وعورة الأرض وفى صباح الاثنين وصلت الى أصدقائى وفي الحال عني أولئك الأصحاب باحضار الجملين اللذين تراهما الآن ولبعد المسافة لم نتمكن من الحصول على الجملين قبل صباح الثلاثاء فغادرت المكان وقت الظهر وسرت سيرا بطيئا فى عودتى حتى لا أتعب الجملين وتأكد أنـــا نستطيع الآن مبـــاشرة رحلتنا . وقد سهوت أن أخبرك بأن أصدقائى بعد أن تكلموا معي ذهبوا الى الخيمة القائمة على رأس الصـــحراء لاعطاء التعليمات لرجال مخصـوصين للاستعداد وقت الطلب وقد أخبرتهم بأنا قد نصل اليهم مساء الجمعة أو بعد غروب الشمس يوم السبت على أقصى تقدير » .

سألت زكي بن بلال بعد ذلك « هل أحضرت معك خبزا ؟ فأنا لا نملك من الطعام سوى كمية من البلح » فأجابني « انى شديد الأسف لنســيان ذلك الأمر الحيوى وقد يرجع ذلك الى عجلتى الشديدة » فهونت عليه الأمر عندما شاهدته مطاطىء الرأس وقلت « لا أهمية للخبز لانا نستطيع اتمام رحلتنا القصيرة هذه حتى دون الاستعانة بشيء من البلح » .

قال حامد لزكي « أسرج الجمل الخفيف اللون ثم اذهب مع صديقنا وأخينا الى الصخرة العميقة واسق الجمال ماء ثم انتظرني

هناك وأما أنا فسأحمل السرج على ظهرى وأسير وراء جملى الذى يستطيع بعد راحته أن يقطع المسافة القصيرة الباقيـــة لغاية تلك الصخرة ، ولكن أرى من الخير ألا تذهب مباشرة الى عين الماء بل عليك أن تختفى فى بقعة مجاورة حتى تصل اليها فمن المخاطرة أن تسير مباشرة الى مكان الماء لأنا لسنا موقنين بأن المكان غير مطروق بأقدام الرعاة ، ففى الأرض جمال كثيرة تحتاج الى الماء » ٠

سرت مع زكى وفى يدى قيادة أحـــد الجملين قاصـدا معه (زكى » الصخرة التى تنبثق منها الميـاه ثم اختبـــأت فى مكان أرشدنى أليه رفيقى ٠

قبل غروب الشمس بساعتين حضر حامد وزكى بثلاثة جمال ارتوت قبل حضورها وحمـل كل من الصديقين قربة مملوءة بالماء وحال وصولهما ركب ثلاثتنا الجمال الثلاثة وسرنا فى طريق شرقية شمالية معرجين الى الناحية الشرقية مخترقين التـــلال التى كانت فيما مضى وعرة جدا وعسيرا تسلقها ولم يكد يرخى الليل سدوله حتى وصلنا الى المستوى الفسيح بعيدين عن أنظار الناس ٠ واصلنا رحلتنا طول الليل بدون وقوف وكان سيرنا على الجمال بطيئا شبيها بالسير العادى وعندما بدأ نور الفجر بشرنا حامد بأنا قطعنا ما يقرب من نصف المسافة فى طريقنا الوعرة وفى رحلتنا الخطيرة ٠

واضاف حامد الى ذلك « انا اليوم فى أخطر وأدق أيام رحلتنا لأنا أصبحنا مجاورين لشاطىء النيل وسنضطر الى اجتياز مراع تابعة لقبائل النهر فنسأل الله اللطيف بعباده أن يصل بنا الى غرضنا دون وقوع عيون المراقبين علينا » ٠

فى طول رحلتنا هذه لم يتغير منظر البلاد الخلوية الصحراوية الا فى القليل النادر الذى نجد فيه بقاعا من الأعشاب يتخللها بعض

أكمات الميموسا • أما الأرض فى غالبيتها فرملية تنتشر الأحجار فى بعض نواحيها •

سرنا فى رحلتنـــا الأخيرة دون وقوف فى الطريق ولم يكن لدينا من الطعام سوى التمر الذي أكلناه على ظهور جمالنا وعندما بلغت الشمس سمت الرأس شاهدنا قطيعا من الغنم يقوده بعض الرعاة فاضطررنا الى تحويل خط سيرنا حتى لا يرونا وعندما شعرنا أنهم شاهدونا أسرع زكى بن بلال بجمله اليهم ليلتقط الأنباء وبعد أن قابلهم رجع الينا نطمأننا بأنهم لا يعرفون شيئا عنا وعن هروبنا من أم درمان • تابعنا السير فشاهدنا آثار خطوات جمال وماشـــية وحمير فخسينا وقوعنا فى قبضة المتعقبين ولكنا حمدنا الله لأن الناس لم يظهروا فى ذلك الوقت وبعد قليل من رحلتنـــا وصلنا الى جزء منبسط فسيح من الأرض مرة أخرى •

قال لى حامد « هل تشاهد البقعة الرمادية اللون القائمة على مئات من الياردات أمام خط سيرنا ؟ تلك طريق الفوافل من بربر الى وادى حمير ودار شيفية فاذا ما اجتزنا تلك البقعة بعيدين عن الأنظار فليس بعد ذلك ما يخيفنا لأن كل ما بين تلك البقعة والنهر عبارة عن أرض حجرية لا أثر للاقدام فيهـــا ولا شىء من النبـــات أو الأعشاب بين جهاتها واذن هى بعيدة عن أقدام الآدميين وعلى أية حال من الواجب عليك أن تنصت لكل تعليماتى من الآن وأولها سير الجمال ببطء حتى اذا ما قطعت جمالنا خمسمائة خطوة أو يزيد وصلنا الى مكان الأثر وبعدئذ نتحول فى الطريق المؤدية الى بربر سائرين بضع دقائق • ثم نغير سـيرنا مرة أخرى الى الجهـــة الشرقية » •

بعد أن انتهى حامد من ذلك القول سكت سكوت الموافقة ثم قال لى « هل ترى تلك الرابية الصخرية الواقعة على بعد ثلاثة أميال

تقريبا ؟ هناك سنجد مكانا أمينا هو الوحيد الذى نستطيع عنده تضليل متعقبينا بحيث لا يقفون على أى أثر لأقدامنا » .

أصغينا الى تعاليم وأوامر حامد فاجتزنا طريق القوافل التى لا يجتـــازها الناس الا فى القليل وأكبر امتيـاز لها اختفاء آثار العابرين . وعلى أية حال نقابلنا فى المكان المعين .

ابتسم حامد فى النهاية وقال لى « حث الجمال على الســير ولا تستغن عن أقصى مساعدة ممكنة من تلك الجمال الأمينة لأنا الآن فى شديد الحاجة الى خدمتها ومهما يكن الأمر فقد انتهى كل شىء على خير ووفقنا الله توفيقا عظيما » .

منذ غادرنا أم درمان لم أشاهد ابتسامة واحدة فى وجه حامد قبل هذه الأخيرة فأدركت فى الحال أنا نجونا من الخطر بمحاذاتنا شاطىء النهر .

واصلنا السير وكل منا يضرب جمله الشديد التعب بدون رحمة حتى تركنا صفا من التلال الى يميننا ووصلنا الى قرابة .

أما قرابة هذه فعبارة عن نجـــد رملى التربة مغطـاة أرضه بحجارة سوداء تختلف فى حجومها من القطعة المماثلة لقبضة الرجل الى القطعة المماثلة لرأسه ومما تمتاز به تلك الحجارة فى الأرض المذكورة أنها قائمة فى صفوف منتظمة يخيل لمن يشاهدها أن أفرادا عنوا برصفها على ذلك النسق البديع والى جانب الحجارة توجد صخور فردية يبتعد كل منها عن الآخر مسافة تكاد تكون واحدة فى جميع الصخور . ولا شك فى أن الجمال تعجز عن السير بسرعة فى

متل ذلك الخط الحجرى الصخرى وذلك مما يساعدنا فى خطتنا ومما نعده توفيقا جديدا لنا بعثه الله لتسهيل نجاتنا ٠

قبل أن تغرب الشمس ظهر لنا من بعيد ذلك النيل السعيد بمياهه العذبة فكان موقعه بين الأراضى المجاورة شـــبيها بالخط الفضى اللامع وسط البقعة المعدنية بما فيها من ألوان قاتمة وخضراء ورمليـــة ٠

تدرجنا من أعلى النجد فى طريق ملتوية يزيدها وعورة ظلام الليل وما زلنا فى سيرنا البطىء على الجمال حتى وصلنا الى واد قائم بين تلال حجرية ٠ وبعد وصولنا وقفنا لاراحة جمالنا التى أنزلنا السرج عنها وكنا راغبين فى السير على الاقدام ما يقرب من ساعتين حتى نصل الى شاطىء النهر ٠

جلس حامد وزكى على الأرض بعد انزال السروج عن الجمال الثلاثة وأخذا فى عملية أكل البلح بذمة وأمانة وبينما هما يأكلان قالا لى معا « قربنا الى الغاية التى سعينا اليها منذ فكرنا فى الهروب فانتظر هنا مع الجمال الثلاثة لأنا (حامد وزكى) سنذهب الى بقعة ورة للنهر نعرفها جيدا وفى تلك البقعة ستلتقى بأصدقائك الذين يسهلون لك بقية رحلة النجاة ٠ تركنى الصديقان وبقيت وحدى تأملا فى المستقبل وقد مرت أمام مخيلتى فى تلك الأثناء صور فراد أسرتى وصورة مجســـمة لوطنى العزيز وبعد أن تعبت من تفكير انطرحت بجسمى المنهـــوك القوى على الأرض فنمت أستيقظ الا قبل نصف الليـــل فلم أجد أحـدا من الصديقين حامد وزكى) فداخلتنى الوساوس وتأكدت أن عدم حضورهما سيحول دون عبورى النهر فى الفرصة الملائمة ليلا ٠ وعلى أى حال صبرت حتى سمعت قبل الفجر بساعتين وقع أقدام فتبينت القادم فعرفت أنه حامد ٠

سألت حامدا عن الأخبار فى حالة فزع وقلق فأجابنى بما جلب لى اليأس قائلا « لا شيء مطلقا فانا لم نتمكن من العثور على أصدقائك فى المكان المعين فرجعت اليك لأنك لا تستطيع البقاء هنا بمفردك بعد بزوغ الفجر لأنك قريب جدا من مساكن الآدميين فليس يدعا أن نسع عليك أنظار الرقباء • ولذلك عدت بعد ان تركت صديقى زكى للبحث عن أصـــدقائك الجدد الذين سيسهلون لك مهمتك الجديدة النيلية فاحمل القربة المائية وجراب البلح على كتفك لانى من التعب بمكان لا أستطيع معه حمل شيء أكثر من جسمى الذى تحمله قدماى واعلم أنه يتحتم علينا الرجوع الى قرابة حيث تظل هناك الى انتصاف النهار مختفيا بين الأحجار والصخور •

أصغيت الى أوامر حامد ونفذتها فوصلت الى النجد بعد مسير ساعة مع حامد وبعد أن سرنا مسافة أخرى فى الظلام وقف حامد فجأة وقال لى « قف هنا واصنع حلقة من الأحجار كتلك التى يصنعها رعاة الجمال فى الشتاء لوقاية أنفسهم من البرد الشـــديد وبعد الانتهاء من صنع تلك الحلقة نم فى جوانبها الداخلية وانى مسرور لأنك متين فى صنعها الآن حتى أنك تكاد تكون عربيا كأنك واحد منا نحن عرب السودان وتأكد أنى سأحضر اليك فى المساء لارى الحال التى أنت عليها وأما الآن فسأرجع الى الجمال • • فلا تخف ولا ترتب فى أى شخص قد يراك لأن رجال الناحية التى أنت فيها يعرفوننى جيدا فاذا سألنى أحدهم أى سؤال أجبته بأنى حضرت من شيفيه لمشاهدة بعض المقيمين هنا • ومن حسن حظى وجود بعض أقارب لى فى هذه الناحية » •

رجع حامد الى الجمال وبقيت أنــا وحدى فى بقعــة منعزلة مخيفة النظر •

أقمت الدائرة الحجرية وكان ارتفاعها نصف متر ولم أجعل في الداخل مكانا لغير جسمي وقربتي وبندقيتي فلم يكد يشتد وضح النهار حتى انسحبت الى مغارتي الصغيرة وحفرت في أرضها الرملية بقعة عميقة تمكنت فيها من القاء ظهري ومد جسمي بحيث لم يرني أحد وفي ذلك الوقت تدفقت الى رأسي ذكريات الماضي وآمال المستقبل وفكرت بصفة خاصة في الماضي القريب حيث غضب الحريقه عبد الله ونقمته الشديدة على بعد هروبي ولم يخفف عني العزع في ذلك التصور سوى مرور صور أحبائي وأقربائي بمخيلتي في الوقت نفسه • ومازلت أعلل النفس بالآمال والأماني رغم اشتداد العقبات وخطورة الموقف ولكني بعد ذلك وجمت فساءلت نفسي عن التغيير الذي حدا بي الى مظهر الخوف الجديد وعن الداعي الى عدم تمسكي بمبدأ الصبر ومهما يكن الأمر فاني كنت في أشد اوقات الخطر بعيدا عن الاستسلام الكلي للقنوط كما كنت منذ غادرت أم درمان واثقا في حظي الحسن وتوفيق الله اياى الا أن ذلك لم يمنع شعوري اليوم شعورا خاصا بالخوف وقد يرجع ذلك الى الشبه القائم بين مغارتي الصغيرة هذه وبين القبر الذي قد يضمني في القريب العاجل • أعود فأقول ان القبر مصير كل حي وان الناس بالغين من أعمارهم ما بلغوا سيصلون الى القبور التي ضمت آباءهم وأجدادهم من قبل • فسواء أطال عمر الانسان أم قصر فانه لن يصل في النهاية الى غير تلك الحفرة الضيقة وأذن سأموت كما مات الناس ويموتون ولكن الصعوبة في شيء واحد اذا مت هنا وذلك موتي منبوذا مهجورا غير مودع أعزائي وأقربائي • فيا ساكن السماء ومسير الفلك الدوار لاتتخل عني وكن رحيما بعبدك في ذلك القفر لوحش • فارحم اللهم عبدك الاثيم ولا تعاقبني على ذنوبي فقد طلبت لغفران من جلالك وأنت الواسع الغفران • اللهم ارحمني ؟ والطف بي واسمح لي بمشاهدة أصدقائي وأعزائي والرجوع الى وطني العزيز مرة أخرى قبل موتي ! » •

بعد أن ناجيت الماضي وذكرت آمال المستقبل الزمت الصمت مرة اخرى وفى نهاية الأمر فكرت فى الأمر – على الرغم من تأخير صاحبي – فانتهيت الى أن الذى أنقذنى فى بداية رحلة النجاة قادر على انقاذى فى الختام ·

مرت بمخيلتي الآمال فذكرت انى ساعبر النهر هذه الليلة ثم اجتاز الطريق وأصل الى الصحراء غدا وفى مدى يومين أو ثلاثة ساجتاز كل خطر وأصبح فى أمن كلى بحيث استطيع الاسراع بملاقاة من تمنيت السنين الطوال أن احظى بهم فى خير ·

بعد أن انتهيت من ذلك التفكير ابتسمت مرة أخرى ابتسامة مملوءة بالنعمة والأمل من عطف الله وعونه. ثم مسكت مصطفى الصغير ولففت به وجهى حتى انى نفسى من حرارة الشمس ومن انظـــار المراقبين · ثم بقيت منتظرا ما يقدره لى ربى وأنا على ثقة تامة فى الخير · بعد مرور الظهر بقليل سمعت صــــوتا خفيفا فرفعت رأسى ونظرت من خلال الأحجار المترامية فصدق ظنى حيث عرفت أن القادم هو حامد الذى أقبل الى بابتسامة الصديق المخلص قائلا لى « أسعد حالا وأبشر فقد وجدنا الأصدقاء المعينين لمرافقتك » فطرت فرحا عندما سمعت هذا القول وتيقنت أن نجم سعدى قد تجلى فى الأفق مرة أخرى ·

عندما أقبل حامد جلس خــــارج الكومة الحجـرية ثم قال تستطيع « أن تفرج عن نفسك الآن وتخرج من مغارتك الضيقة هذه لأنى عينت لك مراقبين فى الجهات المجاورة ينقلون الينا كل ما يحدث حولنا · فلا تخش شيئا لأن صاحبنا زكى وجد الرفاق الجدد الثلاثة وقد حضر الآن واحد منهم الينا ليعرف مكان اقامتنا وهم جميعا على استعداد وسيحضرون الينا ماء ولكنى أحذرك أشد الحذر وأنصح

لك بالابعاد عن كل ما يريب لأن هروبك من أم درمان أصبح معروفا في المنطقة التي نحن فيها • فتعال معي الان او انتظر حتى يحين الليل وعلى أى حال فانا ذاهب الآن فهل تستطيع معرفة الطريق بمفردك ؟ وهل ترغب في عودتي اليك لأخذك معي ؟ » .

فأجبته « لا داعي لعودتك مرة أخرى لأني أعرف الطريق وسألتقي بك في المساء » •

عندما غربت الشمس حملت بندقيتي وقربة الماء على ظهري وتركت البقعة التي مرت بمخيلتي فيها تذكارات مؤلمة وآمال كبار • وعندما وصلت الى الرفاق الجدد وجدت اثنين منهم فرأيتهما غريبين عني رغم بقائي السنين الطوال في السودان بين أبنائها •

حياني ذانك الرجلان وقالا لي « قد أرسلنا اليك صديقك أحمد واد عبد الله ونحن من قبيلة جهماب وسنسير بك الى النهر حيث يصل الينا أحمد واد عبد الله نفسه لمساعدتك في اجتياز النهر وستكون الجمال على انتظارنا في الشاطيء الثاني من النهر لتعبر بنا النهر والآن فلتودع صديقيك القديمين لأن مهمتهما قد انتهت » سلمت بعد ذلك على صديقي المخلصين الحميمين حامد وزكي وشكرت لهما اخلاصهما بكلمات خارجة من أعماق القلب ، ثم قلت لهما « أودعكما وكلي ثقة في الالتقاء بكما في وقت سعيد هو وقت السلم والأمن » •

أخذنا (أنا والرفيقان الجديدان) جملين وتركنا الثالث ليصديقيّ القديمين فارتقيت الى ظهر الجمل وركب خلفي أحد الصديقين الجديدين •

سألت هذا الجديد « ما اسمك ؟ » فأجابني قائلا « يدعوني الناس باسم محمد وأما اسم صديقي فاسحاق » سألتـــه بعدئذ « هل تجتاز معي الصحراء يا محمد ؟ » فأجابني بقوله « لا يا سيدي فهناك من كلفوا بتلك المهمة وعلى أية حال فالخير في أن يسير الجمل سيرا بطيئا ويحسن بك أن تغطي وجهك على الرغـــم من الظـلام الشديد . فقد وردت الأوامر من بربر من ثلاثة أيام بمراقبة الطرق مراقبة دقيقة ووضعت الطرقات المائية تحت مراقبة شديدة أخرى ومهما يكن الأمر فلا خوف عليك من بلدنا » .

بعد أن سرنا بجملينا ما يقرب من ساعتين في طريق شرقية شمالية بانحدار شرقي وصلنا الى النهر . وتمكنا قبل نزول النهر من سماع أصوات الآلات المائية وكلام وضحك العبيد وزوجاتهم .

عندما وصلنا الى كومة صغيرة من أوراق الأشجار همس محمد في أذني « ادع الجمل للبروك ببطء ورفق حتى لا يصدر منه صوت يلفت الأنظار » .

برك الجملان على الأرض ولم يصدر منهما صوت على الاطلاق وقد تركني الاثنان على أن يعودا مع أحمد فبقيت منفردا في الظلام الحالك واستمررت على ذلك نحوا من ساعة وأخيرا رأيت أربعة رجال قادمين . فأسرع أطولهم نحوي وضمني الى صدره وعانقني طويلا قائلا لي في صوت خافت « أنا أخوك أحمد عبد الله من قبيلة جهيماب وأول ما أطلبه منك هو أن تصدق قولي وهو أنك بحمد الله ناج من كل خطر وأما أنتما يا محمد ويا اسحاق فاخليا السرجين عن ظهري الجملين في رفق وتؤدة ولا تسمعا أحدا من الناس صوتا ثم انفخا القربتين الفارغتين واربطاهما حول رقبتي الجملين ثم اعبرا النهر من شاطئه في نقط ومواضع مختلفة ثم انتظرا أوامري غدا على مقربة من دار « مقاتلة الثيران » .

التفت الى أحمد واد عبد الله بعد ذلك قائلا « اتبعني » وحمل أحمد سرجا وحمل الرجل الرابع سرجا آخر ثم سارا فتبعتهما وبعد بضع دقائق وصلنا الى شاطىء نهر النيل المقدس حيث وجدنا في ركن صغير قاربا صغيرا يكفي بالجهد لحملنا وقد صنع اصدقائي الجدد هذا القارب بأيديهم .

نزلنا الى حافة النهر وركبنا القارب الصغير الذى أقلع بنا الى حيث يريد بنا الله وقد استغرقت عملية عبور المجرى اكثر من ساعة وعندما وصل الى الشاطىء الثاني صعدنا الى الأرض ورجع أحد الرفاق بالقارب الصغير ثم صنع فى قاع (القارب) ثقبا واسعا فغرق القارب والغرض من ذلك اخفاء كل أثر لعبورنا النهر .

أما نحن فسرنا على الناحية البرية ما يقرب من نصف ساعة وعندما وصلنا الى بقعة خاصة طلب منى أحمد عبد الله انتظاره لأنه ذهب لاحضار طبق مملوء باللبن ومقدار من الخبز .

قال لى أحمد بعد عودته بالطعام « كل واشرب ولا تفكر فى شىء فقد اجتزنا الخطر وأقسم لك بالله وبنبينا أنك نـاج وأن الله سيمتعك بملاقاة أحبائك جميعا » كنت عازما ومفكرا أن تتم رحلتك الليلة ولكن أرى الوقت متأخرا جدا فالخير فى بقائك هنا الى مساء الغد، وعلاوة على ذلك فانا مضطرون الى أن نسقى الجمال غدا وبما أنا قريبان هنا من مساكن الناس فسيسير بك ابن أختى (ابراهيم على) الى مكان بعيد نوعا لا تصل اليك فيه عيون الرقباء . فانتظرني هناك وسأحضر لك دابة تركبها أما اذا كنت شاعرا بالقوة على قطع المسافة على قدميك فانى أستغنى عن احضار الدابة » فأجبته على الفور « انى قوى ولا ريب فى أنى قادر على المشى فأين ابراهيم على ؟ » .

أجابنى أحمد « هو الى جوارنا وسيكون مرشدك فى الصحراء المقفرة » ٠

كنا حقا فى ليلة مظلمة يزيدها ظــلاما ما فى مخيلتى من وساوس أصرح بأنها ليست مرعبة كما كانت الحال قبل اجتياز النهر ٠ والآن فلنترك الوساوس لنرجع الى ما حدث فى الرحلة فأقول ان ابراهيم ذهب أولا بقربة فارغة فى يده سائرا فى طريق القوافل الموازية للنهر الى أبى حمد ، وقد تبعت صاحبى الجديد هذا وبعد أن سرنا ما يقرب من ثلاثة أميال انجليزية نزل ابراهيم الى النهر وملأ القربة ثم غير خط السير بعد ذلك متجها الى الطريق البرية ٠ أما السير فكان شــاقا جدا لأن الحجارة الضخمة التى غطت التلال وقامت حواليها عاقت سيرنا السريع أما عن شخصى فكنت كاليائس فى سيره أتخبط مرة نحو اليمين فى ذلك الحجر وأتسكع أخرى نحو اليسار فى ذلك التل ، كأنما أنا فى أقبح حالات السكر وما زلنا فى حالنـا هذه حتى وصلنــا الى حفرة فى الأرض فأمرنى ابراهيم بالوقوف عندها حيث قال لى بعد صمته الطويل « هذه هى البقعة التى عينها لى خالى فانتظر هنا هادئا وفى مساء الغد سأحضر الجملين لمواصلة الرحلة وسأترك لك الخبز والماء فأودعك الآن لأنى مضطر الى القيام بجمع معداتنا وأرجو أن ألقاك فى خير غدا » اذن بقيت وحدى مرة أخرى لا يرافقنى سوى ضوء الشمس واختلاف الأفكار ، ولكننى على أية حال كنت محتملا ولم يكن الليل بساعاته القليلة الباقية وصباح اليوم التــالى بالشىء الكثير غير المحتمل، لأنى نجوت من الخطر بعد عبور النهر واقتربت من الوصول الى أحبائى ووطنى ٠ غربت شمس يومنا الجديد وبعد غروبهــا بساعة سمعت صوت سير حيوانات مسرعة نحوى فنظرت بدقة واذا بى أجد أحمد عبد الله وفى صحبته رجلان على حمارين ٠ أقبل أحمد مسرعا نحوى وضمنى الى صدره مبتسما ثم قال « الشكر لله

الذى نجاك وينجيك ، وأما الرجلان اللذان معى فهما شقيقاى وقد حضرا معي ليسألا لك السلامة » •

حييت الرجلين الجديدين تحية اخلاص ثم ادرت وجهى الى أحمد وقلت له « ولكننى لا أفهم حقيقة ما جرى وأدرك من شكركم المتكرر لله أنى نجوت من خطر عظيم » فأجابنى أحمد بالطبع لم تعرف ما تم ولم تسمع عن الخطر العظيم الذى نجوت منه بأعجوبة فاصغ الى أحدثك مليا ! منذ ثلاثة أيام علم زكى عثمان أمير بربر ـ ولا نعرف المصدر الذى علم منه ـ أن الحامية المصرية فى مورات حصلت على امدادات جديدة كبيرة الأهمية وعظيمة الأثر رغبة فى مهاجمة القوة المهدية فى أبى حمد . فاضطر زكى عثمان الى ارسال مدد يدفع غارات المصريين ، وبالفعل قام اليوم من بربر ستون فارسا وثلاثمائة بيادة ومروا بمساكننا ولا شك أنك تعرف المحاربين أنهم يسمون الأنصار وهم فى مجموعهم ضخام الأجسام مفترسون أقرب الى الوحوش ـ فى الفتك بالناس ـ منهم الى الآدميين •

أثناء مرور أولئك كنا نجهز لك قسما من خروف ذبحناه ليكون زادا لك فى الطريق فدهش الجنود عندما رأوا ما نقوم بتجهيزه وبعد أن ارتابوا فى عملنا تفرقوا ونهبوا منا ما نهبوه وقد كنت حقا شديد الحذر من ناحيتهم وشديد الخوف على ما قد ينتابك من عسفهم اذا صادفوك فى طريقهم ، ولكنى أحمد الله الآن لأنهم اجتازوا الطريق الى أبى حمد ولتصحبهم لعنة الله وليصحبنا نصره وعونه فلجلاله الشكر الدائم ازاء حمايته لنا » •

صحت بعد ذلك فترة هى فترة الذهول بعد نجاتى من ذلك الهول المروع ثم سجدت فى خشوع كامل للخالق الصمد الذى نجانى من ذلك الخطر العظيم بعد اذ لم تكن نتوقعه •

علمت بعد ذلك أن الجنرال كتشنر باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى وصل الى وادى حلفا للقيام بالمناورات المعتادة وان الضابط ماتشل بك قاد الأورطة السودانية الثانية عشرة ومائتين من الهجانة الى حلفا من كورسكو عن طريق مورات وهذا سبب الاشاعة عن تقوية حامية مورات وعن الهجوم المزعوم على أبى حمد ٠

قال أحمد « بعد ذلك ستتأخـــر الجمال قليلا لأنى امرت باسراجها فى داخل الحدود أثناء مجىء الدراويش خـــوفا من أن يستعملها الآخرون ـ اذا رأوها ـ فى نقل الذخيرة وبعض الحقائب العسكرية فاذا كنت شاعرا بالرغبة فى البقاء هنا الى صباح الغد فانى موافقك على عملك لأنا نستطيع بذلك الحصول على جمال مملوءة بالقوة) ٠ فأجبته على الفور (انى لا أرغب فى أى تأخير وأفضل فى جميع الأحوال القيام بالرحلة حالا فان تأخير المدد والحاجة الى جمال كاملة القوة لا يحولان دون الاسراع فى الرحيل وعلى أية حال فانى مملوء ثقة بأن الجمال ستصل الينا سريعا ٠

قبل منتصف الليل وصلت الينا ثلاثة جمال صـــحبة اثنين قدمهما لى أحمد عبد الله قائلا لى (هذان مرشداك الجديدان ابراهيم على « ابن أخى » ويعقوب حسن أحد أقربائى الاخصاء وسيسير بك هذان الى الشيخ حامد فضاى زعيم عرب الاعراب الخاضعين للحكومة المصرية ، وهذا الأخير سيعينك فى الوصول الى أسوان) ٠

بعد ذلك ملأنا قرب الماء وواصلنا رحلتنـــا ٠ وعند البدء فى الرحيل قال لى أحمد بن عبد الله (أرجوك أن تتجاوز عن التقصير فى اتمام معدات الرحلة فان الخطأ ليس من ناحيتى ولئن حرمت من الأكل الطيب فلديك من البـــلح والخبز ما يكفى لمقـــاومة غائلة الجوع) ٠

ركبنا الجمال ثلاث ساعات ونصف ساعة في طريق شرقية شمالية نحو الجانب الشرقي وكان ذلك قبل اشراق الشمس وعندما بزغ نور الفجر وجدنا أنفسنا في الجهة الشرقية من وادي الحمير (سمي باسم الحمير البرية التي تسكنه ويكاد هذا الوادي يخلو من النبات) .

تقدمنا في سيرنا فدلت الطلائع على أنا في صـــحراء حيث شاهدنا الرمال الممتدة في كل ناحية وبقايا التلال في بعض الجوانب ولم نجد على الاطلاق شجرة أو شيئا من الزرع الأخضر . وبعد أن سرنا على تلك الحال يومين كاملين ـ دون استراحة على وجه عام ـ وصلنا الى تلال نوراني التي كانت محتلة فيما مضى بقبائل عرب بشارن . يمتد هذا الوادي في اتجاه شمالي شرقي في معظم جهاته وتتخلله منحدرات وعرة تقوم على جوانبها أشجار الميموسا. وفي تل جانبي من تلك التلال توجد أشجار مسماة باسم التل العام « نورانية » .

حدق ابراهيم على ناظريه من أعلى الجمل فتفقد الوادي فرآه خلوا من الناس فنصح لنا بدخوله فدخلنـــاه ثم أسرعنا في ارواء جمالنا بالماء العذب وملء قربنا الثلاث أما البئر فنـــازلة في قاع الوادي ما يقرب من عشرين قدما ومتجهة الى ناحية مركزية على بعد خمس وعشرين ياردة والنزول الى عمق البئر بواسطة مدرجات حجرية صلبة ، وبما ان الآبار في السودان أماكن اجتماع الناس فضلنا ترك البئر والذهاب الى مكان في داخـــل الوادي فتركناها (البئر) وواصلنا سيرنا الى الداخل مدة لا تقل عن ثلاث ساعات مجتازين تلال نوراني .

كان الفرق عظيما بين المرشدين القدماء والجدد ، فالسابقون كانوا ممتلئين شجاعة واخلاصا وعلى استعداد لتضحية حياتهم في

سبيل انقاذ حياتى أما اللاحقون فعلى النقيض من ذلك لأنهم كانوا دائما يتذمرون من عملهم الذى يخيل لى أن أحمد عبد الله أجبرهم عليه اجبارا ولم يتأخروا عن اظهار غضبهم لأنهم لا ينامون النوم الكافى ولا يأكلون الأكل الجيد · وانى أذكر جيدا أن اهمال ابراهيم على ويعقوب حسن أدى الى اضاعة حذائى وصندوق خاص لى فى الطريق وقد سبب لى ضياع حذائى تعبا كثيرا فى المستقبل ·

وصلنا فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ـ الخميس ـ الى أحراج أبى حمد وقد فضلت البقاء مختبئا عن الأنظار هناك على الرغم من عداء سكانه عداء شديدا لأتباع المهدى ·

ذكرت قبلا أن أحمد عبد الله أمر ابراهيم على ويعقوب حسن بالوصول بى الى الشيخ حامد فضاى ولكنى أضيف الى ذلك أن هذا الرأى لم يرق فى أعينهما ·

جاءنى هذان الرجلان عصرا وذكرا لى المخاطر التى تتهددهما بغيابهم أياما كثيرة عن قبيلتهما ، وبما أنه أصبح من المؤكد جدا وقوف الخليفة على خبر فرارى وعلى قسم من الطريق التى اجتزتها لم يكن لدى شك فى أنه سيستجوب الكثيرين ممن يرتاب فى مساعدتهم لى فى الفرار خصوصا من قبيلة أولئك الجدد لانتمائها فى الصداقة الى الحكومة المصرية واذن ليس الخطر واقعا على هذين الرجلين فحسب بل على صديقى المخلص أحمد عبد الله أيضا · وأخيرا اتفق رأيهما على الذهاب الى شخص يعرفه كلاهما وبواسطة هذا الشخص أتابع رحلتى بأمان ·

تأكدت بعد ذلك أن الخير فى رجوع هذين الرجلين لأن بقاءهما معى مضطربين خائفين ـ فضلا عن عدم اخلاصهما السديد فى مهمتهما ـ قد يعرضنى لخطر جسيم واذن قبلت بسرور طلب الرجلين

وانى لا أخفى على القراء حقيقة كراهيى الشديدة لهما لأنهما كانا مجردين عن الاخلاص . غير مبالين بما قد يصيبنى من شر ما داما واثقين من نجاتهما وحدهما . ازاء ذلك طلبت منهما الاسراع فى الذهاب الى المكان الجديد حتى يرجعا الى قبيلتهما ولا غرابة بعد ذلك أن يكون ابتعادهما عنى فوزا جديدا لى ومصدر راحة تامة وهدوء فكرى .

عند غروب الشمس حضر الرجل الجديد وهو من قبيلة عرب امرات واسمه حامد جرهوش البالغ من العمر حوالى خمسين عاما . وعندما حيانى حامد هذا قال لى « يسعى كل رجـــل الى مصلحته الخاصة فمرشداك ــ ابراهيم ويعقوب اللذان أعرفهما معرفة تامة ــ يرغبان فى أن أدلك على الطريق من مكاننا هذا الى أسوان ، وتأكد أنى مستعد للقيام بذلك ولكننى أريد الوقوف على ما سأحصل عليه ازاء هذا العمل الشاق » فأجبته على الفور « سأعطيك يوم وصولنا الى أسوان مائة وعشرين ريالا من عملة ماريه تريزة علاوة على هدية خاصة أقدمها تبعا لما تقوم لى به فى هذه الرحلة الجديدة » .

قدم لى حامد بعد ذلك يده وقال لى « انى مرتاح الى ذلك وأتقبل المهمة فان الله ونبينا شاهدان على صدق ما أقول . وأما عن وعدك فانى أعرف عنصرك وأثق أن الرجل الأبيض لا يكذب واذن سأسير بك الى عشيرتك فى طريق جبليـــة غير مطروقـــة بأقدام الآدميين ولا يعرفها من مخلوقات الله سوى الطير الذى يحلق فى المعمور دون ان ينقل أسرار الناس الى الناس فاستعد للرحيل لأنا سنواصـــل عملنا باذن الله بعد غروب الشمس » .

اخترت أقوى الجمال الثلاثة لمواصلة الرحلة وأخذت قربتين مملوءتين بالماء والقسم الأكبر من البلح وكمية من الذرة وعندما خيم

الليل وصل حامد الى المكان المعد لابتداء السفر • أما ابن حامد فسار راكبا الجمل الوحيد الذى يملكه للبحث عن غلال فى روياطاب القريبة من النهر وتبعا لذلك اضطر حامد لمرافقة ابنه سائرا على قدميه ، ولم يساعده على عمله الشاق هذا سوى ارادته الصادقة وقدميه القويتين ، أما ابراهيم ويعقوب فعادا الى قبيلتهما وبطبيعة الحال لم أودعهما وداع الحزن ولم أذكر لهما فى معرض الشكر سوى كلمات قلائل لأنى أكرر ما قلته قبلا عن سرورى العظيم لابتعادهما عنى •

بعد أن واصلنا سيرنا يومين اجتزنا فى أثنائهما تلالا صخرية • وصلنا في صباح الأحد الى بئر صغيرة تكاد تكون خالية من الماء واسمها « شوف العين » وعلى الرغم من ظهور ابتعاد القادمين اليها بقيت تبعا لرغبة مرشدى فى مكان يبعد ساعة عن هذه النقطة •

كان طعامنا عبارة عن التمر وكمية من الخبز صنعناها بأيدينا وأقصد بذلك ان هذا الخبز كان لوقايتنا من الهلاك جوعا فان أى مخبز أوربى يعرض للخطر العام اذا وجد بين جدرانه رغيف من الأرغفة التى نعملها لأنها فى مجموعها كريهة فى منظرها وطعمها ؛ فطريقة صنع الخبز التى قام بها مرشدى هى جمع كمية من الحجارة حجم كل واحدة منها لا يزيد على حجم بيضة الفرخة وبعد تكوينها يضع عليها أفرادا صغيرة من الخشب ثم يعجن الذرة فى الماء ويوضع فى آنية خشبية ثم يشعل النار فى الحطب والحجارة الصغيرة بواسطة حك الصوفان على حجر الصوان •

بعد اشتعال النار فى الحطب ينزع حامد الجمر من الحجارة الملتهبة ليضع عليه العجين وبعد ذلك يرد الجمر الى الحجارة • وبعد أن ينتهى من ذلك التقلب النارى يضرب العجين بالعصا الصغيرة حتى يزيل ما نبه من الرماد وآثار الحجارة الصغيرة •

هذا هو الخبز الذى نأكله فان لم نكن مدوعين الى أكله بلذة النظر اليه فلسس أقل من أن يدفعنا الى تناوله جوعنا الشديد ٠

بعد أن ارتحنا قليلا على مقربة من البئر واصلنا السير بضع ساعات حتى انتهينا الى المنحدرات الأولى لجبال عتابى الممتدة بين البحر الأحمر ونهر النيل والتى يسكنها فى ناحيتها الجنوبية عرب بشارن وأمران ، وفى ناحيتها الشمالية قبيلة العبابدة ٠

تتفرع من بعض تلك النواحى الخالية من النبات أودية مملوءة بالغابات بسكنها رعاة الجمال التابعون للقبائل السالفة الذكر ٠

اجتزنا بعد ذلك واديا قريبا غير مطروق وواصلنا رحلتنا دون راحة لأنى كنت شديد الرغبة فى مشاهدة أعزائى فى أقرب وقت ممكن أضمن فى نهايته السلامة من أخطار رحلتنا المتعبة المفزعة ورغم كوننا ناجين من كل خطر لأنا تركنا الحدود المهدية وصرنا على الأراضى المصرية ، رغم ذلك أصر مرشدى على البقاء بعيدين عن عيون الرقباء والناظرين كائنين من كانوا لأنه خاف من أن تقع علينا عيون بعض التجار الذين بتعاملون مع السودان ٠

وبما أن منزله قائم على الحدود وانه كان مضطرا ـ لأسباب مختلفة ـ الى الذهاب لبربر فمن الواجب على أن أقدر خدمته لى ـ فى موقفه الخطير هذا ـ حق قدرها ٠

وفى الحق لم أجد بين من شاهدت فى السودان رجلا أقوى عزيمة وأسمى روحا من صديقى الأخير هذا على الرغم من ضعف جسمه ٠ ولا ريب فى أن الطعام غير النظامى والسير المتواصل فى كثير من الأحايين أثر أثرا سيئا فى صحة هذا المتقدم فى السن ٠ وعلاوة على ذلك شعر صـــاحبى حامد بالبرد الشديد الذى أوقعه

أخيرا فى حبائل المرض . فاضطررت اشفاقا عليه ان اعطيه عباءتى لتدفئته وأبقيت لنفسى المعطف الصغير والحزام الصوفى الكبير وقد وصلت بى الرغبة فى سرعة الوصول الى أسوان حدا دفعنى الى أن أعطيه جملى وأسير على قدمى العارية فوق الأحجار أربعة أيام (سبب سيرى عارى القدم هو اضاعة حذائى كما قلت قبلا بواسطة ابراهيم ويعقوب) ولا ريب أن هذه الفترة أشق مراحلى من الوجهة الصحية .

خيل الينا قبل الوصول الى أسوان بأيام قلائل أن الجمل يتآمر علينا فى اللحظة الأخيرة وليس ذلك غريبا فقد اتعبه المسير المتواصل دون راحة الا فى النادر وعلاوة على ذلك أصيب فى مقدم القدم بجرح زاد واتسع عندما اصطدم الجمل بحجر مدبب فاضطررت الى أن أقطع جزءا من حزامى لألف به بطن القدم والجزء المجروح من الجمل على أن اغير هذه اللفافة كل أربع وعشرين ساعة وقد تعلمت ذلك من رعاة الجمال من دارفور وكل ما بينى وبينهم من خلاف أنهم يستعملون الجلد بدل الصوف .

آخر الأمر قدر الله اللطيف بعباده أن ننزل فى صباح السبت ١٦ مارس من أعلى منحدرات طريقنا فنشاهد نهر النيل السعيد ومدينة أسوان الممتدة على شاطئه وبطبيعة الحال أقر بالعجز الكلى عن وصف السرور الذى ملأ قلبى بعد الشكر لله ازاء النجاة والشعور بتحريرى من العبودية فقد انتهت آلامى وقضى الله على مصائبى ونجوت حقا من أيدى البرابرة الشديدى التعصب ووقعت عيناى أول مرة على مساكن شعب متمدين يخضع للقانون والنظام ويأتمر حكامه بأوامر العدالة فحسب .

واتجه ـ ساعة وصولى الى أسوان ـ قلبى الطروب الى عرش الله الاسمى شاكرا لجلاله حمايته ويمينه المرشدة . قوبلت بأعظم

مظاهر الترحيب من معسكرات الضباط الانجليز الخاضعين لصاحب السمو الخديو وفى مســـاكن الضباط المصريين الذين لم يعلموا الا عندما التقوا بى أنباء رحلتى المدهشة وقد تسابق كل من أولئك الضباط المصريين الكرام فى التفريج عن كربى القديم وفى جلب السرور الذى ينسينى آلامى ونكباتى الســـابقة • كان المحافظ العسكرى فى ذلك الحين فى أسوان الكولونل هنتر باشا وكبار ضباطه الذين أذكرهم فى هذه اللحظة هم البكباشيون جاكسون وسدنى وماتشل بك وطسون، وقد قدم كل منهم أقصى ما يستطيع من مجاملة صادقة فشكرت لكل من أعماق قلبى ودعوت لهم بالخير وقبل تغيير ملابسى بملابس جديدة من التى قدمها لى أولئك الضباط طلب منى صديقى البكباشى وطســـون الســـماح له بأخذ صورتى ـ وطسون هذا من أدق الرسامين ـ فقبلت طلبه مع الشكر •

أما عن صديقى حامد جرهوش فقد دفعت له ـ بواسطة بطرس بك سركيس صديقى القديم ووكيل قنصلية انجلترا فى أسوان ـ مائة وعشرين ريالا من عملة ماريه تريزه وقدمت لحامد علاوة على ذلك هدية مالية وبعض الملابس والأسلحة وفوق هذا وذاك قدم له هنتر باشا عشرة جنيهات انجليزية تذكارا لوصولى سالما الى أسوان ، وبعد ذلك ودعنى وداع الاخلاص وعاد الى قبيلته مسرورا مبتهجا •

بعد قليل من وصولى الى أسوان وردت لى تلغرافات التهانى أولها من الماجور لويس بك بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن معسكر وادى حلفا • وثانيها من رئيس الوكالة السياسية النمساوية فى مصر وهو البارون هولر فون أجيرج الذى تعب كثيرا فى سبيل انقاذى • ثم من صديقى المخلص الماجور ونجت بك •

أول من حياني من ابنـاء وطني تحية شخصية هو البارون فكنور هيرنج ثم أولاده وقد كانوا جميعا في ذهبيتهم في النيل ·

صادف وصولي يوم قيام احدى بواخر البريد فاغتنمت الفرصة وتمكنت بمساعدة ذوي الشأن في أسوان من مواصلة رحلتي بعد ظهر اليوم المذكور (١٦ مارس) ·

رافقني جميع الضباط الانجليز والمصريين الى الباخرة ووقعت الفرقة العسكرية السودانية النشيد النمساوي الوطني على موسيقاها فذرفت عيناي الدموع حنينا الى الوطن العزيز ثم دخلت السفينة فارتفع الهتاف من جميع الركاب على اختلاف جنسياتهم فشكرت لهم جزيلا ثم شكرت للضباط المقيمين في أسوان عنايتهم بي واخلاصهم لي · وفي الحق لم أكن مستحقا كل ذلك التكريم وهذه الحفاوة ولم أجد ــ مع شعوري بالخجل الشديد ــ سوى تقديم الشكر والدعاء للجميع بالخير ·

كان معي في سفري مانشل بك قائد الفرقة السودانية الثانية عشرة والذي كانت مناوراته من وادي حلفا الى كورسكو عن طريق مورات سببا في أكل الطعـــام المعد لي عندما وقع عليه الجنود السودانيون وسببا في تغيير خط سيري ·

عندما وصلت مساء الأحد الى الأقصر تجلى عطف الأوروبيين المسـافرين معي مرة أخرى وهنا تلقيت عن طريق البارون هولد تلغرافا من شقيقاتي العزيزات صادرا من عاصمة وطني العزيز (فينا) فما أبهج تلك الساعة التي قرأت فيها تلغرافا عليه امضاء بأسماء شقيقاتي العزيزات وعنوان فينا العزيزة ·

فى الساعة الخامسة من مساء الاثنين وصلنا الى جرجا أقصى محطه جنوبية للسكك الحديدية المصرية ومنها ركبت القطار الى مصر حيث وصلت الساعة السادسة من صباح الثلاثاء ١٩ مارس ·

على الرغم من تلك الساعة المبكرة جدا فى الصباح وجدت على المحطه البارون هولر فون ايجرج وجمع موظفى السفارة النمساوية الدكتور كارل وترفون جورا كوشى وهناك أيضا وجدت صديقى العزيز ونجت بك الذى لا أستطيع فى كلماتى القليلة هذه أن أعبر عن شكرى له · والى جانب أولئك شاهدت مراسل « التيمس » والأب روز نيولى وآخرين غيره ومع أولئك فوتوغرافى يأخذ الصور المختلفة ·

بعد أن صرفنا بضع دقائق في تبادل التحيات سرنا الى السفارة النمساوية حيث بقيت مدة طويلة ضيفا عند الرجل الطيب الشديد الاخلاص البارون هولر الذى قام بمجهود عظيم فى سبيل حريتى والذى لم يكن عمله ناجما عن واجبه بصفته ممثل النمسا فى الحكومة المصرية ولكن كان صادرا عن عاطفة حية مشفقة على شخص أصيب بالأسر المفزع ·

عندما وصلت الى السفارة وجدت الغرف الخاصة مزينة بأعلام وطنى العزيز ومملوءة بالأزهار والورد وقد كتب على باب السفارة « تحية صادقة للضيف الكريم » ·

فى ذات اليوم الذى وصلت فيه الى مصر تسلمت تلغرافات التهنئة ـ بنجاتى ـ من أفراد أسرتى وأصدقائى ورفقائى فى المدرسة قديما ومن صحف عديدة فى أوربا بصفة عامة والنمسا بصفة خاصة · وانى لا أنسى العطف العظيم الذى تفضل به على صاحب السمو

الملكى الدوق ولهلم اوف ورتمبرج وصاحب السمو البرنس لويس استر هازى وقد كان كلاهما في حملة بوسنه عندما كنت أحارب مع فرقتى العسكرية، ولا ريب فى أنى سأذكر دائما كلمات التشجيع التى نادى بها ذانك الرجلان العظيمان ازاء مصائبى الأول وكلمات التهنئة بعد الفرار من أسر الخليفة عبد الله المشهور بطغيانه .

بعد عودتى الى مصر بقليل تشرفت بمقابلة حضرة صاحب السمو خديو مصر الذى أنعم على برتبة الباشوية . دخلت السودان منذ ستة عشر عاما كملازم أول فى الجيش النمساوى ، وعندما عينت حاكما لدارفور منحت من الحربية المصرية لقب أميرالاى ، أما الآن فرقيت الى درجة اللواء حسب نظام الجيش المصرى .

بعد أيام قلائل من تلك المقابلة السامية كنت واقفا فى شرفة السفارة متطلعا الى جمال حديقتها فى فصل الربيع فشاهدت طيرا مائيا أليفا الى جانب الأعشاب فتذكرت فى الحال طير فالزرفين التابع لاسكانيانوفا توريدا الكائنة فى روسيا الجنوبية ، ففى الحال دخلت غرفتى وكتبت له بيانا كاملا عن طير الكركى الذى أطلقه فى عام ١٨٩٢ والذى قتل فى دار شيفيه . وفى الحق كنت مسرورا جدا بكتابة خطاب تفصيلى الى الصاحب الأصلى لذلك الطير ، وما هى الا فترة صغيرة حتى ورد لى من فالزرفين رد على خطابى يشكرنى فيه جزيلا ما ذكرته عنه ، ويدعونى لزيارته ولكنى لسوء الحظ لم أتمكن من القيام بتلك الزيارة النفيسة لأنى ارتبطت بمواعيد كثيرة جدا حالت دون قبول الدعوة الجديدة .

كثرت الدعوات الرسمية والخصوصية وتعددت الزيارات بحيث لم أستطع القيام بعمل رسمى جدى قبل مرور بضعة أسابيع .

كان أول عمل لى بطبيعة الحال كتابة تقرير رسمى مفصل ارفعه لرؤسائى الحربيين وبعد ذلك بفترة بدأت فى كتابة قصة حياتى فى الأعوام الستة عشر الأخيرة ٠

أما صديقى القديم وزميلى فى الأسر الاب أوهر والدر الخطيب الدينى فى سواكن فقد انتهز أول فرصة وحضر خصيصا الى مصر لتحيتى، وفى الحق كان اجتماعنا سبب سرور جديد لا استطيع وصفه وقد شعرت براحة كلية لأنى تمكنت شخصيا من تقديم شكرى الجزيل لهذا الصديق المخلص ازاء ما أبداه نحوى من مساعدة وتأييد ٠ انى أشعر بثقل فى رأسى ودوران قد يعقبه الاغماء كلما أتذكر الحالة الماضية وأقارنها بالحالية ، وكلما أسرد حوادث مدة اثنتى عشرة سنة قضيتها أسيرا فى أقصى حالات الأسر ٠ وازاء ذلك كله لم أستجمع قوى تفكيرى قبل مرور فترة غير قصيرة ٠

الآن أشعر بأنى رجل من شعب متمدن ورجال مسالمين فترجع أفكارى الى البرابرة المتعصبين الذين عشت معهم زمنا طويلا قاسيت فيه الآلام ، وواجهت المخاطر ثم أعود فأذكر رفاقى الذين لا يزالون تحت الأسر الممض وألقى نظرة أسى على الأمم الواقعة فى حبائل الأسر ٠ فلله أجزل الشكر على فضله العظيم حيث نجانى من الخطر الفادح وأوصلنى بالسلامة الى شعب هادىء أمين ٠

الفصل التاسع عشر

الختـــــام

بعد أن قضيت أكثر من ستة عشر عاما ـ من بينها اثنا عشر عاما في الأسر الشنيع ـ في أفريقيا منقطع الصلة عن العـالم المتمدين قدر لي حظي السعيد أن أعود الى أوربا الا أنه من الواجب على أن أقول بأن تغيرا عظيما في سبيل العمران حدث في أفريقيا في هذه المدة ، فكثير من المناطق التي خاطر فيها أمثالي المحترمون لفنجستون واسيك وجرانت وبيكر وستانلي وكمرون ويراز وجنكر وشو نيفورت وهولب ولبنز ومئات غيرهم بأرواحهم العزيزة في سبيل البحث عنها أصبحت (المناطق) قابلة الآن للنهوض المتمشي من المدنية · في كثير من المناطق التي قاسى فيها المكتشفون قبلا كثيرا من المخاطر توجد الآن قوى ومحطات عسكرية تساعد على نشر الأمن وتسهيل التجارة التي تعد أهم عناصر التقدم في الجهـات المذكورة ·

لئن تطلعنا الى الدول صواحب الشأن في تلك المناطق فانا نجد في الشرق ايطاليا وانجلترا وألمانيا وفي الغرب الكنغو (بلجيكا) وفرنسا وانجلترا وتسعى كلٌ من تلك الدول سعيا حثيثا في زيادة النفوذ في جهات مختلفة ، وترمي جميعا الى وضع الأيدى على أفريقيا الوسطى وقد بدأ رجال القبائل المتوحشة ـ الذين يعتبرون أقرب

الى الحيوان منهم الى الانسان ـ يدركون حاجياتهم الضرورية وأن هناك أناسا ذوى مراتب سامية فى أنفسهم ويرجع ذلك الى المقدار الذى حصلوا عليه من المدنية والتقدم ولا شك عندى فى أن الممالك الاسلامية الصغيرة الشمالية كوادى بورنو وفلاتا سيدرك زعماؤها حاجتهم للتعاون مع الدول العظمى فى سبيل الاحتفاظ بحكمهم الوراثى ٠

ذكرت المناطق السابقة ولم أشر الى الآن بشىء للبقعة التى قضيت فيها أكثر من عشر سنين ورغبتى فى ذلك منحصرة فى تخصيص الذكر والكلام عند ورود اسم السودان بين المناطق الأفريقية ٠

والآن أقول بأنا نجد فى الناحية المتوسطة من أفريقية بين الأراضى المذكور أخيرا وحيال القوى الأوروبية الباسطة نفوذها فى الشمال والجنوب والغرب نجده فى تلك الناحية السودان المصرى الذى يخضع اليوم لحكم الخليفة عبد الله وأشياع المهدى وهم أشد الحكام قساوة وأكثرهم ظلما للرعايا ٠

ان الأوربى كائنا من كان لن يستطيع اجتياز ذلك السودان كزائر أو عامل ، وأقصى ما يحدث لذلك الأوربى لا يختلف عن أدنى ما يصيبه سوى اختلاف جزئى لا يؤثر شيئا فى النفس التى اعتادت الحرية والتى خلقها الله فى جسم الانسان لتشعر بسعادة الحياة الهادئة البعيدة عن العسف والمظالم من ناحية الحاكم صاحب الأمر ٠ وللايجاز أقول بأن أقصى ما يصيب الأوربى فى السودان هو الموت وأدنى ما ينتابه هو البقاء طول حياته أو أغلبها أسيرا مغلوبا على أمره ٠ قد لا يجد فى الحقيقة فرقا بين الموت وبين تلك الحالة المؤلمة ولكنى عن شخصى أجد اختلافا ظاهرا هو تمتعى بالنجاة وبالحياة الحرة قبل موتى الطبيعى الهادىء ٠

اذن يتعرض الأوربى السائر لتلك البلاد البعيدة عن المدنية والممتدة جنوبا على طول النيل الى الزجاف وشرقا الى غربى كسلا على مقربة من واداى ـ للموت الشريع أو لعيش مرير تحيط به مظالم المستبدين •

لم يكن السودان تحت حكم مصر على مثل ما أصف من شدة على الأوربيين ، ولم نكن نحن الغربيين نتضجر من أمثال تلك المظالم فما هى الا عشر سنوات منذ وقع السودان فى قبضة المهديين حتى شاهدنا المظالم تترى والعسف يتوالى وانه لمن الحق أن أصرح بأن السودان ظل أكثر من سبعين سنة ـ منذ دخله محمد على ـ تحت حكم مصر والمصريين ، فكان من ذلك العهد الطويل مفتوحا للجميع ومستعدا لقبول كل جديد تأتى به المدنية ويدعو اليه العمران •

تحت حكم المصريين انتشر التجار المصريون والأجانب على السواء فى مدن السودان الرئيسية ، وفى الخرطوم ذاتها كان للدول الأوربية العظمى ممثلون محترمون من الجميع ، وقد كان الأجانب من جميع الدول الأوربية متمتعين بحق الدخول الى السودان والخروج منه ، وهم فى كل من تينك الحالتين على أتم ما يتمنون من أمن وهدوء وسلم • والى جانب ذلك سهلت المواصلات بين السودان وأبعد الممالك الأوربية بواسطة الرسائل التلغرافية والبريدية المنظمة •

ان أعظم ما تمتع به السودان أثناء الحكم المصرى الطويل هو قيام كل فرد بشعائره الدينية وبنشر العلوم حسبما يوحى اليه ضميره ، فكنت ترى مساجد المسلمين وكنائس المسيحيين فى أماكن قريبة يقصدها أبناؤها بمطلق الحرية وفى هدوء واطمئنان، كما كنت ترى مدارس المسيحيين الأوربيين منتشرة لتعليم العلوم الحديثة لا فرق فى ذلك بين الفلسفية منها والدينية والعلمية المحضة •

كانت المناطق السودانية مقطونة بقبائل مختلفة وكان العداء فى كثير من الأحيان شديدا بين رجال القبائل ، ولكن حزم الحكومة المصرية أدى الى نشر السلم بين السودانيين على وجه عام سواء أكانوا فى ذلك راضين أم مرغمين ٠

جاء دور المهديين فانقلب الحسن الى سيء وأصبحت الحال المهدية الجديدة غير الحال المصرية الأولى ، فانتشر الجزع والاضطراب فى البلاد السودانية وقد أبنت فى الفصول السابقة مقدار طمع وسوء ادارة الموظفين الجدد مما وصل بالبلاد الى حد أصبح ميسورا معه نشوب الثورة ٠

سعيت جهدى فى الفصول السابقة الى شرح ما قام به محمد أحمد لاستغلال الموقف والظهور بين القبائل المتقاتلة فقد أيقن ذلك الرجل أن السبيل الوحيدة التي توفق بين أولئك المتخاصمين هي سبيل الدين ، فادعى أنه المهدى المرسل من الله تعالى لتحرير البلاد من النير الأجنبى ولاحياء الدين فكان ذلك العمل من جانب المهدى سببا رئيسيا فى ايجاد خلة التعصب الدينى الذميم الذى زاد سوء الحالة فى الاثنتى عشرة سنة الأخيرة ، ودعا الى تذمر لا من الأجانب فحسب بل من السودانيين أيضا الذين وقعوا فى حبائل الفوضى والظلم ٠

كان من المستحيل نجاح الثورة بدون التعصب هذا الى أنا وقفنا به (التعصب) أمام حالة حرجة هى حالة الحرب والجهاد بين المختلفين فى الدين ، ومن الغريب فى أمر ذلك السودان أنا لم نجد حالة توازن بين التعصب الممقوت والتسامح الحميد، فكنا قريبين فى حالتنا من القرون الوسطى أو ما هو أبعد أمدا ٠

سعيت ـ عندما ذكرت حياتى وأعمالى فى الفصـــول الأولى وعندما وقفت أمام نذير التعصب الدينى ـ الى السير بخطى متئدة فى سبيل نعقب الأسباب الرئيسية التى دعت الى الحالة الحاضرة ولئن قررنا حقا أن الحالة تغيرت عما كانت عليه فى زمن المهدى وأوائل حكم الخليفة عبد الله فانا نذكر الى جانب ذلك أن الموقف لا يزال خطيرا وهو فى حاجة الى الأيدى العاملة بنشاط بعد معرفة السـبل التى يتحتم عليهم عبورها للاحتفاظ بالمدنية ونشر الوية العدل فى ذلك الفضاء الواسع من الأمة التى هوت الى حالة مكربة مؤلمة لا نستطيع وصفها بعد أن ضعف فيها المستويان الرئيسيان لبقاء الأمم وهما الخلقى والدينى • والى جانب ذلك نذكر ما يطمع اليه الجميع سواء فى ذلك الوطنيون والأجانب • من عدل شامل وطمأنينة محققة •

ان أول ما يتبادر الى ذهن المفكر فى شئون السودان بعد قيام حكم المهديين هو مصير المدنيه الناشئة الجديدة التى وجدت فى سنى حكم المصريين منذ عهد محمد على ، فليس من شك فى أن تغيير الحال وحلول الفوضى محل النظام يولدان فى العقل شعورا صادقا بانقضاء كل أثر ظهر للمدنية فى السودان قبل المهديين، وهذا ما حدث بالفعل فقد اندثرت معالم المدنية رغم طراوتها وجدتها ، والسبب الرئيسى فى اندثارها هو انتقال الحكم الى أولئك المستبدين الجهلة بل أذهب الى اكثر من ذلك فأقول ان سبب ضياع المدنية راجـع الى ظهور نفوذ أولئك الهمجيين الذين اسسوا على أنقاض الحكومة السودانية المصرية السياسية نظاما جديدا كان الى حد ما متتبعا خطوات النظام الماضى فى العرض ، ولكنه خالفه فى الجوهر ، فبدلا من الحق والعدالة والأخلاق فى حـكومة العهد المصرى نجد الظلم والباطل البربرى والتجرد من نظم الأخلاق فى حكومة المهديين وأتباعهم • وانه لمن الواجب على أن أقرر للقراء ـ غير مدفوع فى ذلك بنزعة الثأر لنفسى

مما قاست من ويلات ولكنى مدفوع بوازع الضمير رغبة فى تقرير الحقيقة كلها ـ بأنى لن أستطيع ذكر أمة ظلت فى حياة المدنية أكثر من نصف قرن ثم هبطت الى الدرك الأسفل من الهمجية غير السودان ٠

لنفكر لحظة واحدة فى تلك القوة الجديدة التى برزت بروز النسر ودعت الى الفوضى فى ربوع السودان مما اعتبرها الأوربيون بحق عقبة كأداء فى سبيل المدنية الناهضة ٠ ونذيرا بفشل المساعى الكبرى التى بذلوها فى السنوات الأخيرة فى الكثير من جهات تلك القارة الأفريقية الفسيحة ٠

سعيت فى الفصول الأولى الى تبيان أثر المهدى عندما صاح فى الناس أول صيحة وعندما ظهر نفوذه الواسع فى السودان فقد كان هذا الرجل سيد السودان الحقيقى فلم يكن يصدر أمرا حتى يسرع الاتباع لتلبيته وهم على استعداد لتفديته بالقلوب والأرواح ٠ كما أنى ذكرت التعصب الذميم اللعين الذي أوجده المهدى فى حياته ثم أردفت ذلك بشرح تضاؤل ذلك التعصب بعد موته (المهدى) حيث حل محل القوة الدينية نفوذ جديد للخليفة عبد الله كان يتذرع فيه بالدين تذرعا اسميا ، ولكنه فى الحقيقة كان مدفوعا بنزعة الظلم التى وجدت بين جنبيه منذ عرف الفارق بين الخير والشر ٠ ولم تكن القسوة مقصورة على الخليفة عبد الله ولكنها تعدته الى عرب القبائل الغربية فقد حل أولئك محل الجنود المصريين فأهلكوا الزرع والنسل وحكموا السكان المنكودى الحظ بقضيب من حديد ، فذاق أولئك السودانيون كل مرارة وابتلاهم الله بشر أولئك الجند المستبدين مما جعلهم يذكرون ليل نهار فضائل الحكم المصرى ، ثم دفعهم أكثر من ذلك الى التذمر المنذر بالثورة والتطلع الى حكومة تمنحهم الهدوء والسلم ٠

" انه لمن التطويل غير المحمود بل من التكرار الممل الموجع للنفس أن أعود لذكر الفظائع التى ارتكبها الخليفة عبد الله وأتباعه فى سبيل احتفاظهم بمراكزهم الدينية والحكومية ، ولكن من واجبى هنا أن أذكر لقرائي أن خمسة وسبعين فى المائة ـ على أقل تقدير ـ من مجموع السكان فى السودان ماتوا اما بالحرب واما بالجوع واما بالأمراض الوبائية الفتاكة فيبقى لنا بعد ذلك أقل من خمسة وعشرين فى المائة ليسوا فى حقيقتهم أحسن حالا وأفضل عيشا من الرقيق .

تذكرنى كلمة الرقيق الأخيرة بذلك الطغيان البادى فى تجارته فى السودان ولئن كان الرقيق فى بادئ أمره مقصورا على العبيد فإنه ـ بعد امتداد نفوذ عبد الله ـ يضم الى دائرته العدد الكبير من منتجيى الأحباش والسوريين والأقباط والمصريين المسلمين .

ان القسم الواسع من السودان الذى يحكمه الخليفة عبد الله اليوم قد تغير فى نظامه عن الحكم المصرى ولكنه تغير لا يشرف صاحبه ، فقد أصبحت المناطق الخصبة المثرية الآهلة بالسكان صحراء مقفرة يخاف الناس ولوجها . فانك اليوم تجد السهول الكبرى التى وطئتها أقدام قبائل العرب الغربية شبيهة بالصحارى لا يظهر فيها من المخلوقات غير الوحوش الضارية، أما مواطن الآدميين على شاطئ النيل فأصبحت مقطونة ببدو القبائل المرتحلة بعد أن طرد أولئك أصحاب البلاد الأولين أو استبقوهم لا لشئ سوى فلح الأرض واستثمارها لخير الأسياد الجدد .

حرم السكان الأصليون من جميع وسائل الدفاع عن النفس وأصبحوا ـ بعد ما نزل بهم من جور وعسف ـ فى حالة فقدوا معها كل أمل فى الحصول على العطف من ناحية أولئك الأسياد الجدد .

فضعفت او تلاشت فيهم قوة المقاومة واذن فالباقون من السكان الحاصلين على المساحات الضيقة المشرفة على النهر ليسوا أفضل من العبيد فى غير حالة واحـدة هى حين تعريضهم للبيع فى سـوق الرقيق ٠

ما الذى يستطيع أولئك البائسـون المنكوبون عمله لمهاجمة أسيادهم الجدد الأقوياء ؟ انهم أمام أحد أمرين فاما التسليم والبقاء فى عيش الذل ٠ واما الاعتراض وفى تلك الحالة يلاقون آجالهم بحد السيف ٠

انه لمن المغالاة والجنون المطبق أن يفكر أحد فى أن المغلوبين على أمرهم فى عهد الخليفة عبد الله يستطيعون انهاء حالتهم المزرية بثورة داخلية لأنهم لا يملكون شيئا من معدات الدفاع أمام قوة الحكومة الظالمة ٠ واذن لابد من وصول العون والمدد من الخارج الى أولئك المنكودين ٠ وعلى السكان المحليين أن يتحققوا أن الخير فى الثبات وعدم التقهقر بعد ظهور حكومة عادلة جديدة ، لأن ظهور أى دليل من دلائل الضعف والمقاومة لروح المدنية الجديدة سيضر التقدم المقصود ضررا بليغا ٠

انه لمن الواجب على السودانيين ـ فى سبيل الاحتفاظ بتقدمهم المنشود والابتعاد عن مصائب العسف والمظالم ـ أن يعتقدوا أن قوة الخليفة فى ضعف مستمر ، لأن ذلك الضعف أعظم مساعد لارتفاع كلمة الحق ورجوع عصر المدنية ٠

عندئذ يسـتطيع السـودانيون الوثوق فى القوى الجديدة الخارجية التى ستسـاعدهم فى تحطيم قيود العسف والتطويح بالامبراطورية المهدية الجائرة ٠

انى أطلب من القارىء أن يتمهل في الحكم على ضياع نفوذ المهدى وعبد الله ومن والاهما، فقد يتصور البعض مما سبق أن ذلك النفوذ الشديد سيزول قريبا ولكننى أعود فأؤكد أنه غير قابل للاندراس في حد ذاته ، ولكنه عرضة لذلك التدهور بمؤثر خارجي فحسب على أن ذلك يستغرق زمنا غير قليل ٠

أحيل قراء الكتاب الى الفصول الأخيرة السالفة ليعرفوا مقدار ما اتخذه عبد الله في سبيل الاحتفاظ بقوته الداخلية طول حياته حيال أعدائه الداخليين ، فليس غريبا أن يظل ذلك الاعتقاد راسخا فى فكر الخليفة وقابلا للتصديق عند الجميع ما دام عبد الله فى أمن من أى اعتداء خارجي وتدخل أجنبى ٠ واذن فمن المؤكد أن هذا الرجل سيظل صاحب السلطان طول حياته ٠ أما بعد موته فمن المحتمل بل من المؤكد أيضا أن انقلابا عظيما سيحدث في ربوع السودان وأن انفجارا هائلا سيتولد بعد الضغط الطويل ٠

وأقرب ما يتبادر الى الذهن هو أن ذلك الانقلاب ينتهى الى خلع الأسرة التى عنى عبد الله منذ تولى خلافة المهديين بتأسيس حكمها الثابت، ولكننى لا أستطيع التأكيد بأن ذلك التغيير سيقرب السودان الى مصادر المدنية أكثر مما هى الآن ٠

اذا عرفنا ذلك وجب علينا أن نقرر أن الخير لا يتم للسودان الا بواسطة مساعدة خارجية ٠ ومهما يكن من شىء فان الغرض السابق قد لا يتفق اتفاقا رقيقا مع مقتضيات الحال فى السودان اليوم ٠

ان الذين يرغبون فى دراسة حالة السودان الحاضرة ملزمون قبل أى اعتبار آخر أن يدركوا بأن السودان اليوم ليس هو ذلك

السودان فى أيام اسماعيل باشا عندما تجلت المدنية بواسطة نفوذ الحكومة المصرية فى الوقت الذى كانت فيه البقاع والأمم المختلفة المجاورة للنفوذ المصرى اما فى درك الهمجية واما عابدة للأوثان حيث لم يستطع الأوربى ضمان النجاة لنفسه اذا اجتاز احداهنا علاوة على أن جميع الأوربيين لم يكونوا معروفين ولم تكن حتى دولة واحدة من القارة الأوربية معروفة لدى الأمم المذكورة كما أن العرب لم يظهروا في غير القليل النادر .

كان السودان اذن زهرة تلك البقاع والمتميز عن جميع ما جاوره بما له من مدنية ونهوض ، وكان ذلك كله فى العهد المصرى ولكنى أقول ـ كما قلت قبلا ـ ان الهمجية تطرقت الى جوانبه عندما جاء عهد المهديين .

كان السودان على مقدار مذكور من المدنية والنهوض فأصبح منكودا متخبطا فى طرقات الجهالة والظلم بعد أن ألقيت مقاليد الحكم فيه الى قوة همجية وحشية تكره النفوذين : الأوربى والعثمانى على حد سواء .

تلك هى الأمة التى تعترض الطريق من النشوز المركزية القائمة على وادى النيل الى البحر الأبيض المتوسط كما أنها الأمة التى تضع طابعها على المناطق التى كانت فى وقت من الأوقات متمتعة بالهدوء والسلم وقابلة لكل مصدر من مصادر التجارة والمدنية والنهوض، وانه عن المحزن أن نذكر تدهور السودان وظهور ذلك الاضمحلال جليا لأن المناطق التى كانت منحطة قبلا أخذت تنهض وتقوى في حين نرى السودان متدهورا .

أصبح من السهل وجود التبادل بين المناطق السالفة الذكر والعالم الخارجى وتدفق سبل التجارة بحيث لا يعترضه معترض

كما كانت الحال قبلا . فأصبح كل أجنبى آمنا على حياته من الخطر فى حالة اجتياز أية منطقة وذلك بفضل حماية الحكومة الأوربية ويكاد يكون أحسن ما أذكره عن تلك المناطق أن العناصر الهمجية القائمة فيها أصبح أفرادها يدركون أن الخطأ والجهل كل الجهل فى مقاومة تيـــار المدنية وان الخير كله فى التمتع بظل النهوض الحديث .

لننتقل فترة من التعميم الى التخصيص ونتساءل عن حقيقة الموقف الحالى فى السودان فنقول : ان النفوذ المصرى فى الشرق السودانى يسير سيرا بطيئا جدا لاسترداد ما كان له من أراض فى الجهات المجاورة لسواكن وطوكر ، أما فى الجنوب الشرقى فقد استولى الايطاليون على كسلا وأجبروا المهديين على اقامة خط دفاع قوى فى الشاطىء الغربى من نهر عطبرة .

نسير مسافة الى الجنوب فلا نجد فى الوقت الحالى رغبة بين الأحباش فى تغيير ما بينهم وبين الدراويش من علاقات قديمة. أما فى المناطق الجبلية التابعة لفازغلو والنيل الأزرق فقد جاهر السكان بعدائهم للخليفة ورغبتهم فى الابتعاد عن طاعته .

نتجه جنوبا مسافة طويلة أخرى الى منابع النيل فنجد حركة جديدة للنفوذ الانجليزى وليس ذلك غريبا . ففى تلك الجهات استطاع استنيك وجرنت وبيكى تخليد أسمائهم واسم أمتهم الانجليزية بما قاموا به من اكتشافات مجيدة ، كما أنهم اكتسبوا حب الأهالى بما بذلوه من مجهود ضد الرقيق وتجارته . ولا شك أن هذه الجهات ستتصل قبل مرور وقت طويل بشاطىء النيل بواسطة سكة حديد لا تساعد على فتح الجهات التى تجتازها فحسب بل ستساعد على ايجاد مخرج لتجارة الخط الاستوائى الجنوبى وما جاوره من الجهات

واذن للنفوذ الانجليزى أثر ظاهر هنا ، بعد ذلك نذكر ولاية الكنغو الحرة التى تمكنت فى السنوات القلائل الأخيرة ـ بفضل ما بذلته من مجهود عظيم ـ من ضم مقدار كبير من الأراضى الى نفوذها ٠

كان النفوذ الجديد لولاية الكنغو الحرة عظيما فلم يقتصر على مسيو مواو بانجى بل تعداه الى مناطق كثيرة من مديرية بحر الغزال وفى خط الاستواء حتى أن تلك الآية تمكنت من التقدم الى المكان المجـــاور لنفوذ الدراويش فى الرجاف الكائنة على وادي النيـــل ٠

فيما وراء ذلك النفوذ نجد على مقربة من أوبانجى العليـــا مساعى الفرنسيين وأحلامهم حيث يسعون السعى المتواصل فى سبيل تحقيق آمالهم فى تلك الناحية كما حققوها فى جهات مختلفة من القارة الافريقية ٠ اذا ذهبنا بعيدا الى الشمال الغربى وجدنا نفوذ الخليفة فى المناطر القائمة هناك محددا بعدد القبائل المختلفة التى سيصبح أفرادها قريبا أو بعد زمن طويل خاضعين بمحض ارادتهم للنفوذ الأوربى الممتد الى داخل أفريقيـــا من النـــاحيتين الغربيـــة والشمالية ٠

أما فى النهاية الشمالية فستقيم القوة المصرية التى بدأ الخليفة عبد الله يدرك خطرها ويثق أنها، (القوة المصرية)، ستكون أول من يتقـــدم للتدخل فى شـــئون امبراطوريته المضـــطربة المزعزعة الأركـــان ٠

من ذلك البيان الموجز نطلع على الموقف الحالى ـ من الناحية الدفاعية الهجومية ـ للمهدى فى السودان فانه كامل العدة ومتين الشهرة فى داخـــل أملاكه ومناطق نفوذه ، ولكنه مهدد من جميع الجوانب الخارجية وهو ازاء ذلك التهديد لا يملك ما يدفع به غارة

المجتاحين لأن التعب الذى يحكمه لا يخلص له بطبيعة الحال وقت الخطر والسبب فى ذلك معروف لدى القارىء وهو الرغبة فى التخلص من جور عبد الله بأية وسيلة ، وعندى قليل من الشك فى أن امبراطورية الخليفة ستتحطم ويتقلص ظلها قبل هجوم قوى أية دولة متمدينة .

اذن ما الذى يجب عمله ؟

هل تصبح مصر مرة أخرى الحاكمة الفعلية الحقيقية للبلاد التى كانت مصر سيدتها الشرعية ومالكتها قبل حكم المهديين ؟

هل تدرك وتفهم جيدا كل مملكة من الممالك المتمـــدينة ــ السائرة مجردة عن الهوى الى شواطىء النيل الصالحة للملاحة ــ ان الواجب يقضى عليها بعدم محاولة قطع أو مقاومة مصدر حياة مصر النائية بتحويل منافع الماء الراوية الى الأراضى التى تحصل عليها كل منهن ؟

هل تسعى الممالك المتمدينة سعيا شريفا فى كل ما يعملنه وتفكر كل على حدة فى أن الفضيلة تقتضى التجرد عن الهوى وعدم تعريض مصالح مصر للخطر ؟ هل ترضى كل مملكة رضاء المخلص الشريف بعدم التقدم لسفك الدماء وانفاق الأموال فى سبيل غير مشروعة كل ما فيها مكسب لا يجيء الا من اعتداء غير مشروع ؟

هل تدرك كل دولة أنه من غير اللائق أن تتدخل فى شئون مصر وحقوقها المشروعة ؟

تلك أسئلة ندخل فى دائرة السياستين العملية والتدريبية وقد لا يكون من عملى البحث فيها ومناقشتها والافصـــاح عن غوامضـــها .

ان كل ما أرمى اليه هو الافضاء بآرائى المجردة عن الهوى والتى يدفعنى الى تقريرها وازع من ضميرى يذكرنى دائما بأهمية وفائدة وقيمة السودان لمصر ، وانى أصرح بمناصرتى لذلك الرأى ودفاعى عنه بكل ما لى من قوة .

ان الأسباب التى دفعت محمد على الى امتلاك السودان منذ ثلاثة أرباع قرن (نذكر القارىء المصرى بأن سلاطين باشا كتب مؤلفه الذى نترجمه فى عام ١٨٩٥) كانت ولاتزال وستبقى وجيهة جدا ، ويكفى تلخيص ذلك فى أن النيل حياة مصر .

فالواجب اذن قائم فى حفظ وادى النيل من أى اعتداء واذن يجب على المسئولين أن ينظروا بعين اليقظة والحذر الى أى تقدم من جانب دولة أو دول أجنبية الى طريق النيل العظيم لأن الأمر الذى لا ريبة فيه ولا جدال هو أن انشاء مستعمرات على شواطىء النيل أمر عظيم الخطورة لأن الدولة المستعمرة فى تلك الناحية قد تغلب مصالحها الشخصية ومطامعها الجديدة على مصالح مصر وسعادة المصريين وتقدمهم ورخائهم .

اذكر من الصفحات الأخيرة من كتابى فى الفصل الأخير أنى أشرت فى مواضع متفرقة من مؤلفى الى الأهمية العظمى التى لبحر الغزال وقد لا يكون من التكرار ذكر ما لذلك الاقليم السودانى العظيم من أهمية وما له من شأن بالنسبة للسودان على وجه عـــام .

ان ذلك الاقليم (بحر الغزال) أخصب أقاليم الســودان ومساحته فى مجموعها من أكبر المساحات المنتجة وأعظم ما يمتاز به بحر الغزال أنه يستمد ماء ريه من مجموعة جداول ومجار مائية

على أنه فى كثير من نواحيه مغطى بالجبال والغابات التى تأوى اليها الأفيال . أما الوديان الواطئة فخاضعة لحكم الفيضان .

ان خصوبة تربة بحر الغزال تعد من الخيرات النادرة في السودان فمن السهل الحصول منها على كميات كبرى من القطن والمطاط . هذا الى كثرة ما فى البلاد من أغنام وماشية .

أما عدد السكان فأستطيع تقديره بما يتراوح بين خمسة وستة ملايين عدا . والكثيرون من أولئك يصلحون لحمل السلاح الا أن العداوات المستمرة بين رجال القبائل المختلفة تحول دون اى اتفاق عام بين السكان ، وذلك أكبر مساعد للدولة الأجنبية على التقدم للاقليم الكبير المذكور والحصول على نفوذ ظاهر فيه وانشاء قوة حربية داخلية فيه منحازة الى جانب تلك الدولة فمن السهل بطبيعة الحال اتحاد قوة موالية في منطقة عرفت باشتداد الشحناء بين أفرادها وتنافر رجال قبائلها المختلفين .

كل ذلك مما يغرى القوة الأجنبية الى التقدم ، ولكنى أعود فأذكر التقدم المجرد عن الهوى وعسانى أكون مغاليا فى توقع مثل ذلك العمل من أية دولة لا ترمى لغير شىء واحد هو مد نفوذهـــا وتوسيع سلطانها .

كانت مشراع الرق ميناء بحر الغزال منذ ظهر حكم المصريين فى السودان وقد اعتادت البواخر الصاعدة من الخرطوم اجتياز تلك الميناء فى فترات دورية كل عام، ولكنها فى بعض الأحيان كانت تتعطل فى طريقها لما يعترضها من الأعشاب العائمة التى كانت بين آن وآخر تسد طريق النيل الأعلى . عند الناحية الجنوبية من فاشودة مباشرة يخرج النيل من بقعة يظن أنها كانت مقر بحيرة قديمة .

تعترض ذلك السير الفسيح البطيء مجار مختلفة الجداول وأنهار وفي كثير من الأحايين تقف السدود في طريق السير السريع فكان المسافرون في كثير من الأحيان مضطرين الى قطع هذه السدود العشبية بالسيوف والفؤوس • ومما يذكر في هذا الصدد أن بعثة السر صموئيل بيكر تأخرت عاما كاملا عن انهاء مهمتها بسبب اعتراض تلك السدود (البعثة المذكورة استغرقت ما يقرب من أربعة أعوام من ١٨٧٠ الى ١٨٧٤) •

بالاطلاع على ما يقدم نجد مركز بحر الغزال من الوجهتين : الجغرافية والحربية ـ مع مقارنته بمراكز باقى أقاليم السودان ـ عظيم الأهمية ، واذن فوجود أية قوة أجنبية في السودان لا تنظر لغير مصالحها الشخصية ونزعاتها الاستعمارية أو بمعنى آخر لا يهمها بقاء المصالح المصرية في السودان سيجعل بقاءها (القوة الأجنبية) في مركز ممتاز يعرض مصر للخطر، بل أذهب الى أكثر من ذلك فأقول ان ذلك البقاء سيحول دون تحقيق رغبة المصريين في استرداد أقاليمهم الأولى التي فقدوها في السودان ، وفي حالة رجوع مصر الى السودان مع بقاء تلك القوة الأجنبية سيكون نفوذ مصر في خطر دائم . والسبب الرئيسي في كل ذلك هو أن القوة الخارجية التي ستدخل بحر الغزال أو تسيطر عليه ستكون صاحبة النفوذ المطلق هناك ، وسيظل تحت يدها كل مورد من موارد الخير في ذلك الاقليم الذي يعد من وجهة الرجال والمواد أكبر وأعظم أقسام وادي النيل .

تكلمت كثيرا في الصفحات السابقة عن كل ما أعرفه عن حركات ومطامع الأوروبيين في هذا الصدد ، وانى لا أستبعد أن أية محاوله حربيه من جانب دولة أوربية في سبيل الوصول الى النيل عن طريق مشراع الرق أو بحر الحمر أو بحر العرب ستلقى اعتراضا

كبيرا من جانب المهديين ، ولكن فى الوقت نفسه أقرر انه اذا حدث مثل ذلك الاعتراض وقابله نشاط من جانب القوة الاوربية الجديدة فالنتيجة المحتملة جدا هى ضياع مناطق المهديين من أيديهم .

لو أن الخليفة عبد الله على علم بأن الأوربيين « البيض » الموجودين فى بحر الغزال أقوى كثيرا مما يتصور وأكثر عددا وأعظم تدريبا مما يعرف عنهم بواسطة التقارير غير المضبوطة التى تقدم اليه بين آن وآخر ـ لو أنه على علم بذلك لما تردد فى مهاجمتهم قبل استفحال الخطر ، وفى تلك الحال يكون مضطرا الى ارسال مدد من جيوشه من أم درمان . وهذا العمل صعب وغير ميسور التنفيذ لأن احتياطى جنوده يكاد يكون معدودا ومنحصرا فى تقوية مواضع الخطر من عطبرة مقابل كسلا وفى مديرية دنقلة . هذا البيان الموجز يوضح لنا ضعف قوة الخليفة ويثبت ما أشرت اليه سابقا عن عدم تمكن عبد الله من أى وقوف فى وجه اعتداء خارجى ، ولا ريب أن مثل ذلك النفوذ معرض للضياع ومهدد بالتلاشى خصوصا اذا ذكرنا الى جانبه العداء الشديد الموجه من سكان البلاد الداخلية لحاكمهم عبد الله .

نعود الآن عودة سطحية الى الموقف الدرويشى فى دارفور وكردوفان فنذكر قبل كل شيء أن القوة الحـــالية للأمير محمود لا تتعدى بضعة آلاف من حاملى البنادق والضاربين بالرماح ، وأولئك على قلتهم ليســـوا فى بقعة واحدة ولكنهم موزعون فى مخافر الفاشر . أما محمود نفســـه فيقيم فى الفاشر مع القسم الأكبر من تلك القوة على أنه فى مناوشات دائمة مع قبائل دار حجر ومسالت وتاما وبنى حسين وحـــوتر وقبـــائل أخرى فى منطقتى كبكبيه وكلـــكوك .

لم يوفق الأمير محمود توفيقا متواصلا فى عمله وقد يرجع ذلك ـ الى حد ما ـ لقلة عدد المقاتلين معه أمام أعدائه الكثيرين ومهما

يكن من شيء فاني أذكر لتقرير الوقائع أن أخد كبار مساعدى محمود الحربيين واسمه فضل الله قد قتل أخيرا فى معركة هجومية وهزم جنوده المحاربون معه (وعددهم ستمائة) فى معركة حامية مع القبائل المعادية الثائرة . وانى أذكر جيدا أن الأوامر صدرت - فى الوقت الذى غادرت فيه أم درمان - الى الأمير محمود بارسال قوة لتأديب الثوار من الفاشر، والظاهر أن هذه القوة نجحت نجاحا جزئيا عوض شيئا من الخسارة السالفة الذكر التى منى بها الدراويش .

قد يحسن بى أن أذكر كلمة سطحية عن القبائل المذكورة المعادية لنفوذ المهدى فأقول : انها من الوجهة الظاهرية الصورية مستقلة أى أن استقلالها اسمى ولكنها فى الواقع تدين بشيء من الطاعة الى سلطنة واداى . وأفراد القبائل المذكورة يبدون فى الوقت نفسه على شيء كثير من الولاء لأصحاب النفوذ فى سلطنة واداى ، واذن من الخطأ الواضح أن يعتقد معتقد - كما شاع بين الكثيرين من الأوربيين وغيرهم فى السودان وخارجه - أن أولئك الثائرين كانوا عاملين تحت قيادة رابح الزبير . لأن هذا الزعيم السودانى (رابح) شديد العداء لواداى ولن يسمح بأن يكون المؤتمرون بأمره على شيء - ولو قليلا جدا - من الولاء لواداى . وعلاوة على ذلك فان نفوذ رابح هذا لا يمتد فى مسافته الى الناحية الشرقية والمعروف والمحقق أنه (نفوذه) قائم فى الأقسام الواقعة الى جنوبى وغربى بحيرة تشاد .

على تلك الحال كانت الشئون جارية فى تلك المناطق الجنوبية والغربية عندما غادرت السودان . ولم أكد أصل الى البيئة المتمدينة حتى قرأت فى الصحف تقارير وأنباء غريبة ومتناقضة فى بعض المواضع عن الحال فى الاقليم المذكورة .

تكلمت كثيرا عن احتمـــال تقلص ظل الامبراطورية المهدية وتلاشي نفوذها في الوقت الذي تتقدم فيه دولة متمدينة الى قلب السودان ولكنى بخبرتى الواسعة فى السنين التى قضيتها فى قلب النفوذ الدرويشى أتقدم بمحض الاخلاص بكلمة تحذير الى الأمة التى قضيت السـنين الطوال فى الاشادة بذكرها وطلب التقدم المستمر لها ، وبمعنى آخر أريد التقدم بالنصيحة الى الأمة التى دعوت لها بحياة ناهضة سعيدة ازاء تجديد عهد السودان المصرى •

انى أذكر لها فى ايجاز كلى أن المد والجزر لن ينتظرا انسانا كما أنهما فى بعض الأحيان لن يتركا فرصة البقاء لانسان .

أريد فى ختام مؤلفى أن أكون أكثر صراحة فأقول ان مصر التى تطلعت وتتطلع الى استرداد ما فقدته فى السودان من يدى الخليفة قد تقف فى سبيلها أمة أخرى لا تكتفى باستخلاص المناطق من يدى الخليفة بل تعمد الى عرقلة المساعى المصرية والى ادخال وسائل الرى الهندسية فى الجهات التى تستمد منها مصر حياتها المائية وفى ذلك خطر جسيم على مصر لأن الدولة الجديدة صاحبة الوســائل الهندسية ستنظر الى خيرها أولا فتهدد مصر تهديدا ظاهرا • واذن ـ وهذا أخف الضررين وأهون الشرين ـ ستحرم الدولة الجديدة صاحبة الحق القديم من خيرات التجارة الواسعة التى كانت ـ تحت ادارة طيبة فى السودان ـ مصدر ثراء ونهوض للقطر المصرى صاحب الحق الشرعي ولكل أقاليم النيل المنضوية تحت لواء مصر .

بهذه الكلمات القليلة الصادرة عن اخلاص شديد نحو الأمة التى عدت اليها بعد اثنى عشر عاما من سنى الأسر الشديدة على النفس ـ أتقدم فى ختام مؤلفى الى مصر ولكنى قبل الختام أشير

الى حادثة واحدة قد تساعد على رد ما فقدته مصر من حيث الأمل في الاسترداد . عندما أجبرت في شهر ديسمبر عام ١٨٨٣ على الخضوع والتسليم لرجال المهدى كنت معتزا بسيف نفيس من سيوف الوطن النمساوى وقد حفرت عليه بحروف عربية اسمي كاملا غير منقوص في تفاصيله ولكنني حرمت مع الأسف حق حمل ذلك السيف وبالتالى وقع بين ايدي رجال المهدى وبطبيعة الحال لم أفكر لحظة واحدة في استرداد ذلك السيف العزيز ولكني عندما ذهبت الى لندن في شهر أغسطس عام ١٨٩٥ لحضـــور المؤتمر الجغرافى تسلمت هذا السيف بواسـطة المســتر جون كوك أحد رؤساء شركة كوك وكان ذلك في مكتبه في لدجيست سركس . وقد ظهر لى أن المستر جون كوك اشترى ذلك السيف من وطنى في الأقصر عام ١٨٩٠ عنـدما كان مارا بباخـرته في شاطىء النيل عند اسوان . فقد شغف المستر جون باقتناء الســيف لوجود الاسم العربى المحفور عليه وبعد أن تم شراؤه تمكن بواسطة صـديقى الماجور ونجت من الوقوف على صاحب الاسم المحفور وهو بطبيعة الحال اسمي .

ويخيل لى أن المهدى قدم سيفي هدية لأحد أتباعه الذين اشتركوا في الحرب على مصر تحت قيادة النجومى في عام ١٨٨٩ وأنه عندما تغلب الجنرال سر فرنسيس جرنفيل على النجومى في توسكي وقع حامل سلاحي بين المقتولين أو الأسرى وبعد ذلك أخذ أحد أفراد توسكى ذلك السلاح ثم سار به الى مصر ووجد بحكم المصادفة في الأقصر أثناء مرور المستر جون كوك الذى تمكن من ابتياعه كأثر عربى .

ان فقد السلاح في مجاهل دارفور ثم الحصول عليه في قلب لندن أمر مدهش جدا وهو فوق المصادفات العادية . واذن لا قنوط

ولا يأس فقد ترجع الأقاليم التى فقدت الى يدى صاحبها القديم رجوعا لم يكن يخطر على بال .

عشت فى خلال الأعوام الستة عشر الأخيرة عيشة مدهشة لا يكاد يتصورها العقل وقد سعيت جهدى فى أثنائها الى الحصول على اختيارات واسعة من أبسط عيشة فى أيامى العادية البعيدة عن مظاهر لها كافة .

شرحت لقرائى فى الفصول السابقة كل ما حدث لى على أبسط صورة ، ولست أرمى من وراء ذلك الى توليد الاهتمام والشعور بالخطر فى قلوب المهتمين بالاسارى الأوربيين فى السودان فحسب ، ولكننى قصدت أكثر من ذلك أن تكون لتفاصيل أهمية كبرى عندما يجد وقت العمل وعندما يبحث العاملون بحثا جديا فى خلاص المغلوبين على أمرهم ، وعندما يسمح الله باستخدام معلوماتى ومجهوداتى فى سبيل ابادة الظلم الدرويشى وازالة حكم سيدى الجائر وعدوى عبد الله الذى سيظل ألد أعدائى طول الحياة التى أحياها فى الدنيا .

بعد أن يزول ذلك العهد الجائر أدعو الى تأسيس الحكومة العادلة التى تمنيت كثيرا ظهورها فى السودان ، فبذلك يزول الظلم ويحل العدل والهدوء فى اقليم كبير محتاج الى المدنية الهادئة .

تم الكتاب

فهـــــــرس

صــدر فى هــذه السلسلة :

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ .
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ـ على ماهــر .
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة .
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ـ غارات أوروبا على الشواطئ المصرية فى العصور الوسطى .
علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ .
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧

٧ ـ صــلاح الدين الأيوبى .
د. عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية .
د. على بركات ، ١٩٨٧

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل .
د. محمد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية .
محمود فوزى ، ١٩٨٧

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية .
شكرى القاضى ، ١٩٨٧

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير .
د. نبيل راغب ، ١٩٨٨

١٣ ـ اكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية .
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية .
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى .
د . على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ ـ ١٩٥٢) .
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى .
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية .
د. على السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين .
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ـ دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى .
د. محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ .
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٢ ـ **نظرات فى تاريخ مصر ٠**
جمال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ـ **التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢ ، امام التصوف فى مصر : الشعرانى ٠**
د٠ توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٤ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ٠**
د٠ نجوى كامل ٠ ١٩٨٩

٢٥ ـ **المجتمع الاســــلامى والغرب ،**
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩

٢٦ ـ **تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،**
د٠ سعيد اسماعيل على ، ١٩٨٩

٢٧ ـ **فتح العرب لمصر ، ج ١ ،**
تأليف : ألفريد ج ٠ بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٨ ـ **فتح العرب لمصر ، ج ٢ ٠**
تأليف : ألفريد ج ٠ بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٩ ـ **مصر فى عصر الاخشيديين ،**
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

٣٠ ـ **الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،**
د٠ حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٩

٣١ ـ **خمسون شخصية مصرية وشخصية ،**
شــــكرى القاضى ، ١٩٨٩

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د. خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩ .

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،
د. يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠

٣٦ ـ المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،
تاليف : هاملتون بووبن : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠ .

٣٩ ـ قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠

٤١ ـ محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١

٤٢ ـ تكوين مصر عبد العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠

٤٣ ـ رحلة فى عقول مصريه ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠

٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١

٤٥ ـ الحروب الصليبيه ، ج ١ ،
تاليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم : د. حسن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ـ ١٩٥٧) ،
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث ،
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١

٤٨ ـ الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى .
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١

٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ـ ١٩٧٩) ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ،
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٣

٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، فى ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٢ ـ **مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر ،**
د٠ الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ـ **أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،**
د٠ محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ـ **الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د٠ محمد عفيفى ، ١٩٩٢

٥٥ ـ **الحروب الصليبية ج ٢ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د٠ حسن حبشى ، ١٩٩٢

٥٦ ـ **المجتمع الريفى فى عصر محمد على : دراسة عن اقليم المنوفية ،**
د٠ حلمى أحمد شلبى : ١٩٩٢

٥٧ ـ **مصر الاسلامية واهل الذمة ،**
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ ـ **أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة ،**
د٠ ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣

٥٩ ـ **الرأسمالية الصناعية فى مصر ، من التمصير الى التأميم (١٩٥٧ ـ ١٩٦١) ،**
د٠ عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ ـ **المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣

٦١ ـ **تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،**
د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ج ٣ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣

٦٣ – **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،**
تاليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور . وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣ .

٦٤ – **مصر وحقوق الانســـان ، بين الحقيقة والافتراء دراســة وثائقية ،**
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ – **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ – ١٩١٧)**
سهام نصــــار ، ١٩٩٣

٦٦ – **المرأة في مصر في العصر الفاطمي**
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

٦٧ – **مساعي السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،**
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، في ابريل ١٩٩٣) أعدهــا للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ – **الحروب الصليبية ، ج ٣ ،**
تألبــف : وليم الصــــوري ، ترجمة وتعليــق : د. حسن حبشي ، ١٩٩٣

٦٩ – **نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية (١٨٨٦ – ١٩٥١)،**
د. محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ – **أهل الذمة في الاســـلام ،**
تأليف : أ. س. ترتون ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشي، ط ٢ ، ١٩٩٤

٧١ ـ مذكرات اللورد كلين (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د· عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٤

٧٢ ـ رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ) ،
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤

٧٣ ـ تاريخ جامعة القاهرة ،
د· رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤

٧٤ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، جـ ١ ، فى العصر الفرعونى
د· سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤

٧٥ ـ اهل الذمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الأول ،
د· سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

٧٦ ـ دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الاحتلال البريطانى) ،
د· سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥

٧٧ ـ الحروب الصليبية ، جـ ٤ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د· حسن حبشى ، ١٩٩٤

٧٨ ـ تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ ـ ١٨٩٩) ،
نعمات أحمد عتمان ، ١٩٩٥

٧٩ ـ تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دى يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٥

٨٠ ـ قناة السويس والتنافس الاستعمار الأوربى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ،
د· السيد حسين جلال ، ١٩٩٥

٨١ ـ تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى نصر اكتوبر ،
د. رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ـ مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونيــة ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ـ مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ـ مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥

٨٥ ـ تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢) ،
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ ـ تاريخ التجــارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصـــادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ،
د. أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

٨٧ ـ مذكـرات اللورد كلين ، ج ٢ ، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ ـ التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥

٨٩ ـ تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ ـ معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

٩١ - **تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،**
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمي الجمال ، ١٩٩٦

٩٢ - **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ج ٢ ،**
نجوى كامل ، ١٩٩٦

٩٣ - **قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،**
د. نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ - **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ، ج ٢ ،**
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ - **مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدها للنشر د. عبد العظيم رمضان

٩٦ - **عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،**
تاليف : مالكولوم كير ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو

٩٧ - **العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،**
د. ايمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ - **هيكل والسياسة الأسبوعية ،**
د. محمد سيد محمد

٩٩ - **تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى - الرومانى) ج ٢ ،**
د. سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،**
أ٠ د٠ عبد العزيز صـــالح ، أ٠ د٠ جمال مختـــار ،
أ٠ د٠ محمد ابراهيم بكر ، أ٠ د٠ ابراهيـم نصـحى ،
أ٠ د٠ فاروق القاضى ، أعدها للنشر : أ٠ د٠ عبد العظيم
رمضـــان

١٠١ ـ **ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،**
اللواء / مصطفى عبد المجيد نصـير ، اللواء / عبد الحميد
كفافى ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ ـ **المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢ ،**
د٠ تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ **رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره ،**
د٠ على بركات

١٠٤ ـ **تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢) ،**
د٠ فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ـ **السلطة السياسية فى مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ ـ ١٩٨٧) ٠**
د٠ أحمد فارس عبد المنعم

١٠٦ ـ **الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ، ج ٢ ،**
د٠ سليمان صـــالح

١٠٧ ـ **الأصولية الاسلامية فى العصر الحديث ،**
تاليف : دليب هيرو ، ترجمـة : عبد الحميد فهمى الجمال

١٠٨ ـ **مصر للمصريين ، ج ٤ ،**
سليم خليل النقاش

١٠٩ ـ **مصر للمصريين ، ج ٥ ،**
سليم خليل النقاش

١١٠ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الاسـلامية (عصر سلاطين المماليك) ، ج ١ ،
د. البيومى اسماعيل الشربينى

١١١ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الاسـلامية (عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ،
د. البيومى اسماعيل الشربينى

١١٢ ـ اسماعيل باشا صدقى ،
د. محمد محمد الجوادى

١١٣ ـ الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى) ،
د. اسماعيل عز الدين

١١٤ ـ دراسات اجتماعية فى تاريخ مصر ،
أحمد رشـدى صالح

١١٥ ـ مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٣ ،
أحمد شفيق باشا

١١٦ ـ أديب اسحق (عاشق الحرية) ،
عـلاء الدين وحيـد

١١٧ ـ تاريخ القضـاء فى مصر العثمانية (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى

١١٨ ـ النظم المالية فى مصر والشـام زمن سلاطين المماليك ،
د. البيومى اسماعيل

١١٩ ـ النقابات فى مصر الرومانية ،
حسين محمد أحمد يوسف

١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصرى الحديث
لويس جرجس

١٢١ ـ معركة الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ ـ ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوى

١٢٢ ـ مصر للمصريين جـ ٦
سليم خليل النقاش
١٢٣ ـ السيد احمد البدوى
د٠ سعيد عبد الفتاح عاشور
١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن
د٠ محمد نعمان جلال
١٢٥ ـ مصر للمصريين جـ ٧
سليم خليل النقاش
١٢٦ ـ مصر للمصريين جـ ٨
سليم خليل النقاش
١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨)
ابراهيم محمد محمد ابراهيم
١٢٨ ـ معـــارك صــحفية
جمـال بـدوى
١٢٩ ـ الدين العـام (وأثــره فى تطــور الديـن المصرى)
(١٨٧٦ ـ ١٩٤٣)
د٠ يحيى محمد محمود
١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ ـ ١٩٩٧)
سمير فريد
١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨)
تاليف جايل ماير ، ترجمة عبد الرءوف أحمد عمر
١٣٢ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ ١ ،
د٠ ماجدة محمد حمود
١٣٣ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ ٢ (١٩١٤ ـ ١٩٢٤)
د٠ ماجدة محمد حمود

١٣٤ ـ الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى
مخطوطة « ضيا نامة » للدار ندلى
بقلم/ عزت حسن أفندى الدار ندلى
ترجمة/ جمال سعيد عبد الغنى
١٣٥ ـ اليهود فى مصر المملوكية فى ضوء وثائق الجنيزة
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ /١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د٠ محاسن محمد الوقاد
١٣٦ ـ اوراق يوسف صديق
تقديم أ ٠ د ٠ عبد العظيم رمضان
١٣٧ ـ تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى
د ٠ محمد عبد الغنى الأشقر
١٣٨ ـ الاخوان المسلمون
وجذور التطرف الدينى والارهاب فى مصر ـ السيد يوسف
١٣٩ ـ موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين
محمد قابيل
١٤٠ ـ سياسة مصر فى البحر الأحمر ٠
فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ـ طارق
عبد العاطى غنيم ٠
١٤١ ـ وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك
لطفى أحمد نصار ٠
١٤٢ ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ ٤
أحمد شفيق باشا ٠
١٤٣ ـ دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق٠م٠
د ٠ منيرة محمد الهمشرى ٠
١٤٤ ـ كشوف مصر الافريقية
فى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ـ
د٠ عبد العليم خلاف ٠

١٤٥ ـ النظام الادارى والاقتصادى فى مصر
فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) ـ
د • منيرة محمد الهمشرى •

١٤٦ ـ المراة فى العصر المملوكى
د. احمد عبد الرازق

١٤٧ ـ حسن البنا (متى •• كيف •• ولماذا ؟)
د. رفعت السعيد

١٤٨ ـ القديس مرقس وتاسيس كنيسة الاسكندرية
تاليف / د. سمير فوزى
ترجمة / نسيم مجلى

١٤٩ ـ العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر
حسام محمد عبد المعطى

١٥٠ ـ تاريخ الموسيقى المصرية أصولها وتطورها
د • سمير يحيى الجمال

١٥١ ـ جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة
السيد يوسف

١٥٢ ـ الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د • محاسن محمد الوقاد

١٥٣ ـ الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
د • علية عبد السميع الجنزورى

١٥٤ ـ هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الاسلامية فى العصور الوسطى
د. علية عبد السميع الجنزورى

١٥٥ ـ عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر ١٨٠٥ ـ ١٨٨٣
د. عبد الحميد البطريق

١٥٦ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الثالث فى العصر الاسلامى
د. سمير يحيى الجمال

١٥٧ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الرابع فى العصر الاسلامى والحديث
د. سمير يحيى الجمال

١٥٨ ـ نائب السلطنة المملوكية فى مصر (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د . محمد عبد الغنى الأشقر

١٥٩ ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ م) الجزء الأول
د. محمد فريد حشيش

١٦٠ ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ م) ج ٢
د. محمد فريد حشيش

١٦١ ـ السيف والنار فى السودان تأليف سلاطين باشا

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٥٤٦/١٩٩٩
ISBN — 977 01 — 6516 — 6

هذا الكتاب تنبع أهميته من أنه وثيقة نادرة، وهى من أهم الوثائق التى نشرت عن الحوادث التاريخية التى جرت فى مصر والسودان فى فترة السيطرة المهدية على السودان، وقد كتبه ضابط نمساوى، هو سلاطين باشا الذى كان حاكماً لدار فور عام ١٨٨٤ واعتقلته جيوش المهدى، فادعى الإسلام، وفر إلى الجيش المصرى واشترك فى استرداد دنقلة وأم درمان، وعمل موظفاً فى خدمة حكومة السودان حتى عام ١٩١٤ حين نشبت الحرب العالمية الأولى، فترك الخدمة وعاد إلى النمسا، وعندما عقدت الهدنة سنة ١٩٤٨ أنتدب عضواً فى بعثة مؤتمر الصلح فى باريس.

٤٩٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب